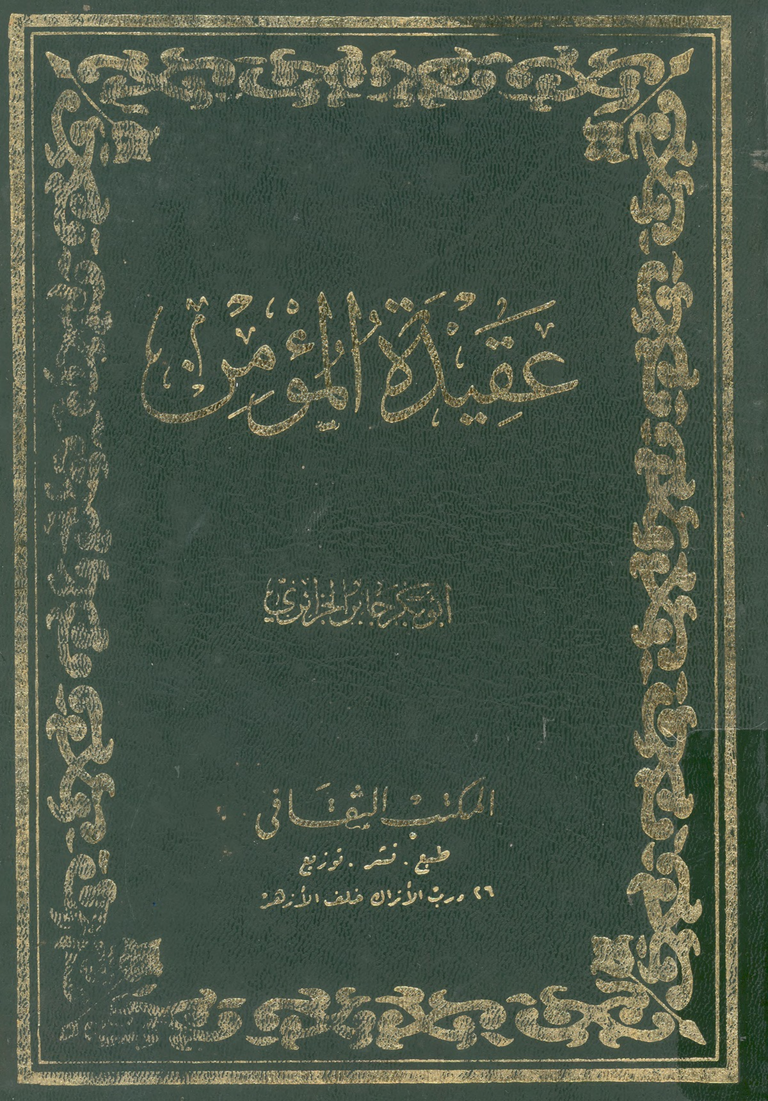
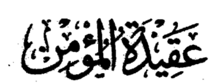

عقيدة المؤمن
أبو بكر جابر الجزائري
المكتب الثقافي
طبع . نشر . توزيع
٢٦ درب الأتراك خلف الأزهر


عقيدة المؤمن

عقيدة المؤمن

كتاب يبحث العقيدة الإسلامية على ضوء الكتاب
والسنة ويجلي حقائقها بأسلوب علمي ميسر
واضح، على أساس من البراهين الصادقة التي
تقوم على الأدلة المنطقية والنقلية الشرعية

تأليف

أبو بكر جابر الجزائري



المقدمة

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، شرف آدم أبا البشر بخلقه بيديه ، ونفخ فيه من روحه . وكرّم ذرّيته فصورهم في الأرحام في أجمل صورة وخلقهم في أحسن تقويم .

ورزقهم من الطيبات ، وفضلهم على كثير من المخلوقات ، وزوّدهم بالعقل ليعرفوه وأمدهم بالنعم ليذكروه ، ويشكروه .

أنزل الكتب ، واصطفى من الملائكة رسلا ، ومن الناس ، لابلاغ عباده شرائعه من الدين ، ليعبدوه ويوحّدوه ، فتكمل بذلك آدميتهم ، وتشرُف به إنسانيتهم ويتأهلوا لكرامة الدّار الأخرة ، والسعادة الدائمة فيها ، حيث كتب لهم ذلك وقدّره تقديرا . فسبحانه من رب رحيم ، وإله عظيم ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

والصلاة والسلام التّامان ، الأكملان ، الدائمان ، المتلازمان على محمد حبيب الله ، وخاتم رسله وأنبيائه ، صفوة الخلق وخيرتهم ، وإمام الأنبياء وسيدهم ، صاحب لواء الحمد ، والمقام المحمود ، والحوض المورود ، وسيد كل مولود . وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين ، وآل بيته الطيبين الطاهرين ، وصحابته البررة الراشدين . ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد : فإنّه نظراً لأهمية العقيدة الإسلامية في حياة الفرد

المسلم وضرورة خلوّها من الشك ، وسلامتها من شوائب الشرك ، ونقائها من كدورات[1] الخرافات .

ونظراً إلى الهزّات العنيفة القوية التي تتعرض لها العقيدة الإسلامية في هذه الأيام من جراء طغيان المادة من جهة ، ومن طفرة العلوم الكونية المادية من جهة أخرى .

نظراً إلى هذا وذاك فقد رأيت أنّ الحاجة جدّ ماسة إلى وضع كتابٍ مناسبٍ في عقيدة المؤمن على ضوء كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، على أن يكون سهل العبارة ، قريب الإشارة . حججه قوية ، وأدلته قطعية ، مضاءً بضياء الأدلة السمعية الدينية الشرعية ، مناراً بأنوار الحجج العقلية النظرية القياسية .

كما رأيت أني أقترب من شاطىء نهاية حياتي ، وأتقدم بسرعة نحو باب مماتي ، ورجوت ربي أن لا يأتيني أجلي إلا بعد أن تقضى لُباناتي[2] في وضع الكتاب المطلوب ، وتركه بعدي صدقة جارية ، وحسنة سارية ، يصلني من بركتها ما يزيد في نعيمي إن كنت من المنعمين ، أو ما يخفف عني عذابي إن كنت من المعذّبين .

واستعنت بالله تعالى على وضع الكتاب المرغوب ، وأخذت في الجمع والتأليف ، وفي التحرير والتحبير ، ولم يمض طويل زمن حتى تم وضع كتاب في عقيدة المؤمن على ضوء الكتاب والسنة وجاء كما أملت سهل العبارة ، قريب الإشارة ، حججه قوية ، وأدلته قطعية .

غير أن كثرة الأعمال ، وانشغال البال قد حالت ـ مع الأسف ـ دون التنقيح وإن لم تحل دون التصحيح ، فمعذرة إلى الأخوة القارئين

---

(١) الكدورات جمع : كدورة . وهي الكدر الذي هو ضد الصفاء . .

(٢) اللبانة بالضم : الحاجة .

إن رأوا تقديم ما حقه التأخير ، أو تأخير ما حقه التقديم . أو زيادة كلمة في جملة ، أو نقصها من أخرى : فأخلّ ذلك بجمال التركيب ، أو حسن الترتيب فأفقد الكلام طلاه ، والأسلوب حلاه .

هذا والكتاب لو لم أكن جامعه ، ومؤلفه لقلت فيه ما يرغّب في اقتنائه ويبعث النفس على شرائه .

وهذا أراه غير مانعي من أن أقول فيه كلمة تقويم ، لا تعظيم ولا تفخيم ، تحدد معالمه ، وتظهر محاسنه ، وتبين ما فيه من خصائص ، وما له من مميزات . وهل في ذكر ذلك من بأس إذا كان يحمل الأخوة المؤمنين على قراءة الكتاب ، واعتقاد ما فيه من الحق والصواب ؟ لا سيما وأني ما كتبته إلا لهم وما جمعته وألفته إلا لعلمي بحاجتهم الأكيدة إليه ، وافتقارهم الشديد إلى مثله ، إذ هم يعيشون في زمن أصبح من الصعب فيه قراءة كتب الأولين ، والاستفادة منها ، وذلك لعوامل كثيرة من أهمها ما يلي : -

أولاً : ضعف الملكة العلمية التي يتأتى بها للقارىء أن يفهم ما يقرأه ، ويستفيد منه ما هو في حاجة إليه من تصحيح معتقد ، أو فهم حكم ، أو تحقيق مطلب .

ثانياً : قلة العلماء الدارسين لكتب الأولين ، المحققين لها ، العالمين بما فيها ، الذين يرجع إليهم الطالب اليوم فيما خفى عنه منها ، أو أشكل عليه فيها .

ثالثاً : انعدام الهمم العوالي (إلا ما شاء الله) ، تلك الهمم التي كانت تحمل أصحابها على الصبر في الطلب ، وعلى المثابرة في الدّرس حتى يلين الصّلب ، ويسهل الصعب ، فتنكشف مخدّرات المعاني ، وتتجلى شمس العلوم والمعارف .

رابعاً : ما طبع به العصرُ اليوم أهلَه من حُب العجلة والعاجلة ، والرّغبة عن الأجلة[1] والآجلة والعلم من شروط اكتسابه ، والحصول عليه : الصبر والأناة والرغبة فيما عند الله .

هذه بعض العوامل التي جعلت الحاجة إلى مثل هذا الكتاب الذي نقدّم له حاجة ماسّة ، والعمل في تأليفه وإخراجه من الأعمال الصالحة النافعة[2].

والآن فإلى كلمة تقويم[3] الكتاب حيث أقول :

إنّ هذا الكتاب الذي سمّيته « عقيدة المؤمن » هو بحق - حاوٍ لعقيدة المؤمن ، مشتمل على أصولها ، جامع لفروعها ، لم يترك من أصول العقيدة ما يخلّ بها ، ولم يغفل من فروعها ما يضعفها أو يوهنها ، فقد اشتمل على الإيمان بالله تعالى ،وأدلته ومراتب المؤمنين فيه ، وعلى توحيد الله تعالى ، وأقسامه ، وعلى الشرك وأنواعه ومظاهره ، وعلى بيان الوسيلة والتوسل ، والشّفاعة والاستشفاع ، وعلى أولياء الرحمن وكراماتهم ، وأولياء الشيطان ومهاناتهم ، وعلى الإيمان بالملائكة وأدلة وجودهم العقلية والسمعية ، وعلى بيان مراتبهم وأعمالهم وأحوالهم ومادة خلقهم ، وعلى ذكر الجن ومادة خلقهم ، وعلى ذكر أحوالهم وأعمالهم ، ومآلهم ، وعلى ذكر الشياطين وما جبلوا عليه ، وما يحفظ الإنسان منهم ، وينجيه من كيدهم .

وعلى الإيمان بالكتب الإلهية المنزلة ، ومن نزلت عليهم وأدلة ثبوتها ، وبيان عددها ، وناسخها ، ومنسوخها ، وعلى الإيمان بالرسل

(١) الأجلة : المتأخرة قال صاحب القاموس المحيط : أجل كفرح فهو أجل وأجيل تأخر . والعاجلة الدنيا ، والأجلة الآخرة .

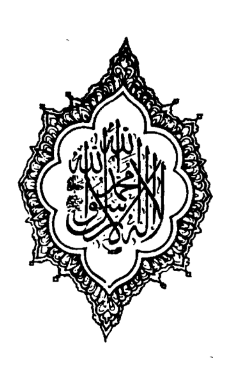
(٢) أي المتعدي نفعها إلى غير عاملها .

(٣) أي بيان قيمة الكتاب المعنوية ، ومن اللحن الشائع قولهم : تقييم كذا بمعنى تقويمه .

عليهم الصلاة والسلام ، وبيان عددهم وأسمائهم ، وأسماء أممهم ، وبيان ديارهم وأزمنتهم ، وعلى أعاظمهم وهم أولو العزم ، وعلى أدلة الوحي وثبوته بالأدلة العقلية والسمعية ، وحاجة الناس إلى الوحي الإلهي ، وعدم استغنائهم عنه بحال من الأحوال .

وعلى المعاد ، والبعث ، والجزاء وإمكان ذلك ، ووجوب الإيمان به ، وعلى كيفية البعث وأحوال الناس فيه ، وما يجري عليهم ، ويطرأ لهم من وزن أعمالهم وعبورهم على الصراط ، ونجاة الناجين ، وهلاك الهالكين ، وعلى ذكر دار السلام وما فيها من نعيم مقيم ، وعلى ذكر دار البوار وما فيها من جحيم وحميم ، وعلى الإيمان بالقدر وأدلة وجوب الإيمان به العقلية القياسية ، والدينية الشّرعية ، وعلى ذكر الجبر والاختيار ، والإرادة والمشيئة . والهداية والإضلال ، والحسنة والسيئة .

وعلى خاتمة في بيان ثمرة هذه العقيدة ، وفائدتها المقصودة منها ، والمتوخاة فيها . ومن خصائص هذا الكتاب احتواؤه على كل أجزاء العقيدة الإسلامية ، وبحثها بالتفصيل ، ومن مميزاته جمعه في إثبات مسائله بين الدّليلين العقلي والسمعي ، وكتابته بروح العصر . والله أسألُ أن ينفع به من يقرأه ويدرسه ، وأن لا يحرمني أجر ما بذلت فيه من جهد هو من فضل ربي عليّ وإكرامه لي . والحمد لله ربّ العالمين .



حاجة الإنسان إلى العقيدة وضرورتها له

ما هو الإنسان ؟

الإنسان هو هذا الكائن الحيُّ المتصبُ القامة ، البادي البَشرةِ ، ذو العقل والتفكير والأخلاق الفاضلة ، والعواطف الجيَّاشة ، والإحساسات الصادقة ، والمنطق السليم ، والكلام الفصيح المبين . ابتدأ الله تعالى خلقه من طين ، ثم جعل ذريته من سلالةٍ من ماءٍ مهين ، إذ خلق آدم من طين بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، وخلق منه أنثاهُ حوّاء ، وعلمه الأسماء ، وأسجَد له ملائكة السماءِ ، فسجدوا كلهم أجمعون إلا أبليس أبى . ونهاه عن الأكل من الشجرة فنسيَ ، فأكل منها ، فعصى وغوَى ، وتلقى كلمات منه تعالى ، فقالها فتاب عليه وهَداه ، وأهبطه إلى الأرض خليفةً فيها بعد أن هيأها له ، وسخَّر له كلَّ ما فيها .

هذا هو الإنسانُ في معتقدِنا ، وهو ـ أي معتقدنا هذا في الإنسان ـ مستقى من وحي السماء لا مجال فيه للقياس ولا للنظر والاستدلال ، إذ مثله لا يُعلم بغير الوحي أبدا .

وهذه حقوقه عندنا : حرمةُ دمه ، وماله ، وعِرضه ، واحترام مشاعره وعواطفه وأخلاقه ، والاعترافُ بحرياته الشخصية ما لم يخلّ بكرامته ، ومصالح الهيئة الاجتماعية التي هو أحد أفرادها ، وجزء من أجزائها .

وأدلة عقيدتنا هذه في الإنسان هي أخبار خالقه عنه ، وعن كيفيةِ خلقه وتنشئته ، الواصلةُ إلينا من طريق يحيل العقلُ البشريّ تكذيبها وإنكارَها وهي

أقوالُهُ تعالى ، في كتابه الكريم : القرآن العظيم ، إذ قال تعالى في خلق آدم ،

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (١)

وقال عنه أيضاً :

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ (٢)

وقال عنه أيضاً :

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ (٣)

وقال في خلق ذريته :

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ ، (٤)

وقال في خلق الإنسان الذي هو ابنُ آدم :

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ (٥)

وقال في خلقه أيضاً :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى

---

(١) سورة الحجر (٢٦) .

(٢) سورة ص الآيتان (٧١ ، ٧٢)

(٣) سورة السجدة الآية (٧)

(٤) سورة السجدة الآية (٨) .

(٥) سورة الإنسان الآية (٢) .

قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[1]

وقال : في خلق المرأة الأولى حواء :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[2]

وقال عنها أيضاً :

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[3]

وقال في تعليمه ـ آدم ـ الأسماء والبيان :

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[4]

وقال :

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[5]

وقال في خلقه ـ آدم ـ بيديه وتسويته له ، وإسجادِ ملائكته له :

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ

---

(١) سورة المؤمنون الآيات (١٢ ـ ١٤) .

(٢) سورة النساء الآية (١) .

(٣) سورة الأعراف الآية (١٨٩) .

(٤) سورة البقرة الآية (٣١) .

(٥) سورة الرحمن الآية (١ ـ ٤) .

مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ [1]

وقال في نهيه ـ آدم ـ عن الأكل من الشجرة التي أكل منها بتغرير من الشيطان فعصى وغوى :

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [2]

وقال تعالى :

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [3]

---

(١) سورة ص الآيات (٧١ ـ ٧٦) .

(٢) سورة طه الآية (١١٥ ـ ١٢٣) .

(٣) سورة البقرة الآية (٣٧) .

وقال في بيانِ هذه الكلمات من سورة الأعراف :

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

وأقوال رسوله ﷺ التي تلقاها وحياً من ربّه سبحانه وتعالى فقد روى مسلمٌ في صحيحه عنه ﷺ قوله : خُلِقَتْ الْمَلائِكَةُ مِنْ نُوْرٍ ، وخلِقَ الجانُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وخلِقَ آدمُ مما وُصِفَ لَكُمْ »[٢] يعني ﷺ وخلق آدم من طين . كما بين ذلك في القرآن الكريم ، وقال ﷺ في رواية البخاري ومسلم يَجتمعُ المؤمنون يومَ القيامة فيقولون : ألا تَنْظُرُوْنَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إلى رَبِكُمْ ؟! فَيأتُونَ آدمَ عَلِيهِ السَّلامَ فَيقَولُونَ : أَنْتَ أَبُوْ البَشرِ خلقَكَ الله بيدِه ، وَنَفخَ فيكَ مِنْ رُوْحِهِ ، وَأَمَرَ الملائِكَةَ فَسَجدُوْا لَكَ . إلخ[٣] . . . والشاهدُ منه في قوله ﷺ خلقَكَ الله بيدِه . فلو لم يكن خَلقهُ خلقاً مباشِراً ، وإنما كان كخلقِ سائرِ الناس لما كان لذكر اليدِ والخْلقِ أيُّ ميزة ، أو فضيلةٍ على خلقِ غيرِه من بني آدم . وقال ﷺ في رواية البخاري ومسلم وأحمد واللفظُ له : إحتجَّ آدمُ وَمُوسَىٰ فَقَالَ مُوْسَىٰ : يا آدمُ أَنْتَ الَّذي خلقَكَ الله بيدِهِ ، وَنَفَخَ فيكَ مِنْ رُوْحِهِ أغْويتَ الناسَ وأخْرجْتَهُمْ مِنَ الجَنَّةِ . قَالَ : فَقَالَ آدمُ ، وأَنْتَ مُوسَىٰ الذي اصْطَفَاكَ الله بِكَلامِهِ تَلُوْمني على عملٍ أَعْمَلهُ قَدَّرهُ الله عليَّ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ السَموات والأرضَ بأربعينَ سَنَةٍ ! قَالَ : قَالَ فَحَجَّ آدمُ مُوْسَىٰ »[٤] .

وقال ﷺ في رواية أحمد وأبي داود والترمذي وصححها « إن اللّهَ خلقَ

---

(١) سورة الأعراف الآية (٢٣) .

(٢) متن مسلم (٨/٢٢٦) .

(٣) اللؤلؤ والمرجان (١/٤٩/٥٠) .

(٤) اللؤلؤ والمرجان (٣/٢١١) مسلم (٨/٤٩) . وكذا أبو داود في (٢/٥٢٨) والفتح الرباني (١/١٢٧) وألفاظهم متقاربة .

آدمَ من قَبْضةٍ قبضها مِنْ جَميعِ الأرضِ فجاءَ بنو آدمَ على قدرِ الأرضِ ، فَجَاءَ مِنْهُمْ الأبيضُ والأحمرُ والأسودُ وبين ذلك ، والسهْلُ والحزْنُ وبين ذلك ، والخبيثُ والطيبُ وبين ذلك[1] .

وقال ﷺ في رواية البخاري : « خَلَقَ اللّهُ آدمَ على صورتِهِ وطولِهِ ستونَ ذِراعاً ، ثم قَالَ : اذهبْ فَسَلِّم على أولئكَ النَفرِ مِنَ الملائكةِ فاستمعْ ما يُحيّونَكَ ، فإنَهَا تحيتُك وتحيةُ ذرّيتِك ، فَقَالَ السلامُ عليكُمْ . فَقَالوا : عَليكَ السلامُ ورحمةُ اللّهِ ، فزادوهُ ورحمةُ اللّهِ ، فَكُلُ مَنْ يدخلُ الجنةَ على صُورَةِ آدمَ ، فلم يزلْ الخلْقُ يَنْقصُ بعدُ حتى الآن »[2] .

وقال ﷺ : في رواية مسلم : « خَيرُ يومٍ طَلَعَتْ فيه الشمسُ يوْمُ الجمعةِ ، فيه خُلقَ آدمُ ، وفيه أُدخِل الجنةَ ، وفيه أُخرجَ منها ولا تقومُ الساعةُ إلا في يومِ الجُمُعةِ »[3] .

وبعدُ : فهذه الأقوالُ الإلهيةُ ، والأحاديثُ النبويّةُ كلُّها قاضيةٌ بخلْقِ آدمَ عليه السلام خلْقا مُباشِراً . خلَقَه اللّهُ تعالى بيَدِهْ ، ونفخَ فيه من روحِه ، وأسجدَ له ملائكتَه ، وعلَّمه الأسماء كلّها ، وجعلَ طولَهُ ستين ذراعا ، وأسكنَه جنّته ، ثم أخرجَه منها لما أكلَ من الشجرة فعَصَى وغوَى ، وأهبطَه إلى الأرض هو وزوجُه حواء التي خلقها الله منه بالْأمرِ الإلهي ، وأمره إذا أراد شيئاً أن يقولَ له : كنْ فيكون .

ومن آدمَ وحواء وبطريقِ التّناسُلِ والخلْقِ التدريجِيّ خَلقَ اللّهُ ذريتَه في كمالِهم وجمالِهم فصحاءَ عُقلاءَ سادةً في الأرض ، قد سخَّر اللّهُ لهم كلّ ما

---

(١) أبو داود (٥٢٥/٢) والترمذي في تفسير سورة البقرة . وأحمد في (٥ /٣٣٨) .
(٢) بخاري (٦٢/٨) . وعلى صورته أي على صورة آدم التي خلقه بها كما في آخر الحديث .
(٣) مسلم (٦/٣) .

فيها لِينتفعوا به في حياتِهم الدنيا ، وبعثَ فيهم الرُّسُلَ ، وأنزلَ عليهم الكتبَ تكميلا لآدميتهم وإسعاداً لهم في حياتِهم ، وإعداداً لهم بواسطةِ تزكية نُفوسهم ، وتطهير أرواحِهم للسعادةِ الأُخروِيّةِ في الملكوت الأعلى بعد موتِهم وانْقضاءِ آجالِهم .

هذا هو الانسانُ المكرّم في مُعْتَقَدِ المؤمنين أجمعين . وأما الانسانُ في معتقد الملحدين الكافرين فهو متحول عن خَليةٍ هبطتْ من بعض الكواكبِ إلى الأرض ثم نمتْ فيها فكانت حيواناً رديئاً في أبسطِ شكلٍ ، ثم تغيرتِ الأرض بفعل بعض المُؤ ثِرات الطبيعية ، فاضطر هذا الحيوانُ المخلوق لتغييرِ شْكلِ معيشتِه ، فتبع ذلك تَغيُر في صفاته ، ثم استحالَ مع طولِ الزمن وكَثْرة المؤ ثرات[1] المختلفة إلى أحوال فارق فيها جنسه الأول ، ثم ارتقى إلى قرد على مبدأ النشوء والارتقاء الذي فتنوا به ثم مرت عليه ملايين السنين فارتقى إلى حيوان آخر هو بين القرد والانسان بواسطة بينهما ، ثم انقرض هذا الحيوان الواسطة بدليل عدم العثور عليه في آثار الأحياء . ولعل انقراضه كان على مبدأ الانتخاب الطبيعي ، والبقاء للأصلح كما يقولون ، ومن ذلك الحيَوان الواسطة المفقود ارتقى الانسان إلى ما هو عليه الآن !! .

وبنوا معتقدهم هذا في خلق الانسان ، وأنه متحول من القرد على أساس مجموعة نظريات هي الانتخاب الطبيعي ، والبقاء للأصلح ، والنشوء والارتقاء ، والمطابقة ، وعامل الوراثة . وهي في الجملة نظريات صحيحة معلومة بالحسّ ، وهي سنن الله تعالى في الخلق والتكوين لكثير من المخلوقات ـ فالانسان ابن آدم يوجد أولا خليّة في نطفة الرجَل وماء المرأة ، ثم يكون حيوانا منويّا ذكراً أو أنثى ، ثم يتلاقح كما هي سنّة الله تعالى في

---

(١) لا غرابة في هذا التصور المضحك المزري ، لأنه البديل لهم عن الإيمان بخلق الله تعالى للإنسان ، إذا أنهم لو آمنوا بأن الله تعالى خلق آدم خلقاً مباشراً كما ذكر تعالى ، لآمنوا بالله وعبدوه ، وهم لا يريدون ذلك ، فلذا هم مضطرون إلى هذا الافتراء والهراء والتلفيق أعماهم الله ولعنهم .

اللقاح ، ثم يتدرج خلقه من حال إلى حال إلى أن يتم خلقه فيصير بشراً سويا كما جاء ذلك في قوله تعالى :

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [1]

وكما صح به قول الرسول ﷺ : « وإنَّ أحدَكُمْ يُجمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أمِهِ أربعينَ يوماً نُطفةً ، ثم يكونُ عَلَقةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يكونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلكَ ، ثُمَّ يأتي إليهِ المَلِكُ فينفخُ فيه الروحَ ، ثُمَّ يؤمرُ بكَتْبِ أربعِ كلماتٍ : رزْقُهُ وأجلُهُ وعملُهُ وشقيٌّ أو سعيدٌ »[2] ، وقد سئل رسول الله ﷺ بم يكون الشبه في الولد ؟ فقال فإذا سَبَقَ ماءُ الرجُلِ ماءُ المرأةِ نَزَعَ الولدُ لَهَا ، وإذا سَبَقَ ماءُ المرأةِ نَزَعَتْ الولدُ » رواه البخاري[3]. وهو إشارة إلى عامل الوراثة . وعجمة التمر تلقى في الأرض نواة لا حياة فيها ، ثم تنفلق عن غصن أخضر . ثم يتدرج خلقها حتى تصبح نخلةً باسقةً لها طلع تضيد رزقاً للعباد ، وبالجملة فسنن الله تعالى في الخلق التدريجي في الإنسان والحيوان والنبات ثابتةٌ لا تنكر ، وسنّته تعالى في انتقال صفات الأصل إلى فرعه ثابتة كذلك ، وسنته تعالى في البقاء للأصلح ظاهرة في كثير من الكائنات ، ولكنّ هذه السنن هي

---

(١) سورة (المؤمنون) الآيتان (١٣ ، ١٤) .

(٢) أخرجه الشيخان من حديث ابن مسعود مطولا (راجع اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (٢٠٧/٣ ـ ٢٠٨) طبعة عيسى الحلبي وشركاه .

(٣) (في ٨٨/٥ ، ١٠/٤) متن مسلم بلفظ (إذا علا ماؤها ماء الرجل شبه الولد أخواله . وإذا علا ماء الرجل . ماءها شبه أعمامه (١٧٣/١) منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بيروت .

من خلق الله وتقديره ، وهي خاضعة لارادته ومشيئته ، ولذا يخرقها بالمعجزات التي يعطيها لأنبيائه تدليلا على صدق ما ادعوه من أنهم أنبياؤه ورسله ، فَخلْقُ عيسى عليه السلام كان على خِلافِ سنَّةِ الخلْقِ المعروفِ في سائر بني آدم كما قال تعالى :

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]

وتكلم عيسى في المهد في أسبوعِ ولادتهِ كان على خِلاف سنةِ اللّهِ تعالى في نطقِ الانسان الذي لا يتمُّ إلا بعد قطع الطفل مرحلةً من حياته . وسلامة إبراهيم من إحراق النارِ لما يُلْقَى فيها من أجسام قابلةٍ للاحتراق ، وأمثلةُ إبطالِ الله تعالى لسنته في خلقه متى شاء ، ذلك كثيرةٌ . والمقصود من هذا أنّ ما يسميه الملاحدةُ بالقَوانين الطبيعية ويتّخذون منه دليلا على كفرهم بالله تعالى ، ما هو في الواقع إلا سنَنُ الله تعالى التي أودعها في الكون . يوجِدُ بها ويخلُق ما يشاء إيجاده وخلْقَه ، وهي خاضعةٌ له تعالى متى شاء أمضاها ، ثابتةٌ لا تتغيّرُ ، ولا تَتبدلُ كما قال الله تعالى :

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[2]

ومتى شاء أوقفها وأبطلها لحكمةٍ منه اقتضت ذلك وهو العزيز الحكيم .

بيد أن خلقَ آدم وحواء عليهما السلام كان بالخلقِ المباشِر ، ولم يكن أبداً كما تخيل الملاحدةُ ، وتصوروا ، لأخبار الله تعالى وأخبار رسله التي يستحيل فيها الكذبُ ، هذا وقد ناقش العلماءُ المؤمنون هذه النَظَريةَ الداروينية

---

(١) سورة آل عمران الآية (٥٩) .

(٢) سورة فاطر الآية (٤٣) .

التي أصبحت مذهبَ الملاحدة ومعتقَدَهم ، وأبطلوها نهائياً بنفس المقاييس والنظريات الطبيعية التي أثبتها الداروينيون بها .

وهذه بعض الاعتراضات التي عورضت بها النظرية الداروينية وأبطلتها :

١ ـ إذا كانت نظرية النشوء والارتقاء مطّردة في كل شيء فعن أي شيء ترقت الأنعام التي هي الإبل والبقر والغنم ؟[١] ، وعن أي شيء ترقت البهائم ذات القوائم الأربع : الخيل والبغال والحمير ، والأسدوالنمر والفيل والذئب والكلب .

٢ ـ ومضت القرون الطويلة على هذه الحيوانات ولم تترقّ إلى ما هو اكمل منهـا إذ الكمالُ لا حدَّ له ، فبقِي الفرس فرساً ، والكلب كلباً ، والأسد أسداً ، والذئبُ ذئباً . والإنسانُ إنساناً منتهياً كل منها إلى ما هو عليه الآن ، ومنذ قرون طويلة ؟؟؟ .

٣ ـ لم بقي القرد الأولُ ، وانقرض الحيوان الواسطة الذي ترقى من القرد ؟ فلو كانت نظرية البقاء للأصلح، والانتخاب الطبيعي مطردة لانقرض القرد الأول وبقيَ الحيوانُ الواسطةُ الذيْ ترقّى عن الأول ، لأنّه أكمل منه وأصلحُ والبقاء للأصلح ؟؟

فَلِمَ هنا كان البقاء لغير الأصلح ؟ ولِمَ أساء الانتخاب الطبيعي هنا فانتخب الناقص فأبقاه ولم ينتخب الكامل فأرداه ؟ .

٤ ـ إن مذهبكم المادي قائم على أساس نكران القياس والنظر والاستدلال . فلم تؤمنوا بغير المرئي المحسوس ، فلم خالفتموه هنا ، وقلتم

---

(١) يقول الله تعالى من سورة الزمر « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج الآية (٦) فلننظر كيف عبر تعالى عن خلق الأنعام بلفظ الإنزال ولم يعبر بلفظ الإخراج كما قال في الثمار « وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » من سورة البقرة الآية (٢٢) .

بالنظر والقياس والاستدلال ، لأنكم ما شـهدتم الخلية الأولى التي زعمتم أنها نزلت من بعض الكواكب . كما أنكم لم تشاهدوا المؤثرات الطبيعية التي زعمتم أنها اقتضت من الحيوان الأول أن يغير أسلوب معيشته حتى ترقى تبعاً لذلك ، كما أنكم لم تشاهدوا الحيوان الواسطة وقلتم بمجرد النظر والقياس ، وبذلك نقضتم مذهبكم المادي ، وخرجتم عنه ، فثبت عجزكم ، وبطل معتقدكم في النظرية الدارونية التي قال عنها أحد العلماء المؤمنين : « انها نظرية أبوها الكفر وأمها القذارة . . »[١] .

وأخيراً فقد اعترف كبار أصحاب النظرية الدارونية بعجزهم وقالوا : بالحرف الواحد : إن نظرية النشوء والارتقاء ليست ثابتة علمياً ، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان أبداً ، وإنما آمنا بها ، لأنها البديل الوحيد عن الإيمان بالله ! .

وبهذا افتضحت اللعبة ، واكتشفت الجريمة : والحمد لله .

(مقارنة)

ولنختم الحديث عن الإنسان بالمقارنة التالية ، ليتجلى الفرق بين الإنسان عند المؤمنين ، والإنسان عند الملاحدة الدارونيين . فنقول :

الإنسان عند المؤمنين :

خلق في السماء خلقاً مباشراً مستقلاً ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وعلمه الأسماء كلها ، وأسجد له ملائكة السماء ، خلقه في أحسن تقويم ، وخصه بالتكريم بين العالمين .

حرم دمه وماله وعرضه إلا بحق . أرسل إليه الرسل ، وأنزل عليه الكتب ، فهيأه بذلك للكمال ، وأعده لسعادة الحال والمآل . أخبر عن خلقه ، وتكوينه ، وكرامته ، ومآله ، وخالقه وأنبيائه الذين أرسلوا اليه .

---

(١) قصة الأيمان (١٩٣) من فصل بين دارون والجسر .

الإنسان عند الملحدين :

خلق بواسطة النشوء والارتقاء في أقبح صورة ، ثم تدرج في ملايين السنين إلى أن أصبح قرداً ، ثم ترقى إلى حيوان أرقى من القرد في ملايين أخرى من السنين ، ثم صار إنسانا بعد ملايين السنين .

أخبر عن خلقه ونشوئه وتكوينه كبار الملاحدة ، وشرار الناس ، وأكثرهم فساداً وفجوراً ، مآله الهلاك والدمار ، فلا خلود له ولا بقاء .

والآن يا معشر العقلاء فأي الإنسانين أحق بالتكريم ، وأي الإنسانين يجب أن يعترف به الناس أجمعون ، إنسان المؤمنين أم إنسان الملاحدة (الداروينيين) ؟! .

إنه من المسخ في العقول والشذوذ في الفهوم ، والانحراف في الفطر القول بنظرية (الداروينيين) في الإنسان ، إنها نظرية فاسدة خبيثة أبوها الكفر وأمها القذارة[1] .

(١) نفس المرجع في ص(٢١).

العقيدة

ما هي العقيدة ؟

العقيدة هي : مجموعة من قضايا الحقّ البدهيّة المسلّمة بالعقل ، والسمع ، والفطرة ، يَعقدُ عليها الإنسان قلبه ، ويثني عليها صدره جازماً بصحتها ، قاطعاً بوجودها وثبوتها ، لا يرى خلافها أنه يصح أو يكون أبداً .

وذلك كاعتقاد الإنسان بوجود خالقه ، وعِلمه به ، وقدرته عليه ، ولقائه به ، بعد موته ونهاية حياته ، ومجازاته إياه على كسبه الاختياري وعليه غير الاضطراري . وكاعتقاده بوجوب طاعته فيما بلغه من أوامره ونواهيه من طريق كتبه ورسُله طاعة تزكو بها نفسه ، وتتهذّب بها مشاعره ، وتكمل بها أخلاقه ، وتنظم بها علاقته بين الخلق والحياة .

وكاعتقاده بِغنى ربّه تعالى عنه ، وافتقاره هو إليه ، وفي كلّ شأنه حتى في أنفاسه التي يرددها ، فبالله تعالى حياته ، وعليه وحده توكله واعتماده ، إذ هو محط رجائه إذا طمع ، ومَأمَن خوفه إذا خاف ، بِحبهِ يُحبّ ، وببغضه يُبغض .

هو مولاه الذي لا مولى له غيره ، ومعبوده الذي لا معبودَ له سِواه ، لا يرى ربوبيةَ غيره ، ولا يعتقد ألوهيةَ سواه .

حاجة الإنسان إلى العقيدة

دعوى استغناء الإنسان عن العقيدة دعوى باطلة ، يكذبها الواقع ويبطلها تاريخ البشرية الطويل ، إذ واقع البشرية شاهد على أن الإنسان حيثما كان ، وفي أي ظرف وجد ؛ وعلى اختلاف أحواله ، وتباين ظروفه لا يخلو من عقيدة أبداً ، وسواء كانت تلك العقيدة حقاً أو باطلاً ، صحيحة أو فاسدة حتى أولئك الذين يدعون اليوم أن العلم قد أغنى عن العقيدة وعن التدين ، وأن الإنسان في عصر الذرة ، وغزو الفضاء لم يصبح في حاجة إلى الإيمان بالله تعالى ، وبالغوا في الكفر والإنكار حتى قالوا : إن الإله لم يخلق الإنسان وإنما الإنسان هو الذي خلق الإله[1] ، وهم يريدون بذلك أن الإنسان في الظروف الصعبة التي كان يعيشها ، والمخاوف تنتابه من كل ما حوله من مظاهر الكون ، إذ هو يخاف المرض ، ويخاف الفقر ، ويخاف الرعد والبرق ، والفيضان والسيول ، والعواصف والزلازل ، وحتى الحيوانات ، اضطر لأجل ذلك إلى الايمان بقوة غيبية ذات قدرة لا تَعجز ، وسلطان لا يُغلب ولا يقهر ، سماها إلٰهاً يفزع إليه عند الشدائد ، ويتقرب إليه بالعبادات ليدفع عنه الشرور ، ويقيه من المهالك ، لهذا قالوا : إن الإنسان هو الذي خلق الإله ، وليس الإله هو الذي خلق الإنسان ، وهو قول مضحك ، وجهل فاضح ، وكفر صريح ، وكذب ممقوت ، ومغالطة مكشوفة ، وسخف عقول لا حد له !!!!

---

(١) هذه العبارة القذرة من قاموس الشيوعية الماركسية عدوة الإنسان .

وتحرير هذه القضية الفاسدة : هو أنهم إن كانوا يعنون بالإله الذي خلقه هو إله الوثنيين الذين اتخذوا أصناما آلهة ، نحتوها بأيديهم ، وعبدوها بأهوائهم . فنعم . هذه الآلهة خلقها الإنسان ؟ وليست هي التي خلقت الإنسان وأما إن كانوا يعنون بالإله الذي خلق الإنسان الله الذي خلق السموات والأرض وما فيها ، وما بينهما ، وخلق الإنسان ، وكرّمه فأنزل عليه كتبه ، وبعث إليه رسله ، وعرفه بنفسه ، وبشرائعه التي بها يتم كماله ، وتتحقق سعادته ، فقولهم مغالطة ، وجهل ، وسخف ، وكذب ، إذ الإنسان لم يخلق حتى نفسه فضلا عن أن يخلق غيره فكيف بالله خالق كل شيء وربه ومليكه . سبحان الله وتعالى عما يصفون .

إن ادعاءهم استغناء الإنسان اليوم عن الإيمان بالله تعالى ، لأنه عرف الطبيعة ، واكتشف أسرار الكون ، فما أصبح يخاف المرض ، ولا الفقر ، ولا الفيضانات ، ولا الزلازل ، والجوائح ، ولا العاهات ، ادعاء باطل لا وزن له ولا قيمة أبدا[1] ، إذ الإنسان ما زال يخاف من كل هذه ، وجميع وسائله التي يملكها ليدفع بها عن نفسه لم تؤمنه بعد ، ولم تؤمنه أبدا ، وكيف ؟ والآلام التي يعانيها الإنسان اليوم جسمانياً وروحياً تزداد يوماً بعد يوم ، وفي كل أنحاء الوجود البشري ، فوباء الكوليرا ، وأمراض السرطان ، والبرص ، والصرع ، وغيرها ما زالت تفتك بالآلاف من الناس ، وفي كل سنة ، والمجاعات تهدد مناطق شاسعة من العالم ، والفيضانات تجرف كل سنة القرى العديدة ، وتقتل وتشرد الآلاف من الناس ، والزلزال من الحين إلى الحين يدمّر المدن والقرى ، ويودي بحياة الآلاف من البشر ، ولم يستطع الإنسان الكافر بالله ، والذي يدعي أنه خلق الإله ، لم يستطع أن ينجو من هذه الويلات فضلا عن أن يضع لها حدا ، أو يوقف وجودها . بل ازدادت مصائب الإنسان ومحنه ، وعظم الخطب واشتد عليه ، لما كفر بربه ، ودينه ، فأصبح في تمزّق شخصي ، وهبوط نفسي ، وسقوط خُلقي كاد يفقد معها

(١) ادعاء باطل خبر إن الموجودة في أول الكلام وما بينهما اعتراض فليتنبه له

طعم حياته ولذة وجوده ، لقد غاض ماء الحياء من وجهه فأصبح صفيقاً ، عربيداً ، فاحشاً ، متفحشاً ، وغار معين الكرامة الآدمية فيه فصار لا غيرة له ولا شهامة ولا كرامة، ولا مروءة. ألِف الكذب، والغدر، والخيانة، وتعوَّد الجريمة ومرد على النفاق ، والتضليل ، والخداع[1] فساءت المجتمعات البشرية وهبطت فيها الحياة إلى أبعد حدود الهبوط والسقوط ، حتى صاح العقلاء منددين بالكفر والإلحاد ، مطالبين بالرجعة إلى الدين والإيمان ، بل حتى كبار الملاحدة قد نكسوا على رؤوسهم ، وقالوا في وضوح : لا غنى عن الدين ، وطالبوا علماء النفس والاجتماع بأن يضعوا لهم ديناً . ولكن بدون الإيمان بالله ، وذلك لأن الله يأمر بالعدل ، والاحسان ، وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء ، والمنكر ، والبغي[2] ، وهم لا يريدون عدلا ، ولا معروفاً ، ولا إحساناً ، كما لا يريدون أن يتخلوا عن الظلم ، ولا عن الفحش ، والمنكر . ولذا فهم يريدون ديناً صناعياً يهذب نفس الإنسان ، ويكمل أخلاقه ، وبدون ذكر الله فيه ، ولا ذكر أمره تعالى أو نهيه : وهيهات ، هيهات أن ينفع دين صناعي في تقويم الأخلاق ، وإصلاح النفوس ، وتهذيب المشاعر ، وتطهير الأرواح ، إن القوم مغرورون ، مخدوعون ، جهال ، ضالون ، مضللون ، لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم .

والقصد من إيراد هذا الذي ذكرناه هو تقرير حقيقة علمية ثابتة بكل القوانين العقلية ، والشرعية ، وهي أن الإنسان دائماً في حاجة الى الإيمان ، والتدين ، والعقيدة ، وأن الدين ضرورة من ضرورات حياته ، وحاجة من حاجات نفسه ، فلا غنى له عن الإيمان بربه ، وعن عبادته بحال من الأحوال ومن هنا لم تخلُ أمة وجدت على وجه الأرض ومنذ عهد الإنسان بالحياة من عقيدة ودين[3] ، ومصداق ذلك قوله تعالى :

(١) مرد : أي أقام عليه ولم يتب منه ، ولج فيه وأبى غيره .

(٢) هذا مقتبس من الآية (٩٠) في سورة النحل .

(٣) قال بازماك المؤرخ الأغريقي مقرراً الحقيقة التي قررناها وذكرها القرآن الكريم ، قال : قد =

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [1]

والمراد من النذير نبي ، أو رسول ، أو عالم وارث لعلم النبوة ينذر تلك الأمة عاقبة الكفر بالله وبكتبه ، ورسله ، وشرائعه ، ويحذرها من نتائج الشرك بربها ، والمعصية له ، ولرسله وما يتبع ذلك من انحراف السلوك بالظلم ، والشر والفساد .

= وجدت في التاريخ مدن بلا حصون ولا قصور وبلا سدود ولا قناطر ولكن لم توجد مدن بلا معابد . .

(١) سورة فاطر الآية (٢٤) .

وجه ضرورة الدين للانسان

الإنسانُ منذُ أن وُجد على هذه الأرض بهبوط أبيه الأول آدمَ ، وأمِّه حواء عليهما السلام من الجنة دار السلام ، وهو في حاجة ماسة وملحة أيضاً إلى قوانين ضابطةٍ تعدّل من غرائزه ، وتنظم سلوكه ، وتحددُ اتجاهاته ، وتهيئُه للكمال الذي خلق مستعدّاً له في كلتا حياتيه : الأولى هذه التي يقضيها قصيرةً على هذه الأرض ، والثانية التي تتم له في عالم غير هذا العالم الأرضي الهابط ، وإنما في عالم الطهر والصفاء ، في الملكوتِ الأعلى كما أخبر بذلك ربه بواسطة كتبه التي أنزلها ، وأنبيائه الذين أرسلهم .

غيرَ أنَّ تلك القوانين المطلوبة لتعديل غرائزه ، وتنظيم سلوكه ، وتحديد اتجاهاته في الحياة لا توجد وهيهات هيهات أن توجد في تشريع غير رباني ، أو سماوي لا دخل لأهل الأرض في وضعه وشرعه ، إذ لا يُعرِّفُ الإنسانَ بعواطفه وأشواقه ، ولواعج نفسه ، وبأفكاره ، وآماله ، ومتطلعاته ، ولا يقوى على توفيته مطلوبه من ذلك كله إلا اللّهُ خالقه . فهو ـ إذاً ـ وحده الذي يحق له أن يضع له من القوانين ، والشرائع ، والأديان ما يكمله به ويعده للكمال والسعادة الأبدية الخالدة .

ولذا كان الدين ضرورياً للانسان بوضعه الخاص يأكل ويشرب ، ويتوقّى الحرَّ والبرد ، وعليه أن يعمل لإعداد ذلك لنفسه فيُوجِد بالسنن التي وضعها ربُّه طعامه وشرابه، ولباسه ، ودواءه . وسكنه ومركوبه . وهذه حال تدعو إلى تعاون أفراده لتوفير ما به تقوم حياتهم . وتستمرُّ إلى نهاية أجلها المسمّى .

والإنسان بفطرته يَشعرُ بضعفه . وحاجته إلى ربه في إعانتهوتوفيقه ورعايته وحفظه ، ولذا فهو يطلب التعرف إلى ربه . والتعرّف إليه بما يحب من أنواع القرب وضروب الطاعات والعبادات .

والإنسان بموَاهبه ، وأفكاره ، ومشاعره ، وأحساسيسه، يطلب دائماً المزيدَ من السموّ والرّفعة في ذلك . حتى لا يريدُ أنْ يقفَ عند حدٍّ أبداً ، فهو إذاً في أحواله الثلاثة التي ذكرنا مفتقراً إلى تشريع ديني ، إلهي يلائم فطرته ، وينظم له علاقته فيما بينه وبين أفراده الذين لا يستغني عن التعاونِ معهم لتوفير أسباب حياته ، وبقائها صالحة في هذا الوجود من مَطعم ، ومشرب ، وملبس ، ومسكن ، ومركب ، ويمدّه بعلوم ومعارف عن ربه ولقائه ، وعن كيفية عبادته ودعائه ، وذكره والتقرب إليه بفعل طاعته ، وإتيان محابِّه ، وترك مكارهه ، واجتناب مساخطه ، كما يمده بفيض علمي كامل عن الحياة والكون يعرف به حقيقة الوجود ، وعلة الكون والحياة ، وأسباب السمو والكمال ، والهبوط والنقصان التي تطرأ له في حياته الأولى والآخرة .

وبناءً على كل ما تقدم فضرورة الإنسان إلى دين إلهي صحيح أشدُّ من ضرورته إلى العناصر الأولية لحفظ حياته من ماء ، وغذاء ، وهواء ، ولا ينكر هذه الحقيقة ، أو يجادل فيها إلا معاند ، مكابر ، لا يُؤْبَه لعناده ، ولا يُلتفت إلى جداله ! .

كما أن دعوى العقل في إمكانه الاستقلال بهداية الإنسان إلى ما يصلحه ويسعده ، دعوى باطلة ساقطة لا وزن لها ولا واقع ، وذلك لأننا رأينا الكثيرَ من الأمم والشعوب لما فقدت هداية الوحي الإلهي لم تغن عنها هداية العقول شيئاً ، فضلّت وهلكت ، ومما قاله القرآن في هذا الموضوع قوله تعالى من سورة الأحقاف .

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟

﴿يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[1]

وذلك لأنّ العقول لا تهدي إلى معرفة كل ما ينفع الإنسان في حياتيه ليأخذَ به . ولا إلى معرفة كل ما يضر الإنسانَ في حياتيه كلتيهما ليتجنبه . وينجو مما يضرُّه إلا في ضوء الشرع الإلهي . ونور وحيه . لأن العقول لا تعدو كونها آلة إدراك كحاسة العين التي هي آلة إبصار . والعين قطعا لا تبصر . ومهما كانت سليمة وقوية إلا في الضوء والنور . ولا يمكنها أن ترى وتبصر في الظلام أبدا . وفي أي حال من الأحوال . العقل مثل العين سواء بسواء . كما أن العين لا تبصر إلا في الضوء والنور ، فإن العقل لا يدرك إلا على ضوء الشرع الإلهي . ونور وحيه تعالى إلى أنبيائه ورسله . ومن رأى غيرَ هذا فإنه يغالط نفسه . ويكابر في شيء من الخطأ . والضلال المكابرة فيه . لكونه من المحسوس المشاهد .

كما أن دعوى الاكتفاء بالعلم عن الوحي الإلهي الذي تمثله الشرائع الإلهية الصحيحة ، السليمة من التحريف ، والزيادة ، والنقص ، والتبديل كالدين الإسلامي مثلا دعوى باطلة قطعاً ومن وجهين أيضاً :

الأول : ـ أنّ ما عند الناس من بعض العلوم ، والمعارف في الفنون والأخلاق . والآداب إنما هو بدون شك مأخوذ من الوحي الإلهي إما بالنص اللفظي . أو بالاستنباط . وإنما نسب إلى بعض الأشخاص مغالطة وتضليلا لا غير .

والثاني : ـ أن العلم المادي مقصور على نفع الإنسان في الجانب المادي منه ، وهو الجسم ومتطلباته . وأما الجانبُ الروحيّ وهو الأهم قطعاً فإن العلم المادّي لم يخدمه في شيء . ولم يقدم له أي نفع البتة . لأنه لم يكن روحياً مجانساً للروح فيقدم له ما هو في حاجة إليه .

---

(١) الآية (٢٦)

إن العلوم الإنسانية الخالية من الوحي الإلهي لم تعْدُ الكشف عن بعض الظواهر الكونية المادية فقط

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ (١)

فكيف إذاً تستطيع أن تقدم أي خدمة للروح . وهي لم تكسرْ حجاب المادة بعدُ . ولم تعرف أي سر عن حقائق الكون وعِللهِ .

وقد اعترف علماؤ ها بالعجز الكامل عن معرفة العلل والأسرار لأيةِ ظاهرةٍ من ظواهر هذا الكون فقالوا : اسألونا بكيف . لا بماذا ؟ يعنون قولوا لنا : كيف وقع الشيء الفلاني ؟ فإننا نجيبكم . أما لماذا وقع فإننا لا نعرف الإجابة عنه . ولا نملكها أبداً . وذلك لحرمانهم من علوم الوحي الإلهي .

وشيء آخر أليست العلوم المادية قد بلغت الذروة في الكمال بعد أن قطعت شوطاً بعيداً في التطور والشمول في كل المجالات . ومع هذا الكمال فإن البشرية في شقاء دائم . ولم تخط يوما خطوة إلا إلى شقاء آخر أكبر والواقع يشهد . وكفى به شهيداً . ولذا فإنه لا مناص من الاعتراف بالحقيقة ، والتسليم بها . وهي أن الدين الحق ضروري للإنسان . لا غنى له عنه بحال من الأحوال . وأن كمال الإنسان . وسعادته متوقفان عليه توقف المعلول على علته . والمسبب على سببه .

وليعلم أخيراً أن الدين الذي نعني ضرورته للإنسان لتوقف سعادته وكماله عليه في الدنيا والآخرة إنما هو الدين الحق الصحيح . الدين الذي شرعه الله ، وصحت نسبته إليه تعالى . أما الأديان الباطلةُ المفتراة كالبوذية ، والمجوسية ، والمحرَّفة المبدَّلة كاليهودية ، والنصرانية فإنها وإن سُميت أدياناً فإنها خالية من الوحي الإلهي الذي يمثل فيها شرعاً إلهياً متكاملاً يقدم للإنسان كلَّ ما يحتاجُ اليه لإصلاح جسمه ، وروحه ، وإسعادهما في الدنيا ،

---

(١) سورة الروم الآية (٧)

والآخرة . والدليل الواضح لذلك أن أوروبا المتدينة بالنصرانية لم تتقدم حضاريا إلا بعد التمرد . والكفر بالدين الذي كانت تعيش عليه زمناً طويلا وهو يكبلها ويقيدها . حتى قام رجال منها ، وحاربوه . وخرجوا عن قيوده ، وكفروا بشرائعه . وبذلك تم لهم الانعتاق من الضلال . والانطلاق من الباطل .

وإن بحثت البشرية الراشدة العاقلة عن دين إلهي صحيح سليم فإنها واجدته قطعاً وبدون شك في الإسلام دين البشرية العام . الذي تضمنه كتابه القرآن الكريم . الذي لم ينقص منه حرف منذ أن نزل . ولم يزد فيه آخر . ولم تحرف فيه كلمة عن موضعها منه . ولم تخرج عبارة عن مدلولها قط . بالرغم من مرور ألف وأربعمائة سنة عليه تقريبا .

إن الدينَ الإسلامي هو الدين الكفيل بإنقاذ البشرية اليوم . والخروج بها من محنتها . محنة المادية العاتية . التي سلبتها أو كادت كل معاني الآدمية الكريمة . والانسانية الفاضلة حتى صيرت الإنسان آلة لا فهم لها ولا ذوق ، ولا تقدير لها ولا احترام . . .

فإلى الإسلام يا عقلاء الناس . فإنه الدواء لدائكم ، والهداية لكم من ضلالاتكم . فاقبلوا عليه عقيدة ، وحكماً . ونظاماً فإنه ينجيكم ويسعدكم .

جرِّبوا فأن التجربة أكبر برهان !!

الإيمان بالله رب العالمين

إن المسلك السهل والسليم في آن واحد للبحث عن الإيمان بالله تعالى أي عن وجوده تعالى ، والتصديق به عز وجل رباً وإلهاً ، هو مسلك احترام العقل البشري ، وقبول احكامه التي يصدرها على الأشياء نفياً أو إثباتاً ، وجوداً أو عدماً ، ومن ذلك حكمه الواضح الصريح بوجود الباري عز وجل ، وبوجوب معرفته وطاعته ، والتقرب اليه ، والأخذ بهدايته ، والسير في طريق أوليائه من صالحي عباده .

ولنستمع إليه ـ العقل ـ وهو يُورد أدلته ، ويقدم شواهده ، ويُظهر بيانه ، ليصدر بعد ذلك حكمه النهائي في قضية الإيمان بالله تعالى ، وأسمائه وصفاته ، ووجوب طاعته وعبادته ، والأخذ بهداية وحيه ، واتباع شرعه : إنه يقول بمنطقه السليم : إن السماء التي تظلنا ، ونشاهدها بحواسنا ، ونراها بأم أعيننا ، ولا نستطيع عدها لكثرتها ، ولا حدَّها لبعدها وعلوها . هذه السماء يقول ـ العقل ـ إنها موجودة فعلا ، ولا سبيل إلى إنكارها بحال من الأحوال ، فمن أوجدها ؟؟ .

ويقول : هذه الأرض التي نعيش عليها وهي موجودة فعلا ، ولا معنى لإنكارها أبداً ، فمن أوجدها ؟؟ .

ويقول : هذه الكائنات الحية على تباينها ، واختلاف أنواعها من أرقاها وهو الإنسان ، إلى أدناها كالنحلة ، والنملة ، والعنكبوت ، وهي موجودة فعلا ، ولها غرائزها ، ومداركها الخاصة ، وأنظمة حياتها ، وطرق معاشها ، وحفظ أنواعِها إلى آجالها ، ولا مجال لإنكار ذلك بحال ، فمن أوجدها ؟

ومن وهبها حياتها ؟ ومن خلق لها أرزاقها وهداها إلى طلبها ، والحصول عليها ، والانتفاع بها في حفظ نوعها واستمرار وجودها ؟ إن العقل يقول : ابحثوا عن الموجد ، عن الخالق ، عن الرزاق ، عن المدبر ، عن المنظم ، عن المسخر ، عن خالق الكون ، عن واهب الحياة لكل ذي حياة . وعن سالب الحياة من كل منْ وُهبت له ، ومتع بها مدة حياته الموقوتة ، وفترة عمره المحدود .

ابحثوا ، واطلبوا ، واستقصوا في البحث والطلب ، واعلموا أنه لا يوجد شيء موجود أوجد نفسه بنفسه ، ولا كائن كون نفسه بنفسه في هذه العوالم الموجودة ، والكائنات المشاهدة المحسوسة أبداً .

ابحثوا عن خالق ، رازق ، مدبر ، ذي إرادة ، وحكمة ، وعلم ، وقدرة ، يخلق ، ويرزق ، بعلم وقدرة ، ويبدع ، وينظم ، ويدبر بإرادة وحكمة . ابحثوا عنه ، ولا تستهينوا بالعقل أو تزدروه ، وأنتم تعلمون أن أحدكم إذا فقده أصبح مجنوناً ، مختل التفكير والتقدير ، مسلوب الإرادة والتدبير ، يَهْرُفُ بما لا يعرف ، ويرمي إلى ما لا يهدف ، فتقولوا : إن الموجودات أوجدت نفسَها بنفسِها ، أو تقولوا إنها وُجدت بدون موجد فإن ذلك مزرٍ بكم ، مخل بكرامتكم ، خارج بكم عن دائرة العقلاء من بني الناس أجمعين ، لأن العقول كلها مطبقة مجمعة على أن الشيءَ لا يوجد نفسَه ، كما أنه لا يوجد بغير موجد ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾[1] إنكم تقرون أن جميع الكائنات التي تخضع للحس والمشاهدة مادة ، والمادة ميتة قطعا ، والميت لا يخلق الحي ، وكيف يهب الحياة من هو ميت ؟ .

وزيادة في التثبيت من هذه الحقيقة وهي أن الشيء يستحيل أن يخلق نفسه وأن كل موجود لا بد له من موجد نقول : إنه لما لم نجد للكائنات موجداً

---

(١) سورة الطور الآية (٣٥) .

لها من نفسها اضطررنا إلى الإيمان بوجود إله قوي ، قادر ، ذي إرادة ، وعلم ، وحكمة وهو الله الذي أخبرنا بواسطة كتبه التي أنزلها ، وأنبيائه الذين أرسلهم أنه رب كل شيء ، وخالق كل شيء ، وأنه هو بديع السموات والأرض ، ومدبر الأمر فيهما ، له وحده الخلقُ والأمر ، وهو على كل شيء قدير ، وزيادة في التثبيت والتقرير نهبط الى عالمنا الأرضي هذا ، وننظر الى الأشياء الموجودة فيه وهي لا تعد كثرة ، هل نجد بينها من يخلق نفسه بنفسه ، أو يخلق غيره .

فها هي ذي النباتات على كثرتها ، واختلاف أجناسها ، وتنوّع أفرادها لا تخرج عن سُنة وجودها التي سنت لها ، واطردت فيها ، وهي وجود تربة صالحة ، وماء كاف لسقيها ، ومناخ طيب صالح للحياة والنماء فيه مع تقدم وجود البذرة الحية بالقوة المكفورة ـ المغطاة ـ بالتربة الملائمة لإنباتها، إن النباتات بهذا هي مفتقرة إلى عناصر شتى ـ وهي البذرة ، والتربة ، والهواء ، والماء ، لم تكن لتوجدها النباتات لنفسها ، فكيف يصح إذاً أن يقال : إنها خلقت نفسها بنفسها ، اللهم إنه لا يقول بهذا إلا مجنون أو مغرور يجاحد ويعاند ! .

وها هي ذي الحيوانات على اختلافها ، وكثرة أفرادها من أرقاها وجوداً وحياة إلى أهبطها حياة ووجوداً لا يوجد بينها حيوان واحد يخلق نفسه بنفسه . وإنما جميعها وكل واحد منها يخلق تبعاً لسُنة الخلق فيه، والمطردة في كل أفراده ، وهي بالنسبة إلى الإنسان الذي هو أرقاها وأفضلها ، وجود نطفة من أبوين ذكر وأنثى ، واستقرارها في الرحم المعدة لها ، وتطور تلك النطفة من حال إلى حال إلى أن يتم الخلق ، ويخرج الإنسان طفلا صغيرا ، ثم ينمو حسب النمو فيه الى أن يبلغ أشده فيتكهل ويهرم ويموت ، وهو في كل ذلك الخلق والتطور والنماء والكمال والنقصان والموت والفناء لا يملك من أمره شيئا .

فهل يُعقل أن يقال أن الإنسان خلق نفسه بنفسه ، وإذا بطل هذا في

الإنسان فهل يصح فيما دونه من سائر الحيوان ؟ اللهم لا ، وإذاً فهل يعقل أن يتم الخلق والإيجاد بدون ما خالق ولا مُوجد ؟ اللهم لا ، حتى ولو كان المخلوق نحلة ، أو الموجود فنجان قهوة ، وهل يوجد عاقل في دنيا الناس يرى موجوداً عظيماً كعمارة ضخمة ، أو دون ذلك كرغيف خبز ، ثم ينكر أن يكون له موجد أوجده ، ويعتذر عن إنكاره وجحوده بأنه لم ير موجده ولم يشاهده . اللهم لا ، وإذاً فكيف يعقل الكفر بوجود الله خالق كل شيء لمجرد أنه لم يُر فقط ، مع أن هناك نفس الإنسان التي بين جنبيه قد آمن كل إنسان بوجودها ولم يرها إنسان قط ، وهناك العقل البشري لم ينكره أو يكفر به أحد قط مع أنه لم يُر قط . وآمن بكل من النفس والعقل لوجود آثارهما الدالة عليهما وكم من موجودات آمن الناس بموجدها ولم يروها قط . وذلك لدلالة وجودها على مُوجدها . إذ العقل يحيل وجود أي شيء بدون موجد . كما قال تعالى

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ [١]

والأعجب من هذا أن الملاحدة بمجرد معرفتهم لسنن الله تعالى في خلق بعض المخلوقات ، وإيجاد بعض الموجودات طاروا فرحاً بذلك . واتخذوا منه دليلا على عدم وجود الخالق سبحانه وتعالى . فقالوا : قد عرفنا كيف تنشأ السحب وتتكون الأمطار . وكيف يخرج الكتكوت« الفروج » من البيضة . فلا حاجة إذاً إلى الإيمان بوجود الله تعالى . وهو سخف عجيب . وحمق متناه وإلا فمتى كانت معرفة سنن الله تعالى في خلق الأشياء وإيجادها دليلا على عدم وجود الله ؟ بل هي بالعكس دالة على وجود الله ، وعلمه ، وقدرته لو كانوا يعقلون !!

إن مثلهم في هذا الكفران والنكران كمثل من قدم له طبق فيه تمر حلو فأكل حتى شبع . ثم سأل عن صانعه . فقيل له إنه الله . فآمن به لوجوده أثر

(١) سورة الطور الآية (٣٥) .

وجوده وهو صنعه . ثم قدر له أن زار بستان النخل ووقف على كيفية غرس النخل وتربيته . وتأبير طلعه . فعاد فأنكر أن يكون التمر من صنع الله تعالى . لأنه رأى كيف ينشأ النخل . وكيف تتم تربيته وإصلاحه حتى يثمر تمراً حلواً . وتناسى أن الذي صنع التمر هو الله الذي أوجد البذرة . والتراب . والماء والهواء . وأوجد الفلاح . أوجد له قدرة . ووهبه علماً حتى فلح الأرض . وغرس البذرة . وسقاها . ورباها . وأبرها لما اطلعت . ورعاها حتى أصبحت تمراً حلواً .

فهذا مثلُ منكري الخالق عز وجل من الملاحدة الذين أنكروا وجود الله لمجرد معرفتهم لبعض ظواهر الكون ، وإذا قيل لهم لقد عرفتم قوانين الكون ، وسننه فمن وضع تلك القوانين ، ومن سن تلك السنن في الكون ، والتي بواسطتها يتم خلق الأشياء وإيجادها ؟؟ قالوا : فراراً من الإيمان بالله عز وجل حتى لا يعبدوه ، قالوا : الطبيعة ؛ ولو أن الطبيعة نطقت وقالت لهم : اعبدوني لكفروا بها ، وأنكروها ، كما كفروا بالله ، وأنكروا وجوده ، وهو يناديهم في كتابه :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]

ومما يدل على أن الملاحدة ما كفروا بالله إلا فراراً من عبادته ، والتزام شرائعه ، أن الإيمان بالله تعالى خالقاً للكون ، مدبراً له ليس بأصعب ولا أبعد في الاستحالة من الإيمان بالطبيعة الميتة ، العمياء ، الصماء خالقاً مبدعاً ، كما قال أحد علماء الكون : لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه لكان يتمتع بأوصاف الخالق ، وفي هذه الحال سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الإله ، وينتهي الأمر إلى التسليم بوجود إله ، ولكنه إله عجيب ، لأنه غيبي ومادي في آن واحد . ثم قال : « إنني أفضل أن أؤمن بذلك الإله الذي خلق العالم

(١) سورة البقرة الآية (٢١) .

المادي وهو ليس بجزء من هذا الكون ، بل هو حاكمه ، ومدبره ، ومديره بدلا من أن أتبنى مثل تلك الخزعبلات » يعني قول الملاحدة أن الطبيعة ، والضرورة ، والصدفة هي التي أوجدت الكون ، ووهبت الحياة ؛ ووضعت السنن والقوانين ؛ وهو أمر عجب ، وجهل مركب ، وفساد عقول لا حد له

ولنناقش الآن كلمات : الطبيعة ، والضرورة ، والصدفة التي ينسب إليها الملاحدة خلق العالم وإدارته ، وتدبيره . فنقول :

ما هي الطبيعة ؟ .

إن الطبيعة هي : المادة ، وعناصر تكوينها من البرودة ، والحرارة ، والرطوبة ، واليبوسة ، والمواد المركبة منها ، وهي الذرات المكونة من النوى المشتمل كل نواة منه على بروتون ، ونيترون ، و إلكترون .

هل هذه العناصر من النوى ، والذرة ، والخصائص المشتملة عليها المادة أوجدت نفسها ، فكونت ما يسمى بالطبيعة ؟ اللهم ، لا ، إذ هو مما تحيله العقول ، ولا تقبله أبداً . إن معنى هذا الهراء : أن الطبيعة أوجدت نفسها أولا ، ثم أوجدت غيرها من الموجودات ! إن المادة المركبة من عناصرها ، والمودع فيها خواصها ، وطباعها مفتقرة إلى من يوجد عناصرها ، ويودع فيها خواصها ، وحينئذ فهي حادثة مخلوقة . فكيف يصح أن تكون إلهاً ، خالقاً ، ينسب إليها الخلق ، والتكوين والإبداع والتنظيم ؟ .

سبحانك اللهم هذا ضلال في العقول مبين .

إن العقول السليمة قد حكمت بحدوث المادة المركبة من عناصر عدة . إذ كل مركب حادث ، وكل حادث مفتقر إلى محدث أحدثه قطعاً . كما قضى بذلك قانون العلية المسلم به من جميع العقلاء .

إن وجود مادة . وحركة لها وهي طاقتها معلول فلا بد له إذا من علة اقتضت وجوده ، وهو الإله الأزلي ، الذي ليس بمادة . إذ لو كان غير أزلي لكان محدثاً ، ولو كان محدثاً لكان مادة ، والمادة ميتة فكيف تخلق الأحياء ؟ ومن بديهيات العقول أن فاقد الشيء لا يعطيه . وسواء كان نفيساً كالحياة أو

خسيساً كالموت والعدم . وبما يقضي على هذه الفرية الدجلية ، التلصصية ، التي اغتر بها أهل الغفلة عن ذكر الله تعالى ، وتلاوة كتابه حتى أصبحت شبهة عقلية تضطرب لها قلوبهم ، وهي نسبة الخلق والإيجاد إلى المادة : أن يقال : إن الإبداع الموجود في الكون كله علويه وسفليه ، من الذرة الى المجرة شاهد حق ، وقاضي عدل باستحالة صدوره عن الطبيعة العمياء الميتة ، أو عن الصدفة البعيدة عن كل حكمة ، الخالية من كل إرادة ، وعلم وتدبير .

ما هي الصدفة ؟

إنهم يعنون بالصدفة أن الأشياء تم تكوينها على ما هي عليه من الجمال ، والإبداع والنظام بطريق الموافقة لا بطريق القصد ، والإرادة ، والتدبير بحيث لم يكن هناك قصد ، ولا إرادة ، ولا تدبير .

وهي قضية القول بها مخجل ، والنظر فيها لهو وباطل .

وخلاصة هذه الأضحوكة والأعجوبة معاً : أنه بمرور الزمن الطويل الذي لا يتكلمون فيه إلا بالأرقام الهائلة كمئات الملايين تضليلا وتدجيلا ، فيقولون مثلا : عناصر الذرة تلاءمت وتناسبت بمرور ملايين السنين ، والحياة وجدت خلية على الأرض وبمرور ملايين السنين كانت الحياة على هذه الصورة من الجمال والكهل ، وليس وراء ذلك إرادة هادفة ، ولا تدبير ، وإنما هي صدف وموافقات تم بواسطتها الكون والحياة ، وقد أقاموا نظريتهم هذه على أساس من الافتراضات الوهمية ، والقياسات الفاسدة التي لا يقبلون مثلها لو قالها غيرهم ، لأنهم يدعون أنهم لا يؤمنون بغير المحسوس المشاهد غير انهم هنا خرجوا عن مبدئهم وقالوا بالفرض والقياس تأييداً لترهاتهم ، وأباطيلهم ، وضلال عقولهم في القول بالصدفة ، وأنها علة الحياة ، وأداة التكوين والإيجاد ، كل ذلك هروبا من الايمان بالله عز وجل ، الذي لم ينكروه ، ويكفروا به إلا تخلصا من الطاعة والنظام .

هذا وقد ذكر العلماء لإبطال فرية الصدفة في الخلق والابداع امثلة عديدة قضوا بها على هذه النظرية الميتة ، العمياء ، القائمة على اساس الوهم ، والخيال اللاشعوري منها : قولهم إن مثل من يقول : الابداع الموجود وجد بطريق الصدفة لا غير ، وليس تم من إرادة لأحد ، وانما هي الصدفة والتلقائية فقط كمثل من يقول : إن داراً للطباعة بها صندوق من الحروف يكفي لتصفيف كتاب ، فأصاب الدار هزة من زلزال عنيف ، فتساقطت تلك الحروف على بعضها ، فكونت بالصدفة كتاباً ذا أبواب ، وفصول علمية مختلفة ، وفي مواضع شتى ، كمثل من يقول : إن رجلا أعمى غرزت له إبرة في لوحة ، وأعطي ألف إبرة ، وقيل له ارم هذه الإبر واحدة بعد الثانية لتدخل الأولى في ثقب الإبرة المفروزة في اللوحة ، وتدخل الثاني في عين الإبرة الأولى ، والثالثة في عين الثانية ، وهكذا بطريق الصدفة حتى تدخل كل الإبر في بعضها بعضاً ، والرجل كما علمنا أعمى لا يبصر شيئاً ، فهل عاقل يصدق بصحة هذين العمليتين ؟ اللهم لا ، لأن هذا من قبيل المستحيل الذي لا تقبله العقول ولا تقره ، وإذا فكيف يصدق أن الكون كله بما فيه من إبداع وتنظيم في كل ذرة من ذراته ، تم بطريق الصدفة والتلقائية .

اللهم إن مخلوقاً يصدق بهذه الترهات لمجنون قطعا لا تصح نسبته الى العقلاء ولا يذكر في عدادهم أبداً . وكالصدفة عند الملاحدة الضرورة .

ما هي الضّرورة ؟

إن الضرورة معناها : أن التنوُّعات الموجودة حصلت بطريق الضرورة . فحاجة الزرافة إلى تناول غذائها من أشجار عالية هي التي جعلت عنقها يطول ، وحاجة السمكة الملحة إلى السبح في الماء هي التي اوجدت زعانفها التي تساعدها على السباحة إلى غير ذلك من الهراء والتعسف العجيب ، والمنطق السقيم . وما قالوا بهذه الترّهات والأباطيل إلا إمعانا في الهروب من مواجهة الحقيقة وهي الإيمان بالله الصانع الحكيم ، الذي لا إله

إلا هو ولا رب سواه ، وإلا فما يسمونه بالضرورة إنما هو العناية الإلهية بمخلوقاته ، أو لم يروها في ذات الولد وكيف تدر اللبن لمولودها بمجرد أن تضعه ، وفي ولدها الذي كان في بطنها يتغذى بواسطة الأنبوب المتصل بسرته ، ولما انفصل عنها وخرج من بطنها وحملت له الغذاء في ضرعها ، وهدى الله ذلك المولود الى معرفة امتصاص حلمة الثدي ليتغذى باللبن إلى أن يصبح قادراً على التغذي بالحبوب والفواكه ، والخضر . أو لم يروا إلى ذكور الحيوانات كيف تأتي إناثها مدفوعة إلى ذلك بما أودع الله فيها من غريزة إتيان الجنس لتحبل الأنثى ذاتُ اللبن ، فتوفر للإنسان لحما ، ولبنا ، وجبنا ، وسمنا هو في حاجة الى مثلها لاستكمال غذائه الذي هو عنصر نمائه وحياته إلى أجله .أو لم يروا إلى ذبابة لقاح التين كيف تخرج من حبتها بعد نضجها لتدخل في التينة فتلقحها ، ثم تخرج منها لتدخل في أخرى فتلقحها ، كل ذلك ليتوفر للإنسان فاكهة من ألذ الفواكه ، وأكثرها نفعاً له . أو لم يروا إلى الرياح كيف تثير السحاب وهو الضباب الناتج عن تبخر الرطوبات في الأرض ، ومياه الأنهار ، والبحار ، وكيف يبسط الله تعالى ذلك السحاب في السماء على نسب ومقادير خاصة فيتكثف في طبقات الجو ، ويصبح يحمل كميات من الماء عذبة صافية ثم يمطر حيث يأذن الله تعالى ، فتحيا به الأرض بعد موتها . فتخرج للإنسان غذاءه من الحبوب ، والفواكه ، والخضر . فليقولوا لنا : أين الضرورة في إيجاد اللبن في الضرع ؟ وأين الضرورة في لقاح الحيوان ؟ وأين الضرورة في تلقيح ذباب التين لاناثه حتى يكون التين ؟ وأين الضرورة في عملية التبخر والتكثف ، وإثارة الرياح للسحب ، ونزول المطر بالمقادير والكميات المحدودة ، والأوقات المحدودة ، وفي إنبات الأرض وخروج الثمرات المختلفة ، أين وجه الضرورة في ذلك ؟؟ .

إنه لا ضرورة ، وإنما هي عناية الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . ونختم هذا الجزء من البحث بالحجة العقلية التالية : إن النباتات ، والحيوان ، والإنسان هذه الثلاثة سَلم الماديون بحدوثها ، وبأن الإنسان

أحدثها عهداً بالحياة فيقال لهم : من أحدثها ؟ والجواب لا يخلو من افتراض ثلاثة حلول :

الأول : أن نقول : إن الله هو الذي أحدثها والثاني : أن تكون حدثت بواسطة ذرات المادة ، وأجزائها ، وعناصرها عن إرادة ، وقصد ، وعناية ، بمعنى أن العناصر المادية فكرت ودبرت واتفقت على صنع المخلوقات على ما هي عليه من صور وأشكال . والثالث : أن تكون وجدت من طريق الصدفة بمعنى أن الذرات تلاقت ، وتجمعت على نسب وأوضاع مخصوصة بطريق الصدفة ، فتكونت هذه المخلوقات بما فيها الحيوان والإنسان .

فأي الفروض أولى بالصحة والقبول ؟ أما الثاني فالملاحدة يردونه ، ولا يقولون به ، لأنه ينسب للمادة قصداً وإرادة ، وهم لا يقولون بالقصد والإرادة أبداً . وأما الثالث فهو محال عقلا لبطلان قانون الصدفة وفساده كما عُلم ، وتقدم . فلم يبق إلا الافتراض الأول وهو أن الله تعالى هو الذي خلقها بطريق السُّنن المطردة ، التي وضعها لخلق كل المخلوقات ، وإيجاد هذا العالم وبذلك وجب الكفر بآلهة الملاحدة الثلاثة التي هي الطبيعة ، والصدفة ، والضرورة ، ووجب الإيمان بالله الخالق ، المدبر ، الحكيم ، العليم .

والآن ولما ثبت بالبراهين العقلية وجود الله تعالى ، ووجب الإيمان به رباً وإلها فإنه ينبغي التعرف إليه سبحانه وتعالى .

معرفة الله جل جلاله
ومراتب المؤمنين فيها

إن للمعرفة بالله تعالى مراتب يترقى فيها المؤمنون به عز وجل حتى يبلغوا الكمال في معرفة ربهم سبحانه وتعالى ، وبقدر معرفتهم له جل وعز تكون تقواهم له ، وخشيتهم منه ، ومحبتهم ، وطاعتهم له ، وتقربهم إليه ، وتوسلهم .

فالمرتبة الأولى : من مراتب المعرفة بالله عز وجل هي مرتبة علماء الكونيات الذين يحصلون على إيمانهم بالله ، ومعرفتهم له بواسطة النظر والاستدلال بالخلق في الكونيات ، والإبداع فيها ، فيؤمنون بخالق ذي قُدرة وإرادة ، وعِلم ، ويعرفونه بتلك الصفات من القدرة ، والإرادة ، والعلم ، والحكمة ، والتدبير . غير أنهم يجهلون من أسمائه تعالى وصفاته ما به تعظم محبتهم له ، وخشيتهم منه ، وطلبُ التقرّب إليه ، والمنزلة عنده ، وذلك لعدم إيمانهم بكتابه ورسوله[1] ، إذ به تتم المعرفة الحقّة لله سبحانه وتعالى .

وهؤلاء قد ينفعهم إيمانهم في الحياة الدّنيا بقدر ما أثمرَ لهم من تعظيم لله تعالى ، ومحبة فيه ، وقد ينفعهم في الآخرة بتخفيف العذاب عنهم .

المرتبة الثانية : من مراتب معرفة الله عز وجل هي مرتَبة أهلِ

---

(١) المراد من الكتاب هنا القرآن الكريم . ومن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

الإيمان التقليدي الحاصل لهم عن طريق الشعور الفطري ، واستفاضة الأخبار بوجود الله تعالى وشهرتها ، ومرتبة هؤلاء في معرفتهم بالله تعالى أضعف مراتب المعرفة ، وصاحبها أقل المؤمنين تقوى لله عزّ وجل ، ومحبّةً له ، وخشية منه ، وأولئك كعوام المؤمنين من أتباع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

والمرتبة الثالثة : هي معرفة المؤمنين من أهل الشرائع الإلهية ، وهي مرتبة عالية في معرفة الله تعالى والإيمان به حيث عرف أهلها الله تعالى بطريق أخباره عزّ وجل ، وأخبار العارفين به . والمبلغين عنه ، كما عرفوه عز وجل بواسطة الشواهد والبراهين التي أقامها سبحانه وتعالى لمعرفته . وبواسطة الأدلة والأعلام التي نصبها لذلك ، فهؤلاء المؤمنون أكثر الناس محبة لله ، وطاعة له ، وخشية منه ، وهم المعنيون بقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ (١)

والمرتبة الرابعة : هي مرتبة معرفة الأنبياء والمرسلين بالله تعالى وهي مرتبة أعلى من سابقتها وأتم وأكمل من كلّ مراتب المعرفة بالله عز وجل والايمان به وحبه وخَشيته وطاعته ، والاستقامة على مَنهجه . وتحقيقاً للعبودية ، وأداءً لحقوق الربوبية والألوهية ؛ لأن أهلها جمعوا بين صفاءِ الفطرة ، وسلامتها من التلوّث بالآثام قبلَ نبوّتهم ، ورسالتهم ، وبعد اصطفائهم للرسالات ؛ وتشريفهم بحملها وإبلاغها لمن أرسلوا إليهم ، وبين المعرفة المكتسبةِ بالنظر والاستدلال بالبراهين العقلية . وبين العلم اليقيني . لِتَلقيهم عن الله تعالى وَحْيَهُ ولِمَا أظهره على أيديهم من عظيم المعجزات . وخوارق العادات . ولِمَا خصهم به من معارفَ به . وبأسمائه وصفاته ما كانوا به أكملَ المؤمنين إيماناً .

---

(١) سورة فاطر الآية (٢٨) .

وأقواهم يقيناً . وأكثرهم له تعالى محبةً وطاعة . وأشدُّهُم له تقوىً وخشية . كما قال إمامهم وخاتمهم محمدٌ ﷺ وهو يخاطب أكملَ الناس إيماناً باللّهِ ومعرفةً لهُ بعدَ الأنبياء والمرسلينَ وهمْ صحابتهُ رضوانُ اللّهِ عليهمْ « فواللّهِ إني لأعلمكم باللّهِ وأشدكمْ لهُ خشيةً »[1] .

الطريقة الأولى
الى معرفة الله سبحانه وتعالى
الهداية العقلية

إن العقل السليم إذا أصدر حكما على شيء ما من الأشياء المحسوسة ، أو المعقولة فإن حكمه لا ينتقض أبداً بخلاف حكم غيره مما طريقه الحواس ، أو العادات ، أو الاستقراء فإنه كثيراً ما ينتقض ، فالعين المبصرة قد تصدر حكماً ما على مرئي من المرئيات بأنه ثابت ، أو متحرك فتخطىء في الحكم . والأذن السامعة قد تصدر حكماً على مسموع بأنه صوت إنسان ، أو حيوان ، فيتبين خلاف ما حكمت به . وكذا الذوق . أو الشم فقد يحكم الذوق بأن طعم كذا من المأكولات حلو أو مر . ويتبين الأمر بخلاف ذلك . ويحكم الشم بأن رائحة كذا طيبة أو كريهة . ويظهر خطأ الحكم .

وأما حكم العادات القائم على التجارب فإن الخطأ فيه أكثر . وأكثر منه خطأ حكم الاستقراء والتتبع . لأن الإنسان مهما أوتي من قوة لا يستطيع أن يحيط علماً بالأشياء كلها . فلذا كان الخطأ أكثر في أحكام الذين يبنون أحكامهم على التجارب والملاحظات . والقياسات والافتراضات أما أحكام العقل فإنها متى ثبتت سلامة العقل وصحته لا تنتقض أبداً . وسواء كانت واجبة . أو جائزة أو مستحيلة . ومن أمثلة ذلك حكم العقل في الواجب : أن كل معلول لا بد له من علة .

---

(١) رواه البخاري ومسلم ـ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (١١١/٣) .

وحكمه في الجائز : أن يسكن المتحرك . أو يتحرك الساكن متى وجدت علة الحركة او السكون . وحكمه في المستحيل : أنّ القائم ليس بقاعد .

وهذه العصمة لحكم العقل السليم من الخطأ تتناول أحكامه الضرورية والنظرية على حدّ سـواء . ومن أحكام العقـل الضرورية : ان الواحد نصف الاثنين ، وأن الرجلَ غير المرأة ، وأن المملوءَ من الأوعية غيرُ الفارغ إذ هذه الأحكامُ تدرك بغير تأمل ، ولا نظر أو استدلال .

ومن أحكام العقل النظرية : أن الثلاثة ثمنُ الأربعة والعشرين ، وان الواحد نصف سدس الإثني عشر ، وأنّ العالم حادث ، وأن المعلول لا بد له من علة ، إذ هذه الأحكام العقلية لا تدرك إلا بالنظر والتأمل ، ومع هذا فإن الخطأ لا يتطرق إليها ابداً .

ومن هنا كانت الهداية العقلية احد طريقي الإيمان بالله ، ومعرفته سبحانه وتعالى .

فلنذكر هنا جملة من أحكام العقل وقوانينه القاضية بوجود الله تعالى ، والهادية الى معرفته عز وجل . ومن ذلك :

١ ـ قانون العلّة : ـ

لقد ركز في فطرةِ كلّ إنسان عاقلٍ أنَّ كلَّ متغيِّر من جسم أو حال أو صفة لا بد له من سَبب تغيّر به ، ولا يخرج شيء عن هذا القانون بحال من الأحوال ، اذ كل من يرى آنيةً موضوعةً ، أو آلةً مصنوعةً يحكم على الفور بعقله أن للآنية واضعَها في مكانها الذي هي موضعةٌ فيه ، وأن للآلة صانعاً صنعها حتماً ، ويجعل من المحال أن تكون الآنيةُ قد وُضعت في مكانها بلا واضع وضعها فيه ، وأنّ الآلة قد صنعت بلا صانع صنعها .

ويؤمن الإنسان بهذا إيماناً راسخاً : ولا يستطيع أحد أن يقنعه بخلافه ابداً ، وذلك لأن العقل حكم بأن كلُّ آلة لها من صانع ، وأنّ كل مُتَغيِّر من الأشياء من صفة إلى صفة ، أو من مكان إلى مكان لا بد له من علة تغير بسببها . وهذا القانون أو الحكم العقلي يسري على العالم كلّه بجميع أجزائه ، من المادة والحركة والتنوعات ـ أي أنواع المخلوقات ـ في وجودِه وتغيرِه ، فلا بد لوجوده من عِلّةٍ ، ولا بد لتغيره من سبب أثّر فيه فهو يتغير من حال إلى حال لأجله . ولا بد أن تكون العلة التي اقتضت وجوده وتغيره علةً كافيةً ، وإلا لما تم لها هذا الإيجاد والتغير .

وبالنظر إلى مظاهر الإبداع ، والقصد ، والتنظيم ، والتنسيق ، والإحكام في الخلق والإيجاد ، والتدبير في التصريف أثناء التغيير والتبديل فإن العلة التي اقتضت وجود العالم وسائر المخلوقات فيه لا بد وأن تكون ذات قدرة ، وإرادة ، وعلم وحكمة ، إذ لابد من الكفاية فيها ، وإلا لما تم هذا الخلق ، والابداع ، والتنظيم ، والاتقان ، والتدبير الحكيم ، ومحال أن تكون العلة الكافية هي الطبيعية لعدم القصد لها ، والارادة ، والعلم ، والحكمة ، كمالا تكون (الصدفة) لاستحالة ذلك مع وجود الإبداع المدهش للعقل ، والتنظيم المحير له ، والموافقات يستحيل بها تجمع المادة ، وتوافقها حتى يتم الخلق ، والابداع ، والتنظيم . كما لا تكون ولن تكون الضرورة ، إذ نظرية الضرورة سخر منها كل ذي عقل صحيح ، ومجها كل صاحب ذوق سليم .

ولم يبق أن تكون تلك العلة الكافية التي اقتضت وجود العالم وتنوعاته الا الله سبحانه وتعالى .

وهكذا اصدر العقل السليم حكمه الصحيح الذي لا ينقض أبداً بوجود الله ذي الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، فآمن به

المؤمنون ، وعرفوه بواسطة هذا الحكم العقليّ السليم الصحيح ، والذي لا ينُقض أبداً .

٢ ـ قانون الوجوب :

إن قانون الوجوب هو أحدُ طرُقِ الاستدلال العقليّ على وجود الله تعالى ووجوب الإيمان به ، والتعرف إليه ، ووجوب طاعته والتقرب إليه ، وحقيقة هذا القانون هو أن يقال : إنّ الموجودات من هذه الحوادث التي يحويها العالمُ العلويّ والسفليّ من كلِّ الموجودات من جماد ، ونبات ، وحيوان ، وإنسان ، إما أن يكون وجودها واجباً ، أو مستحيلاً ، أو جائزاً ، ولا يخلو امرها من واحدٍ من هذه الثلاثة بحال من الأحوال ، لقضاء العقل الصحيح بهذا ، وتسليم جميع العقلاء به، وحقيقة الواجب : أنه ما أوجب عدم تصور وقوعه تناقضاً عقلياً لا يقبل ـ وحقيقة المستحيل ـ وهو نقيض الواجب ـ أنه ما أوجب تصور وقوعه تناقضاً عقليا لا يصح .

وحقيقة الجائز ـ ويقال له الممكن أيضاً ـ أنه ما لا يوجب تصور وقوعه تناقضا عقلياً لا يصح أو لا يقبل . وبناء على هذا فهل وُجودُ الكائنات واجب أو مستحيل أو جائز ؟؟؟ .

والجواب : أنّ وجود الكائنات ليس بواجب ، إذ تصور عدم وقوعها لا يوجب تناقضاً عقلياً ، كما أنه ليس مستحيلا ، إذ تصور وقوعها لا يوجب تناقضاً عقلياً ، وكيف وهي موجودة فعلاً ؟ إذاً فإذا لم يكن وجود الكائنات واجباً ، ولا مستحيلاً تعين أن يكون جائزاً ، إذ الأحكام ثلاثة فقط ، وإذا تعين أن يكون وجودُ الممكنات جائزاً لا غير فإنّنا نقول ما دامت الكائنات جائزة الوجود ممكنته فقط ، وقد وجدت فعلا ، فما الذي اقتضى وجودَها ورجحه على عدمه ؟ والجواب أن نقول : إنه لا بد من عِلّة اقتضت الوجودَ ، إذ تصور وجودمعلول بدون علة مستحيل ، لإيجابه تناقضاً عقلياً لا يقبل . وإذاً فما هي هذه العلّة

التي اقتضت وجود الكائنات؟ وكون هذه العلّة التي اقتضت وجود الكائنات هي الطبيعة باطل، لأن الترجيح لا يكون إلا عن قصد وإرادة، والطبيعة لا إرادة لها ولا قصد كما يعترف بذلك القائلون بها. وكونها الصدفة باطل، ما تقدم من استحالة ذلك لوجود الابداع، والتناسق، والتآلف، والوزن الدقيق، ولأن الموافقات لا تتم إلا بعقل جبار، وإرادة عظيمة، وتدبيرٍ وحكمة، وكونها الضرورة باطل بل من أبطل الباطل لأن الضرورة ليست إلا وهماً من أوهام الخيال ولا قائل بها البتة، وقد بيّنا أنها عناية الله تعالى بمخلوقاته، تلك العناية الإلهيّة التي أعطت كل مخلوقٍ خَلقهَ، وهدته إلى ما يَكملُ به وجودُه وتحفظ به حياته إلى أجله الذي حُدِّدَ له. إذاً فإنه لم يبق من علّة لوجود الكائنات اقتضت وجودَها، ورَجّحتْه على خلافه إلا أن يكون اللّهُ جلّ جلاله،هو الذي اقتضى وجودها ورجّحه، فكان الكون على ما هو عليه من إبداع وتنظيم. ومظاهر القدرة، والعلم، والتدبير، والإحكام، والإتقان كلها دالّة على علم الله، وقدرته، وكمالِ تدبيره، وعظيم حكمتهِ.

بهذا عُرف اللّهُ جلّ جلالهُ، وآمن به المؤمنون، وأحبوه، وعبدوه، وتقرّبوا إليه.

٣ ـ قانون الحدوث:

لقد ثبت اليوم وبدون شك حدوث سائر الكائنات الحيّة، ومن أقربها عهداً بالحدوث الإنسان، كما قرر هذا علماءِ الكون وطبقات الأرض. وبهذا ثبت حدوث العالم بأسره قطعاً ويقيناً، لأنّ الشيء الواحد لا يكون قديماً وحديثاً في آن واحد، كما لا يكون بعضه قديماً، والبعض الآخر حديثاً، إذ القول بهذا يوجب تناقضاً عقلياً لا يصح، ولا يقبل في قضايا العقول السليمة.

وإذا سلّمنا بحدوث العالم كله، وهو مُسَلّم، حتى من الطبيعيين

أنفسهم فإنّه لا انفكاك حينئذ من التسليم بوجود علة كافية لإحداثه إذ وجود معلول وهو الحدوث بدون علّة يوجب تناقضاً عقلياً لا يصح لإطباق العقول السليمة على رفضه ، وعدم قبوله .

هذا وما في العالم الحديث من إبداع ، ونظام ، وتدبير يوجب عقلاً أن تكون العلة التي ترتب عليها حدوث العالم علة كافية ، ذات قدرة وعلم ، وإرادة وقصد ، وحكمة وتدبير ، كما يوجب أن تكون العلّة واجبة الوجود لذاتها بحيث لا يتصور افتقارها إلى علّة أخرى لئلا يلزم الدّور ، والتَسلسل وهما محالان في حكم العقول .

وأخيراً فالعلة الكافية التي وجب عقلا أن تكون ، ووجب أن تكون واجبة الوجود هي الله الخالق ، المدبر ، الحكيم ، ذو الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، رب العالمين ، وإله الأوّلين والآخرين .

وبهذا القانون الخاص ـ قانون الحدوث ـ ثبت وجودُ الله تعالى عقلا ، ووجب الإيمان به رباً وإلهاً ، وعينت عبادته بفعل ما يحب ، وترك ما يكره ، طلباً لرضاه ، والسعادة في جواره الكريم يوم لقائه بعد فناء هذا العالم الحادث ، وانقضائه .

٤ ـ قانون النظام :

إن التأمل في الكون كله علويه وسفليه يكشف عن حقيقة كبرى ، لا مجال لإنكارها ، أو تجاهلها والإغضاء عنها ، أو الغض من شأنها ، ألا وهي هذا النظام الدقيق ، العجيبُ الذي رُبِطت به أجزاءُ الكون كله من الذرّة إلى المجرّة ، هذا النظام المدهش ، المحير للعقول ، الذي يُحيل العقلُ البشري السليمُ أن يكون ناجماً عن صدفة وتلقائية ، أو عن تفاعلات كيمائية أو يكون نتيجة للحركة المستمرة للمادة منذ ملايين السنين كما يزعم الخياليون ، والمغرورون ، المخدوعون ؛ إنه لمن أمحل المحال ، وأبطل الباطل أن يصدر هذا النظام الشامل للخلق كله

عن غير ذي إرادة ، وقصد ، وعلم ، وحكمة ، وتدبير ، إن نظرةً إلى السماء ، إلى خَلقها ، وتكوينها ، إلى الإحْكام والإتقان فيها ، إلى أبعادها ، إلى سعتها ، إلى عدد نجومها ، ومواقعها ، إلى الأفلاك الدائرة فيها . إلى ضوء شمسها ، ونور قمرها . هذه النظرة الفاحصة الشاملة ترى الانسانَ العاقلَ من مظاهر القدرة ، والعلم ، والإرادة ، والقصد ، والتصميم ما يجزم معه ببطلان هراء الماديين . وترهات الملحدين ؛ ويسلم بوجود إله عظيم متصف بصفات الربوبية ، ونعوت الألوهية .

وأي نظرة فاحصة دقيقة إلى الأرض ، إلى خلقها وتكوينها ، إلى محيطاتها . وأنهارها ، إلى جبالها ووهادها . إلى مرتفعاتها وسهولها ، الى النباتات والأشجار ، إلى التنوع في الحيوانات ، وإلى الاختلاف في أجناس البشر لوناً ولساناً ، تقفبالناظر عند حقيقة لا يستطيع إنكارها . ولا إخفاءها وجحودَها وهي أنّ وراء هذا الخلق والإبداع خالقاً ، مبدعاً ، عليماً ، حكيماً ، وهو الله الذي لا إله إلا هو ، ولا ربّ سواه . قال الله تعالى في هذا المعنى من سورة ق :

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [1]

إن نظرة عابرة فقط إلى النور ، والحَلَك ، وهذا الهواء المشترك ، إلى ائتلاف الهواء ، إلى عناصر الماء ، إلى النوعية ، والزّوجيّة في كل شيء فيها ، وعليها ، تكفي في إقناع ذي العقل بوجود إله ذي قصد وإرادة ، وحكمة وتدبير ، وقدرة لا تحد ، وعلم لا يحيط به أحد ، ألا

---

(١) الآيات (٦ ـ ٨) .

وهو الله العزيز الحكيم . الله الذي أوجبت العقولُ السليمة وجودَه ، ودلت كلّ ذرّة في الكون على علمه ، وقدرته، وتدبيره ، وحكمته .

٥ ـ قانون العناية بالإنسان :

قبل عرض قانون العناية الذي هو أحد القوانين العقلية الموجبة للإيمان بالله تعالى ، والمعرفة به سبحانه وتعالى ، نذكر قاعدة عامة في الكون كله ، قد تخفى على غير المتأملين في الكون ، والدارسين له ، وهي أنه لا مجال في الكون للباطل . ولا محلّ فيه للعبث بحال من الأحوال . بل الكونُ كله قائم على اساس العدل والحق ، والنظام والإحكام . ولا يوجد جزءٌ واحد من أجزائه خِلْواً من فائدة مقصودة منه، أو حكمة متوخاة فيه . وهذه الحقيقةُ الكونية تظهرُ بوضوح لكلِّ من تأمل الكون ، ونظر في حقائقه . وقد قرّر هذه الحقيقة وأكّدها كتاب الله القرآن الكريم في قوله :

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١]

وفي قوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[٢]

ومثل هذه الحقيقة الكونية في وضوحها ، وثبوتها قانونُ العناية الذي نعرضه الآن رهاناً عقلياً على وجود الله تعالى ، وطريقاً من طرق معرفته عز وجل . وقانون العناية هذا يتألف من حقيقتين : الأولى : خلو الكون كلِه من آيّة ظاهرة للعبث ، والباطل فيه .

والثانية : أنّ الكونَ كلَّه ، وبجميع أجزائه مُسَخّر لخدمة نوع

---

(١) سورة الدخان الأيتان (٣٨ ، ٣٩) .
(٢) سورة ص الآية (٢٧) .

واحد من بين سائر أنواعه ، فمن أعظم كائن فيه ، إلى أصغر كائن وأحقره ، الكل يخدمُ ذلك النّوعَ ، وهي حقيقة مدهشة للغاية ، أن يكون هذا الكون الفخم الهائل بكلّ ما فيه من أجرامه السماوية ، ومخلوقاته الأرضية ، الجميع مسخر تسخيراً خاصاً لخدمة نوع واحد من بين سائر المخلوقات التي حواها الكون ، وانتظمها هذا الوجود المادي القائم على اساس الحقّ والعدل ، والخالي من جنس اللعب والعبث كما سبق بيانه .

وهذا النوع المسخرُ له الكون كله هو الإنسان وحده ، والمثل الذي يوضح هذه الحقيقة التي تبدو غريبة باديء ذي بدء عجيبة هو : أن يأمرَ أحدُ الملوك العظماء ببناء قصر فخم ، كبير ، فيبنى على أحسن طراز ، ويجمل بأحسن أنواع التجميل ، ويزوّد بكل أسباب الراحة ، والإرتفاق ، بحيث يصبح آيةَ في باب القصور الملكية في دنيا الناس متعة وجمالا ، ثم ينزل به ضيفاً كريماً عليه ، ويقول له : لقد بنينا لك هذا القصر لتعيش طَوالَ حياتك متمتعاً بكلّ ما فيه من خيرات ونعيم . فالملك هو الله ، والقصر هو الكون ، والضيف هو الإنسان ، وهذه الحقيقة قد قرّرها القرآن أيضاً وأكدها كالحقيقة الأولى وذلك في قوله تعالى :

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]

ولنستعرض الآن بعض مظاهر العناية بالإنسان في الكون :

---

(١) سورة الجاثية الآيتان (١٢ ، ١٣).

١ - في السماء :

إن في السماء الدنيا كواكب كثيرةً ونجوماً عديدة ، وفيها الشمس وفيها القمر ، والأرض أكثر تعلقاً بهما من غيرهما من سائر الأجرام السماوية . فبالنجوم المشرقة ، والكواكب المنيرة ازدانت السماء الدنيا التي هي سقف لهذه الدار التي يسكنها الإنسان ويعمرها ، وبالقمر المنير ذي المنازل والتقدير استنار غالب ليل الإنسان ، وبه يعرف عدد السنين والحساب ، وبالشمس المضيئة أشرق النهارُ على الإنسان ، وبها عرف ليله ، وميز نهاره ، ومنها استمدت أرضه دفئها ، وحرارتها ، وطاقتها المودَعة فيها ، ولولا الشمس لتجمدت الأرض ، ولما كانت صالحة للحياة . وفي السماء تتجمع السحب وتتراكم ، ومنها تنزل الأمطار مياهاً عذبة بها حياة الإنسان وسعادته . وفي السماء في علوها وارتفاعها ، وكثرة أجرامها ، ومجرَّاتها ، وكواكبها ، ونجومها ، وشموسها ، وأقمارها آيات عظام تهدي الإنسان إلى معرفة ربه ، وتبين له قدرته عليه ، وتريه سوابغ نعمه به .

٢ - في الأرض :

إن في الأرض البحار ، والأنهار ، والمعادن ، والجبال ، والسهول . والتلال فيها الأحياء المائية ، والحيوانات البرية ، ذات المنافع العديدة ، والفوائد الجمة الكثيرة ، وبها الأشجار المظللة والمثمرة ، وبها الزروع ، والنباتات التي هي أرزاق ، وأقوات ، وكلها مسخَّرة للإنسان معطاة له ، لم يكن فيها شيء لغيره ، ولا يخرج منها شيء عن منفعته ، وفائدته بحال من الأحوال .

وبعد هذا الذي أجملناه في تقرير كون الوجود كله من أرض وسماء قد وضع مسخَّراً لخدمة الإنسان ، وذلك دليل على وجود خالق للكون والانسان معاً ، وهو الله تعالى الذي خلق الكون أولا ، ثم خلق الإنسان وسخر له كل ما خلق في الكون عناية به ، وكرامة له ، نذكر

ظاهرة كونية واحدة من ظواهر العناية بالإنسان لتزيد بها قانون العناية تأكيداً . وتوضيحاً وهي ظاهرة اللقاح في النبات والحيوان . وهي ظاهرة مسلَّمة من كل العقلاء . فالنباتات كلها فيها الذكر ، وفيها الأنثى ، ويجري اللقاح بينها حسب سنَّة ثابتة وقانون مرسوم لا يخالف ، وذلك ليتوفر للإنسان غذاؤه من الحبوب ، والفواكه ، والخضر التي هي العنصر الهام في غذائه الذي هو قوام حياته . وظاهرة اللقاح في الحيوان أبين وأوضح ، فالتيس مثلا يطلب أنثاه مندفعاً إليها ، ويجري وراءها ، له صوت عجيب ، حتى إذا أتم لقاحها ، وفرغ منها اعتزلها اعتزالا كليا إلى أن تضع حملها ، وترضعه ، ويكاد يستغني عنها ، يعاودها التيس مرة أخرى ، ويجد من غريزته المودعة فيه دافعاً قوياً نحوها لا يملك التخلي عنه ، ولا السيطرة عليه حتى يتم مهمته التى هيء لها .

ولنتساءل لم يتم هذا ؟ ولصالح من ؟ إنه يتم من أجل الإنسان . ولصالح الإنسان فقط ، إذ بهذا يتوفر له قسط آخر مهم من غذائه الذي هو اللبن والجبن ، واللحم ، كما يتوفر له كساؤه ، وفراشه ، وغطاؤه .

واخيراً هذه العناية بالإنسان المتجلية في الظواهر الكونية كلها إن لم تدل على وجود خالق للكون ذي إرادة ، واختيار ، وعلم ، وقدرة ، وقصد ، وحكمة ، خلق الإنسان وسخر له الكون كله كما هو مشاهد محسوس ، فإنه لم يبق شيء يدل على آخر في الحياة أبداً فلا الرماد يدل على النار ، ولا النوى تدل على التمر ، ولا الكلام يدل على الإنسان ، ولا الحركة تدل على الحياة ، وحينئذ فعلى العقل العفاء وعلى الدنيا السلام .

الطريقة الثانية
الى معرفة الله سبحانه وتعالى
الهداية الدينية

قد سبق أن ذكرنا أن طريقة الهداية الدينية تجمع بين الاستدلالين : القياس العقلي ، والديني الشرعي ، فهي أعظم طريقتي الهداية إلى معرفة الله تعالى والايمان به عز وجل ، وهي التي تبعث المهتدي بها إلى العمل ، المزكي للنفس ، والمهيء له لسعادة الدارين ، بخلاف الهداية العقلية وحدها وهي الطريقة الأولى من طريقتي الهداية فإنها وإن أنقذت صاحبها من التمزق الشخصي ، والقلق النفسي ، والحيرة الفكرية ، فإنها لا تزكي نفسه ، ولا تقوم أخلاقه ، ولا تهيئه لسعادة الدنيا والآخرة ، كما أنها لا تخرجه من دائرة الكفر الموجب للعذاب الأخروي ، والخلود فيه .

وهذا عرض سريع لطريق الهداية الدينية المفضية بمن أخذ بها إلى معرفة الله تعالى بمعرفة سليمة تبعث على الاستقامة ، وتعد للسعادة والكمال ، في الحال والمآل . وقبل الشروع في الكلام نذكر أن هناك حقيقتين ثابتتين ينبغي أن تكونا منطلق التعرف إلى الله تعالى ، والتعريف به سبحانه وتعالى هما :

الأولى : أنه لا يعرفُ الله كنفسه سبحانه وتعالى ، ولا يعرِّف بالله مثل الله جل جلاله . وعظم سلطانه .

والثانية : أن مصدر معرفة الله تعالى ، هو كتابه ، ورسوله . فقد تعرف الله تعالى إلى عباده في كتابه بما لا مزيد عليه . كما أن الرسول ﷺ لم يأل جهداً في التعريف بربه عز وجل ، بالحديث عنه ، وبذكر أسمائه وصفاته حتى عرف المؤمنون ربهم معرفة أثمرت لهم محبته وطاعته ، ويحسن أن ننبه هنا إلى أن للتعريف بالله عز وجل في الكتاب طرقاً مختلفة ، وأساليب متنوعة . منها : أن يخاطب عباده كافة

مؤمنهم وكافرهم . ويتعرف إليهم فيأمرهم وينهاهم .

ومنها أن يتعرف إلى أنبيائه ورسله عليهم السلام فيناديهم ، ويخاطبهم ، ويوحي إليهم .

ومنها : أن يتعرف إلى عباده المؤمنين به وبرسله ، فيخاطبهم يأمرهم وينهاهم ، يعدهم ويبشرهم ، ينذرهم ويحذرهم . ومنها إرساله تعالى الرسل ، وإنزاله عليهم الكتب . وتأييدهم بالمعجزات والخوارق التي يعجز عنها البشر عادة ، ولا يقدرون على مثلها ، لكونها لا تخضع للسنن الكونية . وهذا تفصيل ذلك :

أولاً : خطابه عز وجل لكافة عباده في قوله من سورة البقرة :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[1]

فقد اشتملت هاتان الآيتان على نداء الله تعالى للعباد ، وأمرهم بعبادته، ونهاهم عن الشرك به وبعبادته . كما اشتملتا على التعريف به تعالى رباً ، خالقاً ، مدبراً ، رازقاً . خلق البشرية كلها ، وجعل لها الأرض فراشاً ، والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج لها به من الثمرات رزقها ، وما به قوامُ حياتها . كما اشتملت الآيتان على دليلين عقليين :

الأول : دليل الحدوث .

---

(١) الآيتان (٢١ ، ٢٢) .

الثاني : دليل العناية . وقد سبق بيان كل منهما في بحث الهداية العقلية فليرجع إليهما .

وفي قوله سبحانه من سورة النساء :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾(١)

ففي هذا النداء الإلهي يأمر الله تعالى البشريَّة كلها بتقواه وهي عدم الخروج عن طاعته بترك أمره ، أو بفعل نهيه ، ويذكرهم بأنه ربّهمُ أي خالقهم ، ورازقهم ، ومدبّر أمرهم ، كما ذكّرهم بأصل نشأتهم . فاشتمل هذا النداءُ الكريم على التعريف بالله تعالى بوصفه الخالق ، كما اشتمل على دليل عقلي وهو دليل الحدوث .

وفي قوله تعالى من سورة الأعراف :

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾(٢)

ففي هذا الإخبار الإلهي تعريف بالله سبحانه وتعالى بوصفه الرب الذي خلق الكون كله ، علويه وسفليه ، وهو يدبر أمره من فوق عرشه . وكما انفرد بالخلق والتدبير انفرد بالأمر والعبادة والتشريع .

كما في هذا الخبر القرآني دليل عقلي على إثبات وجود الله تعالى وهو دليل العلة الكافية . إذ الخلق والتدبير مشاهدان في الكون لكلّ ذي عينين فلا بدّ إذاً من خالق . مدبر للكون . ونَفْيُهُ مستحيل لما يوجب

---

(١) الآية (١) .

(٢) الآية (٥٤) .

من التناقض العقلي .

وفي قوله عز وجل من سورة فاطر :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[1]

ففي هذا النّداء تعرّفَ اللّهُ تعالى إلى الناس بأنه وَليّ نعمتهم . نعمةِ الخلق والرزق ، وطَلبَ منهم أن يذكروا ذلك ليشكروه بعبادته وحده . لكونه لا يستحقُّ العبادةَ سواه ، وعجّبهم من انصرافهم عنه ، وهو ربهم الذي لا ربّ لهم غيرهُ .

فاشتمل هذا النداء الكريمُ على دليلين عقليين هما دليل الحدوث ، ودليل العناية .

وفي قوله تعالى من سورة الحُجُرَات :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[2]

فاشتمل هذا النداء الإلهي على التعريف به تعالى بوصفه الخالقَ ، والمدبّرَ ذا العلم ، والخبرة التامة ، فمن مظاهر تدبيره للناس أن جعل حياتهم اجتماعية ليتم التعاون بينهم على تحقيق سعادتهم ، ولو شاء لجعلهم يعيشون على نمط حياة البهائم والحيوانات ، فلا أسرة ولا قبيلة ، ولا شعب ، وحينئذ لا مناص من أن يعيشوا عيش الحيوانات ، فلا مدنية ، ولا حضارة ، بل لا إنسانية ولا كرامة آدمية . كما اشتملت الآية على دليل الحدوث ، والعناية أيضاً .

---

(١) الآية (٣) .

(٢) الآية (١٣) .

وفي قوله من سورة لقمان عليه السلام :

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٖ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٖ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾[1]

ففي هذا الخبر الإلهي تعريف بالله تعالى بصفات الكمال التي انفرد بها دون غيره . وهي خلق السموات خلقاً محكماً بما أودع فيها من قانون الجاذبية فتماسكت أجرامها ، ولم تحتج إلى ما يدعمها من وسائل الدعم التي عرفها الناس كالأعمدة ونحوها وإلقاؤه تعالى الجبال في الأرض لحفظ توازنها حتى لا تضطرب بأهلها ولا تميل بهم فيهلكوا . ونشره تعالى آلاف الدواب المختلفة نوعاً ، وشكلاً ، وخاصية . وفوائد ، نشره في الأرض التي هي كالمائدة الكبرى للإنسان ، وكالفندق العظيم للإقامة والسكن . وإنزاله عز وجل المطر من طبقات الجو السامية . وإنباته النباتات المختلفة التي هي أصل غذاء تلك الدواب التي بثها في الأرض . كما اشتمل آخر الخبر المذكور على تحدّ صريح لأولئك الذين يؤلهون غيره تعالى من مخلوقاته بأن يشيروا إلى شيء ما قد خلقته آلهتهم الباطلة المزعومة . كما اشتمل الخبر أيضاً على الأدلة العقلية التالية : دليل الحدوث ، ودليل العناية ، ودليل النظام ، ودليل الوجوب .

وفي قوله تعالى من سورة الزمر :

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٖ مُّسَمًّى ۗ أَلَا

(١) الآيتان (١٠ ، ١١) .

﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[1]

ففي هاتين الآيتين من كتابه تعالى يتعرف سبحانه وتعالى إلى عباده من خلال صفاته العليا، وهي كونه الخالق، القوي القادر، المدبر، العزيز، الغفار، كما يتعرف إليهم بنعمه عليهم في خلقهم، وجعل الأرض مناسبة لحياتهم فيها باختلاف الليل والنهار عليها، وبوجود الشمس والقمر مسخرين فوقها، القمر ينيرها. وبه تعرف شهورها وأعوامها. والشمس تضيئها، وتدفئها، وتجعل الحياة صالحة فيها.

وبإنزال الأنعام، ذات اللحوم، والألبان، والأصواف، والأشعار، والأوبار، حيث يشربون ألبانها، ويركبون ظهورها، ويأكلون لحومها، ومن أصوافها، وأوبارها، وأشعارها يلبسون ويتأثثون.

بتلك الصفات العلى، وهذه النعم العظمى يتعرف الله جل جلاله إلى الناس ويخبرهم بأنه هو ربهم، وإلههم، لا ربّ لهم غيره، ولا إله لهم سواه، ويعجّبهم[2] من انصرافهم عنه، وإقبالهم على سواه. وقد اشتملت هاتان الآيتان على كل القوانين العقلية، من دليل الوجوب، والحدوث، والنظام، والعناية، والعلة، وبأي تأمل في الآيتين يظهر ذلك جلياً.

---

(١) الآيتان (٥، ٦).

(٢) يحملهم على التعجب.

وفي قوله تعالى من سورة البقرة

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾[1]

ففي هاتين الآيتين من كتابه تعالى يعجب تعالى عباده من كفرهم به وجحودهم له ، مذكراً لهم بحال العدم السابقة لخلقهم ، وبحياتهم ، وموتهم ثم بعثهم بعد فنائهم ، ورجوعهم إليه ليحكم بينهم ، ويجزيهم برحمته وعدله ، ويتعرف إليهم بدليل عنايته بهم ، وبقدرته عليهم ، وبعلمه بهم . كما اشتملت الآيتان على أدلة : الحدوث ، والعلة ، والعناية .

ثانياً : خطابه تعالى لخواص عباده من أنبيائه ورسله ، وتعرفه إليهم بندائهم ، ووحيه إليهم ؛ وإنزال ملائكته عليهم . ومن ذلك نداؤه لآدم أبي البشر عليه السلام ، وخطابه إياه في قوله تعالى من سورة البقرة :

﴿ يَٰٓـَٔادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّٰلِمِينَ ﴾[2]

وقوله من سورة طه :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ

---

(١) الآيتان (٢٨ ، ٢٩) .

(٢) الآية (٣٥) .

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[1]

فقد نادى آدم في الآية الأولى ، وأمره أن يسكن الجنة هو وزوجه ، وأباح لهما كل ما فيها من الأطعمة ، ونهاهما عن الأكل من شجرة واحدة ، وحذرهما من ذلك .

وفي الآية الثانية أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس امتنع ، فخاطب الرب تعالى آدم معلماً إياه بعداوة إبليس له ولزوجه ، ومحذراً لهما من الخروج من الجنة إن هما أطاعا إبليس ، وأكلا من الشجرة التي حرم عليهما .

ومن ذلك خطابه لنوح ، ووحيه إليه ، ونداؤه إياه في قوله تعالى : من سورة هود :

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾[2]

وفي قوله تعالى :

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[3]

وفي قوله تعالى :

﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾[4]

---

(١) الآيات (١١٥ ، ١١٩) .
(٢) الآية (٣٦) .
(٣) الآية (٣٧) .
(٤) الآية (٤٨) .

ومن ذلك خطابه لإبراهيم عليه السلام . وعهده إليه وإلى ولده إسماعيل ببناء البيت العتيق ، وتطهيره للطائفين والعاكفين ، ونداؤه إياه ، ووحيه إليه ، في قوله من سورة البقرة :

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (1)

وفي قوله :

﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (2)

وفي قوله :

﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (3)

وقوله عز وجل :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ (4)

ومن ذلك نداؤه تعالى لموسى عليه السلام ، وإعلامه بأنه ربه ، الذي لا إله إلا هو ، وأمره إياه بعبادته ، وبإقام الصلاة لذكره ، وسؤاله إياه عما في يمينه ، وإجابة موسى له ؛ وأمره تعالى له بإلقاء العصا في حديث ممتع جميل تم لموسى مع ربه جل وعلا بجانب الطور ، وذلك في قوله تعالى من سورة طه :

---

(1) الآية ١٢٤ من سورة البقرة أيضاً .
(2) الآية (١٢٥) من سورة البقرة .
(3) الصافات الآيتان (١٠٤ ، ١٠٥) .
(4) سورة النساء الآية (١٦٣) .

﴿يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ (١)

وفي قوله تعالى :

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ

---

(١) الآيات (١١ ـ ١٤) .

﴿مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ (١)

ومن ذلك نداؤه لداود عليه السلام ، وإخباره إياه باستخلافه له ؛ وأمره إياه بالعدل والحكم بالحق ، ونهيه إياه عن اتباع الهوى في قوله سبحانه وتعالى :

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (٢)

ومن ذلك استجابته لأيوب لما دعاهُ لكشف ضره ، فكشفه عنه ، وأعطاه ما فقده من أهل ومالٍ ، وأرشده إلى استعمال الماء غسلاً وشرباً لشفائه من مرضه ، وأفتاه في يمينه حتى لا يحنث فيها ، وذلك في قوله تعالى من سورة ص :

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ

---

(١) الآيات (١٧ ـ ٤٧) . (٢) سورة ص الآية (٢٦) .

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[1]

ومن ذلك نداؤه تعالى لزكريا عليه السلام ، وتبشيرُه إياه بيحيى لمَّا سأله الولدَ ، وإعطاؤه الآيةَ على ذلك في قوله تعالى من سورة مريم ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾[2]

وقوله تعالى :

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾[3]

ومن ذلك نداؤه لعيسى بن مريم عليهما السلام ، وخطابُه إياه ، وتذكيره بنعيمه عليه وعلى والدته ، وتأييدُه بروح القدس ، وإخبارهُ بأنه متوفيه ورافعُه إليه ، في قوله عز وجل من سورة المائدة :

﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[4]

وفي قوله من سورة آل عمران :

﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[5]

---

(١) الآيات (٤١ - ٤٤) .

(٢) الآية (٧) .

(٣) سورة مريم الآية (١٠) .

(٤) الآية (١١٠) .

(٥) الآية (٥٥) .

ومن ذلك نداؤه لمحمد ﷺ ، وخطابُه إياه ، وإرسالهُ ، وأمره ، ونهيه ، وإرشاده له ، وتعليمه في مواضع كثيرةٍ من القرآن الكريم ، كتابه الذي أنزله عليه ، وجعل هداية أمته فيه ، كقوله تعالى من سورة المائدة :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾[1]

وقوله تعالى من سورة الأحزاب :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[2]

وقوله عز من قائل :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[3]

وقوله من سورة الجاثية :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾[4]

---

(١) الآية (٦٧) .

(٢) الآيتان (٤٥ ، ٤٦) .

(٣) الآيات (١ ـ ٣).

(٤) الآيتان (١٨ ، ١٩) .

ثالثاً : نداؤه تعالى لعباده المؤمنين ، وأمرُه إياهم ، ونهيه لهم ، وإخبارُهم .

وذلك في قوله من سورة آل عمران :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[1]

وفي قوله من سورة الحج :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[2]

وفي قوله من سورة الزخرف :

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾[3]

رابعاً : اصطفاؤه للرسل وإرسالهم إلى الناس يبلغون عنه شرائعه وأحكامه ، ويبشرون أولياءه برحمته ، وينذرون أعداءهَ من نِقمتِه .

ومن ذلك إرساله نوحاً عليه السلام في قوله تعالى من سورة نوح :

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ

---

(١) الآيتان (١٠٢ ، ١٠٣) .

(٢) الآيتان (٧٧ ، ٧٨) .

(٣) الآيات (٦٨ - ٧٠) .

وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١)

ومن ذلك إرساله هوداً، وصالحاً عليهما السلام إلى كل من عادٍ، وثمودَ، كما في قوله تعالى من سورة هود:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا (٢) إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٣)

وقوله:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (٤)

ومن ذلك إرساله إبراهيم، ولوطاً، وشعيباً، وموسى، وعيسى عليهم السلام، كما جاء ذلك في قوله تعالى من سورة الحديد:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ (٥)

---

(١) الآيات (١ ـ ٤).
(٢) أي على إبلاغهم، وتعليمهم توحيد الله تعالى بعبادته وحده دون غيره.
(٣) الآيتين (٥٠، ٥١).
(٤) الآية (٦١) من سورة هود.
(٥) الآية (٢٦).

وفي قوله من سورة الصافات :

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ (١) وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٢) (٣)

وفي قوله من سورة الأعراف :

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (٤)

وفي قوله :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ (٥)

كما أرسله الى بني إسرائيل قومه إذ جاء ذلك في قوله تعالى من سورة الصف :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ

---

(١) أي وقت الصباح وهو النهار .

(٢) أي ما حل بهم من الهلاك فتعتبروا به .

(٣) الآيات (١٣٣ ـ ١٣٨) .

(٤) الآية (٨٥) .

(٥) الآيات (٩٦ ـ ٩٨) من سورة هود .

إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ
وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا
لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ
فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (١)

ومن ذلك إرساله محمداً ﷺ وهو خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عَليهم أجمعين ، في قوله تعالى من سورة الأعراف :

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (٢)

وقوله من سورة الأحزاب :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ
بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا
وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٣)

إن هؤلاء الرسل جميعاً وغيرُهم كثير ، قد أوحى الله تعالى إليهم وعرفهم بنفسه فعرفوه ، وأرسلهم إلى أممهم فبلغوهم رسالاته باسمه ، ودعوا إليه بإذنه ، واستنصروه فنصرهم ، وسألوه العظائم من المعجزات فأعطاهم . فهل بعد هذا يطالب عاقل بالدليل على وجود الله تعالى ، ووجوب الايمان به . وبمعرفته ، وعبادته ، والتقرب إليه ؟ ! اللهم لا . اللهم لا .

خامساً : ما أنزله تعالى من كتب بطريق الوحي المباشر حيث

---

(١) الأيتان (٥ ـ ٦) .   (٢) الآية (١٥٨) .   (٣) الأيات (٤٥ ـ ٤٨) .

أنزل صحف إبراهيم ، وتوراة موسى ، وزبور داود ، وإنجيل عيسى ، وفرقان محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين .

فهذه الكتب قد تلقاها المرسلون وحياً وأوحاها الله تعالى إليهم ، وتلقاها أتباع أولئك الرسل عن رسلهم ، ولم يشك أحد منهم في أنها وحي الله ، وكتبه أنزلها على رسله ، وفيها أمره ونهيه ، وإخباره ، ووعده ، ووعيده ، وشرائعه ، وأحكام دينه ، وإن كان قد طرأ على بعضها فساد بالتحريف ، والزيادة ، والنقص فإن القرآن الكريم كتاب محمد ﷺ[1] وهو أحدثها نزولا ، لم يزل غضاً طرياً كما نزل ، لم ينقص منه حرف ، ولم يزد فيه آخر ، وهو آية صدق نبوة صاحبه الأمي الذي لم يقرأ ، ولم يكتب ، ولم يجلس بين يدي أستاذ قط . وقد اشتمل كتابه ـ ﷺ ـ القرآن ـ على علوم ومعارف بهرت العقول ، وأخذت بالمشاعر والقلوب ، فما من علم من العلوم الإلهية ، والإنسانية إلا وذكر فيه طرف منه وأشير إلى دقيقة من دقائقه ، أو جليلة من جلائله . فسبق[2] الزمان بإشاراته إلى شتى العلوم ، والمخترعات العصرية ، فذكر الذرة[3] ، ونظام الزوجية[4] في كل أجزاء الكون وذراته كما أشار إلى اتساع الكون[5] وكروية الأرض[6] ، وذكر مبادىء الصحة[7] ، ووضع قواعد العدل في الحكم[8] ، وأسس الآداب الرفيعة ، والأخلاق

---

(١) فإن قيل هل تصح إضافة الكتاب إلى محمد ﷺ ؟ قلنا : نعم ، لإضافة كتاب موسى إليه في قوله تعالى (ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة) سورة الأحقاف الآية ١٢ .

(٢) الضمير المستتر يعود على القرآن .

(٣) في قوله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » سورة الزلزلة الآية٧ .

(٤) في قوله تعالى « ومن كل شيء خلقنا زوجين » سورة الداريات الآية ٤٩ .

(٥) في قوله تعالى « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » الآية ٤٧ .

(٦) في قوله تعالى « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » سورة الزمر الآية ٥ .

(٧) في قوله تعالى « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » سورة الأعراف الآية ٣١ .

(٨) في مثل قوله عز وجل « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . . » سورة النساء الآية ٥٨ .

البشرية الفاضلة ، الشيء الذي لم تعهده البشرية في كتاب غيره[1] .

فهذا الكتاب العظيم حوى من العلوم الإلهية ، والكونية ، والقانونية التشريعية في كل مجالات الحياة ، لم يدّع أحد من الخلق أنه قوله وكلامه ، أو تركيبه وتأليفه ، وكل ما في الأمر أنه نزل على بشر هو أكمل البشر طهراً وصفاء ، وصدقاً وأمانة ، وعدلاً ورحمة .

فما مصدر هذا الكتاب ، ومن أنزله ؟ فهل يَحسن السكوت عن الجواب ؟ أو يحسن الكذب والمغالطة فنقول : فاض به وجدان محمد الأمي كما يقول المضللون !! أو ماذا عسى الإنسان العاقل أن يقول ؟ إنه لا جواب صحيح غير الاعتراف بأنه تنزيل الله ، وكتاب الله ، ووحي الله ، ولازم ذلك أن الله منزّله موجود ، وأنه عليم قدير ، وعزيز حكيم . وأن من نزل عليه هو نبي الله ورسوله وأن كل ما جاء في هذا الكتاب حق ، وصدق ، وعدل . وأن الهداية البشرية متوقفة لا محالة عليه ، وأن السعادة الإنسانية منوطة بالإيمان به ، والأخذ بما فيه .

سادساً : ما آتى الله عز وجل رسله من معجزات خارقة لسنن الكون ، وقوانين الحياة تدليلا على صدق نبوتهم ، وثبوت رسالتهم ، ومن ذلك معجزة إبراهيم أبي الأنبياء ، وإمام الموحدين بلا منازع حيث ألقى به خصوم الحق والتوحيد من المشركين والجاحدين ، ألقوه في أتون جحيم تخلصاً منه ، ونقمة عليه ، فخرج منها بحمد الله تعالى ولم تحرق النار سوى كتافه الذي شُدت به يداه ، وقيدت به رجلاه ، فكانت معجزة خارقة لقانون الأجسام القابلة للاحتراق إذا ألقيت في النار ، أو أشعلت فيها[2] .

---

(١) وذلك بمثل قوله عز وجل من قائل « إن الله يأمر بالعدل ، والإحسان ، وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر ، والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون » سورة النحل الآية ٩٠ .

(٢) ثبت هذا بالقرآن كلام الله ، إذ يقول تعالى في حكاية دعوة إبراهيم عليه السلام قومه « قالوا =

ومن ذلك معجزات موسى عليه السلام التي لا ينكرها إلا مكابر « سوفسطائي »، لا قيمه له بين عقلاء البشر ، فإن انفلاق البحر لمرور أمة بكاملها عليه ، واجتيازه لم يكن إلا إحدى الخوارق التي يطأطىء لها الإنسان رأسه إجلالا وإعجاباً[1] ، وإن تفجر اثنتي عشرة عيناً ، تشرب من كل عين منها قبيلة بكامل أفرادها لخارقة لا يملك العقلاء عندها إلا التسليم بها[2] .

ومثلهما العصا التي يلقيها موسى باسم الله فتنقلب حية تسعى ، وتهتز كأنها جان ، وتلقف كل الباطل أمامها[3] .

ومن ذلك معجزات عيسى عليه السلام ، كإبرائه الأكمه ، والأبرص ، وإحياء الموتى بإذن الله تعالى ، وكتكلمه في المهد في أيام ولادته الأولى[4] .

ومن ذلك ما أوتي محمد رسول الله ﷺ من معجزات كالعروج به إلى الملكوت الأعلى[5] ، وردّ عين قتادة بعد أن سقطت متدلية على

= حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم . . » سورة الأنبياء الآيتان ٦٨ ، ٦٩ .

(١) جاء هذا في قول رب العالمين «فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين » سورة الشعراء الآيات ٦٣ - ٦٥ .

(٢) قال تعالى (وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً) سورة البقرة الآية ٦٠ .

(٣) قال تعالى (فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين) سورة الأعراف ١٠٧ .

(٤) قال الله عز وجل « إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني ، وإذ تخرج الموتى بإذني . . . » سورة المائدة الآية ١١٠ .

(٥) ثبت الإسراء والمعراج في الصحيحين وغيرهما من كتب السنة بالتواتر مع ذكره في سورة الإسراء بالقرآن . راجع اللؤلؤ والمرجان (١ / ٣٥ - ٣٩) والبخاري (١ / ٩٢ - ٩٤) في مواضع أخرى

وجنته[1] ونطق جذع النخلة ، وحنينه إليه[2]، وسلام الحصى[3] ، والشجر عليه[4] ، وفيضان الماء من بين أصابعه في صحراء قاحلة لا ماء بها حيث سقى ، وشرب وتطهر جيش بأكمله عدد أفراده ألف وأربعمائة فرد[5] ، وكل هذه المعجزات له ، وغيرها قد شاهدها عشرات المئات من الناس ، ممن هم أكمل الناس صدقاً ومعرفة ، وصلاحا ، بحيث تواطؤهم على الكذب يعد مستحيلاً عقلا .

فهذه المعجزات وكل واحدة خارقة لنظام السنن الكونية . فهل تدل على غير وجود الله رباً وإلهاً ذا صفات متناهيـة في الكمال ؟؟؟ .

اللهم إنها لا تدل إلا عليك ، ولا تعرف إلا بك يا رب العالمين ، وإله الأولين والآخـرين . سبحانـك أن تخفيك ألسنـة الجاحدين .

والآن فليقل المنصفون : بمن يجب أن يؤمن العقلاء : أبإله يخلق ويرزق، ويدبر ، يحيي ويميت ، ويضر وينفع ، ينزل الكتب ، ويرسل الرسل ، ويضع الشرائع والقوانين ، ويهدي ويضل ، ويسعد ويشقي ، ويوالي ويعادي ، ويحب ويبغض ، ويعطي المعجزات ويهب الكرامات ، له تسعة وتسعون اسماً وصفة كلها أسماء حسنى وصفات عليا ، يكلم ويعلم ، ويسمع ويجيب ، يرفع ويضع ، يعز ويذل ، يأمر بالعدل والإحسان ، وينهى عن الظلم والعدوان ؟؟؟ .

= تبلغ تسعة مواضع ، وكذا مسلم في (٩٩/١ ـ ١٠٧) وفي موضع آخر .

(١) ورد هذا في سيرة ابن هشام في الحديث عن غزوة أحد ٣٣/٣ .

(٢) نطق عذق النخلة ثبت عند الترمذي في كتاب المناقب . باب رقم ٩ وحديث رقم ٢٦٣٢ . أما حنين الجذع فقد جاء في صحيح البخاري ١١/٢ .

(٣) راجع الترمذي . كتاب المناقب . باب ٨ . حديث ٣٦٣٠ .

(٤) ذكره مسلم في ٥٨/٨، ٥٩.

(٥) راجع البخاري ١٤٨/٧ .

أم بطبيعة ميتة عمياء صماء بكماء لا إرادة لها ولا اختيار ، لا تسمع دعاء ، ولا تجيب نداء ، لا تحب ولا تكره ، لا تضر ولا تنفع ، لا تعلم ولا تكلم ، لا تنزل كتباً ولا تبعث برسول ، ولا تشرع ولا تقنن ، لا تهدي ولا تضل ، لا اسم لها ولا صفة سوى الحدوث والموت ، والصمم والبكم والعمى !!! .

ألا فليقولوا لنا !! ، أما نحن فقد آمنا بالله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء . خلق آدم من تراب ونفخ فيه من روحه ، وخلق ذريته من ماء مهين ، خلق كل شيء وملكه ، خلق بقدرته ودبر بحكمته ، أنزل الكتب وأرسل الرسل ، يُدعى فيجيب ، ويسأل فيعطي ويستنصر فينصر ، يهدي من يشاء برحمته ، ويضل من يشاء بعدله . فبمعرفته ومحبته تثلج الصدور ، وتمتلىء النفوس بالسعادة ، والحبور . لا أنس بغير ذكره ، ولا سعادة بغير طاعته ، الحياة بدون الإيمان به موت ، والوجود بغير عبادته عدم ، رضاء أمل الآملين ، وغاية العاملين . لا نرضى بغيره بدلا ، ولا نبغي عن طاعته حِولا ، معرفته ومحبته جنة القلوب ، لانصب فيها ولا لغوب .

اللهم كما وهبتنا الإيمان بك . وهديتنا إلى معرفتك ، فسخرنا لطاعتك ، وامنن علينا بمحبتك ، وأكرمنا بولايتك ، وألبسنا ثوب عافيتك ، واخلع علينا حلل رضوانك . آمين . . .

أسماء الله تعالى وصفاته

المؤمنون بالله تعالى ليسوا على درجة واحدة في معرفة أسماء الله تعالى وصفاته ، إذ منهم من لم يعرف الله تعالى إلا لكونه خالقاً ، مدبراً ، حكيماً ، ذا إرادة واختيار ، إليه منتهى الكمال ، والجلال ، والجمال ، وذلك لأنهم آمنوا بالله تعالى ، وعرفوه بواسطة النظر والاستدلال ، والقياس العقلي ، وهي الهداية العقلية مجردة عن هداية الدين الشرعية .

ومنهم من عرف الله تعالى بصفات الخلق ، والإرادة ، والتدبير ، والحكمة ، وبانتهاء الكمال ، والجلال ، والجمال إليه تعالى ، وعرفه بجميع أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وأهل هذه المعرفة هم أهل الهدايتين العقلية النظرية ، والدينية الشرعية ، لأن من أسمائه تعالى ما لا يعلم إلا عن طريق الوحي الإلهي فقط . فالله أعلم بأسمائه وصفاته من خلقه ، وأنبياء الله ورسله أعلم بذلك من غيرهم ممن لم يهتدوا بهداية الوحي الإلهي من سائر الناس .

وحذراً من الكذب على الله تعالى ، وخوفاً من تكذيبه تعالى ، ولاسيما وقد توعد الله تعالى مكذبيه والكاذبين عليه في قوله من سورة الزمر :

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [1]

(١) الآية ٣٢ .

فإن المؤمنين بالوحي الإلهي ، العارفين بأسماء الله تعالى وصفاته يلتزمون حيال أسمائه عز وجل وصفاته بمبدأين لا يجيزون الخروج عنهما بحال من الأحوال ، لما يؤدي إليه الخروج عنهما من تكذيب الله تعالى أو الكذب عليه . والعياذ بالله تعالى من ذلك كله .

المبدأ الأول : أن لا يُسموا الله تعالى باسم لم يسمّ به تعالى نفسه في كتابه أو على لسان رسله عليهم السلام ، فهم إذا دعوه دعوه بأسمائه الحسنى حيث انتدبهم لذلك في كتابه بقوله من سورة الأعراف :

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (١)

وإذا نعتوه وعرفوا به نعتوه بصفاته ، وعرفوه بأفعاله وآياته الدالة عليه جل جلاله ، وعظم سلطانه .

والثاني : أن لا يشبهوا الله تعالى في ذاته ، ولا صفاته ، ولا أفعاله بذوات المخلوقين ، ولا بصفات المحدثين ولا بأفعالهم ، لاستحالة وجود شبه لله تعالى عقلاً وشرعاً . أما الشرع فقد أخبر تعالى في غير موضع من كتابه بنفي الشبيه له والكفؤ فقال تعالى :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (٢)

وقال عز وجل

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ (٣)

---

(١) الآية ١٨٠ .

(٢) سورة الشورى الآية ١١ .

(٣) سورة الإخلاص بكاملها .

وأما العقل فإن خالق المادة لا يكون مادة ، وما لم يكن مادة فكيف تشبهه المادة ، وهل يُشبه ما ليس بمادة بما هو مادة ؟ فلذا قضى العقل باستحالة أن يشبه الخالق بمخلوقاته .

ومن هنا فالمؤمنون يصفون ربهم بكل ما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ولا يتحرجون من ذلك أبداً .

فيقولون : إن الله يسمع ويبصر ، ويحب ويبغض ، وخلق بيديه ، واستوى على عرشه ، ويجيء لفصل القضاء ، وينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا ، وكلم موسى ، وذلك لأمور أحدها : أنه ما دام تعالى قد وصف نفسه بهذه الصفات ، ووصفه بها رسوله ﷺ وهو أعلم الناس به تعالى لم يبق إذاً من معنى للتحرج في وصفه تعالى بذلك ، إذ لو لم يكن ذلك جائزاً ومشروعاً لنهى عنه تعالى في كتابه ، وحرّمه على لسان رسوله ﷺ ، كما حرم تكذيبه والكذب عليه ، ووصفه بما هو براء منه من سائر الأوصاف والنقائص المنافية للكمالات الإلهية كأن يكون له صاحبة أو ولد ، أو شريك في الملك ، أو وليّ من الذل .

وثانيهما :

أنهم عندما يصفون ربهم بصفاته التي وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ ، هم يعلمون يقيناً أن هذه الصفات محال أن يكون شيء منها يشبه صفات المخلوقين للفرق الكبير ، والبون الواسع بين الخالق والمخلوق ، فإذا وصف الله تعالى نفسه بأن له يداً ، ووصفه المؤمن بها فليس معنى ذلك أن يد الله تشبه يد الإنسان ، وأن المؤمن يخطر على باله أن شبهاً ما بين يد الخالق ويد المخلوق ، لا ، والله ، لأن الفرق بين يد الله تعالي الخالق ، ويد الإنسان المخلوق كما بين ذات الله الخالق ، وذات الإنسان المخلوق ، وإذاً فلا مشابهة بين يد الخالق ويد المخلوق البتة ، ولذا فالمؤمنون لا يؤولون صفات الله تعالى ، ولا يحرفونها ، أو يعطلونها خوفاً من التشبيه ، لأنهم يعلمون أن الشَّبَهَ بين

صفات الخالق وصفات المخلوق مُحال عقلاً وشرعاً ولا واقع له في الخارج أبداً ، ولذا هم يعدون من الكذب والباطل أن يشبه المرء الخالق عز وجل بالمخلوقين ، أو يشبه صفاته تعالى بصفاتهم ، وذلك كأن يقول : يد الله كيد الإنسان ، أو عين الله مثل عين الإنسان ، أو استواء الله على عرشه كاستواء الإنسان على عرشه مثلاً ! ، إذ هذا كله ومثله باطل لا واقع له في الخارج أبداً ، وهو كذب بحت ، وافتراء مَحض وذلك لقضاء العقول باستحالة وجود شبه ما بين الخالق والمخلوق في الذات ، والصفات والأفعال .

وثالثها :

أن العقول السليمة لا تحيل إطلاق لفظ صفة لذات من الذوات ، وبإطلاق ذلك اللفظ لتلك الصفة على ذات أخرى مع انعدام الشبه تماماً بين الصفتين ، وبين الذاتين الموصوفتين بهما ، وذلك كلفظ الرأس فإنه يطلق على المال والإنسان فيقال رأس المال ، ويقال رأس الإنسان ، ولا شبه بينهما البتة ، وذلك لانعدام الشبه بين الذاتين الموصوفتين بهما ، وهذا لفظ العين يطلق إطلاقات فيقال عين الشمس ، وعين الماء ، وعين الحيوان ولا شبه بين تلك الذوات التي أطلق عليها لفظ العين المشترك بينها إلا في مجرد الاسم فقط .

وأخيراً فهداية المؤمنين في هذه العقيدة عقلية ودينية ، فالعقلية هي استحالة إدراك كنه ذات الله تعالى ، وكنه صفاته ، لأن ذات الرب تعالى ليست مادة فتدرك ، وصفاته من ذاته ، ومتى استحال إدراك كنه الذات استحال كذلك إدراك كنه الصفات . والدينية الشرعية هي إخباره تعالى بأنه ليس كمثله شيء ، وأنه لم يكن له كفواً أحد ، وأن الخلق لا يحيطون به علماً ، مع وصفه تعالى لنفسه بصفات شتى ذاتية : كالسمع والبصر ، واليد ، والعين ، والرضا ، والغضب ، والحب ، والسخط ، وفعلية : كالمجيء ، والنزول ، والخلق باليد ، والاستواء على

العرش .، وما إلى ذلك مما ورد من الصفات في الكتاب الكريم والسنة الشريفة معاً .

خلاصة :

وخلاصة هذا البحث في باب الأسماء والصفات الإلهية هي أن المؤمنين المهتدين يؤمنون بأسماء الله تعالى وصفاته ، إذ بهما تمت معرفتهم له تبارك وتعالى ، ويدعون الله تعالى بأسمائه ، ويصفونه بصفاته غير مشبهين صفاته بصفات المخلوقين ، ولا مؤولين لها ولا معطلين ، مع اعتقادهم الراسخ بأن الله ليس كمثله شيء ، وبالعجز الكامل في إدراك كنه ذاته تعالى أو كنه صفاته الذاتية والفعلية على حد سواء .

وبذلك سلموا من تكذيب ربهم ، ومن الكذب عليه ، ونجوا تبعاً لذلك من العذاب المتوعد به من كذّب الله تعالى أو كذب عليه في قوله تعالى

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ (١)

براءة واعتذار !!

اللهم إني أبرأ إليك من كفر كل من كفر بك ، ومن إلحاد كل من ألحد في أسمائك أو صفاتك ، ومن شرك كل من أشرك بك في ربوبيتك أو ألوهيتك .

وأعتذر إليك من كل استدلال استدللت به عليك ، ومن كل قياس عقلي وضعته تدليلا على وجودك ، وأنت موجد كل موجود ، ومن كل برهان أتيت به على إثباتك ، وإثبات جلالك وكمالك . ومن كل دليل

---

(١) سورة الزمر الآية ٣٢ .

مادي سقته لأثبت به وجودك ، لأنك يا ربي أنت الدليل على وجودك ، والبرهان على جلالك وكمالك ، فكيف يصح طلب الدليل للدليل ، والإتيان بالبرهان على البرهان ؟؟ . .

قالوا ائتنا ببرهان فقلت لهم   أنى يقوم على البرهان برهان

اللهم إنا كل عبادك المؤمنين بك قد عرفناك بك ، ولم نعرفك بغيرك إنك أنت الذي تعرفت إلينا بنعمك وآلائك علينا ، وبنور الإيمان الذي جعلت في قلوبنا فعرفناك ربنا ، ورب كل العالمين ، وإلهنا ، وإله الأولين والآخرين .

اللهم إننا لم نعرفك وأنت تعلم ـ بقياس ، ولا تطلب مناً لك والتماس ، وإنما عرفناك بما فطرت نفوسنا عليه من الإيمان بك ، والافتقار إليك ، والتوكل والاعتماد عليك . فطرنا بوجودك ناطقة ، وأحوالنا المتبدلة المتغيرة بكمالك شاهدة ! هيهات هيهات يا ربنا أن تعرف بالقياس[1] ، وأنت رب الناس ، وملك الناس ، وإله الناس ، أو أن تثبت بالدليل وأنت خالق المستدل والدليل .

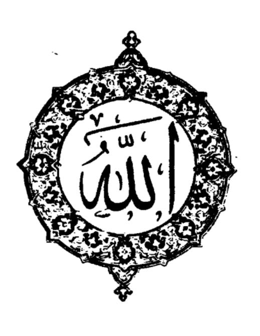
اللهم إن شفيعي عندك ووسيلتي إليك في العفو عني ما قد علمته مني من شعور[2] بالحياء والخجل وأنا أدلل عليك وأبرهن على وجودك ، وأنت الظاهر الذي لا تخفى ، والموجود الذي به قام كل الوجود !

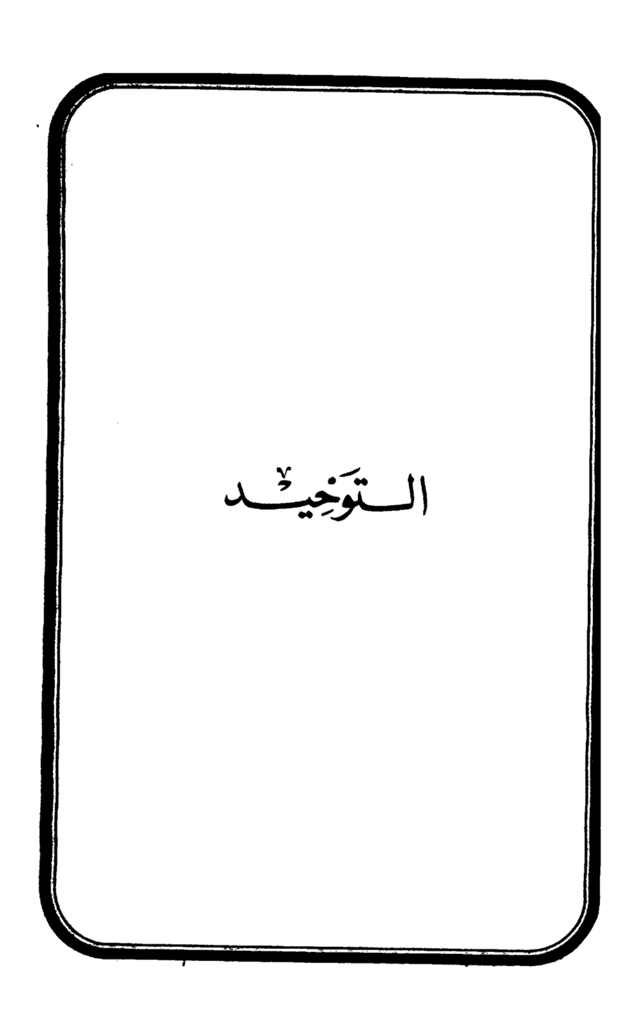
---

(١) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه تعالى في كتاب توحيد الربوبية من فتاواه : أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قيل له بماذا عرفت ربك ؟ فقال : من طلب دينه بالقياس لم يزل دهره في التباس ، خارجاً عن المنهاج . ظاعناً في الاعوجاج ، عرفته بما عرف به نفسه ، ووصفته بما وصف به نفسه .

وذكر أيضاً أن شيخا عارفاً قيل له في ذلك فقال : عرفت الأشياء بربي . ولم أعرف ربي بالأشياء ـ مجموع فتاوى ابن تيمية (١٨/٢) .

(٢) حقاً لقد كنت أشعر بشعور غريب لم أستطع أن أعبر عنه إلا بأنه ضرب من الحياء والخجل ، وما في معناهما ، وذلك أثناء كتابتي للبحوث المتعلقة بوجود الله تعالى والإيمان به في هذه الرسالة ، لا سيما عند الاستدلال والنظر ، والقياسات العقلية ، إذ كان يهاجمني شعور باطني فطري بأن الله تعالى لا ينكر وجوده ، ولا يقوى على إنكار وجوده أحد ، وكيف نرضى بالحياة ، أن نقبلها خالية من الله والإيمان به ؟ وكيف ؟؟ !!


الله



التَوحِيد

التوحيد

ما هو التوحيد ؟

التوحيد : مصدر وحد الشيء ، يوحده توحيداً إذا أفرده ، ونفى عنه التعدد . والتوحيد في عرف الشرع نفي الكُفء والمثل عن ذات الله تعالى وصفاته ، وأفعاله ، ونفي الشريك في ربوبيته ، وعبادته عزّ وجلّ . قال تعالى في نفي الكفء :

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[1]

وقال في نفي الشّريك في الربوبية :

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾[2]

وقال :

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾[3]

---

(١) سورة الإخلاص بكاملها .

(٢) سورة الرعد الآية ١٦ ..

(٣) سورة يونس الآية ٣١ .

وقال في نفي الشريك في العبادة :

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [1]

وقال :

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [2]

ومن هنا كان التوحيد ثلاثة أقسام : توحيد في الذات ، والأسماء ، والصفات ، وتوحيد في الربوبية ، وهي اختصاصه تعالى ، وتفرده بالخلق ، والرزق ، والتدبير لسائر الخلق والملكوت ، وتوحيد في الألوهية ، أي في العبادة وهو اختصاصه تعالى بسائر العبادات ، وتفرده بها دون سائر مخلوقاته ، سواء من كمل منهم وشرف كالملائكة ، والأنبياء ، والصالحين . أو كان دون ذلك من سائر الناس والمخلوقات .

وقد تقدم قريباً بحث توحيد الذات ، والأسماء ، والصفات ، وسيفرد كل من توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ببحث خاص ، تبين فيه حقيقته ، وما ينبغي للمؤمن أن يعلمه منه ، ويعتقده فيه .

(١) سورة محمد الآية ١٩ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٦٢ .

توحيد الربوبية

ما هو توحيد الربوبية ؟

لا بد للإجابة عن هذا السؤال إجابة كافية تحدد المعنى المسئول عنه ، وتظهره بوضوح ، لا بد من معرفة مدلول كلمة (الرب) التي منها اشتق لفظ الربوبية ، إن لفظ الرب يطلق على عدة معان ، منها السيد ، والمالك ، والمربي ، والمصلح ، والمعبود بحق سبحانه وتعالى ، إذ لفظ الرب يطلق عليه إطلاقاً حقيقياً. ويطلق على غيره إطلاقاً مجازياً ، إضافياً لا غير .

ومن هذه المعاني الكثيرة للفظ الرب اشتق اسم الربوبية التي تعني الخلق ، والرزق ، والملك ، والسيادة ، وللتربية ، والإصلاح ، والتدبير . ولكون الله تعالى هو الرب الحق للعالمين ، اختص بالربوبية دون سواه ، ووجب توحيده فيها ، وامتنع عنه الشريك فيها ، بحيث لا تصلح الربوبية لغيره من سائر خلقه ولا تصح .

ومن هنا أصبح توحيد الربوبية معناه نفي الشريك عنه تعالى في صفات الربوبية الحقة ، والتي هي الخلق ، والرزق ، والملك ، والتدبير الذي من لوازمه الإماتة والإحياء ، والعطاء والمنع ، والضر والنفع ، والإعزاز والإذلال . ولا يخل بتوحيد الربوبية ، أو يضره أن يقال : فلان رب الدابة ، أو فلان سيد قومه ، أو فلان يملك كذا ، أو فلان يربي ، أو يصلح ، أو يحكم ، إذ هذا الإطلاق لا يعني أكثر من

أن الله تعالى رب كل شيء ، ومليكه ، وهبهم من فضله ما أصبحوا منه يتمتعون بهذا القدر من الملك أو السيادة ، أو التربية والإصلاح ، وهي نسب إضافية لا غير ، إذ الواقع المشاهد لا يثبت للإنسان ملكاً حقيقياً ، ولا سيادة من كل وجه ، ولا تربية زائغة عن الإرشاد والتوجيه ، ولا إصلاح ولا حكم بغير إنفاذ شرائع الله تعالى في عباده ، وإصلاحهم بها .

فطرية الاقرار بالربوبية :

وعقلاء الناس في كل زمان ومكان يتحاشون دائماً أن ينسبوا شيئا من صفات الربوبية لغير الله تعالى ، الرب الحق الذي لا رب غيره ، ولا إله سواه ، وذلك لما يعلم الإنسان العاقل ذو الفطرة السليمة من عدم صلاحية المخلوقين للاتصاف بصفات الربوبية ، وعجزهم عنها ، لأن المخلوق لا يخلق ، والمملوك لا يملك .

ويكفي شاهداً على هذه الحقيقة اعتراف مشركي العرب حين نزول القرآن وهم يُدعون إلى عبادة الله تعالى وحده ، اعترافهم بعدم صلاحية آلهتهم لشيء من صفات الربوبية وحقائقها ، مع شدة تعصبهم لتلك الآلهة ، وتقديسهم لها ، وتعظيمهم ، فإنهم كانوا لا يترددون في الاعتراف بعدم صلاحية الإنسان فضلا عن غيره من التماثيل والأصنام ، للاتصاف بصفات الربوبية ، فلم يكونوا ينتحلونها لأفرادهم ، ولا لآلهتهم ، ولا يدعونها لهم بحال ، وذلك لما وقر في نفوسهم بحكم الفطرة البشرية من عجز المخلوقين عن الخلق . والرزق ، والتدبير ، والملك .

وقد سجل القرآن الكريم عجزهم واعترافهم في غير آية منه ، ومن ذلك قوله تعالى من سورة يونس

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ

وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ (1)

وقوله سبحانه من سورة الزخرف :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (2)

وقوله من سورة المؤمنون :

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ (3)

وقوله :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (4)

الالحاد الشيوعي :

ويضاف إلى تلك الحقيقة حقيقة أخرى وهي أنه لم يعرف الإلحاد بإنكار الخالق عز وجل بين أجناس البشر قاطبة إلا في القرنين الثامن عشر ، والتاسع عشر الميلاديين ، وبخاصة عندما ظهر المذهب الشيوعي الماركسي اللينيني المدمر والذي نكبت به أوروبا وأنحاء كثيرة من العالم ، فإنه وإن كان هناك كفر بالله تعالى ، وشركٍ به بين الأمم والشعوب البشرية ، غير أن الشعور الفطري قائم في كل نفس بالاعتراف بوجود سلطان غيبي هو سلطان الله تعالى ، والناس يتوسلون

---

(1) الآية ٣١ .

(2) الآية ٩ .

(3) الآيتان ٨٧ ، ٨٧ .

(4) سورة الزخرف الآية ٨٧ .

إليه بشتى الوسائل استجلاباً للخير منه ، ودفعاً للشر بواسطته . إن كل الآلهة التي أوجدها الإنسان باطلا ، وقدم لها مختلف العبادات ، وتقرب إليها بشتى القُرب ، الأصل فيها الشعور الفطري بوجود الله ، الخالق ، المدبر للخلق ، والكون معاً .

عوامل الالحاد في العالم :

إن العوامل التي ساعدت على انتشار الإلحاد في العالم ، ومكنت للمذهب الشيوعي الإلحادي المدمر في أوروبا وغيرها قد تكون كثيرة غير أن أهمها عندي وفي نظري خمسة لا غير وهي :

١ ـ ظلم الكنيسة النصرانية : وتحالفها مع الملوك النصارى على استعباد الشعوب النصرانية ، واستذلالهم ، واستغلالهم باسم السلطة الروحية الدينية .

٢ ـ فساد الديانة النصرانية ، وبطلانها ، ومنافاتها للعقول ، وتصادمها مع حاجات الإنسان الفطرية ، الأمر الذي يسهل على الناس من أتباعها التنكر لها ، والكفر بها بمجرد وجود من استطاع أن يفلت من زمامها ، وينتقدها ، ويبين خطأها .

٣ ـ طفرة العلوم الكونية ، والصناعية والآلية ، طفرة أدهشت العقول وحيرتها ، الأمر الذي حمل الناس على تصديق كل نظرية تأتي باسم العلم ونظرياته ، وإن كانت النظرية فرية ظاهرة معلوم كذبها ، ومعروف كاذبها ، وذلك لأن المرء إذا ضعف أمام أية قوة مادية أو روحية يفقد كل قواه العقلية والبدنية ، ويصبح قابلا لكل ما تمليه عليه ، مستجيباً لكل ما تدعوه إليه ، مصدقاً لكل ما تقوله وتخبر به .

٤ ـ مَيل الإنسان بطبعه إلى الشهوات والملاذ ، ونفوره من القيود ، والأنظمة التي تحدد من ميوله ، وتوجه غرائزه ، لا سيما إذا وجد مُشجعاً على ذلك ، مؤيداً له في نزعته التحررية ، الإباحية ،

التحللية من كل القيود الأخلاقية ، والالتزامات الدينية الشرعية .

٥ ـ غيبة الحكم الإسلامي ، وخفوت نور الإسلام ، وتقلص ظل سلطانه الروحي ، وانحسار مَدِّه الخيري الذي كان يعطي البشرية في شتى أنحاء العالم طاقات كبيرة من القيم الروحية ، والأخلاق البشرية الفاضلة الكريمة ، إذ الفترة التي ظهر فيها المذهب المادي الشيوعي كان الإسلام قد ران على عقائده رين الخرافات والضلالات ، وحل بدياره الدمار ، وبأسواق علومه ومعارفه الكساد والبوار ، نتيجة لكيد أعدائه له ، وغفلة بنيه عنه ، فوجد لذلك المذهب الإلحادي الجو خالياً للتضليل ، والمغالطة ، والفساد ، فحكم على الأديان كلها بالبطلان ، ونسب كل ضعف في الناس إليها ، وكفر بها وحاربها ، ووجه نقده إليها بلا هوادة .

أما والله لو وجد الإسلام حاضراً ما غاب ، فوجد اختراعاته ، وتفوقه في كل مجالات الحياة العلمية من كونية ، وتقنية ، وتشريعية ، وروحية ، ووجد عدله في شعوبه ، ورحمتهم في الناس أجمعين ، ووجد سعادته تغمر أهله ، وتتعداهم إلى خصومهم وأعدائهم ، لما أمكن المذهب الإلحادي أن يقول ، فضلاً عن أن يجول أو يصول ، ولكن الأمر كما قال القائل :

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

هذه خمسة عوامل ، كل واحد منها ساعد على نشر المذهب الإلحادي المدمر الذي يجتاح العالم اليوم ، وقد يحول البشرية إلى حيوانية من أحط ما تكون الحيوانية إن لم يعارض بسرعة ، ويوقف عند حده .

وإني لا أرى أن مذهباً في العالم ، أو قوة ستعارضه ، وتوقفه عند حده فضلاً عن أن تبدده ، وتقضي عليه . اللهم إلا أن يكون الإسلام ،

والإسلام وحده ، إذا ما رزق دولة عظيمة ، تؤمن به في صدق ، وتطبقه بحزم وعزم وتعطيه الحكم والنيادة ، فإن هذه الدولة سوف تحل عقدة الإلحاد المستعصية وتري الناس زيف النظريات الإلحادية ، وادعاءاتها الباطلة ضد دين الله الحق .

أوروبا هي الضحية الأولى :

وبما أنّ أوروبا هي التي جرّت هذه المحنة على العالم الإنساني فإنها ستكون قطعاً هي الضحية الأولى للإلحاد الشيوعي ، وقد كانت فعلاً - وحتى لا نكون قد تجنينا عليها في هذا فإنّا نقول : إنه بعد أن ظهر الإسلام ، وعرفت أوروبا في الجملة صلاحيته لهداية البشر ، وإعدادهم للحياة الفاضلة ، وسعادةِ الدُّنيا والآخرة ، بَدَلَ أن تعتنقه ديناً ، وتحتضنه مبادىءَ خيرٍ ، وسعادةٍ ، وإسعاد ، قاومتهُ ووقفت في طريق تقدُّمه وانتشاره ، ومن العجيب أنها حاربته باسم الدّين المسيحيّ والنصرانيّة كأنها لم تدرِ أنّ الإسلام هو دينُ اللّهِ الحقّ الذي أرسل به نبيّه محمداً صلى اللّه عليه وسلم إلى البشرية كافّة . وأما المسيحية فلم تكن سوى دينٍ اقليميّ محليّ فقط ، لأن عيسى عليه السلام لم يكن رسولاً إلى غير بني إسرائيل أبداً . فقد قال هو بنفسه : « لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة »[1]. وقال عنه القرآن الكريم :

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[2]

أما محمدٌ صلى الله عليه وسلم فهو رسول الله إلى الناس كلهم أجمعين بدليل قوله هو صلى الله عليه وسلم : « وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعثُ إلى

---

(١) إنجيل « متى » الإصحاح (١٥) فقرة (٢٤).

(٢) سورة الصف الآية (٦) .

قومِهِ خاصّةً ، وبُعثتُ إلى النَّاسِ كافةً ﴾[1]. وقول الرّب تعالى له :

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [2]

وقوله :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[3].

وقوله :

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [4]

والأغرب من هذا أن اليهود الذين حاربوا السَّيدَ المسيح وألجأوا حواريه إلى رؤوس الجبال ، والذهاب في كلِّ منأى بعيدٍ فراراً بدينهم ، هم الذين وضعوا الديانة النصرانية الباطلة ، التي حاربت أوروبا الإسلام من أجلها . إن اليهود يبدو أنهم لما رأوا مبادىء السيدَ المسيح تنتشر في شرق أوروبا طاردوها ، فتمسح من تمسح منهم خديعة وغشاً حتى تمكن من العبث بالدين المسيحي وتحويله إلى دين وثني يبرأ منه المسيح الذي قال في مهده .

﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾[5] وقال وهو نبي ورسول :

﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [6]

---

(١) رواه البخاري ومسلم مطولا ، اللؤلؤ والمرجان (١/١٠٤) .
(٢) سورة الأعراف الآية (١٥٨) .
(٣) سورة سبأ الآية (٢٨) .
(٤) سورة الفرقان الآية (١) .
(٥) سورة مريم الآية (٣٠) .
(٦) سورة المائدة الآية (٧٢) .

وليس أدل على ذلك من أن الإنجيل الواحد قد حول إلى عدة أناجيل[1] .

أقول إنه بعد أن تجلى لأوروبا صلاحية الإسلام ، وأنه رحمة الله العامة للناس أجمعين أبيضهم وأسودهم ، ولم يكن دين العرب وحدهم ، ولا دين الآسياويين دون الأفارقة ، أو الأوروبيين، بل هو دين البشرية كلها حيث كانت ووجدت .

أقول بعد أن ظهرت لأوروبا صلاحية الإسلام لهداية الناس أجمعين ، بدل أن تقبل عليه ، وتحتضنه وتسعد به ، وتسعد الناس عليه أخذت تحاربه ، وتحارب المؤمنين به ، والمتبعين لمنهجه ، فشنت حروباً صليبية لا هوادة فيها ، وأخرى استعمارية لا رحمة فيها ، وقضت بها على الخلافة الإسلامية بعد أن استعملت أسلوب اليهود في المكر ، والدس والخديعة لإفساد العقيدة الإسلامية ، فتعاونت سراً وعلانية مع الزنادقة والباطنية ، والمتصوفة والطريقيين ، ومع سائر الفرق الإسلامية المنحرفة ، الضالة ، ممن يحسبون على الإسلام وهم أشد أعدائه فتكاً به ، وإفساداً له ، وقضاءً عليه .

وأخيراً وبعد أن قررت أوروبا التخلي عن مستعمراتها الإسلامية لعدم الجدوى لها في بقائها فيها صنعت على عينها ، وبيدها رجالاً من مستعمراتها ملء إهاب أحدهم عداوة للإسلام ، حنقاً عليه ، وتقززاً منه ، واستخفافاً به ، وبمبادئه وشرائعه ، وسلمتهم السلطة المحلية ، وخرجت من الباب لتعود من النافذة ، وتجلس على عرش قلوب أولئك الصنائع لتسخرهم . عملاء لها ، يواصلون نيابة عنها حربهم للإسلام وأهله ، وكذلك كانوا وفعلوا حتى لم يبق من الإسلام إلا الإسم ، ومن

---

(١) بلغت الأناجيل بعد تحريفها خمس وثلاثين إنجيلا ، ثم اختير منها خمسة أناجيل ، وهي المتداولة الآن عند فرق النصارى في أنحاء العالم .

كتابه إلا الرسم . وبناء على الحكمة القائلة :

﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[1] .

فإن أوروبا ستذوق في يوم من الأيام أقسى محنة ، وستتجرع أعظم غصة ، نتيجة جريمتها على الإسلام دين الله الذي هو دينها ، ولا دين لها على الحق سواه ، وما ظلمها الله فيما سيصيبها به ، ولكن كانت هي الظالمة .

(١) هذه آية من سورة فاطر ورقمها (٤٣) .

شرك الربوبية
ومظاهره في الأمة الإسلامية

قد يبدو غريباً جداً ـ بعد أن قدمنا أن مشركي العرب أيام البعثة المحمدية لم يكونوا يشركون في ربوبية الله تعالى أحداً من خلقه ـ اعترافنا بوجود مظاهر لشرك الربوبية في الأمة الإسلامية اليوم ، غير أن هذا الاستغراب سيزول بمجرد وقوف المرء على مظاهر الشرك واضحة جلية في شتى مجالات حياة كثير من المسلمين .

وهنا بيان مقتضب لتلك المظاهر الشركية في بعض أفراد الأمة الإسلامية نذكرها تحذيراً منها ، وتعليماً بأن عقيدة المؤمنين الحقة خلو من كل مظاهر الشرك ، وآثاره ، لابتنائها على هدى الكتاب والسنة ، كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

١ ـ اعتقاد كثير من عوام المسلمين وأشباههم أن هناك في الكون أقطاباً ، وأبدالاً من الأولياء والصالحين لهم قدر من التصرف معين في حياة الناس ، فهم يولون ويعزلون ، ويعطون ويمنعون ، ويضرون وينفعون ، كما شاع بين عوام المسلمين أن لهؤلاء الأقطاب والأبدال ديواناً يطلق عليه ديوان الصالحين ، منه تصدر القرارات والمراسيم بربح فلان ونجاحه ، وخيبة فلان وخسرانه .

ومن هنا تعلقت قلوب كثير من الناس بالصالحين ، وهتفت بهم الألسنة ، واستغيث بهم ، ودعوا عند الشدائد ، ونودوا للخلاص من المحن ، وهو مظهر واضح للشرك في الربوبية ، لما فيه من اعتقاد

التصرف والتدبير في الكون لغير الله تعالى ، أو له ولغيره معه سبحانه وتعالى .

٢ ـ اعتقاد كثير من المنتسبين إلى العلم أن لأرواح الأولياء والصالحين تصرفاً بعد موتهم ، وشاع هذا الاعتقاد الكاذب الباطل ، ورسخ في نفوس كثير من المسلمين حتى أصبحت الأضرحة والمشاهد والقبور ملاذاً لكل خائف ، ومستشفى لكل مريض . فمن أصابه كرب ، أو نزل به ضيم ، أو حلت به نكبة ، فزع إلى تلك الأضرحة ، والمشاهد ، والقبور ، وأناخ بساحتها ، وتعلق بأهداب أصحابها ، راجياً منها تفريج كربه ، وقضاء حاجته !

فكم من مريض نقل إلى تلك الأضرحة ، وذهب به إليها ، وكم من ذي عاهة ، أو صاحب حاجة قد أمها ، وقصدها ، ونزل بساحتها ، وكله رجاء وطمع في أصحابها ، حتى شاع بين العوام قول : « إذا تعسرت الأمور ، عليكم بأصحاب القبور » فيأتونهم للاستعانة بهم ، والدعاء عندهم . ومثل هذا لا يشك عاقل من المؤمنين في أنه شرك ظاهر ، لما فيه من اعتقاد أن لأرواح الأولياء والصالحين تصرفاً بالعطاء والمنع ، والضر والنفع .

وهذا من خصائص الربوبية ، إذ هو من التدبير للخلق الذي اختص به الرب تبارك وتعالى .

٣ ـ الرهبة من الجن والخوف منهم ، والاستغاثة بهم ، وتقديم القرابين لهم ، كالتي تذبح على حافات الآبار عند حفرها ، وعلى أعتاب المنازل عند إتمام بنائها ، وإرادة السكن بها ، وكالتي تذبح عند انتشار الأوبئة ، والأمراض المعدية . كل هذا موجود بين جهال المسلمين وهو شرك ظاهر في ربوبية الله تعالى ، إذ الحامل عليه اعتقاد أن الجن لهم تصرفات خارجة عن إرادة الله تعالى وتدبيره .

وهذا مما ألقاه الشيطان في قلوب أوليائه من الإنس فعملوا به ، وأشاعوه ، ونشروه حتى أصبح عقيدة في نفوس الجهال من المسلمين .

وهو إشراك لشياطين الجن في ربوبية الله تعالى ، وإيمان بهم والعياذ بالله تعالى .

٤ ـ تقديس المشايخ من رجال التصوف والطرقيين ، والمشعوذين ، وطاعتهم في غير طاعة الله تعالى ، وطاعة رسوله بل فيما هو مكروه لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وقبول ما يشرعون لهم من البدع ، وما يسنون لهم من سنن الباطل ، واتباعهم في ترك سنن الهدى ، ومعاداتها ، ومعاداة أهلها ، والداعين إليها ، والاستجابة المطلقة لهم بحيث يمكنونهم من نفوسهم فيتسلطوا عليها ، ومن أرواحهم فيهيمنوا عليها ، فاعتقدوا فيهم أنهم يعلمون سرهم ونجواهم وأنهم يكاشفونهم في كل أحوالهم ، ويطلعون منهم على كل مخبآت نفوسهم ، فذلوا لهم ، وهانوا . وضعفوا أمامهم ، واستكانوا لهم حتى مكنوهم من أنفسهم ، وأموالهم ، وأعراضهم .

فهل هذا الخضوع ، والذل ، والطاعة المطلقة ، والتسليم التام لهم ، لا يُعد شركاً في ربوبية الله تعالى ، وهل أولئك الرجال الذين استعبدوهم لا يعدون أرباباً وآلهة لهم ؟؟

٥ ـ الخنوع للحكام غير المسلمين ، والخضوع التام لهم ، وطاعتهم بدون إكراه منهم لهم ، حيث حكموهم بالباطل ، وساسوهم بقوانين الكفر والكافرين ، فأحلوا لهم الحرام ، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم في كل ذلك ، ولم ينكروا عليهم ، ولم يرفضوا لهم .

إن الاتصاف بهذا الذي ذكرنا ، والقيام عليه ، والرضا به ، والاقتناع بصحته شرك ظاهر في ربوبية الله تعالى ، لأن الطاعة في

معصية الله تعالى بدون إكراه عليها كفر بصاحبها ، ويشهد لهذا ويصححه حديث عدي بن حاتم الطائي الذي كان قد تنصر في الجاهلية ، ثم أسلم ، وسمع الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأ قول الله تعالى في شأن أهل الكتاب :

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

فَأَنْكَرَ عَدِيٌّ أَنْ يَكُونُوا عَبَدُوهُمْ ، فَقَالَ لَهُ الرسولُ ﷺ :ـ « أَلَيْسُوا يُحِلُّونَ لَكُمْ الحرامَ فَتُحِلُّونَهُ ؟ وَيحرِّمُونَ عليكُمْ الحلالَ فَتُحَرِّمُونَهُ ؟ فَقَالَ : بَلَىٰ . قالَ النَّبِيُّ ﷺ : « فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ »[1]

وأخيراً فتلك بعض مظاهر شرك الربوبية في الأمة الاسلامية اليوم وإن تساءلنا عن أسبابها فإنا لا نجدُ بُدّاً من القول بأنها كانت نتيجةَ جَهْلِ الأمة بكتاب ربها وسنة نبيها ، وذلك لبعدها عن دراستهما ، والعمل بهما زمناً غير قصير ، مع ما دسه عليها خصومُ إسلامها الحانقين عليها والنّاقمين منها ، مما أفسد عقيدتها ، وبَعُدَ بها كل البعد عن مركز القوة وهو العلم والإيمان .

---

(١) رواه أحمد والترمذي وحسنه ـ والآية المذكورة في الحديث من سورة التوبة برقم (٣١) .

توحيد الألوهية

إن توحيد الألوهية ـ العبادة ـ جزء هام من عقيدة المؤمن ، إذ هو ثمرة توحيد الربوبية ، والأسماء ، والصفات ، وجَنَاهُ الطَّيِّبُ ، وبدونه يفقد توحيد الرّبوبية ، والأسماء ، والصفات معناه ، وتنعدم فائدته .

إن توحيد الربوبية يدور على المعرفة بالله وربوبيته ، ونفي الشريك له في ذلك ، كما أنّ توحيد الأسماء والصفات يدور على إثبات أسماء الله تعالى وصفاته ، ونفي الشريك في الأسماء ، وعدم التمثيل ، والتأويل ، والتعطيل في الصفات .

وأما توحيد الألوهية فهو إفراد الله تعالى بالعبادة المستلزم لعبادة الله تعالى بكل ما شرع أن يُعبدَ به من أعمال القلوب والجوارح ، وأن لا يشرك معه غيره في شيء منها ، مع عدم الاعتراف بعبادة غيره تعالى . وهو أيضاً ـ توحيدُ الألوهيّة ـ تعلق القلب بالرب تعالى خوفاً ورجاءً ، ورهبة وطمعاً ، كما هو إسلام الوجه لله تعالى ، ووقف الحياة كلها عليه ، فلا شيء للعبد هو لغير الله تعالى ، بدليل قول الله تعالى من سورة الأنعام :

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾[1]

---

(١) الآيتان (١٦٢ ، ١٦٣) .

بهذا أمر رسول الله ﷺ أن يقول ويجاهر به ، وبمثله أمر إبراهيم عليه السلام ، إذ قال :

﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (1)

إن لهذا التوحيد ، توحيد الألوهيّة شأناً وخطراً ، وينبىء عن ذلك أنّ كافّةَ الرّسل الذين بعث الله تعالى بهم إلى الأُمم والشعوب كان كل واحد منهم يبدأ دعوته حينما يبدؤها بقوله :

﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ (2)

وهو مضمون كلمة لا إله إلاّ الله التي جاءبها خاتم النبيين والرّسل محمد ﷺ ، ودعا إلى قولها واعتقادها ، ولم يطالب بغيرها طِيلَة عَشر من السنين ، ومن أجلها عُودِيَ ، وأوذِيَ ، وحُورب ، كما عودي ، وأوذي ، وحورب ، كلّ من دعا إليها من جميع الرسل وأتباعهم ، وذلك لأنّ قولها واعتقادَها يستلزم الكفرَ الكامل بكلّ ما عبد الناس من آلهةٍ دون الله سبحانه وتعالى ، وعرفوها بعد فَقدِهم لهدايةِ الله تعالى بموت الأنبياء ، وانقراضِ أهلِ العلم العارفين بالله تعالى وشرائعهِ فيهم ، يُضافُ إلى ذلك أنّ كلمة التَوحيدِ : لا إله إلاّ الله تقتضي بل وتوجب المساواةَ بين الناس في الحقوق والواجبات ، فلم يبق بين الناس من يتميز عنهم مِيزةً يستعلي بها عليهم فيترفعُ ويتكبرُ ، أو يستعبد الناس أو يتحكم فيهم ، أو يحكمهم بغير شرع ربهم ، كما جاء مضمون ذلك في كتاب رسول الله ، إلى هِرَقْلَ ملكِ الروم .

---

(1) سورة الأنعام الآيتان (٧٨ ، ٧٩) .

(2) سورة الأعراف الأيات (٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥) وسورة هود الأيات (٥٠ ، ٦١ ، ٨٤) .

ونصه بعد البسملة والديباجة « يا أهل الكتاب تعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم : أن لا نعبدَ إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يَتّخِذَ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله »[1].

ومن هنا كانت الخصومات تبلغ أشدها بين الرّسل وأممهم ، لما تدل عليه عبادةُ الله تعالى وحده من الكفر بكلّ مَعبودٍ سوى الله تعالى ، وترك عبادته ، والبراءة منه . كما قال تعالى في كتابه من سورة المجادلة :

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[2]

وكما أخبر تعالى عن خليله إبراهيم والمؤمنين معه وهو يدعونا إلى الاقتداء بهم في الوقوف ضد الشرك والمشركين حيث يقول تعالى :

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[3]

إنّ مدلولَ كلمة لا إله إلا الله : الإيمان بالله وحده بأن يُعبدَ ولا يُشرَكَ به شيءٌ من خلقه . والكفرُ بكل طاغوتٍ صارفٍ عن عبادةِ الله تعالى ، وطاعتِه وطاعةِ رسولِهِ ﷺ كما قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[4]

---

(١) أخرجه البخاري (١/٩٧ ، ٤/٥٤ - ٥٧) .
(٢) الآية ٢٢ .
(٣) سورة الممتحنة الآية ٤ .
(٤) سورة النحل الآية ٣٦ .

والطاغوت هو كل ما عُبد من دون الله ، أو صرف عن عبادة الله تعالى من معبود رضي لنفسه بأن يُعبدَ مع الله تعالى ، أو متبوع ، أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله ﷺ .

هذا ولكي نوفي توحيدَ الألوهية ما يستحقُّ من البيان والتوضيح لخطورة شأنه فإنه لا بد من شيء من التفصيل والتّطويل . فنقول إنّ توحيد الألوهية أو العبادة له طرفان وواسطة :

فالطرف الأول : مَخلوق ضعيف محتاج لا يبرح دهره باحثاً عمّا يقوي ضعفه ، ويجلب له ما ينفعه ، ويدفع عنه ما يضرُّه ، وهذا المخلوق الضعيف المحتاج هو الإنسان .

والطرف الثاني : هو رب قوي غني ، سميع عليم ، عزيز حكيم ، وهو الله المعبود بحق سبحانه وتعالى .

والواسطة : هي أقوال وأعمالٌ واعتقادات يحبها الله تعالى ويرضاها ، وهي العبادة التي يقوم بها العبد طاعة لله تعالى وتقرباً إليه . وبناءً على أنّ توحيد العبادة هو إفراد لله تعالى بالعبادة التي هي جميع ما أحب الله تعالى أن يُعبد به منْ أعمال القلوب والجوارح ، كما سبق بيانه وعلى ضوء هذا التعريف يتقرّر ما يلي : ـ

(١) الإنسان بحكم الضعف المتأصل فيه ، وافتقاره اللازم له ، لا يخرج عن وصف العبودية بحال من الأحوال ، ولذا فإنه لم يُرَ في جميع أطواره التاريخية ، وعصوره البشرية إلاّ عابداً لا ينفكّ عن العبادة ، إما لله تعالى متى عرفه ، وآمن به رباً وإلهاً ، أو لغيره من شتى الكائنات التي يتصور فيها القدرة الكافية على جلب الخير له ، ودفع الشر عنه ، عندما يجهل ربه ، ولا يؤمنُ به إلهاً ومعبوداً ، لعامل اقتضى ذلك منه .

(٢) لا يصح عقلاً ولا شرعاً أن يُعبد غير الله تعالى ، ولا تنبغي العبادة إلا له سبحانه وتعالى ، وذلك لأنه لا يوجد في الكون قوي

غني ، سميع عليم ، عزيز حكيم ، قوته وغناه ، وسمعه وعلمه ، وعزته وحكمته ذاتية له ليست مستمدة له من ذات أخرى إلا الله سبحانه وتعالى ، ونوضح هذا المعنى فنقول ؛ إن الإنسانَ وهو سيد هذه المخلوقات ، وأشرفها وأفضلها على الإطلاق جميع كمالاته الخَلقية والخُلقية ، أو الجسمانية والروحية ليست ذاتية له ، بل هي موهوبة له من خالقه ذي الجلال والكمال المطلق لا إله إلا هو ، ولا رب سواه ، ودليل كون الإنسان كل كمالاته موهوبة له ، وليست ذاتية له ، أنهُ يخلق يوم يخلق فاقداً لها ، ثم توهب له ، ولبعض أفراده دون بعض ، ومن وهب منهم ذلك قد يُسلبه أحياناً ، فقد يُرى الإنسان عاقلاً ، ثم يصير أحمق ، وقد يكون قادراً ثم يعجز ، ويكون غنياً ، ثم يفتقر ، فدل ذلك على أن كمال الإنسان ليس ذاتياً له ، وإنما هو موهوب له ، فهو لذلك لا يبرح عبداً ضعيفاً مفتقراً إلى واهبه كماله ، وهو الله سبحانه وتعالى . أما الرب تبارك وتعالى فإن كماله ذاتي له . وبهذا يتقرر أن العبادة لا تصح إلا لله ، ولا تنبغي لأحد سواه .

(٣) إن العبادة لا تكون قُربة لله تعالى . ووسيلة إليه ينتفع بها العبد فاعلها إلا إذا توفر لها : العلم بها ، ومعرفة كيفية أدائها ، وإفراد الله تعالى بها فلذا لا تتصور في الذهن عبادة نافعة إلا من ذي علم وإيمان . فالعلم يحصل للمرء بالإيمان بكتاب الله تعالى ، وبقراءته ومعرفة ما جاء فيه ، ومعرفة كيفية أداء العبادة يتم بالإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وبمعرفة سنته ، واتباعه فيها ، وإفراد الله تعالى بالعبادة يثبت للعبد بمعرفة الشرك وتجنبه ، ولهذا يتحتم أن نختم هذا البحث المتعلق بتوحيد الألوهية بفصل ضافٍ نبين فيه الشرك في العبادة ، ومظاهره اليوم في الأمة الإسلامية ، ليكون القارىء المؤمن على بصيرة في عقيدته ، وتلك هي الغاية التي توخيناها في وضع هذه الرسالة « عقيدة المؤمن » والله ولي الأمر والتوفيق .

الشرك في الألوهية
ومظاهره في الأمة الإسلامية

تعريف :

الشرك لغة : الاسم من شركه في كذا يشركه شركا وشِركة ، كأشركه فكذا يشركه فيه إذا جعل له نصيباً قليلاً أو كثيراً في ذات ، أو معنى ، ومثله شاركه في كذا يشاركه فيه : كان شريكاً له فيه بقدر كبير أو صغير في ذات . أو وصف ، وهو ـ الشرك ـ شرعاً : ضد التوحيد كالكفر ضد الإيمان .

والشرك في ربوبية الله تعالى أو أسمائه وصفاته كفر ، وفي عبادته تعالى إن كان الفاعل له عالماً به مصراً عليه كفر كذلك ، إذ الشرك في ربوبية الله تعالى وأسمائه وصفاته تكذيب لله تعالى ، وكذب عليه عز وجل ، وفي عباداته تعالى تأليه لغيره سبحانه وتعالى ، وتأليه غير الله تعالى كفر ، وتكذيب لله تعالى في قوله :

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ (١)

وفي قوله :

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (٢)

وتكذيب الله تعالى كفر بلا شك .

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٨) .

(٢) سورة محمد الآية (١) .

ويختلف الشرك مع الكفر في أن من الشرك ما لا يكون كفراً ، وذلك كالشرك الأصغر ، والشرك الخفي ، لخبر الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك وسماعه من بعض أصحابه ، ولم يعتبر فاعله كافراً ، ولم يحكم بردته : من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَليكُمْ الشِركَ الأصغرَ . قَالُوْا : وَمَا الشِركُ الأَصغَرُ يَا رسولَ اللّهِ ؟ قَالَ : الرِيْاءُ »[1] وقولُهُ لِمَنْ قَالَ لَهُ : ما شَاءَ اللّهُ ، وشئْتَ : « أَجعلتني لِلّهِ نداً ؟ . قُلْ ما شَاءَ اللّهُ وَحدَهُ »[2] ، والند : الشريك ، وقوله لأصحابه لما قالوا : قُوُمُوْا بِنَا نَسْتَغِيثُ برسولِ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلمَ مِنْ هذا المنَافِقَ : « إنَّهُ لا يُستغاثُ بِي ، وإنَمـا يُستَغَاثُ باللّهِ »[3] . وقوله صلى الله عليه وسلم « مَنْ حَلَفَ بِغَيرِ اللّهِ فَقَدْ أَشْركَ »[4] وقوله صلى الله عليه وسلم : « يَا أَيُهَا النَّاسُ إتقُوْا هَذَا الشِرْكَ فإِنَّهُ أخفَىٰ مِنْ دَبِيبِ النَّملِ ، فَقِيلَ لَهُ : وَكَيفَ نَتقيهِ وهُوَ أَخفَىٰ مِنْ دَبيبِ النَّملِ ؟ يا رسولَ اللّهِ ؟ قَالَ قُولُوا : اللَّهم إنَّا نعوذُ بِكَ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شيئاً نَعْلَمُه ، وَنَستَغفرُكَ لِمَا لاَ نعلَمُهُ »[5]

ولم يحكم صلى الله عليه وسلم في كل هذا بردة فاعله ، ولا

---

(١) رواه أحمد باسناد جيد ، وتمام الحديث « يقول الله تعالى إذا جزى الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراقبون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء ؟ . » المسند (٤٢٨/٥ /٤٢٩) .

(٢) رواه أحمد بلفظ « أجعلتني والله عدلا . . . » (١/ ٢١٤ ؛ ٢٢٤ ؛ ٢٨٣ ؛ ٣٤٧) وانظر الفتح الرباني (٣٨/١) . وروى ما يدل على معناه في الدرامي وابن ماجه وكذا أحمد (٧٢/٥ ؛ ٣٩٣) والفتح الرباني (٢٧/١ ؛ ٢٨) .

(٣) رواه أحمد (٣١٧/٥) والطبراني بسند لا بأس به ، وروى مسلم هذا اللفظ « من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » وهذا الحديث قدسي (٢٢٣/٨) .

(٤) رواه الترمذي (نذور /٩) وحسنه ؛ والحاكم

(٥) رواه أحمد (٤٠٣/٤) وكذا الطبراني .

بتكفيره . ومن أجل هذا قيدنا الكفر في شرك العبادة بكون فاعله عالماً به أنه شرك ، وأصر عليه عناداً ومكابرة ، وإيثاراً للمنافع الدنيوية من مال ، أو جاه ، أو سلطان . ولكي يتضح الموضوع أكثر يحسن أن نذكر هنا جملاً من الكلام على ذات الله وصفاته ، وأفعاله ، وعباداته مبينين كيف يكون التوحيد ، وكيف يكون الشرك والكفر فيها .

(أ) الذات المقدسة :

إن الكلام على ذات الرب تبارك وتعالى معناه تقرير حرمة التفكر فيها ، ومحاولة إدراك كنهها ، ومعرفة حقيقتها لما ثبت شرعاً من النهي عن ذلك ، ولاستحالة إدراك ذات الله تعالى عقلاً ، لأن الله تبارك وتعالى ليس كمثله شيء ، ولم يكن له كفواً أحد ، ولا تدركه الأبصار . ولا تكتنه كنهه العقول . إن مدى ما تصل إليه العقول ، وتدركه من الأشياء هو ما كان من جنس المادة المحيطة بها . والرب تبارك وتعالى ليس منها ، لأن المادة شيء معلوم التكوين والله ليس كمثله شيء ، والمادة المعروفة لدى الإنسان ، هو الخالق لها سبحانه وتعالى ، والخالق لا يكون جزءاً من مخلوقه ، كما لا يكون شبيهاً له بحال من الأحوال . ولهذا كانت عقيدة المؤمن في ذات الله تعالى أنها ذات مقدسة لا تشبه الذوات ، وأنها موصوفة بصفات عليا لا تشبه الصفات ، وأن الله تعالى سمى نفسه بأسماء حسنى ، ووصف نفسه بصفات عليا ، وأمرنا أن نناديه بأسمائه ، وندعوه ، ونتوسل إليه بها وبصفاته العليا فقال تعالى :

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [1]

فنحن نناديه ، وندعوه بها ، ونتوسل إليه بصفاته العليا ، فيسمعنا ، ويستجيب لنا .

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٨٠) .

هذه عقيدة المؤمن في ذات الله تعالى فمن شبّه ذات الله تعالى بذات المخلوقين ، أو ادعى إدراك كنهها ، ومعرفة حقيقتها ، أو تكلم فيها بما لا علم له من كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فقد كفر وأشرك .

(ب) صفات الله تعالى وأسماؤه :

إن الله تبارك وتعالى وصف نفسه في كتابه ، وعلى لسان رسوله بصفات عليا ، وتعبد المؤمنين بالإيمان بها ، وبوصفه بها . توسلاً إليه وتقرباً ، وسمى نفسه تعالى بأسماء حسنى فوجب الإيمان بذلك وقبوله ، وإطلاقه عليه تعالى على ما هو مراده منه ، فمن نفى عنه ما وصف به نفسه ، وسماها به من أسماء فقد كفر ، ومن شبّه تلك الأسماء والصفات بأسماء وصفات المحدثين فقد كفر وأشرك ، إذ هو يتردد في ذلك بين تكذيب الله تعالى ، والكذب عليه وكليهما كفر شنيع وظلم عظيم . !

ومن أول تلك الصفات الإلهية العليا رائماً[1] تنزيهه تعالى ، فقد أخطأ ، وجهل ، وتكلف ما لم يُكلف به ، وفعل ما لم يؤمر به . ذلك كتأويل يد الله بقدرته فراراً من وصف الله تعالى بلفظ اليد ، وكتأويل مجيئه تعالى لفصل القضاء بمجيء أمره ، أو ملك من ملائكته فراراً من وصف الله تعالى بالتحول والانتقال الذي تبادر إلى أذهان المؤولين . وكتأويل استوائه تعالى على العرش بالاستيلاء فراراً من وصف الله تعالى بالاستواء على عرشه . وكتأويل صفة العلو بالقهر فراراً من وصف الجهة والتحيز ، إلى غير ذلك من التأويل الذي عُرف به أكثر علماء الخلف ، ولم يعرف به أحد من علماء السلف .

---

(١) رائماً أي طالباً .

وبيان ذلك :

أولاً : أن المؤول لم يرض لله تعالى ما رضيه له أعرف الناس به وهو رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثانياً : أن هذا التأويل لو أراده الله تعالى لنفسه لأمر به في كتابه ، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ولكان حينئذ التأويل لصفات الله تعالى واجباً دينياً يحرم إهماله ، ويأثم تاركه . غير أنه لما لم يأذن الله تعالى به كان فعله خطأً وتكلفاً مذموماً محرماً ، لما فيه من معنى الاستدراك على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثالثاً . أن المؤول لصفات الله تعالى فراراً من التشبيه ، وخوفاً منه قد جهل حقيقة عظيمة هي استحالة وجود أي شبه بين صفات الله تعالى وصفات عباده ، إذ لا شبه بين صفات الخالق ، وصفات المخلوق أبداً ، لما أخبر تعالى من أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وأنه أحد ، ولا كفؤ له ، ولهذا لو قال أحد : يد الله كيد زيد أو عمرو ، ومجيء الرب تعالى كمجيء خالد أو بكر ، واستواء الله على العرش كاستواء الملك فلان أو فلان لكان مشبهاً للخالق بالمخلوق ، وهو في ذلك كاذب ، إذ الواقع يختلف عما قال تماماً ، ومكذب لأنه كذب الله تعالى في قوله :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [1]

ومشرك كافر ، لتشريك بعض عباد الله في بعض صفات الله تعالى .

رابعاً : أن هذا المؤوّل لصفات الله تعالى فراراً من التشبيه ، وخوفاً منه قد خفي عليه الفرق العظيم بين صفات الخالق جل وعلا ، وبين صفات المخلوقين العاجزين الضعفاء ، إنه لو علم أن الفرق بين

---

(١) سورة الشورى الآية (١١) .

صفات الخالق ، وبين صفات المخلوق كالفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق ، لما توهم تشبيهاً أبداً ، ولما لجأ إلى التأويل فلهذا لنا أن نقول : إن المؤول لصفات الله تعالى خوفاً من الوقوع في التشبيه ، قد فهم أنه يوجد شبه ما بين صفات الخالق عز وجل وصفات المخلوق فلهذا هرب منه فأوّل صفات الخالق ، حتى لا تشبه صفات المخلوق - أما غير المؤول فإنه لم يسمح لخاطره أن يقدر أي شبه بين صفات الخالق وصفات المخلوق ، لاستحالة وجود أي شبه بها واقعاً فأطلق صفات الخالق عليه . كما أطلقها على نفسه ، وأطلق صفات المخلوق عليه ، كما أطلقت عليه شرعاً . وعادة ، وعرفاً ، وبذلك سلم من الخطأ ، والتكلف ، والجهل ، وبالتالي من الشرك والكفر .

(جـ) عباداته تعالى :

قبل بيان عبادات الله تعالى ، وكيف يُوحد الله تعالى فيها نذكر أن الله تعالى لم يخلق الثقلين الإنس والجن في هذا العالم الأرضي إلا لعبادته بذكره ، وشكره ، وحسن عبادته ، دل على هذا قوله عز وجل في كتابه ،

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[1]

ولبيان أنواع العبادات ، وكيف يُعبد بها أنزل الكتب ، وبعث الرسل فكانت بذلك عبادات الله توقيفية لا تعلم إلا من طريق الوحي : الكتاب والسنة ، وكان من عبد الله تعالى بغير ما شرع لعباده أن يعبدوه به غير عابد لله وإنما هو عابد لهواه ، أو للشيطان الذي أغواه ، ومن عبد الله بما شرع لعباده أن يعبدوه به لكنه أشرك فيه غيره من مخلوقاته

---

(١) سورة الذاريات الآيات (٥٦ ـ ٥٨) .

فقد أشرك وكفر ، والسؤال الآن هو : ما هي العبادات التي شرعها الله تعالى لعباده ليعبدوه بها ، ولا يشركوا معه غيره فيها ؟

والجواب أنها موجودة في الكتاب والسنة ، مودعة فيهما ، فمنهما تطلب وبهما تعرف ، وها نحن نذكر جملة كافية من أنواع العبادات مبينين وجه كل من التوحيد والشرك فيها توضيحاً لعقيدة المؤمن ، واستكمالاً للبحث فيها مبتدئين بالعبادات التي هي من أعمال القلوب ، منتهين بالعبادات التي هي من أعمال الجوارح .

(أ) ـ أعمال القلوب :

إن المراد من أعمال القلوب هو العبادات التي يقوم بها قلب العبد ، وذلك كالإيمان ، والمحبة ، والخوف والخشية ، والرجاء ، والرغبة ، والإنابة ، والتوكل ، وهذا بيانها مفصلاً :

(١) الإيمان وهو تصديق القلب بوجود الله تعالى ، وربوبيته لكل شيء ، وألوهيته للأولين والآخرين مع التصديق بكل ما أمر الله تعالى بالإيمان به ، واعتقاده من الملائكة ، والكتب ، والرسل ، والمعاد ، والجزاء ، والنعيم ، والشقاء ، والقدر والقضاء ، لأمر الله تعالى بذلك في قوله :

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[١]

وبناء على هذا فإن عبداً يعترف بربوبية لغير الله تعالى ، أو بألوهية لسواه عز وجل فقد كفر وأشرك .

---

(١) سورة النساء الآية (١٣٦) .

(٢) المحبة وهي حبُّ الله تعالى وحب كل من يحب من عباده ، وما يحب من عقائد عباده ، وأقوالهم وأعمالهم ، وذلك لقول الله تعالى :

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[١]

وقوله :

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢]

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، « اللَّهم أرْزُقْني حُبَّك ، وَحُبَّ مِنْ ينفعني حُبُّهُ عِنْدكَ ، اللَّهم ما رَزَقْتَني ممَّا أحْبُ فَاجْعلْهُ قوةً فيمَا تُحِبُ ، وَمَا زَوَيْتَ عَني مِمَّا أحِبُ فَاجْعلْهُ فَرَاغاً لي فيما تُحِبُ »[٣] وعليه فمن أحب الله تعالى ، وأحب من يحب من عباده ، وما يحب من اعتقاداتهم ، وأقوالهم وأفعالهم ، ولم يشرك في هذا الحب أحداً فقد وحد الله تعالى فيهذه العبادة ، ومن أحب غير الله تعالى حباً لم يأذن فيه الله تعالى ، ولم يشرعه لعباده بل نهى عنه ، أو حرمه كحب ما يُعبد من دون الله تعالى ، وحُبِّ الرؤساء ، وحب الدنيا حباً يجعل المحب على طاعة المحبوب في معصية الله تعالى ، ومعصية رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعلى تعظيمه ، وإجلاله ، وإكباره ، والذلة له والخضوع ، والخنوع ، فمن أحب بهذا الحب غير الله تعالى فقد أشرك في عبادة الله تعالى التي هي حب الله والحب لأجل الله تعالى .

---

(٢) سورة البقرة الأية (١٦٥) .

(٣) سورة آل عمران الأية (٣١) .

(٤) رواه الترمذي بسند حسن ، في كتاب الدعوات (٧٣) .

(٣) الخشية والخوف[1]

إن خشية الله تعالى ، والخوف منه عز وجل مما تعبد الله به عباده المؤمنين ، فقد أمر بخشيته ، ونهى عن خشية غيره في قوله تعالى :

﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾[2]

كما أمر بالخوف منه ونهى عن خوف غيره في قوله :

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3]

وأخبر عن جزاء من يخشونه بالغيب في قوله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[4]

فالخشية والخوف كلاهما عبادة قلْبية يجب أن يُفرد بهما الله عز وجل ، وتختص به ، فمن خاف غير الله تعالى ، أو خشيه معظماً له ، مستكيناً ، يذل له ويطيعه في معصية الله تعالى ، وهو غير مكره له على تلك الطاعة فقد أشرك بالله في هذه العبادة .

(٤) الرجاء والرغبة :

الرجاء هو الأمل في الخير ، وترقُّب حصوله ، وانتظاره ممن يملكه ويقدر على تحقيقه لمن أمله فيه ورجاه منه ، والرغبة : حب الخير وإرادته ، والطمع في تحصيله ممن يملكه ، ويقدر على إعطائه وهبته ، فهي مثل الرجاء ، وكلاهما مما تعبد الله تعالى به المؤمنين حيث قال تعالى في كتابه العزيز من سورة الكهف :

---

(١) الفرق بين الخشية والخوف ان الخشية تكون مع تعظيم المخشى منه ، والخوف يكون بدون تعظيم المخوف منه .

(٢) سورة المائدة الآية (٤٤) .

(٣) سورة آل عمران الآية (١٧٥) .

(٤) سورة الملك الآية (١٢) .

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾[1]

وقال تعالى :

﴿كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾[2]

وقال :

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[3]

وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالرغبة إليه تعالى في قوله :

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾[4]

ولما كان الخير كله بيد الله ، وليس بيد أحد سواه ، وكان الله وحده القادر على إعطائه من يشاء من عباده ، وذلك لقوله تعالى :

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[5]

كان رجاء الخير ورغبته من غير الله تعالى ضلالاً وباطلاً ، وكان فاعله مشركاً في هذه العبادة القلبية غيرَ ربه عز وجل .

٥ ـ الإنابة :

الإنابة وهي الإقبال على الله تعالى ، والتوبة إليه . والإنابة عبادةٌ أمر الله تعالى بها في قوله :

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾[6]

---

(١) الآية (١١٠) .

(٢) سورة الأحزاب الآية (٢١) .

(٣) سورة الأنبياء الآية (٩٠) .

(٤) سورة الشرح الآيتان (٧ ، ٨) .

(٥) سورة آل عمران الآية (٢٦) .

(٦) سورة الزمر الآية (٥٤) .

وأخبر أنه يهدي إليه من ينيب ، وأمر باتباع سبيل من أناب إليه ، جاء ذلك كله في كتابه القرآن الكريم .

ولما لم يكن في الخلق كله من يعطي ، أو يمنع ، أو يضر ، أو ينفع إلا بإذن الله ، ولا من يُسعد أو يشقي إلا الله سبحانه وتعالى كان من غير المعقول ولا المقبول أن ينيب المرء إلى غير الله تعالى رغبة أو رهبة ، خوفاً أو طمعاً ، وكانت الإنابة إلى غير الله عز وجل باطلاً وشركاً ، وكان من أناب إلى غير الله تعالى تائباً إليه - أي إلى ذلك الغير - راجياً الخير منه ، خائفاً من سخطه أو عقابه فقد أشرك .

٦ - التوكل :

التوكل وهو الاستسلام لله تعالى ، وتفويض الأمر إليه ، اعتماداً ووثوقاً به ، أمر الله تعالى به في غير آية من كتابه ، وجعله آية الإيمان وعلامته فقال تعالى :

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ (١)

وقال :

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢)

وواعد بالكفاية للمتوكلين عليه في قوله :

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ (٣)

وخص التوكل به فقال :

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٤)

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٤٨) .
(٢) سورة المائدة الآية (٢٣) .
(٣) سورة الطلاق الآية (٣) .
(٤) سورة إبراهيم الآية (١٢) .

فالتوكل إذاً عبادة قلبية وهو سكون القلب إلى كفاية الله تعالى ، وتفويض الأمور إلى الله تعالى لكفايته ، والاعتماد عليه تعالى لعلمه وقدرته .

ولما كان لا كافيَ إلا الله ، ولا قادر على كل شيء سواه ، ولا عالم بكل شيء غيره كان التوكل على غير الله تعالى باطلاً وشركاً ، وكان المتوكل على غير الله تعالى سكوناً ، ووثوقاً ، واعتماداً مشركاً .

(ب) أعمال الجوارح :

إن ما تقوم به الجوارح من العبادات والطاعات كثير جداً، فلذا نكتفي بذكر طرف منه فقط ، تذكيراً وتعليماً ، وبخاصة ما وقع فيه الشرك بين المسلمين ومن ذلك .

١ ـ الدعاء :

الدعاء هو سؤال الرغائب ، وطلب الحاجات في جلب نفع ، أو دفع ضر ممن يملك ويقدر . والدعاء من أعظم مظاهر العبادة ، وأوضح صورة من صورها حتى قيل فيه . **الدُعَاءُ مُخُ العِبَادَةِ . والدّعَاءُ هُو العِبَادَةِ**[1] ، ومن هنا كانت العبادة بدونه ليست شيئاً ، أو لا تستقيم ولا تتم إلا به ، وهو كذلك ، إذ في الدعاء الذل للمدعُو ، والافتقار إليه ، والاستكانة له ، وتعظيمه ، واستشعار غناءه ، وإحاطة علمه بالداعي ، وقدرته على إعطائه ما سأله فيه مع تمجيده ، والتوسل إليه بأسمائه وصفاته ، إلى غير ذلك من مظاهر العبودية التي لا توجد واضحة بهذه الصورة إلا في الدعاء ، وحال السجود ، ولذا كان الدعاء في السجود مُستجاباً ، لاجتماع مظهرين عظيمين من مظاهر العبادة فيه .

---

(١) حديث حسن رواه الترمذي في تفسير سورة البقرة (١٦ ، ٤٠) وأبو داوذ في (١/ ٣٤١) وهو صحيح وكذا لفظ الدعاء مع العبادة ، رواه الترمذي وسنده ضعيف .

ولما كان تحقيق الرغائب ، وقضاء الحاجات أمراً يتوقف حصوله على أن يكون المدعو لذلك ، المسؤول فيه مالكاً لجميع الرغائب وكل الحاجات قادراً على تحقيق الرغبة ، وقضاء الحاجة ، عالماً بحال السائل الداعي الراغب ، يسمع كلامَه ، ويرى مكانه ، ولما لم تكن هذه الصفات لتتوفر لأحد سوى الله عز وجل بطل أن يدعى غير الله تعالى عقلاً وشرعاً ، قال تعالى من سورة الجن

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ (١)

وبهذا كان دعاء غير الله ، وسواء كان المدعو نبياً أو ولياً ـ شركا محرماً ، وكان من يدعو غير الله تعالى من عباده مشركاً كافراً ظالماً جاهلاً ، أو معانداً مكابراً .

٢ ـ الاستغاثة :

الاستغاثة هي طلب الغوث والغياث ، وهو ما يغاث به المضطر ، ويعان به من طعام ، أو شراب ، أو نصر وتأييد ، أو خلاص من شدة ، وإنقاذ من محنة .

وهي أي الاستغاثة من جنس الدعاء ، فمن لا يُدعى لفقره وعدم قدرته وجهلِه بحال الداعي ، وعدم سماع دعائه ، وعدم معرفة مكانه وحاله ، لا يستغاث به كذلك .

ومن هنا كان من استغاث بمن لا يقدر على إغاثته ممن لا يسمع كلامه ، ولا يرى مكانه ، ولا يعرف حاله من حي غائب بعيد ، لا يرى المستغيثَ ، ولا يسمع استغاثته ، أو ميت انقطع عمله من الدنيا ، سواء كان نبياً من الأنبياء أو صالحاً من الصالحين ، فقد أشرك بعبادة الاستغاثة غير ربه تعالى ، وكان بذلك مشركاً كافراً ، وليعلم المؤمن هنا

---

(١) الآية (١٨) سورة الجن .

أن سؤال الحي من الناس واستغاثته ـ أي طلب الغوث منه ـ إذا كان قادراً على العطاء والغوث، وكان قريباً من الداعي المستغيث يسمع كلامه ويرى مكانه، قد أذن الله فيه، وأباحه لعباده، ولم يجعله عبادة تخصه، يحرم إشراك غيره فيها. وهذا معلوم من الدين بالضرورة.

٣ ـ الاستعانة :

الاستعانة هي طلب العون، والمعونة على قضاء حاجة، أو خروج من محنة، وهي من نوع الدعاء والاستغاثة، فلا تطلب من عاجز لا يقدر على الإعانة، ولا من ميت لا يسمع المستعين به، ولا يرى مكانه، ولا يعرف عن حاجته وحاله، ولا من غائب بعيد حال البعد دون سماع الدعاء، ورؤية الداعي، وإعانته على ما هو في حاجة إلى المعونة فيه، وقد أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الاستعانة به دون من سواه في قوله :

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (١)

وأوصى رَسُولُ اللّهِ صَلى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبد اللّهِ بن عباس رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا أَنْ يَسْتَعِيْنَ باللّهِ دونَ سِواهِ في قَوْلِهِ :

« إذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللّهَ ، وإذا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ بِاللّهِ »(٢)

ومن هنا كان طلب المعونة ممن لا يقدر عليها من الأحياء لعجزهم، أو غيبتهم كطلبها من الأموات لموتهم، وانقطاعهم عن الحياة، كان ضلالاً وباطلاً، وكان فاعله مشركاً بالله تعالى في هذه العبادة من عبادات الله التي لا تنبغي لأحد سواه.

---

(١) سورة الفاتحة الآية (٥).

(١) رواه الترمذي وصححه في كتاب القيامة (٥٩).

٤ ـ النذر :

النذر وهو التزام العبد ما لم يَلزمه من الطاعات ، وبعبارة أوضح هو التعهد بالقيام بشيء من العبادات تقرباً إلى الله تعالى ، أو بشرط أن يقضي الله تعالى له حاجة تعسرت عليه يريد قضاءها ، كأن يقول في تعهده اللهم إن شفيت مريضي ، أو رددت على غائبي ؛ أو قضيت حاجتي في كذا . . ، لك عليّ أن أتصدق بكذا . . . أو أصوم أو أصلي كذا وكذا ، . . والنذر مما تعبد الله تعالى به عبادة المؤمنين ، قال تعالى مثنياً عليهم بالوفاء به ،

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ (١)

وقال مرغباً فيه

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ (٢)

وخير النذر ما كان بغير شرط ، لكراهة النَبي صَلى اللَّهُ عَليهِ وسَلَّم النَذْرُ المَشْروط في قوله : « النَذْرُ لا يأتي بِخَيْرٍ ، وإنَّما يُسْتَخْرَج بِهِ مِنْ مَالِ البَخِيلِ »(٣) وبناء على هذا فإن من نذر لغير الله تعالى وسواء نذر لحي أو ميت فقد أشرك(٤) لأن النذر عبادة ظاهرة إذ هو توجه القلب إلى المنذور له رغبة فيما عنده من الخير وهو استشعار قدرته وغناه ؛ وإظهار الناذر عجزه وضعفه وافتقاره إلى من نذر إليه .

وهذا ويم الله لا يليق إلا بالله تعالى ، ويا ويل أولئك الذين ينذرون إلى الأولياء والصالحين من أموات المسلمين وأحيائهم فقد وقعوا

---

(١) سورة الإنسان الآية (٧) .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٧٠) .

(٣) متفق عليه بمعناه اللؤلؤ والمرجان (٢/ ١٦٨) .

(٤) لا يدخل في هذا النذر المحرم وعد المؤمن لأخيه إن رزقه الله كذا فإنه يعطيه كذا أو يقرضه كذا .

في هَلكة وهم لا يشعرون ، وأشركوا بعبادة ربهم غيرَه وهم لا يعلمون .

ذبح القربان :

ذبح القربان وهو ما يُتقرب به إلى الله تعالى من الذبائح كالهدْى في الحج وضحايا يوم عيد الأضحى ، وشاة العقيقة يوم سابع المولود . وذبائح وليمة العرس ، وما يذبح صدقة على الفقراء والمساكين ، كل هذا قد شرعه الله تعالى في كتابه ، وعلى لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان لهذا الذبح تقرباً وعبادة لا تنبغي إلا لله تعالى ، ومن ذبح لغير الله تعالى مُعظماً له ، خائفاً منه راجياً ما عنده فقد عبده بهذه العبادة وأشركه في عبادة ربه عز وجل .

وهنا يحسن التنبيه والتنديد معاً بما يفعله أهلُ الجهالات من المسلمين اليوم من ذبائح على الأضرحة والقبور في أيام الموالد والمواسم تعظيماً لمن يذبحون لهم ، وتقديساً ، ورغبة في شفاعتهم ، وطمعاً فيهم ، وتوسلاً بجاههم .

ومثل هذه الذبائح على القبور والمشاهد ذبائح الزار ، والنُشرة ، وعلى حافات الآبار . وعتبات المنازل خوفاً من الجن . إن هذه الذبائح كلها شرك وكفر والعياذ بالله تعالى من ذلك .

٦ ـ الركوع والسجود :

إن عبادة الركوع والسجود ظاهرة يزاولها المسلمون كل يوم في حياتهم إذ هما ركنـــا الصلاة اللذان لا تصح الصلاة بدونهما ، وقد تعبّد الله تعالى بهما سائر عباده المؤمنين فقال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١)

---

(١) سورة الحج الآية (٧٧) .

وأمر مريم بنت عمران به في إخباره عنها بقوله :

﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [1]

وأمر رسوله بالسجود طلباً للقرب منه فقال :

﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [2]

ومن هنا كان الركوع وهو الانحناء ، والسجود وهو وضع الوجه على الأرض عبادة لا تنبغي لأحد مهما كان شأنه إلا لله تعالى ، ومن ركع لأحد أو سجد له معظماً إياه ، أو طامعاً فيه ، أو خائفاً منه ، وليس بمكره على ذلك فقد أشرك بربه ، وعبد مع الله غيره ، وكان فعله شركاً أكبر ، لا يغفره الله إلا أن يتوب منه قبل موته ، لقول الله تعالى :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [3]

٧ ـ الطواف بالبيت العتيق وتقبيل الحجر الأسود :

إن الطواف عبادة شرعها الله تعالى لعباده ، وأمرهم بها في قوله :

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [4]

وعليه فمن طاف ببيت غير بيت الله من قبر ؛ أو ضريح أو مشهد أو غير ذلك معظماً لما يطوف متقرباً إليه أو به إلى غيره حتى ولو كان إلى الله تعالى ، فقد ابتدع وأشرك ، وطوافه ذلك شرك أكبر ، وبدعة ضلالة من أشنع البدع وأقبحها ، لما فيها من التشريع ، وهو حق الله تعالى وحده

---

(١) سورة آل عمران الآية (٤٣) .

(٢) سورة العلق الآية (١٩) .

(٣) سورة النساء الآية (١١٦) .

(٤) سورة الحج الآية (٢٩) .

دون سواه ، وإن تقبيل الركن اليماني من البيت العتيق عبادة شرعها الله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولم يشرع لهذه الأمة تقبيلٌ حجر آخر ، ولا ركن ولا جدار ، ولا قبر ولا ضريح ولا تابوت ، وعليه فمن قبَّل عتبة ، أو جداراً ، أو باباً ، أو حلقة في باب ، أو قبراً أو مشهداً قائماً من المشاهد فقد ابتدع ، وإن فعل ذلك تعظيماً لما قبَّله وتقديساً راجياً منه النفع ، دافعاً به الضُّر فقد أشرك .

٨ ـ سائر انواع العبادات :

إن كل ما شَرع الله لعباده من الطاعات والقربات ليعبدوه بها تقرباً إليه تعالى ، وتزلفاً من صلاة ، وصيام ، وحج ، واعتمار ، وصدقات ، وزكوات ، واعتكاف . وجهاد ، ورباط ، وفعل خير من بر وصلة ، وذكر ، ودعاء ، وأمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، وتعليم علم وتعلمه . . . كل هذه العبادات وغيرها مما شرعه الله تعالى في كتابه ، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم فعْله لغير الله تعالى ، وابتغاء مرضاة به غير مرضاة الله شرك في عبادة الله تعالى يتنافى مع عقيدة المؤمن القائمة على أساس التوحيد الدالة عليه كلمة الإخلاص : لا إلهٰ إلا الله .

٩ ـ ترك طاعة الله للرغبة أو الرهبة :

لقد أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله بقوله من سورة القتال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ (١)

فطاعة الله ، وطاعة رسوله في الأمر والنهي عبادة تعبد الله تعالى بها المؤمنين من عباده ، فمن ترك طاعتهما غير مكره من أجل أحد من خلق الله كائناً من كان رغبة فيما عنده ، أو رهبة مما لديه فقد أشرك ،

---

(١) الآية (٣٣) . سورة محمد .

وتركه لطاعة الله تعالى ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وهو غير مكره رغبة أو رهبة فيمن أطاعه شرك ، إذ الطاعة في المعروف فقط ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

١٠ - تعظيم الله تعالى بالحلف به عز وجل

إن تعظيم الله عز وجل بتكبيره ، والحلف به وإجلاله تبارك وتعالى عبادة تعبد الله بها المؤمنين من عباده ، فلذا لا يجوز الحلف بغيره تعالى ، ومن حلف بغير الله تعالى ، فقد أشرك ، لما صح عَنْ النَبِي صلى اللَّهُ عَليهِ وسَلم مِنَ النَهي عَنْ الحَلْفِ بِغَيرِ اللّهِ تَعَالىٰ ، وَجَعَلَ ذَلكَ مِنَ الشِرْكِ ، فَقَدْ قَالَ عَليهِ الصَلاةُ والسَّلام : « **أَلَا إِنَّ الله يَنْهَاكُم أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ ، ومَنْ كَانَ حَالِفاً فَلْيَحْلِفَ بِاللّهِ أو لِيَصْمتْ** »[١] ، وقال : « **مَنْ حَلَفَ بِغَيرِ اللّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ** » وفي لفظ « **فَقَدْ كَفَرَ** »[٢] ، وقال « **مَنْ حَلَفَ فَقَالَ في حَلْفِهِ واللاَّتِ والعُزَّى ، فَلْيَقُل لا إله إلا اللّه** »[٣]

هذا ولما كان الكثير من الشرك الذي وقع فيه بعض المسلمين اليوم إنما وقع باسم التوسل والاستشفاع والتبرك ، وتحت شعارها فإننا نختم هذا الجزء من هذا البحث في عقيدة المؤمن ببيان كل من الوسيلة والتوسل ، والشفاعة والتشفع ، والبركة والتبرك تبياناً للحق ، وهداية إليه .

---

(١) متفق عليه (٢/ ١٧٠) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان .

(٢) رواه الترمذي وقال : هذا حديث حسن رواه أحمد والحاكم .

(٣) متفق عليه (٢/ ١٧٠) اللؤلؤ والمرجان ومسلم (٥/ ٨١) .

الوسيلة

تعريف :

ما هي الوسيلة ؟

الوسيلة : لغة اسمٌ فعله وسل إليه بكذا يسل وسيلة فهو واسل تقرب ورغب ، ومثله توسل إليه بكذا توسلاً ، وتوسيلاً إذا عمل عملاً تقرب به إليه فالمتوسل والواسل بمعنى واحد ، قال أبو طالب في لاميته :

أرى الناسَ لا يدرون ما قدرُ أمرهم　　بلى كلُّ ذي دين إلى اللّه واسل

وتجمع الوسيلة على وسائل ، كما في قول لبيد :

ولما رأيتُ القوم لا وُد فيهمو　　وقد قطعوا كل العرى والوسائل

ويطلق لفظ الوسيلة على المنزلة عند الملك ، وعلى الدرجة والقربة ، وأطلقت كذلك على أعلى درجة في الجنة ، وهيِ التي قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلى اللّهُ عَليهِ وسَلم : « ثُمَّ سَلُوا اللّهَ لي ٱلْوَسِيلَة فَإنَّها مَنْزِلَةٌ في الجَنَةِ لا تَنْبَغِي إلا لِعبدٍ مِنْ عِبَادِ اللّهِ ، وأَرْجُو أَنْ أكونَ أنَا هُوَ فَمَنْ سَأَلَ لي الوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَة »[1] .

وأما الوسيلة في الشرع فهي العمل يقدمه المؤمن بين يدي رغبته

---

(١) رواه مسلم (٤/١) تصوير المكتب التجاري بيروت .

ليتوسل به إليها»[1] ، فيفوز بمرغوبه ، ويحصل على مطلوبه .

والوسيلة التي هي التقرب إلى اللّه تعالى بعمل صالح طلباً للقرب منه تعالى والحظوة لديه والدرجة عندة سبحانه وتعالى . أو لقضاء حاجة بحصول نفع ، أو دفع ضر ، هذه الوسيلة الشرعية مبناها ثلاثة أمور .

الأول : المتوسَّل إليه وهو اللّه ذو الفضل والإنعام .

والثاني : الواسل أو المتوسِّل وهو العبد الضعيف ، المحتاج ، الطالب القرب من الرب تعالى ، أو الراغب في قضاء حاجة له من جلب خير ، أو دفع شر .

والثالث : المتوسَّل به وهو العمل الصالح المتقرَّب به إلى الله تعالى وهو الوسيلة ، ولكي تكون الوسيلة مجدية نافعة يحصل بها القرب ، أو تُقضى بها الحاجة لا بد من مراعاة ما يلي كشروط أساسية لا بد من توفرها للواسل الذي يريد أن ينتفع بوسيلته : -

(١) أن يكون العبد الواسل إلى الله تعالى المتوسل إليه مؤمناً صالحاً .

(٢) أن يكون العمل المتوسَّل به مما شرع الله تعالى لعباده أن يتقربوا به إليه سبحانه .

(٣) أن يكون العمل المشروع قربة موافقاً في أدائه لما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤديه ، فلا يُزاد فيه ، ولا ينقص منه ، ولا يفعل في غير زمانه الذي شُرع له ، ولا في غير مكانه الذي عين له وحُدد .

فلهذا لا يكون عمل غير المؤمن قربة ولا وسيلة أبداً ، كما لا

---

(١) الضمير في إليها عائد إلى الرغبة .

تكون البدعة قربة إلى الله تعالى ، ولا وسيلة إليه بحال من الأحوال .
والوسيلة بهذا المعنى مشروعة مندوب إليها في كل زمان ومكان . قال تعالى في سورة المائدة :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١)

وقال عز وجل في سورة الإسراء :

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ (٢)

ففي الآية الأولى أمر وترغيب للمؤمنين في طلب القرب من الله تعالى بفعل الطاعات الزائدة عن الفرائض والواجبات ، لأن تقوى الله تعالى تتحقق بفعل المأمور ، وترك المنهى ، وبها تتحقق النجاة من العذاب إن شاء الله تعالى ، وطلب الوسيلة وهي القرب من الله تعالى والحظوة لديه سبحانه وتعالى يكون بفعل نوافل العبادات من صلاة ، وصيام ، وصدقة ، وحج ، وعمرة ، وجهاد ، وبغيرها من سائر النوافل ، والقرب ، والطاعات ، وفي الآية الثانية أخبار عن نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم النفر من الجن وعبدوا ربهم وتقربوا إليه بصالح الأعمال ، والنفر من العرب لم يشعروا بإسلام أولئك النفر من الجن وبقوا يعبدونهم ، فأخبر تعالى عن حالهم في هذه الآية الكريمة منبهاً إلى خطأهم ، وضلالهم محذراً منه .

(١) الآية (٣٥) .
(٢) الآية (٥٧) .

الوسيلة جائزة وممنوعة

والوسيلة منها ما هو جائز ، ومنها ما هو ممنوع ، فالجائز منها هو كل وسيلة أذن فيها الشارع ندباً أو إباحة ، والممنوع منها ما لم يأذن فيه الشارع كراهة أو تحريماً ، ولا فرق في ذلك بين التوسل إلى الأمور الدنيوية ، أو الأمور الأخروية فلا بد من إذن من الشارع في جواز الوسيلة ، وإلا حرمت ، ومن أمثلة ذلك في الأمور الدنيوية :

(١) شخص يريد أن يحصل على ثروة مالية فبحث عن وسيلة تحقق له مراده فرأى قتل أخيه الغني الذي لا وارث له إلا هو ، فهل هذه الوسيلة يجوز استعمالها ، للحصول على المال المطلوب ؟ والجواب قطعاً : لا ، لأنها وسيلة محرمة .

(٢) رجل خطب امرأة في نفسها فأبت الزواج منه فرأى أن الوسيلة أن يذهب إلى ساحر ، أو دجال يكتب له حرزاً ليحببه إليها حتى تتزوجه . فهل هذه الوسيلة جائزة ؟ والجواب ، لا . بل هي محرمة شرعاً .

(٣) امرؤ سُرق له مال ولم يعرف سارقه ، فقيل له : إن فلاناً عَرَافاً اذهب إليه فسيكشف لك عن السارق بواسطة رئيه من الجن ، فهل يجوز أن يذهب إليه ليكشف له عن السرقة بواسطة الجن ؟ والجواب ، لا ، لأن هذه الوسيلة محرمة .

(٤) رجل مرض له أخوه فعالجه فلم يبرأ ، فقيل له : اذهب إلى

الضريح الفلاني واستشفع بصاحبه ، وناده واستغث به فإن أخاك يبرأ من مرضه . فهل يجوز أن يذهب بمريضه إلى هذا الضريح ، ويستشفع به ويستغيث ؟ والجواب لا ، لأن هذا العمل شرك بالله .

(٥) مريض وُصف له شرب كأس من الخمر سبع ليال أو أكثر أو أقل ليبرأ من مرضه ، فهل يجوز استعمال هذه الوسيلة لشفائه ؟ والجواب : لا .

(٦) حكومة مسلمة قيل لها : إن هناك كلاباً بوليسية تكشف عن الجرائم بصورة عجيبة ، فهل يجوز أن تستعمل هذه الكلاب في كشف الجرائم ؟ والجواب :لا ، لأن هذه الوسيلة محرمة ، إذ البينة لا تثبت إلا بشهادة عدلين من المسلمين ، أو بالاعتراف من الجاني ، فكيف تقبل شهادة كلب ؟!

(٧) امرأة أرادت أن تتزوج ، فقيل لها : اذهبي إلى فلانة الشوافة فاستخبريها في شأن زواجك بفلان فإن أذنت لك فتزوجيه وإلا فلا ، لأنها تعرف بواسطة رئى لها من الجن ، فهل يجوز لها أن تذهب إلى فلانة كوسيلة للكشف عن غيب ؟ والجواب : لا ، إذ الوسيلة هذه محرمة شرعاً ، وهكذا ما أذن فيه الشارع فقط ، فتجوز وسيلة التجارة ، والفلاحة ، والصناعة ، والحمالة للحصول على المال ، ولكن لا يجوز الربا ، والغش ، والسرقة ، والتلصص لجلب المال .

يجوز التداوي من الأمراض بالأدوية ، ولا يجوز التداوي بالسموم ، والنجاسات ، والمحرمات ، يجوز البحث عن المجرمين ، والسارقين ، واستعمال الوسائل الجائزة لاكتشاف السرقات ، ولكن لا يجوز استعمال الكلاب البوليسية ، ولا استخدام الكهانة ، ولا العرافة ، ولا التنجيم بواسطة الكهان والعرافين ، والمنجمين .

وفي الأمور الإلٓهية :

إن المراد من التوسل في الأمور الإلهية هو التوسل إلى الله تعالى في أحد أمرين :

أولهما : وهو أشرفهما وهو القرب من الله تعالى ، والحظوة لديه ، والمنزلة العالية عنده .

وثانيهما : قضاء الحاجات بجلب نفع ، أو دفع ضر ، وبعبارة أوضح : هو التوسل إلى الله تعالى للحصول على مرغوب في الدنيا أو الآخرة ، والنجاة من مرهوب في الدنيا أو الآخرة .

والتوسل إليه تعالى لا يكون إلا بما شرعه عبادة وقربة يعبده بها عباده المؤمنون ، ويتقربون به إليه ، فكل توسل إليه تعالى بغير ما شرعه من العبادات والقربات هو توسل باطل ضار غير نافع ، ومن هنا تعين أن نذكر جملة صالحة من أنواع الوسائل الشرعية ، المباحة ، النافعة للواسلين ، كما نقفي عليها[1] بذكر جملة أخرى من الوسائل المحرمة الباطلة تعليماً وتحذيراً . وبذلك نكون قد وفينا هذا الجزء من العقيدة بحثاً وتحقيقاً . وقبل الشروع ننبه إلى أن الطاعات التي شرعها الله تعالى لعباده قرباً يتقربون بها إليه ، ووسائل يتوسلون بها كثيرة ، وهي : كل الإيمان والعمل الصالح ، وأعظمها وسيلة الإيمان بالله ورسله ، ثم أداء الفرائض التي افترضها الله تعالى على عباده ، ودون ذلك نوافل العبادات ، وترك المحرمات والمكروهات ، وذلك لقوله تعالى في الحديث القسي الذي أخرجه البخاري :

« وَمَا تَقَرَّبَ إليَّ عَبْدِي بِشَيءٍ أَحَبُّ إليَّ مِما افْتَرَضْتُه عَليهِ ، ولا يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إليَّ بِالْنَوافِلِ حَتى أُحِبَهُ . . . الحديث »[2] .

---

(١) نقفي عليها أي نتبعها .

(٢) متن البخاري ـ (٨/ ١٣١) ـ كتاب الرقاق باب التواضع مطبعة محمد علي صبيح وأولاده

الوسائل المشروعة

(١) الإيمان :

من الوسائل المشروعة الإيمان بالله تعالى ، وبكل ما أمر الله بالإيمان به من الملائكة ، والكتب ، والرسل ، واليوم الآخر ، والقضاء والقدر .

والإيمان من أفضل الأعمال ، وأشرف الوسائل التي يُتوسل بها إلى الله تعالى للحصول على مرغوب ، أو النجاة من مرهوب ، فقد رضيه الله تعالى وسيلة إليه ، وأثنى على المتوسلين به في قوله من سورة آل عمران :

﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [١]

وفي قوله من آل عمران أيضاً :

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [٢]

وفي الحديث أن رجلاً توسل في دعائه بالإيمان فقال : اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت ، الأحد ، الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، والرسولُ صَلى اللَّهُ عَليهِ وسَلم يَسْمعُ فَقَالَ :

« والَّذي نَفْسي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللَّهُ بِإِسْمِهِ الأَعْظَم ! الذي إذا دُعي بِهِ أَجَابَ وإذا سُئِلَ به أعْطَى » [٣]

---

(١) الآية (١٨). (٢) الآية (١٩٣) .

(٣) رواه الترمذي وحسنه ، وأبو داود واسناده صحيح ، وورواه أحمد في المسند وابن ماجه ، وابن حبان والحاكم جامع الأصول في أحاديث الرسول ـ مطبعة الملاح ـ تعليق عبد القادر الأرناؤوط ـ (٤/ ١٧٠) .

ومن هنا كان لأي مؤمن أو مؤمنة أن يتوسل إلى الله تعالى بإيمانه في أي حاجة من حوائج الدنيا والآخرة أرادها فيقول : اللهم إني أسألك بإيماني بك ، وبرسولك ، أو بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت ، وأن محمداً عبدك ورسولك ، أن تغفر لي ، وترحمني ، أو تقضي حاجتي في كذا . . . ويسمي حاجته .

٢ ـ الصلاة :

إن الصلاة فرضها ونفلها من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله تعالى : لقوله صلى الله عليه وسلم في رواية الصحيح وقد سئل عن أحب الأعمال إلى الله تعالى فقال : « **الصلاةُ عَلى وَقْتِهَا** » فأي مؤمن أو مؤمنة يرغب في المنزلة عند الله تعالى والحظوة لديه عز وجل فليحافظ على الصلوات الخمس وليؤدها في أوقاتها يظفر بمرغوبه بإذن الله تعالى ، وأي مؤمن أو مؤمنة تعرض له حاجة ، ويرغب في قضائها ، والحصول عليها فليتوضأ وليصل ركعتين ويسأل الله تعالى حاجته فإنها تقضى بإذن الله كما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم الرجل الضرير بأن يتوضأ ويصلي ركعتين ، ويسأل الله تعالى ، ففعل ودعا له الرسول صلى الله عليه وسلم فرد الله عليه بصره[١] .

٣ ـ الصيام :

إن طالبَ القرب من الله تعالى ، والراغب في الحظوة لدى مولاه ، والمتوسل إليه بالإيمان ، وصالح الأعمال يُرشد إلى الصيام فإنه خير وسيلة إلى ذلك ، فقد روى النسائي في سننه : « أن أبا أمامة أتى رسول الله صَلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله دلني على عمل أدخل به الجنة ؟ قال : **قال : عليك بالصوم فإنه لا مِثل له** » . وروى البخاري ومسلم واللفظ له أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلى اللَّهُ عَليهِ وسَلم قَالَ :

---

(١) رواه الترمذي (٩/ ١١٧ ، ١١٨) وأحمد (٤/ ١٣٨) وابن ماجة (إمامة / ١٨٩) .

« مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يوماً في سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالى إلا باعَدَ اللَّهُ بِذَلِكَ اليومِ وجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفاً »[1] وصح أيضاً : « أنَّ خُلوُفَ فَمِ الصَّائِمِ أطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيْحِ المِسْكِ »[2]

هذا ورد في التوسل بالصيام للحصول على القُرْب من الله تعالى . وأما التوسل به لقضاء الحاجات ، واستجابة الدعوات فقد روى الترمذي بسند حسن وأحمد كذلك عن أبي هريرة : « أنَّ النَّبيَّ صَلى اللَّهُ عَليهِ وسَلم ، قَالَ : ثَلاَثَةٌ لا تُرَدُّ دَعْوتَهُمْ : الصَّائِمُ حَتّى يُفْطِرُ ، والإِمَامُ العَادِلُ ، والمَظْلومُ » وورد بسند ضعيف « للصائم دعوة لا ترد » ويشهد له الحديث السابق عليه .

٤ ـ الصدقة :

إن الصدقة بطيب المال ، وطيب النفس لنعم الوسيلة لطلب القرب من الله تعالى ، والزلفى إليه ،ولنعم الوسيلة للحصول على المرغوب الدنيوي والأخروي ، وللنجاة من المرهوب في الدنيا والآخرة . وها هي ذي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تشهد بذلك وتؤكده . قَالَ صَلى اللَّهُ عَليهِ وسَلم فيَ الصَحِيح : « إتَّقُو النَارَ وَلو بِشقِ تَمْرَةٍ » وقال : « الصَدَقَةُ تُطْفِيءُ الخَطِيئَة كَما يُطْفِيءُ الماءُ النَّارَ » . وقال : « صَنَائِعُ المَعْرُوفِ تَقي مُصَارِعُ السوءِ ، وَصَدَقَةُ السِرِ تُطْفِيءُ غَضَبَ الرَّبِ ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ تُزِيدُ في العُمُرِ » .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان (٢/ ٢٠) . والبخاري (٤/ ٣١ ، ٣٢) ، ومسلم (٣/ ١٥٩) .

(٢) متفق عليه . اللؤلؤ والمرجان (٢/ ١٩) . ولفظ البخاري (والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك) (٣/ ٣٠، ٣٢) ومسلم (٣/ ١٥٧ ، ١٥٨) . والخلوف : بضم الخاء المعجمة ، واللام : تغير رائحة الفم لخلو المعدة من الطعام .

٥ ـ الحج :

إن الحج إلى بيت الله تعالى لمن أعظم القرب ، وأشرف الوسائل ، ويكفي في التدليل على ذلك أن نعلم أن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة وأن من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، كما صح ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم في رواية الشيخين .

٦ ـ الاعتمار :

والاعتمار : هو زيارة بيت الله تعالى للطواف به ، والسعي بين الصفا والمروة وسيلة للقرب من الله تعالى واستجابة الدعاء ، وتكفير الذنوب لقول الرَسولِ صلَى اللَّهُ عَليهِ وسَلم في الصحيح : « **تَابِعُوا بيْنَ الحَجِ والعُمْرَةِ فإنَّهما يَنْفِيَانِ الفَقْرَ والذُنُوبَ كما يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدَ ، والذَهَبَ والفِضَةَ** » .

٧ ـ الجهاد والرباط :

إن الجهاد في سبيل الله ، والرباط لمن أعظم الوسائل وأشرفها ، وأجل الأعمال وأفضلها ، ولنعم الوسيلة هما للفوز بالقرب من الله تعالى وللحظوة لديه سبحانه وتعالى . يَقُولُ الرَسُولُ صَلى اللَّهُ عَليهِ وسَلم في رِوايةِ الصَحِيحينِ : « **إنَّ في الجنةِ مائةَ دَرَجَةٍ أعَدَّها اللَّهُ للمُجَاهِدينَ في سَبيلِ اللَّهِ ، مَا بينَ الدَرَجَتِينِ كَما بيْنَ السَماءِ والأرْض** »[1] ويقول : « **مَقَامُ الرَجُلِ في الصف في سَبيلِ اللَّهِ أفْضَلُ مِنْ عِبْادَةِ الرَجُلَ سِتْينَ سَنَةٍ** »[2] ويقول « **ألْغَازِي في سَبِيلِ اللَّهِ ، والحَاجُ إلى بَيْتِ اللَّهِ ،**

---

(١) البخاري (٩/ ١٥٣) ومسلم (٦٦/ ٣٧) .

(٢) رواه الدارمي (الجهاد /٧) وأحمد (٢/ ٤٤٦) ، والحاكم وقال صحيح على شرط البخاري (٢/ ٦٨) .

والمُعْتَمِرُ وَفْدُ اللهِ دَعَاهُم فَأَجَابُوه « إنْ دَعُوه أَجَابَهم ، وإنْ استغفروه غَفَرَ لَهم »[1] ويقول : « رِبَاطُ يَومٍ في سَبِيل اللّهِ خَيرٌ مِنَ الدُنْيَا وما فِيها ، ومَوضِعُ سُوطِ أَحَدِكُم مِنَ الجنَةِ خَيرٌ مِنَ الدُنيَا وما عَلَيْها ، والرَوحَةُ يَروحُها العَبْدُ في سبيلِ اللّهِ ، أو الغَدوَةَ خَيرٌ مِنَ الدُنْيَا وما عَلَيها »[2].

ويقول : « **حُرِّمَتِ النَارُ عَلى عَيْنٍ دَمَعَتْ أو بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ ، وحُرِّمَتْ النَارُ على عَيْنٍ سَهِرَتْ في سبيلِ اللّهِ** »[3].

٨ ـ تلاوة القرآن الكريم

إن تلاوة القرآن الكريم لمن أشرف الوسائل ، وخير ما يطلب به القرب من الله تعالى ، إذ قراءة الحرف منه بعشر حسنات ، لحديث الترمذي عن ابن مسعود ، كما أن مجالس قراءته ، ومدارسته تنزل عليها السكينة ، وتحفُّها الملائكة ، وتغشاها الرحمة لحديث الصحيح ، وتعلمه وتعليمه للناس يكسبه خيرية يفوق بها سواه من سائر المؤمنين لقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الصحيح :

« **خَيرُكُم مَنْ تَعَلَم القُرآنَ وَعَلَّمَهُ** »[4] كما يجعله في معيّة الكرام البررة من عباد الله ، ولحديث مسلم : « **المَاهِرُ بِالقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَام البَرَرَةِ** »[5] كما يقال له إذا دخل الجنة « **إقْرأ وارْقَ ، وَرَتِّل كما كُنْتَ تُرَتِّل**

---

(١) رواه النسائي (١٤/٦ ، ١٥) وغيره ، ولم يعل بأية علة قادحة فيه ، ورواه ابن ماجه والزيادة التي بين القوسين له (مناسك / ٥) .

(٢) رواه البخاري (٤٣/٤) .

(٣) رواه أحمد (١٣٥/٤) وأصله في الصحيحين (٢/ ٢٥٧) من اللؤلؤ والمرجان وأخرج النسائي الجزء الأخير منه (٦/ ١٣) .

(٤) البخاري (٦/ ٢٣٦) . (٥) مسلم (١٩٥/٢) .

في الدُّنْيا ، فإنَّ مَنزِلَتَكَ عِندَ آخرِ آيةٍ تَقْرَؤها » كما روى ذلك الترمذي بسند صحيح[1] .

الذكر والتسبيح :

إن ذكر الله تعالى وتسبيحه بالكلمات الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل كلمات : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، ومثل قول : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، ومثل قول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لمن أعظم القرب ، وأفضل الوسائل لِقولِ الرسولِ صَلى اللَّهُ عَليهِ وسَلم كما في الصحيحين . يَقُولُ اللَّهُ تعَالى « أنا عِنْدَ ظَنِ عَبْدِيْ بي ، وَأنا مَعَهُ إذا ذَكَرَني في نَفْسِهِ ذَكَرْتُه في نَفْسي ، وإنْ ذَكَرَني في مَلأٍ ذَكَرْتُه في مَلأٍ خيرٍ منْهُم »[2] . وَلِقَولِه صَلى اللَّهُ عَليهِ وسلم ، للرَّجلِ الذي قَالَ لَهُ . « إنَّ شَرَائِعَ الإسْلاَم قَدْ كَثُرَتْ ، فَأَخْبرني بِشيءٍ أَتَشبثُ بِهِ قَالَ « لا يَزَالُ لِسانُكَ رَطباً مِنْ ذِكرِ اللَّهِ تعالى »[3] . وقوله صَلى اللَّهُ عَليه وسلم « ما عَمِلَ ابْنُ آدمَ عَملاً أَنْجى مِنَ العَذَابِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى »[4] وقوله « مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ ، والَّذي لاَ يَذْكُرُ اللَّهَ مَثَلُ الحيِّ والميتِ »[5] .

١٠ ـ الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

إن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من أعظم الوسائل وأشرفها لرفع الدرجات ، وقضاء الحاجات لقول الرسول صلى الله عليه وسلم في

---

(١) الترمذي (٤٢/١١، ١٣) وأحمد (٤٠/٣) .
(٢) اللؤلؤ والمرجان (٢١٩/٣) .
(٣) رواه الحاكم وصححه ورواه الترمذي (الدعوات ٤١) وأحمد (٤/ ١٨٨/ ١٩٠) ـ
(٤) رواه الطبراني باسناد صحيح ، وكذا ابن ماجه (أدب / ٥٣) وأحمد (٥/ ٢٣٩) وغيرهم .
(٥) رواه البخاري (١٠٧/٨) .

الصحيح : « مَنْ صَلى عَلَيَّ صَلاةً واحِدَةً صَلى اللَّهُ عَليهِ بِها عَشْراً » .

وقوله للذي قَالَ لَهُ : « أَجْعَلُ لَك صَلاتي كُلَّها » : إذاً تُكْفي هَمَّكَ ، وَيَغْفِرُ لَكَ ذَنْبَكَ »[1]

وقوله في حديث أحمد والحاكم الصحيح عن عبد الرحمن بن عوف والذي جاء فيه « أن رسول الله صلى عليه وسلم خرج فاتبعته حتى دخل نخلاً فسجد فأطال السجود حتى خفت عليه ، أو خفت أن يكون الله قد توفاه أو قبضه ، قال فجئت أنظر ، فرفع رأسه ، فقال : مالك يا عبد الرحمن ؟ قال : فذكرت ذلك له . فقال : « إنَّ جِبْرِيلَ عَليهِ السَلامُ قَالَ لي : ألا أُبَشِّرُكَ ؟ إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقولُ : مَنْ صَلى عَلَيْكَ صَلَّيْتُ عَليه ، ومَنْ سَلمَ عَلَيكَ سَلَّمتُ عَليهِ ، فَسَجدْتُ للَّهِ شُكْراً » .

١١ ـ الاستغفار :

إن الاستغفار وهو طلب المغفرة من الله عز وجل بلفظ : أستغفر الله ، أو اللهم اغفر لي ، من الوسائل المشروعة ذات الفضل العظيم ، لثناء الله تعالى على أهلها بقوله

﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾[2]

وقوله

﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[3]

وقوله :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ ﴾[4]

---

(١) رواه أحمد والترمذي (قيامة /٢٣) وصححه .
(٢) سورة آل عمران الآية (١٧) .
(٣) سورة الذاريات الآية (١٨) .
(٤) سورة آل عمران (١٣٥) .

ولقول الرسول صلى الله عليه وسلم « مَنْ قَالَ أَسْتَغْفِرُ اللّهَ الّذي لا إلهَ إلا هُو الحيُّ القَيوم وأتوبُ إليهِ غُفِرَ لَهُ وإنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنَ الزَحْفِ »(١). ولقوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لَزِمَ الإسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللّهُ لَهُ مِنْ كُلِ هَمٍ فَرَجَاً ، ومِنْ كُلِ ضِيقٍ مَخْرَجَاً ، ورَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب »(٢).

الدعــاء :

إن الدعاء وسؤال الله عز وجل لمن خير ما يتوسل به المتوسلون لقضاء حوائجهم ، وتفريج كروبهم ، وكيف لا يكون كذلك ، والله تعالى يقول :

﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (٣)

ويقول :

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (٤)

والرَّسُولُ صَلى اللّهُ عَليهِ وسَلم يَقولُ . الدُعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ ويَقرأُ قَوْلَ اللّهِ تَعالى : ﴿ وَقَالَ رَبكُم ادعوني أسْتَجب لَكُم إنَّ الّذين يَسْتَكبِرُونَ عَنْ عِبَادتي سَيَدْخُلونَ جَهَنَّمَ دَاخِرين ﴾(٥).

ويقول : « مَا عَلى الأرْضِ مُسلِمٌ يَدعو اللّهَ بِدعوةٍ إلا آتَاهُ اللّهُ تَعَالى إيَاها ، أو صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُوءِ مِثْلَها ، مَا لم يَدْعُ بِإثْمٍ أو قَطِيعَةِ رَحِمٍ »(٦). وقال : « مَا مَنْ مُسْلمٍ يَنْصَبُ وجْهَهُ للّهِ عزَّ وجلَّ في مَسْألةٍ إلا أعْطَاها إيَاهُ : إما أنْ يُعَجِلَها لَهُ ، وإما أنْ يُدْخِرَها لَهُ في الآخرةِ » . وفي لفظ « إلا أعْطَاهُ اللّهُ

---

(١) رواه أبو داود وإسناده جيد .

(٢) رواه أبو داود وهو صحيح الإسناد (٣٤٨/١) وأحمد (١٤٨/١) (١/ ٣٤٨) والترمذي (دعوات /١١٧) .

(٣) سورة غافر الآية (٦٠) .

(٤) سورة البقرة الآية (١٨٦) .

(٥) تقدم تخريجه .

(٦) رواه الترمذي وصححه (دعوات / ١١٥) .

إحدىٰ ثَلاث . إما أنْ يُعَجِلَ لَهُ دَعْوَتَهُ ، وإما أنْ يُدْخِرَها لَهُ في الآخرةِ ، وإما أنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُوءِ مِثْلَها . قالوا . إذا نُكْثِرُ ! قَالَ اللّهُ أكْثَرُ »[1] وَقَالَ صَلى اللَّهُ عَليهِ وسَلم « إنَّ اللَّهَ حَيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحي إذا رَفَعَ الرَجُلَ إليهِ يَديهِ أنْ يَرُدَّهُمَا صِفراً خَائبتين »[2] .

١٢ ـ دعاء المؤمنين .

إن من بين الوسائل المشروعة . التي تُرفع بها الدرجات ، وتقضى بها الحاجات دعاء المؤمن لأخيه المؤمن ، فقد كان أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يأتونه يطلبون منه أن يدعو الله تعالى لهم ، فيدعو ، فيستجيب الله تعالى له فيهم ، فتقضى حاجاتهم ، فكم من مرة توسلوا رضى الله عنهم بدعاء نبيهم في طلب الغيث ، فيستجيب الله تعالى ويسقون ، وهذا ثابت في الصحيح لا شك فيه . وقد تقدم خبر الضرير ، وأنه توسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم ، قَالَ : « أدْعُ اللَّهَ لي يا رَسُولَ اللّهِ أنْ يَرُدَ عليَّ بَصَري فَدعَا لَهُ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم فَرَدَ اللَّهُ عليه بَصَرهُ ، وَعَادَ كَأنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ مَسَهُ ضُرٌ »[3] ، كما صح أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن الخطاب وهو يريد العمرة « لا تَنْسَنَا يا أُخي مِنْ دُعَائِكَ » وفي لفظ « أشْرِكْنَا يا أُخَي في دُعَائِكَ »[4] وتوسل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته بدعاء العباس رضي الله عنه لهم في صلاة استسقاء فاستجاب الله تعالى له ، وسقاهم بعد قحط شديد[5] .

---

(١) رواه أحمد باسناد لا بأس به (٣ ـ ١٨) .

(٢) أبو داود (١ ـ ٣٤٢) والترمذي (دعوات ـ ١٠٤) وحسنه ، والحاكم وصححه على شرط الشيخين (١ ـ ٤٩٧) وأحمد (٥ ـ ٤٣٨) وابن ماجه (دعاء ١٣) .

(٣) رواه الترمذي (٩/ ١١٨) وأحمد (١٣٨/٤) وابن ماجه (إقامة /١٨٩) :

(٤) رواه أبو داود (١/ ٣٣٤) والترمذي (دعوات ١٠٩) :

(٥) رواه البخاري من حديث أنس (٣٢/١ ، ٣٣) .

وما زال المسلمون إلى اليوم يتوسلون بدعاء بعضهم بعضاً ، فيقول المؤمن لأخيه ادع الله لي يا فلان ، لما علموا من مشروعية ذلك وجوازه ، وكيف وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ دَعَا لِأَخِيهِ بِظَهرِ الغَيبِ قَالَ المُوَكَلُ بِهِ آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلِهِ » رواه مسلم[1].

١٣ ـ أسماء الله تعالى الحسنى :

إن التوسل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا لمن خير الوسائل وأجداها ، وأنفعها للعبد ، فإن امرءاً مسلماً يدعو الله تعالى بأسمائه وصفاته لا يخيب في دعائه ، ولا يُحرم الاستجابة من ربه إلا أن يدعو بإثم أو قطيعة ، ومما ورد به التوسل من أسماء الله تعالى وصفاته ما يلي ذكره :

١ ـ لفظ يا ذا الجلال والإكرام ، لحديث الترمذي الحسن الإسناد عن مُعاذ وهو قولُهُ صلى الله عليه وسلم وَقَدْ سَمِعَ رَجُلاً يقولُ : يا ذَا الجَلالِ والإِكْرَامِ : « قَدْ اسْتُجِيبَ لَكَ فَسَلْ » .

٢ ـ يا أرحم الراحمين ، لما روى الحاكم عن أبي أمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنَ للّهِ مَلَكاً مُوَكَلاً بِمنْ يقولُ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، فَمَنْ قالها ثلاثاً قَالَ المَلَكُ إنَّ أَرْحَمَ الراحِمينَ قَدْ أقبَل عَليكَ فَسَلْ » .

٣ ـ اللهم إني أسألك بأن لك الحمدَ ، لا إله إلا أنت ، يا حنّان يا منان ، بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام ، لحديث أنس عند أحمد وغيره بسند صحيح : « أَنَّ النَبيَّ صلى الله عليه وسلم ، مَرَ بأَبِي عَياشٍ وَهُوَ يُصَلي وَيَقُولُ : اللَّهمَ إني أَسْأَلُكَ بِأَنَ لَكَ الحمدُ . . . إلخ فَقَالَ : لَقَدْ سَأَلتَ اللّهَ باسمِهِ الأَعْظَمَ الذي إذا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ ، وَإذا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى »[2] .

٤ ـ يا رب ، يا رب ، يا رب ، لحديث عائشة : « إذا قَالَ العبدُ يـ

---

(١) مسلم (٨/ ٨٦) .
(٢) احمد (٣/١٥٨) .

ربِ ، يا ربِ يا ربِ قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لَبَيْكَ عَبْدِي سَلْ تُعطَ ﴾[1] .

٥ ـ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . لحديث سعد بن أبي وقاص عند النسائي والترمذي وسنده لا بأس به : أن النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إذْ دَعَاهُ وَهُو في بَطْنِ الحُوْتِ : لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إنِي كُنْتُ مِنَ الظَّالمينَ ، فَإنَّهُ لَمْ يَدعُ بِها رَجُلٌ مُسْلِمٌ في شيءٍ قطُّ إلاَّ استجابَ اللَّهُ تعالى لَهُ »[2]

هذا وأسماء الله تعالى وهي تسعة وتسعون اسماً كلها يُدعى بها الرب تبارك وتعالى ، ويُتوسل بها إليه ، فيستجيب للداعين ، ويعطي السائلين ، وهو البر الرحيم ، الجواد الكريم . وما ذكرناه مجرد مثال حضرنا من قرب فتناولناه ، وإلا فإن أسماء الله تعالى ، وصفاته كلها يدعى بها ، قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[3]

١٣ ـ فعل الخيرات مطلقاً .

إنه ما من خير أو بر يفعله المؤمن إيماناً واحتساباً إلا كان له وسيلة إلى ربه فليسأل به مولاه عز وجل فإنه يعطيه ولا يخيبه أبداً . وشاهد هذا ما جاء في البخاري ومسلم من حديث النفر الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار في جبل فسقطت صخرة على فم الغار فسدته عليهم ، فقد توسل اثنان منهم ببر فعلوه لوجه الله ، وتوسل الثالث بترك إثم تركه خوفاً من الله ، فاستجاب الله لهم ، وكشف ما بهم ، وخرجوا سالمين من الغار[4] .

كما أن رجلاً من بني إسرائيل أماط غصن شوك من طريق المؤمنين خشية أن يصيب أحداً منهم ، فشكر الله تعالى له ذلك العمل القليل ، فغفر

---

(١) ابن أبي الدنيا ، وسكت عنه المنذري ولم يذكر له علة ، الترغيب والترهيب (٢ ـ ٤٨٨) .
(٢) الترمذي (دعوات /٨١) وأحمد (١/ ١٧٠) .
(٣) سورة الأعراف الآية (١٨٠) .
(٤) راجع اللؤلؤ والمرجان (٣/ ١٣٦) والبخاري (٣/ ٩٩ ، ١٠٠) ومسلم (٨/ ٨٩ ، ٩٠) .

له ، وأدخله الجنة[1] . كما أن امرأة بغيّاً من بني أسرائيل سقت كلباً عطشان بيأكل الثرى من شدة العطش سقته لوجه الله تعالى فشكر الله تعالى لها ذلك ، وأدخلها الجنة ، وهذا ثابت في الصحيحين لا مجال لإنكاره »[2].

١٤ ـ ترك المحرمات .

إن من بين الوسائل النافعة المشروعة للحصول على القرب ، والفوز برضاء الرب ، ولاستجابة الدعوات ، وقضاء الحاجات ، ترك المحرمات ، إنه ما من مؤمن يترك كبيرة من كبائر الإثم خوفاً من الله تعالى وحياء منه إلا كان له ذلك وسيلة ، له أن يتوسل به إلى ربه . كما فعل أحد الثلاثة الذين سدت الصخرة عليهم باب الغار حتى كادوا يهلكون ، فقد توسل إلى الله تعالى بقوله : « اللَّهمَ كَانَتْ لي بِنْتُ عمٍّ ، كَانَتْ أَحبَّ النَّاسَ إليَّ فَأَردتُها عَنْ نَفْسِها فَامْتَنَعتْ مِني حتى أَلمتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِنِينِ فَجَاءتْني فَأَعطيتُها مائَةِ وَعِشْرِينَ ديناراً على أَنْ تُخلي بيني وَبَينَ نَفْسِهَا فَفَعَلتْ ، حتى إذا قَدِرْتُ عَلَيْهَا ، قَالتَ : لا أُحِلُ لَكَ أَنْ تَفِضَ الخَاتَمَ إلاَّ بِحَقِهِ ، فَتَحرجْتُ مِنَ الوُقُوعِ عليْهَا ، فانْصَرَفْتَ عَنْهَا وَهِي أَحَبُ النَّاسُ إليّ ، وَتركتُ الذَّهبَ الذي أعطيتَهَا ، اللَّهمَ إنْ كُنْتُ فَعلتُ ابْتغَاءَ وَجْهِكَ فافْرجُ عَنَا ما نَحنُ فِيهِ فانْفَرجَتْ الصَّخْرَةُ . . . إلخ[3] .

وهكذا فإنه لكل مؤمن أن يتوسل إلى الله تعالى عند الشدائد، وتعسر لأمور بما ترك من معاصي الله تعالى خوفاً من الله وحياء منه ، وطاعة له ، بعد أن يكون قد هَم بها وأرادها ، فانه يستجاب له ، ويفرج كربه ، أو تقضى حاجته باذن الله تعالى .

---

(١) الحديث ثابت في الصحيحين راجع اللؤلؤ والمرجان (٣١ / ٢٠١) والبخاري (١/١٥٧ ، ١٥٨) ومسلم (٨/ ٣٤) .

(٢) راجع اللؤلؤ والمرجان (٣/٧٥) والبخاري (٤/٢١١) ومسلم (٧/٤٤ ، ٤٥) .

(٣) متفق عليه؛ اللؤلؤ والمرجان(٣/٢٣٦) والبخاري (٣/٩٩ ، ١١٠ ومسلم) (٨/٨٩ ، ٩٠

الوسائل المحرمة

وبعد ذكرنا لتلك الطائفة النافعة من الوسائل المشروعة ، نذكر هنا جملة من الوسائل الباطلة الممنوعة ، والتي شغلت الكثير من المسلمين عن الوسائل النافعة ، وصرفتهم عنها فحُرموا من التوسل المشروع ، بسبب انشغالهم بالممنوع ، فخابوا في سعيهم وخسروا .

نذكر هذا نُصحاً للمسلمين ، وتبليغاً لرسالة الإسلام ، وتعريفاً بها بين المسلمين وغير المسلمين .

ومن تلك التوسلات الباطلة الممنوعة :

١ ـ دعاء الأولياء والصالحين :

إن دعاء الصالحين والاستغاثة بهم ، والتوسل بجاههم لم يكن في دين الله تعالى قربة ولا عملاً صالحاً فيتوسل به أبداً ، وإنما كان شِركاً في عبادة الله محرماً ، يخرج فاعله من الدين ، ويوجب له الخلود في جهنم .

إن كل ما يفعله جهلة المسلمين اليوم من دعاء الصالحين كقوله أحدهم : يا سيدي فلاناً ، ومولاي فلاناً خذ بيدي ، وكن لي كذا ، وادع الله لي بكذا ، أو أنا في حماك ، وأنا بك وبالله ، وأنا دخيلك إلى غير ذلك من كلمات الشرك والباطل هو من الضلال ، والجهل ، والإسلام بريء منه ، إذ لم يشرعه ولم يأذن فيه بل حرمه ، ومنعه ، وتوعد عليه بمثل قول الله تعالى :

﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [1]

٢ ـ النذور للأولياء والصالحين :

إن ما ينذره جهلة المسلمين من نذور للأولياء والصالحين من أموات المسلمين ليس وسيلة مشروعة لله للتقرب بها إلى الله تعالى ، ولا لقضاء الحاجات واستجابة الدعوات ، وإنما هو شرك مُحرم ، وقع فيه من وقع من أمة الإسلام لبعدهم عن دراسة كتاب الله ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن قولَ أحدهم : يا سيدي فلاناً إن رزقني الله كذا ، أجعل لك كذا . أو يا سيدي فلاناً إن تحقق لي كذا ، أو تحصلت على كذا أجعل لك كذا ، أو أقدم لك كذا . . كل هذا نذر لغير الله تعالى ، وعبادة صُرفت لغيره تعالى فصاحبها آت أخطر باب من أبواب الشرك ، والإسلام بريء من عمله ، إذ ليس من عقائد المسلمين الإقبال على غير الله تعالى ، ودعاؤه ، وعِدَته بالذبح له ، أو بناء قبة عليه ، أو بإيقاد الشموع على ضريحه ، أو وضع ستائر على تابوته ، إن حصل للناذر ما نذر لأجله . بل هذا يتنافى مع كلمة التوحيد والغرض الذي يقولها المسلم من أجله ، وهو نفي العبادة عن كل أحد وإثباتها لله تعالى وحده لا شريك له .

٣ ـ الذبائح على أرواح الأولياء :

إن ما عرفه جهلة المسلمين اليوم ، وتعارفوا عليه من الذبائح على أضرحة الأولياء ، وعلى المشاهد ، والقباب في المواسم التي تقام باسم أولئك الصالحين من الوقت إلى الوقت ، ومن سوق البقر ، والغنم لتذبح هناك حول أضرحة الصالحين ، كل هذا ضلال وباطل ، وليس

---

(١) سورة المائدة الآية (٧٢) .

مما شرع الله تعالى لعباده التوسل به إليه أبداً ، وإنما هو عمل من أعمال الجاهلية الأولى ، وشرك في عبادة الله تعالى ، وتنديد ، حَرمهما الله تعالى بقوله :

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[1]

ويقوله :

﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2]

٤ ـ العكوف حول قبور الصالحين :

ليس من التوسل المشروع نقل المرضى إلي أضرحة الأولياء ، ولا العكوف حول تلك الأضرحة والقبور ، ولا المبيت هناك ، ولا إقامة الحفلات والحضرات . كما ليس من التوسل المشروع في شيء الاستشفاع بأصحاب تلك الأضرحة والقبور ، ولا نداءاتهم ، وطلب الدعاء منهم ، ولا الاستغاثة بهم . وإنما هذا وما شابهه مما يُقام عند الأضرحة والقبور شرك محرم ، وعمل فاسد لا يأتيه إلا من سَفه نفسَه ، وجهل أكبر أصل من أصول الدين الإسلامي وهو توحيد الله تعالى بعبادته وحده دون سواه . وإن المصر على هذا الباطل والمقر عليه كليهما أشرك بالله تعالى ، وكفر بعد إيمانه ، والعياذ بالله تعالى .

٥ ـ سؤال الله بجاه فلان :

ليس من التوسل الى الله تعالى طلبا للقرب ، ولا لقضاء الحاجات سؤال الله تعالى بجاه أحد من خلقه . كقول أحدهم : اللهم إني أسألك بجاه نبيك فلان ، أو عبدك فلان ، إذ هذا التوسل لم يعرفه دين الإسلام ، فلم يرد في كتابه ولا في سنة نبيه صلى الله عليه

---

(١) سورة النساء الآية (٣٦) .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٢) .

بسلم ، والذي عرفه الإسلام ، وأمر به ، ودعا إليه هو سؤال الله تعالى أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وذلك كقول المسلم : يا الله ، يا رحم الراحمين ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم . امتثالاً لقول لله تعالى ، وطاعة له في قوله :

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[1]

أما سؤاله تعالى بجاه فلان فإنه سؤال مبتدع لم يعرفه سلف هذه الأمة ، ولا صدرها الصالح . وما كان من جنس البدع والأمور المحدثة فإنه لا يكون وسيلة تعطى بها الرغائب ، وتقضى بها الحاجات .

٦ ـ سؤال الله تعالى بحق فلان :

كما ليس من التوسل المشروع بل هو من الممنوع : سؤال الله تعالى بحق فلان ، أو فلان ، إذ هذا التوسل لم يرد في الكتاب الذي قال تعالى فيه

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[2]

ولم يرد في سنة النبي صلى الله عليه وسلم الصحيحة التي قال أبو هريرة فيها « عَلَمَنَا رَسُول اللّهِ صلى الله عليه وسلم كُلَّ شَيءٍ حتى الخَراءَةَ »[3] فهو إذاً من التوسلات المحدثة الباطلة التي نهى عنها سلف هذه الأمة ، وكرهوها للمسلمين فقد نقل عن أبي حنيفة أو أحد تلامذته رحمهم الله تعالى الإنكار الشديد على من سأل الله تعالى بحق فلان ، إذ لا حق لأحد على الله تعالى فيسأل به ، وإنما الله ذو فضل فيُسأل من فضله كما قال تعالى :

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٨٠) .

(٢) سورة الأنعام الآية (٣٨) .

(٣) روى مسلم رحمه الله عن سلمان قال : « قيل له : علمكم نبيكم صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الخراءة قال فقال : أجل . . » (١/١٥٤) .

﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[1]

إنه بدل أن يسأل المسلم ربه بسؤال بدعي منهى عنه لا يعطى به فليسأله بسؤال شرعي مأذون فيه ؛ يستجاب له به ، ويعطى مسألته ، وهو أن يقول : « اللهم إني أسألك بإيماني بك أو بنبيك ، أو بكتابك أو بمحبتي لك أو لفلان نبيك أو عبدك أن تقضي حاجتي ، أو تفرج كربي ، أو تخلصني من محني . . . » أو يقول « اللهم أسألك وأتوجه إليك بمحبتي ، واتباعي لنبيك نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أن تكشف ضري . أو تقضي حاجتي أو تعطيني كذا أو كذا » فإن هذا من التوسل المشروع الذي يعطى به الداعي ويستجاب له إذا توسل به ، وكان أهلاً للإجابة بإيمانه وإسلامه . وهو مغن للمؤمن عن التوسل بما لم يشرع في كتاب ولا سنة .

(١) سورة النساء الآية (٣٢) .

(تنبيه هام)

يحسن بنا هنا أن ننبه إلى ثلاث شبه قد تعرض للمسلم عند الكلام على التوسل والوسيلة وهي :

١ ـ حديث الضرير ، ونصه كما رواه الترمذي وأحمد وغيرهما بسند لا بأس به :

« أَنَّ رَجُلاً ضَرِيرُ الْبَصَرِ أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : ادْعُ اللَّهِ أَنْ يُعَافِيَنِيَ . قَالَ : إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ لَكَ ، وإِنْ شِئْتَ صَبَرتَ فَهُوَ خَيرٌ لَكَ ، فَقَالَ ادْعُهُ . فَأَمَرَهُ أَنْ يَتوضَأَ فَيُحْسِنَ الْوُضُوءَ فَيُصَلي رَكْعَتينِ وَيَدعُو بِهَذا الدُعَاءِ : اللَّهمَ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتوجَهُ إِليكَ بِنَبِيكَ نَبي الرَحْمَةِ ، يا مُحمدُ إِنِّي تَوجَهْتُ بِكَ إِلى رَبي في حَاجَتي هَذِهِ فَتُقْضى لي . اللَّهمَ شَفعهُ فيَّ . قَالَ فَفَعَلَ الرَجُلَ فَبَرَأ »[1] ووجه الشبهة في الحديث : أن يقول المرء : مادام الضرير قد علمه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول اللهم إني أسألك ، وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة . . . الخ فلم لا أفعل أنا مثله لقضاء حوائجيَ ؟

والجواب . أن نقول إن هذا التوسل مركب من عدة أمور ولا يتم إلا بها ، وبعض هذه الأمور قد تعذر الحصول عليه بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ألا وهو دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لأحدنا

---

(١) أحمد (٤/١٣٨) وغيره .

اليوم ، وشفاعته لنا عند الله تعالى في قضاء حاجتنا ، وذلك لوفاته صلى الله عليه وسلم ، والتحاقه بالرفيق الأعلى . فلو قام أحدنا اليوم يقول : يا رسول الله ادع الله لي أن يقضي حاجتي . لكان قوله باطلاً وضلالاً . ولا معنى له ، إذ الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسمعه ولا يراه . ولا يدعو الله تعالى له أبداً ، ولو قال أحدنا اليوم ؛ اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك . . . إلخ لكان كاذباً في قوله ، لأنه لم يقدم بين يدي دعائه الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو له ، حتى يقول لله تعالى اللهم إني أتوجه إليك بنبيك اللهم شفعه فيّ ، إنما يقول هذا من قام الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الله تعالى له كما دعا للضرير .

ومن هناك لم يبق هذا التوسُّل بتلك الكيفية جائزاً ولا نافعاً لفقد أعظم أركانه وأهم عناصره وهو دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم للمتوسل . وعلى فرض أن مؤمناً قام فتوسل به ، وبرأ من مرضه ، أو قُضيت له حاجته ، فإن ذلك لا يدل على جوازه ومشروعيته ، إذ حاجته قد قضيت بقضاء وقدر . كما قد يحصل لبعض الناس أن يدعو ميتاً ، ويتشفع به فتقضى حاجته ، ويقول سيدي فلان قضى حاجتي ، والحقيقة أن وسيلته شرك محرم ، وما قضى له من حاجة إنما وافق فيه القدر فقط ، لا أن السيد دعا له وأن الله تعالى قد استجاب له .

هذا ولا بأس أن يفعل المسلم ما يمكنه فعله من هذه الوسيلة ويتوسل به إلى الله تعالى وهو أن يتوضأ فيُحسن الوضوء ، ويصلي ركعتين ، ويقول اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بإيماني وحبي لنبيك نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم أن تقضي حاجتي ، ويسمي حاجته . فإنه يرجى أن يستجيب الله تعالى له ، ويقضي حاجته .

ومن باب التحدث بنعمة الله تعالى أقول : إنه صادف يوم تبييض هذه الرسالة ووصولي فيها إلى هذا الموضوع من مواضيعها : أن كنت

بالدار البيضاء من المغرب وفي آخر رمضان ورغبت في عمرة فيه ، وحاولت أن أحجز مقعداً بالطائرة فقيل لي إنه غير ممكن . وإذا تأخرت عن هذه الرحلة ينتهي رمضان ولم أعتمر فيه كما كنت أعتزم وآمل ، فتوضأت وصليت ركعتين وقلت اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بإيماني بنبيك نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وحبي له ، أن تيسر لي أمر سفري على الطائرة الفلانية يوم كذا لأعتمر عمرة مبرورة في رمضان هذا .

وعدت إلى مكتب الشركة فوالله ما رُمت مكاني حتى قُضيت حاجتي ، وتم حجزي والحمد لله رب العالمين ، ونفعني الله تعالى بهذه الوسيلة المشروعة .

٢ ـ حديث استسقاء عمر بن العباس رضي الله عنهما ، ونصه كما في البخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال : اللَّهمَ إنَّا كُنَّا نَتوسَلُ إليكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا ، وإنَّا نَتوَسَلُ إليكَ بِعَم نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا ، قَالَ : فَيُسقَونَ »[1] .

ووجه الشبهة في هذا الحديث . أن يقال : مادام عمر رضي الله عنه قد قال « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا » وهو إقرار من عمر بأنهم كانوا يتوسلون بالنبي صلى الله عليه وسلم .

فلم لا نتوسل نحن اليوم بالنبي صلى الله عليه وسلم .

والجواب عن هذه الشبهة : أن نقول إن توسلهم رضوان الله عليهم بالنبي صلى الله عليه وسلم كان بطلبهم منه أن يدعوَ الله تعالى لهم بالغيث فيدعو فيستجيب الله دعوته ويسقيهم كما قد حصل مراراً . لا أنهم كانوا يتوسلون إلى الله تعالى بذات النبي ، أو بجاهه صلى الله

---

(١) البخاري (٢/ ٣٢ ، ٣٣) .

عليه وسلم فيقولون : اللهم إنا نتوسل إليك بنبيك ، أو بجاه نبيك ، والنبي غائب عنهم ولم يدع الله تعالى لهم ، إذ لو كان الأمر هكذا لما توسل عمر بالعباس رضي الله عنهما . وإنما كان يقول : اللهم إنا نتوسل إليك بنبيك ، أو بجاه نبيك فاسقنا ، لم يقل عمر هذا لأنه يعلم أن التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم كان بدعائه عليه الصلاة والسلام لهم ، ولما توفي صلى الله عليه وسلم لم يبق ليدعو لهم ، توسلوا بالعباس ليدعو الله تعالى لهم فكان يدعو ، ويستجيب الله له فيسقون .

ومن هنا كان من الجائز المشروع أن يقدم المسلمون مؤمناً صالحاً يدعو لهم عند الحاجات ، ولكن من غير الجائز أن يقدموا ميتاً أو غائباً لربهم ويقولوا : اللهم إنا نتوسل إليك بفلان أو بجاه فلان . لأن هذا كذب وباطل ، مادام الذي قدموه وسيلة لربهم غائباً أو ميتاً ، لأن الغائب أو الميت لا يعرف عن حالهم ، ولا يسمع طلبَهم منه الدعاء ، ولا هو يدعو لهم ، وإذا لم يدع لهم فبم تكون الاستجابة ؟؟؟

٣ - ما ورد من لفظ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيكَ »[١] .

ووجه الشبهة أن يقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إني أسألك بحق السائلين عليك » فلم لا نتوسل نحن بمثل ذلك ، ونقول اللهم إنا نسألك بحق فلان أو فلان ؟؟

والجواب : أن نقول : إن الحديث الذي ورد فيه هذا اللفظ حديث ضعيف ، والضعيف لا تؤخذ منه الأحكام فضلاً عن مسألة تتعلق بالعقيدة كهذه . مع أن هذا اللفظ لو صح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ما دل على سؤال الله تعالى بحق فلان أو فلان ، لأن معنى

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٢١) وابن ماجه (مساجد / ١٤) .

بحق السائلين عليك : اللهم استجب لي كما تستجيب للداعين ، لأنك قلت ادعوني استجب لكم ، وذلك لأنه مادام تعالى قد أمر عباده بدعائه ، وواعدهم بالاستجابة فقال عز وجل من سورة المؤمن ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (١) أصبح لكل داع حق أن يطلب ربّه بما وعده به لينجزه له ، فمن هنا لما دعا الرسول صلى الله عليه وسلم عند خروجه من بيته للصلاة قال مستنجزاً ربه وعدَه .

« اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا » . فهو قد سأل ربه بصفة من صفاته تعالى الفعلية وهي الإجابة للداعين والمثوبة للعاملين بطاعته ، الماشين إلى بيوته لأداء عبادته .

قلنا هذا من باب التنزل والفرض ، وإلا فما دام الحديث ضعيفاً فإنه لا يلتفت إليه ، ولا إلى من يحتج به ، شأنه شأن حديث قول آدم في الجنة لما اقترف الخطيئة : يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي . . . الخ .

وحديث فاطمة بنت أسد أم علي رضي الله عنهما ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال بعد أن اضطجع في قبرها . « الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ، ولقنها حجتها ، ووسع مدخلها بحق نبيك ، والأنبياء الذين قبلي فإنك أرحم الراحمين » . فإن هذه الأحاديث قد حكم أهلَ الحديث بضعفها وبطلانها فلا يلتفت إليها ، ولا يعول عليها أو يحتج بها . وفيما صح عن نبينا صلى الله عليه وسلم من التوسلات المشروعة كفاية . فلنأخذ ما صفا ، ولنترك ما كدر .

---

(١) الآية (٦٠) .

الاستشفاع

وإن مما اشتبه أمره على كثير من المسلمين حتى وقع من وقع منهم في أمور عظيمة من الباطل : معنى الاستشفاع والتشفع والشفاعة . فترى أحدهم يدعو غير الله تعالى ، ويستغيث بغيره عز وجل ، ولا يحسب هذا دعاء لغير الله ، ولا يعده شركاً في عبادته سبحانه وتعالى . وإذا قيل له في ذلك ، وأنكر عليه قال : هذا ليس بدعاء لغير الله ولا شرك في عبادته ، وإنما هو استشفاع وتشفع فقط .

ومن هنا رأينا بحث هذه المسألة ، وبيان الحق فيها تعليماً وتحذيراً .

معنى الاستشفاع :

الاستشفاع والتشفع والشفاعة هذه الكلمات الثلاث مدلولها واحد ، ومعناها لا يختلف وهو : أن يطلب إنسان من آخر التوسط له عند ذي مُلك أو سلطان ليقضي له حاجته في إعطائه ما هو في حاجة إليه ، أو في التجاوز عنه في ذنب قارفه ، أو جريمة ارتكبها ، والكلمات الثلاث مشتقة من لفظ الشفع الذي هو خلاف الوتر ـ الفرد ـ وبيان ذلك أن صاحب الحاجة كان واحداً فضم إليه الواسطة . وهو من استشفع به ، وطلب شفاعته فكان معه شفعاً أي اثنين بعد أن كان فرداً . من هذا المعنى أخذت كلمات الاستشفاع والتشفع والشفاعة .

حكم الاستشفاع

لا بأس باستشفاع أحد بآخر عند ذي منصب أو مال ، أو سلطان ليشفع له عنده برفع حاجته إليه حيث عجز هو عن رفعها إليه ، لخموله أوقصوره وذلك لقول الله تعالى من سورة النساء

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا[1] وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا[2]﴾[3]

ويؤجر الشافع على شفاعته ، ولو لم تقض حاجة من شفع له ، وذلك لقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي موسى : « إشْفَعُوْا تُؤْجَرُوا ، وَيَقضِي اللَّهُ علىٰ لِسَانِ نَبيهِ ﷺ مَا شَاءَ »[4]

وجواز الاستشفاع مشروط بأن يكون في حق ضاع ، أو حق يخشى ضياعه ، أو في شيء مباح ينتفع به . أما أن يكون في إثم بإسقاط حق من الحقوق ، أو تعطيل حد من الحدود فلا ، وذلك لقوله تعالى :

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[5]

ولقول الرسول ﷺ : « إذَا بَلَغَ الحَدُ السُلطَانَ فَلَعَنَ اللَّهُ الشَافِعَ والمشَفَعَ »[6] .

---

(١) الكفل هنا الوزر المترتب على الشفاعة السيئة .

(٢) حفيظاً شاهداً أو حسيباً قديراً .

(٣) الآية (٨٥) .

(٤) رواه الشيخان اللؤلؤ والمرجان (٣/ ٢٠٢ ، ٢٠٣) والبخاري (٢/ ١٣٤) ، ومسلم (٨/ ٣٧) .

(٥) سورة المائدة الآية ٢ .

(٦) التغليظ في الشفاعة في الحدود ثابت في البخاري (٨/ ١٩٩) والحديث المذكور ذكره مالك =

قياس خاطىء :

وجهل كثير من المسلمين ربهم عز وجل فلم يعرفوه ، فقاسوه سبحانه وتعالى على بعض عباده فاستشفعوا عنده بالأولياء والصالحين من أموات المسلمين ، وطلبوا منهم الشفاعة لديه سبحانه وتعالى ، فكانوا يقولون يا سيدي فلاناً اشفع لي عند ربي في قضاء كذا وكذا . . . . ويا مولاي فلاناً توسلت بك إلى ربي ، فادع الله لي يفعل بي كذا وكذا . ولما ينكر عليهم ذلك يقولون إن الذي لا يستطيع أن يدخل على السلطان يطلب له واسطة ؟؟

فجمعوا بذلك بين عظيمتين : الأولى دعاء غير الله تعالى وهو شرك أكبر ، والثانية : قياس الخالق على المخلوق ، وتشبيهه به حيث طلبوا له واسطة كما تُطلب للمخلوق من ذوي السلطان ، وجهلوا أن المخلوق قد يخفى عليه أمر الإنسان فيحتاج إلى من يعلمه به ، وينبهه إليه ، بخلاف الرب تبارك وتعالى فإنه عليم بأحوال عباده ، لا يخفى عليه من أمرهم شيء ، فما هو في حاجة إلى من يعلمه بأحوال عباده ، أو ينبهه إليها ، وإذا كان المخلوق قد يعجز عن رفع حاجته إلى من يقضيها له من سلطان وغيره فيضطر إلى البحث عن واسطة يشفع له برفع حاجته إلى من يقضيها له ، فإن الأمر بالنسبة إلى الله تعالى يختلف تمام الاختلاف ، إذ العبد مع الله تعالى يمكنه أن يرفع إليه حاجته مباشرة وبدون واسطة ، لعلمه تعالى بأحوال عباده وقربه منهم بخلاف المخلوقين فإنهم لجهلهم بأحوال الناس ، وعجزهم عن كفايتهم يحتاج طالب الحاجة منهم إلى واسطة ترفع حاجته إليهم ، ليعلموها ، وتؤثر عليهم ليقضوها ، وهذا المعنى منتفٍ مع الله تعالى تماماً . ومن

= عن ابن الزبير موقوفاً بلفظ « إذا بلغت الحدود السلطان فلعن الله الشافع والمشفع » الموطأ (٣/ ٤٩ ، ٥٠) وهذا في حكم المرفوع لأن مثله لا يقال بالرأي .

هنا قبح بالعبد أن يستشفع على ربه بأحد من خلقه . وحسن به أن يسأل ربه مباشرة وبغير واسطة ، وكيف وربه تعالى يقول :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (١)

ويقول :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (٢)

وإن قيل كيف جاز لنا إذاً أن يقول بعضنا لبعض : يا فلان أدع الله تعالى لي بكذا ؟ أليس هذا هو عين ما نفيتموه من مسألة الاستشفاع بالأولياء ؟ .

قلنا : إن هذا ليس من ذاك أبداً ، وذلك لأمرين : أولهما : أن هذا قد أذن لنا الشارع فيه ، إذ ثبت بما لا مجال للشك فيه أن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يطلبون منه صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله تعالى لهم . كما ثبت أن الرسول نفسه قد طلب مرة من عمر وهو ذاهب إلى العمرة أن يدعو الله تعالى له فقال : « **لَا تَنْسَنَا يَا أُخَيَّ مِنْ دُعَائِكَ** »(٣) ، وبه أصبح المسلمون لا يترددون في أن يطلب أحدهم من أخيه أن يدعوَ الله تعالى له بخير . وكيف وقد أرشدنا إلى ذلك القرآن في قوله :

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾(٤)

---

(١) سورة البقرة الآية (١٨٦) . (٢) سورة غافر الآية (٦٠) .

(٣) رواه أبو داود (١/ ٣٤٤) والترمذي (دعوات/ ١٠٩)

(٤) سورة الحشر الآية (١٠) .

إذ في القرآن دعاء المؤمنين بعضهم لبعض . وثانيهما : طلبنا الدعاء من عبد صالح حيّ يسمعنا ويرانا ، ويقدر على أن يدعو الله تعالى لنا هو كطلبنا منه أن يناولنا شيئاً ، أو يعطينا آخر ، بأن يقدم لنا طعاماً أو شراباً ، أو يعطينا مالاً أو متاعاً ، أو يعيننا على ما يشق فعله علينا ، أفليس هذا جائزاً ؟ بلى وقطعاً ، وبدون شك . وإذاً فأي مانع من أن نقول لمؤمن صالح حي يصوم ، ويصلي ويسمعنا ويرانا ، ويقدر على أن يدعو الله لنا ، أي مانع أن تقول له : ادع الله تعالى لنا يا فلان بكذا أو اسأل الله تعالى لنا كذا أو كذا . . رجاء أن يستجيب الله تعالى له فينا فتقضى حوائجنا ، أو نحصل على خير من خيري الدنيا أو الآخرة .

وهذا بخلاف الاستشفاع بأموات المسلمين من أولياء وصالحين ، إذ هم أموات ، والميت غير مكلف بعبادة ولا دعاء ولا يسمع من يناديه ، ولا يعرف من يستشفع به ، فنداؤه وطلب الدعاء منه ، والاستشفاع به ضلال عقلي وخطأ فكري ، وفساد ديني ، يبرأ منه الإسلام وأهله، وهذه أقل أحواله وإلا فهو شرك في عبادة الله ، وفاعله من المشركين بالله . والعياذ به تعالى من الشرك والمشركين .

الشفاعة في الآخرة

ما تقدم من أحكام الشفاعة ، والاستشفاع إنما كان في الشفاعة ، والاستشفاع اللذين يتمان في هذه الحياة الدنيا . أما الشفاعة في الدار الآخرة فانها تختلف ـ عنها في الدنيا اختلافاً كبيراً وذلك لأن الأمر يومئذ كله لله ، وليس لأحد غير الله تعالى منه شيء كما قال تعالى :

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٍ شَيۡـًٔا وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [1]

وقد تكون يوم القيامة شفاعات كثيرة غير أنها تجري على خلاف ما تكون عليه اليوم في الدنيا وهذا بيانها :

إن الشفاعة تنقسم يوم القيامة الى قسمين : شفاعة منفية تماماً لا حقيقة لها ، ولا واقع ، ولا وجود ، وشفاعة ثابتة واقعة لها حقيقة ووجود .

وللشفاعة المنفية صور منها : ـ

١ ـ شفاعة الآلهة التي عُبدت من دون الله أو معه فهذه شفاعة لا وجود لها البتة ، وسواء كان المعبود المرجو الشفاعة ملكاً ، أو نبياً ، أو صالحاً ، أو دون ذلك من الجن أو الشياطين ، أو الحيوانات والجمادات ، وذلك لقول الله تعالى :

---

(١) سورة الانفطار الآية (١٧ ـ ١٩)

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا﴾ (١)

ولأن من عبد غير الله تعالى مشرك كافر ، ولا شفاعة لكافر لقول الله تعالى

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ﴾ (٢)

وقوله :

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٣)

وهذه قطعاً نفس الكافرين والمشركين .

٢ ـ الشفاعة بدون إذن الله تعالى للشافع ، أو عدم رضاه عن المشفوع له وذلك لقوله تعالى :

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ (٤)

وقوله :

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ (٥)

وقوله :

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ (٦)

---

(١) سورة الزمر الآيتان (٤٣ ، ٤٤) .
(٢) سورة المدثر الآية (٤٨) .
(٣) سورة البقرة الآية (٤٨) .
(٤) سورة البقرة الآية (٢٥٥) .
(٥) سورة الأنبياء الآية (٢٨) .
(٦) سورة النجم الآية (٢٦) .

والشفاعة المثبتة قسمان .

القسم الأول : شفاعات النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

والقسم الثاني : شفاعات غيره من الأنبياء ، والأولياء ، والصالحين من عباد الله تعالى ، فأما شفاعاته صلى الله عليه وسلم فهي كثيرة منها : الشفاعة العظمى ، وهي الشفاعة في فصل القضاء ، وهي المقام المحمود الذي ذُكر له في القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[1]

وورد بيان كيفية هذه الشفاعة في الصحيحين فروى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم عن أبي هريرة قوله : أتى رسول الله ﷺ يوماً بلحم فرفع إليه الذراع ، وكانت تعجبه فنهس منها نَهسة[2] فقال : **أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون بما ذلك ؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيسمعهم الداعي ، وينفذ فيهم البصر ، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يُطيقون ، ولا يحتملون ، فيقول بعض الناس لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه ؟ ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : ائتوا آدم ، فيأتون آدم ، فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدم : إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسي ، نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح .**

---

(١) سورة الإسراء الآية (٧٩) .

(٢) نهس اي أكل منها بمقدم أسنانه .

فيأتون نوحاً عليه السلام ، فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض ، وسماك الله عبداً شكوراً ، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لي دعوة فدعوت بها على قومي ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى إبراهيم عليه السلام .

فيأتون إبراهيم ، فيقولون : أنت نبي الله تعالى ، وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم إبراهيم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وذكر كذباته ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى موسى . . فيأتون موسى عليه السلام فيقولون يا موسى أنت رسول الله ، فضلك الله تعالى برسالاته ، وبتكليمه على الناس اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم موسى : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني قتلت نفساً لم أومر بقتلها ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى عيسى . . فيأتون عيسى عليه السلام فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله ، وكلمت الناس في المهد ، وكلمة منه ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم عيسى : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر له ذنباً ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى محمد ﷺ .

فيأتونني ، فيقولون : يا محمد أنت رسول الله ، وخاتم الأنبياء ، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك ، وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأنطلق فآتي تحتَ العرش فأقع ساجداً لربي ثم يفتح الله تعالى

عليّ ، ويلهمني من محامده . وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي ، ثم قال : يا محمد ارفع رأسك ، سلْ تُعط ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول : يا رب أمتي أمتي ، فيقال : يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما » بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبُصرى »(١) .

ومن شفاعاته ﷺ : شفاعته في أناس من أمته فيدخلون الجنة بغير حساب ، وقد تقدم دليلها آنفاً في حديث الشفاعة العظمى حيث قال له الرب تعالى : « أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن » ومنها : شفاعته ﷺ في أناس من أمته استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع لهم فلا يدخلوا النار ، ومنها : شفاعته ﷺ فيمن دخل النار من أمته فيخرج منها بشفاعته ﷺ لحديث الصحيحين واللفظ لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **لكل نبي دعوة مستجابة فتعجّل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة . فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً** »(٢) .

والقسم الثاني من الشفاعة المثبتة : شفاعة الملائكة ، والأنبياء ، والعلماء ، والشهداء : فشفاعة الملائكة ثابتة بقوله تعالى :

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾(٣)

---

(١) اللؤلؤ والمرجان (١/٤٩ ـ ٥١) والبخاري (٦/ ١٠٥ ـ ١٠٧) ومسلم (١/ ١٢٧ ـ ١٢٩) .
(٢) اللؤلؤ والمرجان (١/ ٥١) ، والبخاري (٩/ ١٧٠) ومسلم (١/ ١٣١) .
(٣) سورة النجم الآية (٢٦) .

وبقوله تعالى :

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ (١)

وأما شفاعة الأنبياء ، والعلماء ، والشهداء فهي ثابتة بعموم القرآن ، وخصوص السنة ، ففي القرآن الكريم يقول تعالى :

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ (٢).

ويقول وقوله الحق :

﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ (٣)

ويقول : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ (٤)

فهذه الآيات دالة على وجود شفعاء بمنطوقها ومفهومها .

وفي السنة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه ابن ماجه والبيهقي والبزار: « يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء » ، واسناده حسن(٥) .

وقوله صلى الله عليه وسلم « يَشْفَعُ الشهيدُ في سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيتِهِ » رواه أبو داود (٢/١٧) وصح أن القرآن الكريم يشفع لأهله كذلك(٦).

---

(١) سورة الأنبياء الآية (٢٨) .

(٢) سورة المدثر الآية (٤٨) .

(٣) سورة مريم الآية (٨٧) .

(٤) سورة البقرة الآية (٢٥٥) .

(٥) ابن ماجة (زهد / ٣٧) .

(٦) لما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه » . . . الحديث ـ متن مسلم (٢/ ١٩٧) .

وآخر القول في هذا أن كل ما تقدم من الشفاعات الثابتة للأنبياء والعلماء ، والشهداء هو مقيد بثلاثة قيود. فلا تتم الشفاعة لعبد من عباد الله تعالى إلا بعد توفرها له ، وتلك القيود هي : -

١ - أن لا يشفع أحد إلا بعد إذن الرب تبارك وتعالى له . وذلك لقوله تعالى ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾؟ والاستفهام هنا للنفي أي لا أحد يشفع إلا بإذنه تعالى .

٢ - أن لا يشفع أحد في آخر إلا إذا كان الله تعالى قد رضي عن المشفوع فيه بارتضائه قوله وعمله . وذلك لقوله عز وجل

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[1]

فانه صريح في نفي الشفاعة عن أحد لم يرتضه تعالى لذلك .

٣ - أن لا يشفع أحد فيمن مات على الشرك والكفر ، وذلك لحكم الله تعالى بخلود الكافرين والمشركين في النار بقوله :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾[2]

ولهذا وجب أن ينقطع طمع العبد في غير الله تعالى : فلا يطلب الشفاعة من أحد ، ولا يسألها من غير الله عز وجل ، إذ الشفاعات كلها لله تعالى وليس لأحد سواه منها شيء ، قال تعالى

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾[3]

وقال :

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[4]

---

(١) سورة الأنبياء الآية (٢٨) .
(٢) سورة البينة الآية (٦) .
(٣) سورة الزمر الاية (٤٤) .
(٤) سورة البقرة الآية (٢٥٥) .

ومن أراد شفاعة النبي ﷺ فليسألها من الله تعالى ، وليقل : اللهم شفع في نبيك ، أو اللهم ارزقني شفاعة نبيك ، أو يا رب اجعلني ممن تُشفع فيهم نبيك ، وليتبع سؤاله الشفاعة من الله تعالى بالعمل الموجب لها ، والمقتضي تحقيقها ، وهو يتلخص في ثلاثة أمور :

١ ـ الإخلاص لله تعالى في العبادة ، ونفي الشرك عنه تعالى في ربوبيته وأسمائه ، وصفاته ، وفي عبادته ، لحديث الصحيح : « مَنْ أَسْعدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يا رسول اللَّهِ ؟ فَقَالَ مَنْ قَالَ لا إلهَ إلاّ اللَّهَ خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ أو مِنْ نَفْسِهِ »[1]

٢ ـ كثرة الصلاة ، لما صح عنه صلى الله عليه وسلم « أَنَّهُ سَأَلَهُ أحدُ أصحَابِهِ مُرافَقَتِهِ في الجَنَةِ فَقَالَ له : فَأَعني على نَفْسِكَ بِكَثْرةِ السُّجُودِ »[2].

٣ ـ الصلاة على النبي ﷺ . وسؤال الوسيلة له ، وذلك لحديث مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمعَ رسولَ الله ﷺ يقول : « إذا سَمعتُمْ المُؤذِنَ فَقُولُوْا مِثْلَ مَا يَقولُ ، ثُمَّ صَلُوْا عليَّ . فإنَهُ مَنْ صلىٰ عليَّ صَلاةً صلىٰ اللَّهُ عليهِ بِهَا عَشْراً ثُمَ سَلُوْا اللَّهَ لي الوسِيلَةَ ، فَإنها مَنْزِلَةٌ في الجَنَةَ ، لا تَنْبَغي إلاَّ لعبدٍ مِنْ عبادِ اللَّهِ ، وأَرجُو أنْ أكونَ أنا هو . فَمَنْ سَأَلَ اللَّه لي الوْسِيلةَ حَلَّتْ لَهُ الشَفاعةَ »[3]

---

(١) البخاري (١/ ٣٥) .

(٢) مسلم (٢/٥٢) .

(٣) مسلم (٢/ ٤) .

التبرك

إن التبرك مثل التوسل والتشفع كلها سيء فهمها ، وجَهْل الناس بحقيقتها أوقع الكثير من المسلمين في أخطاء كبيرة أضرت بالمعتقد الإسلامي ، وأساء إلى الحياة الإسلامية أيما إساءة .

فباسم التبرك ، وتحت شعاره عُبدت الأشجار والأحجار ، وانتهكت الحرمات ، وضِيعت الفرائض ، وأسقطت الواجبات . كما أنه باسم التوسل والاستشفاع ذبح لغير الله تعالى ، واستغيث بغيره عز وجل .

وبالجملة فإن ما وقع من الشرك في هذه الأمة أيام جهلها بكتاب ربها ، وسنة نبيها ، وبعدها عنهما إنما كان في الغالب عن طريق التوسل ، والتشفع ، والتبرك . ولهذا رأينا أنه مما ينبغي أن يبحث في هذا المعتقد ، ليكون المسلم فيه على علم كامل ، وبينة تامة ، هذه الثلاثة : التوسل والاستشفاع والتبرك ، وقد بحثنا الأول والثاني ، وها نحن نبحث الأخير إن شاء الله تعالى فنقول :

التبرك

التبرك مصدر تبرك بالشيء يتبرك به تبركاً إذا تيمن به ، والتيمن بالشيء هو طلب اليُمن ، وهو البركة . والبركة هي النماء في الخير والزيادة فيه . ويطلق لفظ البركة على كل كثرة في الخير . واشتقاقها من بروك البعير ، وهو استناخته في موضع ، ولزومه فيه . فالخير الدائم الثابت في الشيء ، والنامي فيه هو البركة .

والبركة في عرف الدين : ما يجعله الله تعالى من الخير في الشيء الذي يباركه . فقد أخبر تعالى أنه بارك في أرض الشام أي جعلها مباركة(١) وأخبر أنه جعل كتابه مباركاً(٢) ، والمعنى كثير خيرهما دائم لهما، ثابت فيهما ، وأخبر عيسى عليه السلام عند تكلمه في المهد أن الله تعالى جعله مباركاً أينما كان . فقال :

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾(٣)

ومن الأدعية المأثورة : « وبارك لي فيما أعطيتني » وعلى هذا فطلب البركة والتماسها أمر مستحسن شرعاً ، لأنه من طلب الخير والتماسه .

ومن ذا يرغب عن طلب الخير أو يكون له غنىً عن بركة الله ؟

ولكن بم يكون التبرك ، وكيف يكون ؟

أما بما يكون التبرك ؟

فإن التبرك يكون بما عُلم شرعاً أن فيه بركة ، وأذن الشارع في طلبها منه . والتماسها فيه ، وذلك كبيت الله الحرام ، وزمزم الذي قال فيه الرسول ﷺ « مَاءُ زَمْزَمَ طَعَامُ طُعْمٍ ، وشِفَاءُ سُقْمٍ »(٤)

وكالمساجد الثلاثة التي لا يُشد الرحـــال إلا لها ، وككل المساجد التي

---

(١) في قوله تعالى ﴿ ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ سورة الأنبياء الآية (٧١) .

(٢) في قوله تعالى : « كتاب أنزلناه إليك مبارك . . . » سورة ص الآية (٢٩) .

(٣) سورة مريم الآيتان (٣١ ، ٣٢) .

(٤) روى مسلم « إنها مباركة إنها طعام طعم » في حديث فضائل أبي ذر (٧/ ١٥٢ ـ ١٥٤) والزيادة (شفاء سقم) لغيره .

بنيت باسم الله ، وتقام فيها عبادة الله من صلاة وغيرها ، وكالأراضي المقدسة من الحجاز والشام ، وكمجالس العلم والذكر ، وقراءة القرآن ، ومجالسة الصالحين ، ومرافقتهم في أسفارهم ، وطلب دعائهم .

وأما كيف يكون التبرك !

فإنه يكون إن كان بيت الله تعالى فبزيارته للحج والعمرة ، وبالطواف به واستلام ركنيه ، والدعاء عنده ، والجلوس حوله ، وإن كان بزمزم فبالشرب منه ، والدعاء عند ذلك ، وإن كان بالمساجد الثلاثة فبالسفر إليها للصلاة فيها ، والاعتكاف بها ، وإن كان بسائر المساجد فبالصلاة فيها ، والعبادة بها من ذكر وتسبيح ، وقراءة قرآن ، وطلب علم ، وإن كان بالأراضي المقدسة فبالإقامة بها على حسن سيرة ، وكمال أدب ، والحياة فيها ، والموت بها والدفن فيها ، وإن كان بمجالسة الصالحين من أهل العلم ، والإيمان ، والتقوى فبأخذ العلم عنهم ، وسماع نصائحهم ، والعمل بإرشادهم وتوجيهاتهم ، والرغبة في الحصول على دعائهم .

هذا ـ وبعد أن بينا ما يشرع التبرك به ، وكيف يتم التبرك به وجب أن نبين إتماماً للبحث حقائق هامة لا بد من بيانها في هذا البحث وهي :

١ ـ أن التبرك لم يعدُ كونه مشروعاً ، وأقصى درجات حكمه أن يكون مستحباً لا غير .

٢ ـ إن كان التبرك وهو طلب بركة ما قد يؤدي إلى فعل مكروه ، أو ارتكاب محرم فإنه يجب تركه ، ويتعين عدم فعله ، لأن درء المفاسد مقدم على جلب المنافع ، ويشهد لهذا فعل عمر رضي الله عنه ، وهو أحد الخلفاء الراشدين الموصى شرعاً باتباع سنتهم ، فإنه رضي الله عنه لما رأى رغبة الناس عند المرور بالحديبية في طريقهم إلى مكة في النزول تحت شجرة بيعة الرضوان للتبرك بها ، أمر بقطعها ، حسماً لمادة الفساد ، إذ لو تركت لعُبدت كما عبد غيرها من أشجار كثيرة باسم التبرك ، وفي كل زمان ، ومكان من عهد

نوح إلى ساعتنا هذه .

٣ ـ إن ما يفعله جهال المسلمين اليوم من شد الرحال إلى زياره قبر فلان وفلان ، أو ضريح فلان من سيِّد أو صالح ، وإقامة الحفلات حولها ، والنزول بساحتها ، والعكوف والإقامة الليلة والليلتين عندها باسم التبرك ، كل هذا باطل منهي عنه ، ولم يشرع فعله للمسلمين ، وإنما هو من محدثات الأمور وضلال الابتداع ، وقد أدى إلى الشرك والعياذ بالله ، فكم تسمع من مستغيث بأصحاب تلك الأضرحة ، وكم ترى حولها من مستجير بها ، وداع ضارع لها ، وباك خاشع لها ، وكم تجد من قطعان البقر والغنم تساق إليها ، وتذبح قرباناً لها ، كل ذلك تحت شعار التبرك ، وعنوان التوسل والتشفع ، ألا فلا تبرك ، ولا توسل ، ولا تشفع إذا كان ذلك يؤدي إلى الشرك والكفر .

٤ ـ إن العبد الصالح الذي تقدم أنه يجوز التبرك بزيارته للانتفاع به ، وبارشاده ، وتوجيهه ، ونصائحه ، وبالتالي بدعائه ، هذا العبد الصالح ينبغي أن يكون من أهل العلم ، والإيمان ، والتقوى ، وإلا فلا تُشرع زيارته ، ولا التبرك به لعدم وجود البركة في غير أهل العلم ، والإيمان ، والتقوى .

٥ ـ إذا كان الرجل يدعي الولاية ، ويدعو الناس إلى الاعتراف له بها ، ويستغل ذلك لفائدته الشخصية من جلب منافع خاصة ، من جاه ، أو مال ، أو ما إلى ذلك من الحظوظ النفسية والدنيوية ، فإن مثل هذا الرجل دجال لا بركة عنده ، ولا خير فيه ، فلا تحل زيارته ، ولا مجالسته ، ولا احترامه فضلاً عن التبرك به ، وذلك لفقد موجبات البركة عنده وهي العلم ، والإيمان والتقوى .

الولاية والكرامة

إن مما له صلة وثيقة ببحث عقيدة المؤمن موضوع الولاية والكرامة . إذ الولاية ولايتان ، ولاية للرحمن ، وولاية للشيطان ، والكرامة منها ما هو كرامة بحق ؟ يكرم الله تعالى بها أولياءه من صالحي عباده ، ومنها ما هو فتنة واستدراج للعذاب والامتهان . وعدم التمييز بين كرامة المؤمن ، ومهانة الشيطان ، يوقع في أخطاء قد تؤدي بكثير مَن المؤمنين إلى اعتقاد الباطل ، والعمل به .

ومن هنا كان لا بد من بحث هذه المسألة وبيان وجه الحق والصواب فيها ، ليكون المؤمن على بصيرة كاملة في مُعتقده الذي هو قوام حياته الدينية بل هو رأس ماله الذي تتوقف عليه سعادته في الدنيا والآخرة معاً .

ولنبدأ بحث هذه المسألة بالسؤال التالي :

ما هي الولاية ؟ :

الولاية في عرف اللغة مصدر ولي الشيء يليه ولياً وولاية[1] إذا دنا منه وقرب أو أقام به ، وملك أمره ، أو نصره وأحبه ـ ويصاغ من فعل ولي المفاعلة فيقال : والاه يواليه موالاة إذا صادقه وناصره فهو موال له ضد مُعاد له . كما يصاغ التولية فيقال : تولاه تولية إذا صار له ولياً . ومنه اشتق لفظ الولي الذي هو ضد العدو .

---

(١) قال في مختار الصحاح وليه يليه بالكسر فيهما وهو شاذ .

هذا معنى الولاية في عرف اللغة ، وهو لا يختلف عنه كثيراً في الدين ، إذ كلا المعنيين يدور على القرب والحب ، والنصرة ، والقيام بالأمر لصالح الولي ، وضد الولاية العداوة ، وهي تدور على البعد ، والبغض ، وإرادة الشر والهلاك للشخص المعادي ، على عكس الولاية . وبناء على هذا فولاية الله تعالى للعبد : أن يهديه إلى الإيمان به ، وإلى معرفته ، وطاعته ومحبته ، ونصرة دينه فيعمل العبد بذلك ، ويقرب به من ربه عز وجل حتى يحبه ، فإذا أحبه قربه ، وتولى أموره ، ونصره ، وحفظه ، فكان بذلك وليه . كما قال تعالى من سورة البقرة :

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾[1]

وولاية العبد للرب تبارك وتعالى أن يؤمن به ، ويتقيه ، ويتقرب إليه بطاعته ، ويوافقه في محابه . ومكارهه ، ويوالي من يوالي ، ويعادي من يعادي وينصر دينه وأولياءه ، وبذلك يكون ولياً لله تعالى ، قال تعالى من سورة يونس :

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[2]

الحال الجامعة :

وتكون الحال الجامعة بين الله تعالى الوليّ الحميد ، وبين العبد

---

(١) الآية (٢٥٧) .

(٢) الآيات (٦٢ ـ ٦٤) .

المؤمن التقي هي الموافقة في الحب والبغض، والقرب[1] ، والمناصرة والموالاة ، والمعاداة .

ومن هذا يُستخلص أصل الولاية وشرطها ، فأصلها الإيمان والتقوى ، وشرطها الموافقة التامة في الحب والبغض ، والموالاة والمعاداة ومتابعة الرسول ﷺ في كل ما جاء به ، ودعا إليه من أصول العقائد ، والعبادات ، والآداب ، والأخلاق ، متابعة يتجرَّد فيها العبد لله ، ويخلص له فيها ، إذ لا تتم محبة الله للعبد إلا بشرط المتابعة للرسول ﷺ ، وذلك لقوله تعالى من سورة آل عمران

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]

وهذا لأن المتابعة هي سبيل طهارة الروح ، وزكاة النفس ، ومن طهرت روحه وزكت نفسه بالإيمان والعمل الصالح ، مع البعد عن الشرك ، والمعاصي كان أهلاً لحب الله تعالى ، وموالاته عز وجل .

---

(١) يشهد لهذا حديث الصحيحين القدسي « وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعاً » الحديث اللؤلؤ والمرجان (٣/ ٢٢٣) والبخاري (٩/ ١٤٧ ، ١٤٨) ومسلم (٨/ ٦٧ ، ٦٨) .

(٢) الآية (٣١) .

الفرق بين الولايتين

إن هناك فرقاً بين ولاية الله تعالى للعبد ، وبين ولاية العبد لله عز وجل تجب ملاحظته ، وهو أن الله تعالى لا يوالي عن افتقار للعبد ، واحتياج إليه ، وإنما يوالي إكراماً للعبد ، وإنعاماً عليه ، لغناه تعالى عن كل ما سواه ، وافتقار كل ما عداه إليه تعالى ، وهذا من معاني اسمه (الصمد) وقد نفى الله تعالى في كتابه العزيز من سورة الإسراء ، نفى أن يكون له ولي من الذل ، فقال تعالى :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (١)

وأما العبد فإنه يوالي - إن وفقه الله تعالى - يوالي لفقره وحاجته إلى ربه ، إذ هو دائماً في حاجة إلى نصرة ربه ومعونته ، ومحبته ورضاه ، وادنـائه منه ، وتقريبه إليه ، إذ لا يسعد العبد إلا في جوار مولاه ، ولا ينعم إلا إذا تغمده ربه برحمته وخلع عليه فضلاً منه رضوانه . فالمنة إذاً لله تعالى على موالاته لعبده وقبوله له وليا ، وأما العبد فلا منة له بحال ، وليس له أن يُدِلَّ على الله تعالى . ولو أذاب نفسه في طاعة الله ، وأوقف كل حياته عليه ، وحتى لم يبق له هم ولا هوى سوى الله عز وجل .

هذا هو الفرق بين ولاية الرب تعالى للعبد ، وبين ولاية العبد للرب سبحانه وتعالى فليعلم فإنه مهم وجدير بالفهم والمعرفة .

---

(١) الآية (١١١) .

الـولي

إننا بعد معرفتنا للولاية سيسهل علينا ـ إن شاء الله ـ معرفة الولي .

إن لفظ الولي وجمعه أولياء يكون اسم فاعل بمعنى المتولي غيره ، المولي له ، ويكون اسم مفعول بمعنى الذي يواليه غيره ويتولاه . فالله تبارك وتعالى وهو الولي الحميد ، ولي عبده المؤمن بمعنى أنه هداه للإيمان ، ووفقه للطاعة ، وأدناه منه ، وقربه إليه ، وأحبه ، ونصره فهو مولاه ووليه .

قال تعالى :

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1]

والمؤمن ولي الله تعالى بمعنى أن الله تعالى هداه وتولاه وبمعنى أن المؤمن والى الله تعالى فآمن به . واتقاه وأحبه . وأطاعه . ووافقه في محابه ومسخاطه ، فوالى من يوالي . وعادى من يعادي . وأحب ما أحب ومن أحب ، وكره ما كره ومن كره ، فكان بذلك عبده ووليه قال تعالى في إثبات هذه الولاية وذكر كرامتها :

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2]

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٩٦ ـ

(٢) سورة يونس الآيات ٦٢ ـ ٦٤ .

وقد تقدم هذا المعنى واضحاً في بحث الولاية فازداد وضوحاً وتقريراً ، وبالجملة فإن ولي الله تعالى من عباده هو مؤمن أكرمه الله تعالى بهدايته فآمن به واتقاه . وتقرب إليه بالصالحات ووافقه فيما يحب وما يكره من الذوات والصفات ، ووالى من يوالي ، وعادى من يعادي ، فوالاه الله تعالى لذلك . وتولاه ، وأكرمه بكرامات . فكان إذا دعاه استجاب له . وإن استعاذه أعاذه . وإن سأله أعطاه .



(الكـرامـة)

ما هي الكرامة :

الكرامة : الاسم من كَرُم ، والجمع كرامات ، وهي ما يكرم الرب تبارك وتعالى به عباده من أنواع الإفضالات ، وهي عامة وخاصة . فالعامة هي ما كرَّم الله به بني آدم ، وفضلهم به على غيرهم من هذه المخلوقات الأرضية ، ومن ذلك اعتدال القامة ، الخَلق في أحسن تقويم ، والعقل ، والمنطق ، وتدبير المعا لاحه ، وتسخير الكون لهم ، والانتفاع به إلى غير ذلك من الإفضال . قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1]

والخاصة وهي أفضلهما : ما يكرم الله تعالى به بعض عباده من هدايتهم إلى الإيمان ، وتوفيقهم إلى طاعته تعالى بفعل المأمورات ، وترك المنهيات ، فهذه الاستقامة على الإيمان والطاعة من أعظم الكرامات ، وأهلها هم أصحاب اليمين المذكورون في قول الله تعالى :

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾[2]

---

(١) سورة الإسراء الآية (٧٠) .

(٢) سورة الواقعة الآية (٢٧) .

وفي قوله :

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ (1)

وهم المقتصدون المذكورون في قوله تعالى :

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ (2)

وهم المبشرون بالجنة في قوله تعالى :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (3)

وأخصّ من هذه الكرامة كرامة الإيمان والاستقامة ، ما يُكرم الله تعالى به بعض عباده زيادة على الإيمان والتقوى ، من الورع والتقليل من المباحات والإكثار من نوافل العبادات من صلاة ، وصدقات ، ورباط وجهاد ، وصيام ، وحج . وهؤلاء هم الموصوفون بالمقربين والسابقين في قول الله تعالى :

﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ (4)

وفي قوله تعالى :

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ

---

(1) سورة الواقعة الأيتان (٩٠ ، ٩١) .

(2) سورة فاطر الآية (٣٢) .

(3) سورة الأحقاف الأيتان (١٣ ، ١٤) .

(4) سورة الواقعة الأيات (١٠ ـ ١٤) .

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[1]

وهم المعنيون بقول الله تعالى في حديث البخاري : ﴿مَنْ آذى لي ولياً فَقَدْ آذَنْته بالحَربِ ، وَمَا تَقَرَبَ إليَّ عَبْدي بِمَثلِ أداء ما افترضْتُ عَليهِ ، وَلاَ يَزَالُ عَبْدي يَتَقربَ إليَّ بالنَوافلِ حتى أُحبُه فإذا أُحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمعَهُ الذي يَسمعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ التي يَمشي بِهَا ، وإنْ سَألَني لأُعطِيَنهُ ، وَلئِنْ استعاذَني لأُعيذَنهُ ، وما ترددتُ عنْ شيءٍ أنا فَاعلُهُ ترددي عَنْ نَفْسِ عبدي المؤمنُ يَكْره الموتَ وأنَا أكْرهُ مَساءَتَهُ ، ولا بدَ لَهُ مِنْه﴾[2] .

فهؤلاء في أعلى مرتبة من مراتب الولاية ، إذ يعرفون باستقامتهم ، واستجابة ربهم لهم فيما يسألونه ويطلبون ، فلو سألوه زوال جبل لزال ، ولو أقسموا عليه تعالى لأبرهم ، وهم الذين يظهر الله تعالى على أيديهم ببركة دعائهم خوارقَ العادات كتكثير القليل ، وشفاء العليل ، وكإكساب المعدوم ، والإنقاذ من الهلاك المحتوم .

---

(١) سورة فاطر الآيتان (٣٢ - ٣٣) .

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب التواضع (٨/ ١٣١) . إلا أنه ليس فيه (ولا بد له منه).

مراتب الأولياء

وبناء على ما سبق فإن للأولياء أربع مراتب : عليا وعالية ، ودنيا ووسطى .

فالعليا : هي مرتبة الأنبياء والمرسلين ، وكراماتهم يصرفونها لله تعالى الذي منّ بها عليهم فتكون معجزات تقوم بها الحجة لله تعالى على الناس .

والعالية : وهي مرتبة السابقين المقربين من أتباع الرسل عليهم السلام وهم متفاوتون فيها تفاوت الرسل فيما بينهم في تسامي الدرجات ، وعلو المنازل .

والوسطى : وأهلها هم أهل الإيمان والتقوى من أصحاب اليمين المقتصدين .

ودنيا : وهي مرتبة أهل الضعف في الإيمان والتقوى ، وهم الظالمون لأنفسهم ، المذكورون في قول الله تعالى من سورة فاطر :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا

لَغَفُورٌ شَكُورٌ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾[1].

والشاهد من هذه الآية الكريمة أن الله تعالى ذكر ثلاثة أصناف من الناس وهم الظالمون لأنفسهم ، والمقتصدون ، والسابقون بالخيرات ، وحكم على جميعهم بأنهم يدخلون الجنة يُحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ، فدل ذلك على أن أهل الضعف في الإيمان والتقوى هم كذلك أولياء الله تعالى ، وإن ظلموا أنفسهم بترك بعض الواجبات أو بفعل بعض المحرمات ، غير أن درجتهم دون درجة السابقين ، ولم تصل إلى درجة المقتصدين ، فهم في منزلة دون ، وذلك لضعف إيمانهم وتقواهم[2] .

ويلاحظ هنا أن أهل هذه المراتب على اختلافها ، متفاوتون في العدد قلة وكثرة ، فأهل المرتبة العليا أقل عدداً من أهل المرتبة العالية ، وأهل المرتبة العالية أقل عدداً من أهل المرتبة الوسطى ، وأهل الوسطى أقل عدداً من أهل المرتبة الدنيا وهذا أمر ظاهر لا يحتاج إلى أكثر من تنبيه إليه .

---

(١) سورة فاطر الآيات (٣٢ - ٣٥) .

(٢) لعل قائلا يقول ألا يستحق أهل الظلم لأنفسهم العذاب عقوبة ظلمهم ؟ فنقول : إن الظالم قد يعذب إن لم يغفر الله عز وجل له ؛ ولكنه بعد تطهيره من ذنوبه بالعذاب مصيره الجنة .

تقريرات

الأول : أنه لا تتم ولاية عبد لله تعالى ، ولا ينتظم في سلك أولياء الله تعالى إلا بالإيمان الصحيح ، والتقوى القائمة على مبدأ فعل المأمورات ، وترك المنهيات .

الثاني : أن الأولياء يتفاوتون في قربهم من الله تعالى ، وعلو منزلتهم عنده وفي كراماتهم بحسب قوة إيمانهم وتقواهم ، وكمال موافقتهم لربهم ، ونبيهم فيما يحبان ويكرهان .

الثالث : أن الكرامات وهي الأمور الخارقة[1] للعادة التي يظهرها الله تعالى على يد بعض أوليائه ، ليست شرطاً في ثبوت الولاية ، ولا في نفيها ولما كانت تُنقص من درجة من يظهرها الله تعالى على يديه ، لأنها بمثابة تعجل الجزاء على الإيمان والتقوى في الدنيا ، كان بعض الأولياء يتوبون منها إلى الله تعالى ، ويستغفرونه لأجلها .

الرابع : الأولياء من غير الأنبياء والمرسلين لا عصمة لهم ، فقد يُخطئون ويغلطون ، غير أن الغالب في أحوالهم الحفظ مما يدنس شرف الولاية ، ويخل بمقامها ، وإن وقع أن أحدثوا ذنباً لعدم عصمتهم أحدثوا له توبة على الفور ، يقبلها الله تعالى منهم بعد أن وفقهم لها ، فيسلم بذلك مقامهم من التداعي والسقوط ، ومنزلتهم من النزول والهبوط .

الخامس : لنا بحسب ما يظهر لنا من أحوال الناس أن نَصف كل مؤمن تقي بالولاية ، فنقول : فلان ولي من أولياء الله تعالى أو نقول فلان ولي ، ونكرمه لذلك ، ونتحاشى أذيته لحديث أبي هريرة في

(١) هذا النوع الذي يطلقونه على الكرامة ؛ ويقولون إنه أمر خارق للعادة غير مقترن بالتحدي ودعوى النبوة .

البخاري عن النبي ﷺ عن الله تعالى ﴿من آذى لي ولياً فقد آذنته بالحرب . . . الحديث﴾[1] ولا التفات إلى قول من يقول بعدم جواز ذلك لعدم الدليل على صحة الدعوى .

السادس : جهل المسلمين بحقيقة الولاية ، وبمعرفة الولي جعلهم لا يعترفون بولاية المؤمنين الذين يعيشون معهم من أهل الإيمان والتقوى إلا إذا ظهرت على يد المرء خوارق العادات ، أو مات وشيد له ضريح ، أو بنيت على قبره قبة ، حتى إن أحدهم لو طلب منه أن يدل أحداً على ولي من أولياء بلده لا يدله على مؤمن تقي يعيش بين الناس وإنما يدله على ميت له ضريح أو على قبره قبة وإن كان لا يعرف اسمه فضلاً عن حاله أيام حياته فتقبل شهادته فيه ، ويصح حكمه عليه .

السابع : لقد أنكر الله تعالى على الناس اتخاذ أولياء من دونه في قوله من سورة الرعد :

﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾[2]

فلا يحلُ لمؤمن ولا مؤمنة أن يتخذ له ولياً دون ربه عز وجل ، فليجأ إليه في الشدائد ، ويستغيث به عند المخاوف ، ويستعيذ به من المكاره ، أو يعبده ويتوكل عليه ، ويوالي فيه ويعادي فيه ، إذ هذا معناه اتخاذ آلهة من دون الله ، وهو شرك وكفر والعياذ بالله .

---

(١) ذكر بتمامه في باب الكرامة فليرجع له .
(٢) الآية (١٦) .

أولياء الشيطان وموالاتهم

إن بين شياطين الإنس والجن موالاة أثبتها القرآن الكريم ، كتاب الله رب العالمين ، وحسبنا بالقرآن شاهداً ودليلا ، قال تعالى في سورة الأنعام

﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾[1]

وقال تعالى من السورة نفسها :

﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[2]

وقال تعالى من سورة الأعراف :

﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[3]

والسؤال الآن هو : كيف تتم الموالاة بين الفريقين ؟

والجواب : أنها تتم حسب سنة الله تعالى في اتحاد

---

(١) الآية (١٢٨) .

(٢) الآية (١١٢) .

(٣) الآية (٣٠) .

المتجانسات ، وتلافي المتشابهات وانجذاب كل شبه إلى شبهه ، ومن هنا كأن إذا خبث الإنسان نتيجة توغله في الشر والفساد بارتكاب الذنوب والآثام المتمثلة في معاصي الله تعالى. ومعاصي رسوله ﷺ أمكنه الاتحاد بشياطين الجن ، والتفاعل معهم ، وتوليهم وتبادل المنافع معهم ، والتعاون على إغواء الإنسان وإفساده ، وإيقاعه في الشرور والمفاسد ، وبحكم الولاء الثابت بين كل من شياطين الإنس والجن ، فإن شياطين الجن يخدمون إخوانهم وأولياءهم من الإنس ، فيطلعونهم على بعض المغيبات التي أمكنهم الاطلاع عليها ، ومعرفتها ، كما قد يقربون إليهم أشياء بعيدة ، أو يحملونهم إلى أماكن أبعد ، كما قد يجمعون لهم بين شخصين متباعدين ، أو متقاطعين ، وقد يظهرون لهم أشخاصاً ، أو يسمعونهم أصواتاً وبالجملة فقد يظهرون لهم من بعض الخوارق ما يظن معه من لا علم له بهذا الشأن أنه كرامات كالتي يظهرها الله تعالى على أيدي أوليائه كرامة لهم .



الركن الثاني
من أركان عقيدة المؤمن
الإيمان بالملائكة

مقدمة :

قبل البحث في هذا الركن من أركان العقيدة نقدم بيان الحقائق الثلاث التالية :

الأولى : أن الكونَ كله ينقسم إلى غيب ، وشهادة .

فالغيب : ما غاب من الموجودات عن أعين الناظرين ، وإن كانت حقيقة مخصلة في صدورهم ، لا تغيب عن خواطرهم ، وذلك ككل الموجودات الأرضية والسماوية .

والشهادة : خلاف الغيب وهي كل ما كان من الموجودات أمام نظر الإنسان يشاهده ويراه ، أو كان بحيث يدركه بإحدى حواسه التي هي السمع ، والبصر ، واللمس ، والشم ، والذوق .

الثانية : أن الإنسانَ بحكم طبيعة الحياة مقدر له الإيمان بالغيب : مفروض عليه ، لا يستطيع التخلص منه بحال ، اللهم إلا إذا سَفِه نفسَه ، وأراد التخلي عن كرامته الآدمية ، وعن شرفه الإنساني : ليصبح بعد ذلك حيواناً هابطاً لا خير فيه ، أو آلة صماء لا وعي لها ، ولا إدراك !!!

وذلك لأن الإنسانَ كائن متحيز متى وُجد في مكان استحال عليه أن يوجد في مكان آخر مع بقائه في مكانه الذي هو فيه . ومن هنا

ستصبح سائر الأمكنة التي تخلو منه بعده عنها غيباً له . وليست بشهادة عنده ، ولا بد له من أن يؤمن بها ، وبما فيها من أشياء جواهر وأعراض ، متى وجدت آثار تدل على ذلك ، أو أخبار صادقة تنبيء به .

ثم إن حواسّ الإنسان التي يحصل له العلم بها محدودة القوة محصورة الإدراك في مجال معين لا تتعداه . فسمعه مقيد في السماع بالأصوات العالية فإذا انخفضت إلى درجة معينة تعذر عليه أن يسمع ، وبصره مقيد برؤ ية الأجسام الكبيرة فإذا صغرت ودقت ، وبلغت حداً معيناً من الصغر والدقة عجز عن رؤ يتها ، ولمسه كذلك ، فإنه يحس بالأجسام الكثيفة ، فإذا خفت انقطع إحساسه بها . وحتى عقله فإنه يكل عن إدراك أشياء معقولة ، ويعيا عن تصورها تماماً .

ومن هنا كان لا بد للانسان من الإيمان والتصديق بأشياء لم يشاهدها ولم يحس بها ، بأية حاسةَ من حواسه ، ولم يدرك حتى تصورها بعقله ، ولا خيار له في ذلك إذا أراد أن يقيم لكرامته وزناً ، ولقيمته البشرية قدراً من الاحترام والتقدير . !!!

وكيف تُنكر هذه الحقيقة ، ونحن نرى أن الإنسان يعيش في بلد ما ولم يخرج منه أبداً وهو يؤمن بعشرات البلاد ، ويصدق بوجودها وهو لم يرها ، ولم ير من رآها قط .

كما نرى إنساناً آخر لم ير الفيل طول حياته ، وهو يؤمن بوجود . هذا الحيوان الذي لم يره ، ولم ير من رآه أبداً . ونرى ثالثاً يؤمن بالجاذبية إيماناً جازماً ، ومن المعلوم أن الجاذبية مما لا يُرى ولا يُشاهد أبداً .

ونجد رابعاً وُلد ولم يعرف والده لموته قبلولادته ، وهو يؤمن بأن له والداً ، ولا ينكر ذلك بحال ، ولذا كان من المضحكات أن يدعي

إنسان أنه لا يؤمن بالغيب ، أو أنه يستطيع أن يعيش في هذه الحياة بدون الإيمان بالغيب .

الثالثة : أن الإنسان يكتسب علمه بالموجودات عن طريق عقله وحواسه معاً ، فبعقله يدرك سائر التصورات العقلية ، وبالحواس يدرك سائر الماديات من مرئيٍّ ، ومسموع ، ومحسوس ، ومشموم ، ومطعوم . فبالعقل أدرك فضيلة الصدق ، ورذيلة الكذب . وبالعقل أدرك المستحيلات : ككون الشيء إذا وجد في مكان لا يوجد في غيره ، والواجبات ككون الجسم لا بد له من حيز يشغله ، وككون المصنوع لا بد له من صانع . والجائزات ككون المريض قد يُشفى وقد لا يشفى ، والغائب قد يعود وقد لا يعود .

وبحاسة البصر أدرك المرئيات : أطوالها ، وأعراضها ، وصفاتها .

وبالسمع أدرك الأصوات ، وفرّق بينها ، وأدرك الأخبار ومدلولاتها ، وبالذوق أدرك سائر الطعوم ، وعرف حلوها ومرها ، وحامضها وسامجها ، وبالشم أدرك سائر الروائح طيبها وكريهها . وباللمس أدرك الأجسام وفرق بين خشنها وناعمها ، وحارها وباردها .

هذه هي طرق اكتساب الإنسان لعلومه ومعارفه (العقل والحواس) وهو مستعد دائماً للحصول على المعارف بواسطتها . إن الإنسان يتعقل الشيء ثم يصدر حكمه عليه بالإثبات ، أو بالنفي ، بالوجوب ، أو الاستحالة أو الجواز ، وينظر إلى الشيء فيحكم عليه بالطول ، أو القِصر ، بالبياض أو السواد ، ويسمع الصوت فيحكم بأن المسموع صوت كذا أو كذا . . . الخ .

وهكذا يتحصل الإنسان على معرفته بالموجودات بقسميها : الغيب والشهادة بواسطة العقل والحواس ، بيد أن ما كان من

الموجودات غيباً محضاً فإن طريق الحصول على معرفته ، والإيمان به هو السماع به ، أو مشاهد آثاره الدالة عليه .

فالمرء إذا أخبره أحد أن فلاناً مات ، أو سافر ، أو قدم من سفر ، وكان بعيداً عنه لا تمكنه رؤيته حصل له العلم بحاله من موت أو سفر ، أو قدوم منه ، حصل له بواسطة الخبر الذي تلقاه عن غيره من عقلاء الناس . والمرء قد يمر بأرض فيجد بها سيولاً تجري ، وشعاباً طافحة بالماء فيعلم فوراً أن مطراً قد نزل بتلك الأرض ، وإن لم يشاهد نزوله ، ولم يخبره بنزوله أحد ، وإنما حصل له علم به بواسطة الأثر ، وهو سيلان الأودية وامتلاء الشعاب . وقد يمر الإنسان بمكان ما فيشم روائح طيبة فيعلم أن هناك عطاراً ، أو أشجاراً من ذوات الروائح الطيبة ، وإن لم ير ذلك بعينيه ، ولم يخبره به أحد من الناس . وهكذا يؤمن الإنسان بالغيب ، ويحصل فيه على اليقين الكامل بواسطة خبر الثقات ، أو آثار الأشياء التي آمن بها ، وصدق بوجودها لدلالة آثارها عليها .

ومن هنا كان الإيمان بوجود الملائكة أمراً معقولاً ، ومطلباً سهلاً ميسوراً ، فالملائكة وإن كانوا غيباً ، فقد دل على وجودهم الدليل الذي تثبت به كل الموجودات الغيبية عند الإنسان ، والذي هو خبر الثقات ، وآثار الموجودات . ونزيد هذه الحقيقة توضيحاً فنقول :

أليس الإنسان العاقل يخبره ذو صدق بحدوث كذا أو كذا من الممكنات فيصدقه في خبره ، ويعتقد صحة ما أخبره به ؟ .

أليس الإنسان العاقل يسمع صوتاً بعيداً عنه لم ير مصدره فيؤمن بذي الصوت ، ويصدق بوجوده كأنه رآه وشاهده ؟ .

أليس الإنسان العاقل يجد كرسياً قد وضع في غرفة فيعلم أن

هناك أحداً قد وضع هذا الكرسي وأعده للجلوس عليه وإن لم ير من فعل ذلك ؟ .

أليس الإنسان العاقل إذا رأى كتاباً يعلم فوراً أن هناك أحداً أملى هذا الكتاب وأن آلة قد طبعته ولا يشك في هذا ولا يتردد أبداً ؟

وحصول هذه اليقينيات له كانت كلها من طريق الخبر أو الأثر ، وهما الدليل العقلي للإيمان بكل الغيوب . ولهذا سوف نتكلم عن الملائكة بملء الفم ونقرر أن وجودَهم يقيني ، وحقيقة ثابتة لا يقوى عاقل على إبطالها أو نفيها . أما الذين كفروا بربهم ، وتنكروا لعقولهم وهبطوا من سماء كرامة آدميتهم فأصبحوا لا يؤمنون بشيء حتى بوجودهم فإنا لا نقيم لهم وزناً آمنوا أو كفروا صدقوا أو كذبوا .

وهذا هو دليل وجود الملائكة عليهم السلام وهو الدليل الذي قدمنا أنه بواسطته آمن العقلاء بكل غيب تعذر أن يكون من قسم الشهادة ، والدليل كما سبق أن عرفناه ، يتكون من عنصرين : الأول الأخبار والثاني الآثار .

الأخبـــار :

أولاً : أخبار الله تعالى ، رب العالمين ، وخالق الملائكة ، والجن ، والناس أجمعين ، وكفى بما يخبر به الله تعالى دليلاً ، إذ الخالق أعلم بما خلق . ومن أخباره تعالى قوله :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[1]

---

(١) سورة البقرة الآية (٣٠) .

فقد تضمن هذا الخبر وجود الملائكة ومخاطبة الله تعالى لهم ، ومخاطبتهم له سبحانه وتعالى ، وهو دليل قاطع على وجود الملائكة .

وقوله تعالى

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (١)

ففي هذا الخبر أن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، وأنهم سجدوا إلا إبليس أبى ، وهل يؤمر ويمتثل غير موجود ؟!

وقوله تعالى

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ (٢)

ففي هذا الخبر أن الملائكة المقربين لا يستنكفون من عبادة الله ولا يستكبرون ، وهل يستنكف ويتكبر غير موجود ؟ وقوله تعالى

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ (٣)

وفي هذا الخبر ينكر تعالى ، ويعيب على المشركين دعواهم أن الملائكة إناث حيث قالوا ما ليس لهم به علم ، فهل يعقل أن يُعاب أو ينكر على غير موجود ؟ .

وقوله تعالى

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ (٤)

---

(١) سورة البقرة الآية (٣٤) .

(٢) سورة النساء الآية (١٧٢) .

(٣) سورة الزخرف الآية (١٩) .

(٤) سورة النجم الآية (٢٦) .

ففي هذا الخبر أن كثيراً من الملائكة لا تغني شفاعتهم عن أحد شيئاً ، وهل يشفع أو لا يشفع غير موجود ؟ وأخيراً فهل هذه الأخبار الإلهية عن الملائكة وهي كثيرة جداً ، وكلها تتحدث عن صفاتهم ، وأحوالهم ، وعباداتهم ، وأعمالهم لا تدل على وجود الملائكة ، دلالة تُكسب اليقين ، اللهم بلى .

ثانياً : أخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وتحدثهم عنهم ، ووصفهم لهم ، وتلقيهم الوحي بواسطتهم وهي كثيرة فلنكتف منها بما تواتر عن خاتم أولئك الرسل وإمامهم محمد عليه الصلاة والسلام فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « لَا تَدْخلُ المَلائِكَةُ بَيْتَاً فيهِ كلبٌ ولا صورةٌ »[1]. وقوله : « إنَّ المَلاَئِكَةَ تَتَأَذى مِمَا يَتَأَذَىٰ مِنْهُ بَنُوْ آدَمَ »[2] وقوله : « إنَّ للّهِ في الأَرْضِ مَلاَئِكةً سَيَاحِينَ يُبَلغُونَني عَنْ أُمَتي السلَامَ »[3] وقال : « إذَا أَمَنَ الإمامَ فَأَمِنُوا فإنَّ المَلائِكَةَ تُؤْمِنُ ، فَمَن وافقَ تَأْمِينهُ تَأْمِينَ الملائكةَ غُفِرَ لَهُ ما تَقَدمَ مِنْ ذَنْبِهِ »[4] وكان يقول في دعائه : « اللَّهمَ ربَّ جَبَرائيلَ ، وميكائيلَ ، وإسرافيلَ ، فَاطِرَ السمواتِ والأَرضِ عَالمُ الغَيبِ والشَهادةِ ، أَنْتَ تَحْكُمْ بَينَ عِبَادَكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفونَ ، إهْدِني لما اختُلفَ فيهِ مِنَ الحَقِ بإذِنِك إنَكَ تهدي مَنْ تَشَاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ »[5]. كما أخبر ﷺ ، وتحدث عن ملك الموت

---

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم . اللؤلؤ والمرجان (٣/ ٣٩) مسلم (٦/ ١٥٧) . والبخاري (٤/ ١٣٨) .

(٢) رواه مسلم (٢/ ٨٠) .

(٣) اسناده صحيح ورجال الصحيح وقد اخرجه احمد والنسائي وابن حبان . . . فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من تعليق الألباني الطبعة الثانية ص (٣٦) .

(٤) متفق عليه واللفظ لمسلم ـ اللؤلؤ والمرجان (١/ ٨٣) مسلم (٢/ ١٧) والبخاري (١/ ١٨٧) .

(٥) رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها (٢/ ١٨٥) .

وأعوانه ، وعن الروح ، وعن ملكي القبر ، وعن الحفظة ، والكرام الكاتبين ، وعن رضوان خازن الجنان ، وعن مالك خازن النيران ، وغيرهم من الملائكة في أحاديث متواترة صحيحة ، فكيف يسوغ عقلاً ، أو يصح منطقاً وذوقاً أن تبلغ الإنسان هذه الأخبار الإلهية والنبوية ، وهي أصح خبر في الوجود ، ولا يؤمن بالملائكة ولا يصدق بوجودهم . . اللهم لا ! ؟

الآثـــار :

آثار الملائكة الدالة عليهم دلالة قطعية كثيرة جداً نكتفي بطرف منها فنقول : هذا القرآن الكريم كتاب الله بين أيدينا سوره العديدة ، وآياته الكثيرة ، وعلومه ، ومعارفه ، وإعجازه أثر من آثار الملائكة إذ تلقاه المنزّل عليه ﷺ بواسطة ، ولم يكن من الله مباشرة فما هي الواسطة ؟ إنها جبريل كما أخبر بذلك مرسله ، ومنزله في قوله :

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[1]

وهذا ملك الموت الذي يتخطفنا يوماً فيأخذ أرواحنا ، ويُنهي بأخذها حياتنا ، ويفصلها عن أجسامنا ، فتُعدم الحياة ، فهل يشترط للتصديق به رؤيتنا له ؟ وآثار فعله ظاهرة فينا لا تنكر ؟ اللهم لا . ولو سألنا خالقنا وقلنا من يتوفانا ؟ لكان الجواب

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[2]

ثم إن كلًّا من جبريل وملك الموت عليهما السلام قد رؤيا عياناً غير مرة وهما من أعاظم الملائكة فجبريل قد دخل مرة المسجد

---

(١) سورة الشعراء الآيات (١٩٢) - ١٩٥) .

(٢) سورة السجدة الآية (١١).

وعشرات المصلين حاضرون ، فانتهى إلى النبي ﷺ وهو جالس فجلس إليه ، وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع يديه على فخذيه ، وأخذ يسأل رسول الله ﷺ وهو يجيبه ، فسأله عن الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ، وأشراط الساعة ، وكان ساعتئذ في صورة رجل[1]. كما أن ملك الموت قد تواترت الأخبار برؤيته عند دنوه من المريض لقبض روحه ، فكم من مريض تحدث بذلك ، وأخبر به قبل وفاته بفترة زمنية ثم يموت .

الإيمان بالملائكة أحد أركان العقيدة الإسلامية :

وبعد : فانه لم يبق بنا حاجة إلى سرد المزيد من الأدلة على وجود الملائكة فلذا نشرع الآن في تقرير كون الإيمان بالملائكة ركناً من أركان عقيدة المؤمن فنقول : لقد ذكر الله تعالى أركان العقيدة الإسلامية في عدة آيات من كتابه ، وذكر من بينها عقيدة الإيمان بالملائكة وذلك في قوله تعالى :

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[2]

وفي قوله :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾[3]

وفي قوله : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[4]

---

(١) هذا الحديث الذي ذكر إجمالاً رواه مسلم(١ / ٢٨ - ٢٩)ورواه البخاري بمعناه (٦/ ١٤٤) .

(٢) سورة البقرة الآية (١٧٧) .

(٣) سورة البقرة الآية (٢٨٥) .

(٤) سورة النساء الآية (١٣٦) .

كما ذكر الرسول ﷺ في حديث عمر المعروف بحديث جبريل أركان الإيمان الستة وذكر من بينها الإيمان بالملائكة وأقره جبريل على ذلك ، وصدّقه إذ كان هو السائل له في محضر مئات الصحابة وهو في صورة رجل وبعد انصرافه أعلن الرسول ﷺ لأصحابه أن السائل كان جبريل عليه السلام »[1].

وبهذا كان الإيمان بالملائكة ركناً من أركان عقيدة المؤمن التي لا تتم إلا به ، وكان من شك فيه ، أو حاول التشكيك كاذباً كافراً لاحظ له في الإسلام ، ولا مُقام له بين المسلمين ، لتكذيبه لله ، ورسوله والمؤمنين ولإنكاره لقضايا العقول ، ومسلماتها البدهية .

---

(١) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة (١٩٤) .

خلق الملائكة

تعريف :

الملائكة : جمع ملأك ، نقلت حركة الهمزة فيه إلى الساكن قبله ، ثم حُذفت الألف تخفيفاً فصارت ملكاً ؛ وهو مشتق من كلمة الألوكة التي هي الرسالة ، والجمع ملائك وملائكة .

مادة خلق الملائكة :

الملائكة خلق عظيم ، وعددهم كثير لا يأتي عليه العد ، ولا يحصيه من دون الله أحد ، خلقهم الله من النور ، وطبعهم على الخير ، فهم لا يعرفون الشر ، ولا يأمرون به ، ولا يأتونه ، ولا يفعلونه .

فلذا هم لربهم مطيعون ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يُؤمرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، ولا يسأمون من عبادة الله ولا هُم عنها يستكبرون ، أخبر الرسول ﷺ عن مادة خلقهم ، فقال : « **خُلِقَتْ المَلائكةُ مِنْ نُورٍ ، وخُلِقَ الجَانُ مِنْ مارجٍ مِنْ نَارٍ ، وخُلِقَ آدمُ مما وُصِفَ لَكُمْ** »[1] .

---

(١) إشارة الى قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » سورة آل عمران الآية (٥٩) وإلى قوله تعالى « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون » سورة الحجر الآية (٢٦) والحديث رواه مسلم (٨/ ٢٢٧) .

تفاضل الملائكة

والملائكة يتفاضلون في القرب من الله تعالى : وعلو المنزلة كالبشر أو هم أكبر تفاضلاً ، إن منهم الملائكة المقربين لقوله تعالى :

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [١]

ومنهم حملة العرش لقوله تعالى :

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [٢]

ومنهم الكرَبُيون ، ومنهم غير ذلك ، وأفضلهم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل ملك الموت ، وأعظمهم الروح عليهم السلام أجمعين .

أعمال الملائكة .

إن ما يقوم به الملائكة من أعمال لكثير جداً ، ومختلف متنوع إلى حد كبير ، وهذا بيان مجمل عما جاء في القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة من وظائف الملائكة وأعمالهم التي أناطها الله تعالى بهم عبادة له وطاعة : ـ

١ ـ جبريل عليه السلام ، ويسمى روح القدس أيضاً ، وصفه الله عز وجل بالقوة والأمانة في قوله تعالى من سورة التكوير

---

(١) سورة النساء الآية (١٧٢) .

(٢) سورة الحاقة الآية (١٧) .

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾[1]

وخصه بأشرف وظيفة ، وهي السفارة بينه تعالى ، وبين رسله عليهم السلام فكان ينزل بالوحي كما قال تعالى :

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾[2]

وصح عن النبي ﷺ أنه رافقه في أعظم رحلة تمت في الوجود وهي إسراء النبي ﷺ ومعراجه ، فرافقه عليه السلام من مكة إلى المسجد الأقصى ، ومنه إلى سدرة المنتهى بالملكوت الأعلى[3].

٢ ـ ميكائيل : ووظيفته التي وكله الله بها المطر والنبات .

٣ ـ إسرافيل : ووظيفته التي وكل بها النفخ في الصور يوم القيامة .

٤ ـ ملك الموت عزرائيل : وهو موكل بقبض الأرواح ، وله أعوان من الملائكة لقوله تعالى :

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[4]

٥ ـ أعوان ملك الموت وهم صنفان : ملائكة رحمة ، وملائكة

---

(١) الآيات (١٩ ـ ٢١) .

(٢) سورة الشعراء الآيات (١٩٢ ـ ١٩٤) .

(٣) قصة الإسراء والمعراج ثابتة في الصحيحين ، راجع اللؤلؤ والمرجان (١/ ٣٥ ـ ٣٩) . والبخاري (١/ ٩٢ ـ ٩٤) ومسلم (١/ ٩٩ ـ ١٠١) ، وقد ثبتت قبل ذلك بالقرآن وفيه سورة باسم الإسراء ، وسيأتي تفصيل في (الوحي الإلهي وطرقه) فيما سيأتي من موضوعات الكتاب ـ إن شاء الله تعالى .

(٤) سورة الأنعام الآية (٦١) .

عذاب وهم مع ملك الموت ، المقصودون بقوله تعالى :

﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾

٦ ـ حملة العرش : عرش الرحمن عز وجل وهم أربعة ، وإذا جاء يوم القيامة أضيف إليهم أربعة آخرون ، لقوله تعالى :

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (١)

ولقوله تعالى :

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ (٢)

٧ ـ رضوان وعمله الذي وكل به خزانة الجنان ، فهو خازن الجنة ورئيس الخدم بها .

٨ ـ خدم الجنة : وهم ملائكة لا يحصي عددهم إلا الله تعالى ، قال تعالى :

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ (٣)

وورد أن للواحد من أهل الجنة خدماً لا يقلون عن ثمانين ألف خادم ، وظيفتهم : خدمة أهل الجنة(٤) .

٩ ـ الزبانية وهم تسعة عشر ملكاً ، وكلهم الله تعالى بالنار ، فهم

---

(١) سورة غافر الآية (٧)
(٢) سورة الحاقة الآية (١٧) .
(٣) سورة الرعد (٢٣ ، ٢٤) .
(٤) روى الترمذي حديثا في هذا المعنى ولكن في اسناده كلام .

خُزانها يعذبون فيها أهلها قال تعالى :

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1]

ورئيس هؤلاء الخزنة يدعى مالكاً . قال تعالى في الحديث عن أهل النار

﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾[2]

١٠ ـ الكرام الكاتبون وعملهم كتابة أعمال البشر ، وإحصاؤها عليهم ، فعلى يمين كل مكلف ملك يكتب صالح أعماله ، وعن يساره ملك يكتب سيئات عمله . قال تعالى :

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَٰتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[3]

وفي الصحيح : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبزق أمامه فانه يناجي الله تعالى ما دام في مصلاه ، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكاً ليبصق عن يساره ، أو تحت قدمه »[4]

١١ ـ الحفظة وعملهم حفظ الإنسان من الجان ، والشيطان ، والعاهات والآفات قال تعالى :

---

(١) سورة المدثر الآيات (٢٦ ـ ٣١) .

(٢) سورة الزخرف الآيتان (٧٧ ، ٧٨) .

(٣) سورة الانفطار الآيات (٩ ـ ١٢) .

(٤) وان قيل كيف يبصق عن يساره وكاتب السيئات عن يساره ؟ قيل إن المؤمن في الصلاة لا يفعل سوءاً قط فلذا ينضم كاتب السيئات إلى كاتب الحسنات إذ الصلاة هي أم الحسنات ولا سيئة فيها ، والحديث رواه الشيخان بلفظ قريب من هذا ـ اللؤلؤ والمرجان ـ (١/١١١) .

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾[1]
قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية : « ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء قدر الله خلوا عنه »[2]. وقال مجاهد : يحفظونه في نومه ويقظته من الجن والإنس ، والهوام »[3].

١٢ ـ الملك الموكل بالرحم لحديث البخاري ومسلم واللفظ له « إنَّ اللَّهَ عز وجل قَد وَكَّلَ بالرَّحْمِ مَلِكًا فيقولُ أي ربِّ نُطْفَةٍ ، أي ربُّ علقةٍ ، أي ربِّ مُضْغةٍ ، فإذا أَرادَ اللَّهُ أنْ يَقضيَ خَلْقاً قالَ : قَالَ المَلِكَ أي ربِّ ذكرٍ أو انثى ، شَقي أو سعيد ؟ فما الرزقُ ؟ فما الأجلُ ؟ فيكْتبُ كَذَلِكَ في بَطْنِ أمهِ »[4].

١٣ ـ ملك الجبال وهو ملك وكله الله بالجبال لحديث البخاري ومسلم : « فَنَادَاني مَلَكُ الجبالِ فَسَلَمَ عليّ فقالَ يا مُحمدُ ذَلِكَ فيمَا شِئْتَ إنْ شِئْتَ أنْ أُطبِقَ عليهِم الأخشَبينِ . . . الحديث »[5].

١٤ ـ الملائكة السياحون وهم ملائكة في الأرض يبلغون سلام أمة محمد وصلاتها على نبيها ﷺ لحديث أحمد وهو صحيح الإسناد « إنْ للّهِ في الأرْضِ مَلَائِكَةً سَياحينَ يَبلِغُوني عن أُمتي السَّلامَ »[6].

١٥ ـ ملائكة الدعاء ، وعملهم الذي وكلوا به أن العبد إذا دعا بدعوة لأخيه المؤمن وهو غائب قال الملك : « آمين ولك بمثل ذلك » ، ولحديث

---

(١) سورة الرعد الآية (١١) .
(٢) تفسير ابن كثير طبعة الحلبي (٢/ ٥٠٣) .
(٣) اللؤلؤ والمرجان (٣/ ٢٠٨) والبخاري (١/ ٨٣) ومسلم (٨/ ٤٦) .
(٤) اللؤلؤ والمرجان (٢/ ٢٢٧/ ٢٢٨) .
(٥) وأخرجه النسائي وابن حبان ، فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بتعليق ناصر الدين الألباني الطبعة الثانية (ص ٣٦) .
(٦) وأخرجه النسائي وابن حبان ، فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بتعليق ناصر الدين الألباني الطبعة الثانية (ص ٣٦) .

مسلم : « دَعوةُ المرءِ المسلمِ لأخيهِ بِظَهرِ الغَيبِ مُستَجابةٌ عِنْدَ رأسِهِ مَلَكٌ مُوكَلٌ كُلما دَعَا لأخيهِ بِخيرٍ قَالَ المَلَكُ المُوكَلُ بهِ آمينَ ولَكَ بِمْثلٍ »[1].

١٦ ـ ملائكة العروج بأرواح العباد بعد الموت لحديث مسلم « إِذَا خَرَجَتْ رُوْحُ المُؤمنِ تَلَقَاها مَلَكانِ فَيُصَعِّدانِها قال حماد (راوي الحديث) فَذَكَرَ مِنْ طيبِ رِيحها وذَكَرَ المِسْكَ قَالَ وَيَقولُ أهلُ السماءِ رُوْحٌ طيبةٌ جاءتْ مِنْ قِبَلِ الأرضِ صلى الله عليكِ وعلى ما كُنْتِ تعمرينَهُ ، فَينطَلِقُ بِهِ إلى ربِهِ ، عَزَ وَجلَ ثُمَّ يَقُولُ انطِلِقُوا بِهِ إلى آخرِ الأَجلِ . . وَذَكَرَ للكافرِ عَكْسَ ذَلِكَ »[2].

١٧ ـ منكر ونكير : وعملهما سؤال العباد في قبورهم عن الرب تعالى ، والدين ، والنبي ﷺ أي يَقُولانِ لَهُ : مَنْ رَبُكَ ، مَا دِينُكَ ، ومَنْ نَبِيُكَ ؟ لحديث الترمذي وهو حسن الإسناد وأصله في الصحاح وفيه « إذا قُبِرَ المَيتُ أتَاهُ مَلَكان أسْودَانِ أَزْرَقَانِ يُقالُ لأحَدِهِما المُنْكَر ولِلآخرِ نَكِير فَيقُولانِ : مَا كُنْتَ تَقُولَ في هَذا الرَجُلِ ؟ فَيقُول ما كَانَ يَقُول : هَوَ عَبْدُ اللّهِ وَرَسُولِهِ فَيقُولان قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذا ، ثُم يُفْسَحُ لَهُ في قَبْرِه سَبْعُونَ ذِرَاعاً في سَبْعِين ثُم يُنورُ لَهُ فِيهِ ، ثُم يُقَالُ لَهُ : نَمْ فَيقُولُ : أرجعُ إلى أهْلي فَأخْبِرهُم فَيقُولانِ : نَمْ كَنَومَةِ العَروسِ الَّذي لا يُوقِظُهُ إلا أحَبُّ أهْلِهِ إليهِ ، حتى يَبْعَثَهُ اللّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ . وإنْ كَانَ مُنَافِقاً : قَالَ : سَمِعْتُ النَاسَ يَقُولونَ قَوْلاً فَقلْتُ مَثلهُ ، لا أدْري ، فَيقُولونَ : قَدْ عَلِمْنا أنَكَ تَقُولُ ذَلِكَ ، فَيُقَالُ لِلأرضِ التَئمي عَليهِ فَتَلْتَئِمُ عَليهِ ، فَتَخْتَلِفُ أضْلاعُه فَلا يَزالُ فِيها مُعَذَباً حَتى يَبْعَثَهُ اللّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ »[3].

---

(١) معناه لمسلم (٨/ ٨٦) . (٢) مسلم (٨/ ١٦٢) .

(٣) رواه الترمذي (جنائز / ٧٠) وأبو داود بمعناه (٢/ ٥٤٠ ، ٥٤١) وابن ماجه (جنائز / ٦٥) وأحمد (٣/ ١٢٦ ، ٤/ ٢٨٨) .

هذا وإذا تتبعنا الآثار الواردة في أعمال الملائكة ملاحظين الآيات القرآنية الدالة على الملائكة وأعمالهم مثل قوله تعالى ﴿ والصافات ، والزاجرات فالتاليات ، والنازعات ، والناشطات ، فالمدبرات ، فالمقسمات﴾ لقلنا في صدق إن الكون كله علويه وسفليه قد أنيط أمرتدبيره بالملائكة ، وذلك بإذن ربهم تعالى ، ويضاف إلى ذلك أن النبي ﷺ قال « أَطَتْ السَماءُ وحَقَّ لَها أن تَئِطَ ، مَا مِنْ مَوضِعِ أَرْبَعِ أَصَابع إلا عَليهِ مَلَكٌ واضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِداً للهِ تَعَالى »[1].

(1) رواه أحمد (٥/ ١٧٣) والترمذي (زهد / ٩) وابن ماجه (زهد ١٩) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي .

بعض صفات الملائكة

إن الملائكة بذواتهم وصفاتهم من الغيب المحض ، قد دل الدليل العقلي ، والشرعي على وجودهم ، وعلى وجوب الإيمان بهم ، والتصديق بأعمالهم ، وأحوالهم . والمراد من الدليل العقلي والشرعي ما سبق أن ذكرناه من أنه الأخبار الصادقة ، والآثار الناطقة .

ومن خلال الأخبار الصادقة التي هي الدليل الشرعي تحصلنا على عدد كبير من صفات الملائكة ، وأحوالهم نثبته هنا في آخر بحث هذا الجزء من عقيدة المؤمن تقريراً وتأكيداً فنقول :

١ ـ حياؤهم :

إن الملائكة تستحي استحياء يليق بحالها ، إذ قد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : **« ألا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحي منْهُ الملائِكَة » ؟**[1] يعني بذلك الرجل عثمان بن عفان رضي الله عنه . ففي هذا الخبر الصادق . الصحيح دليل على صفة الحياء للملائكة .

٢ ـ تأذيهم :

إن الملائكة تتأذى من المكروه كما يتأذى منه الإنسان لحديث مسلم : **« مَنْ أَكَلَ مِنَ الثُومِ ، والبَصلِ ، والكراثِ فَلا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا ؟ فإنَّ**

---

(١) رواه مسلم (٧/ ١١٧) .

الملائِكَةَ تَتَأذَّى مِمَا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدم »[1] ولحديث الصحيحين أيضاً « إنَّ الملائِكَةَ لا تَدْخُلُ بَيْتاً فِيهِ كَلبٌ ولا صُورَةٌ »[2] . فعدم دخولهم البيت الذي فيه كلب أو صورة كراهية منهم لهما دليل على تأذيهم من هذا المكروه .

٣ ـ تنزههم عن الأعراض البشرية :

إن الملائكة منزهون عن الأعراض البشرية كالجوع ، والمرض ، والأكل والنوم ، والتعب وما إلى ذلك ، فقد جاء في القرآن ما يدل على ذلك بدلالة الالتزام ، إذ أخبر تعالى عنهم

﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾[3]

ولازم ذلك أنهم لا ينامون ، ولا يأكلون ، ولا يشربون ، ولا يتعبون .

٤ ـ خوفهم من الرب تبارك وتعالى :

إن الملائكة يخافون من الله تعالى ، أثبت ذلك الخبر القرآني في مثل قول الله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[4]

وقوله :

﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾[5]

---

(١) مسلم (٢/ ٩٠) .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم ، اللؤلؤ والمرجان (٣/ ٣٩) مسلم (٦/ ١٥٧) والبخاري (٤/ ١٣٨) .

(٣) سورة الأنبياء الآية (٢٠) .

(٤) سورة النحل الآيتان (٤٩ ، ٥٠) .

(٥) سورة الأنبياء الآية (٢٨) .

٥ ـ طاعتهم لله تعالى :

إن الملائكة مطيعون لله تعالى ، لا يعصونه بحال من الأحوال ، وذلك لقوله :

﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[1]

وقوله :

﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾[2]

٦ ـ حبهم لمن يحب ربهم :

إن الملائكة تحب حباً يليق بحالهم ، وحسب ذواتهم فقد دل الدليل الشرعي على أنهم يحبون ، ففي حديث الصحيحين : « إنَ اللَّهَ تَعالىٰ إذَا أَحَبَ عَبْداً نَادَى جَبْرِيلَ : إن اللَّهَ قَدْ أَحبَ فُلَاناً فَأَحِبَهُ ، فَيُحْبِهُ جبريلُ ، ثُمَّ يُنَادِي جَبريلُ في السَماءِ : إنَ اللَّهَ قَدْ أَحبَ فُلَاناً فَأَحِبُوهُ فَيُحبهُ أَهْلُ السَماءِ ، وَيُوضَعُ لَهُ القَبُولَ في الأَرضِ »[3] .

٧ ـ دعاؤهم ولعنهم :

إن الملائكة ليدعون ربهم ويسألونه كما قال تعالى عنهم :

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾[4]

وإنهم ليلعنون من لعنه ربهم سبحانه وتعالى كما قال تعالى :

---

(١) سورة التحريم الآية (٦) . (٢) سورة الأنبياء الآيتان (٢٦ ، ٢٧) .

(٣) اللؤلؤ والمرجان (٣/ ٢٠٥ ، ٢٠٦) والبخاري (٩/ ١٧٣ ، ١٧٤) ومسلم (٧/ ٤٠ ، ٤١) .

(٤) سورة غافر الآية (٧) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾[1]

٨ ـ عظم خلقهم وتفاوتهم فيه :

إن خلق الملائكة لعظيم ، وهم يتفاوتون فيه تفاوتاً كبيراً ، فقد صح أن لجبريل عليه السلام ستمائة جناح[2] في حين أن من الملائكة من له جناحان فقط ، كما قال تعالى

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3]

روى أبو داود بسند صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أذن لي أن أتحدث عن ملك من حملة العرش رجلاه في الأرض السفلى ، وعلى قرنه العرش ، ومن شحمة أذنه وعاتقه خفقان الطير سبعمائة عام ، فيقول ذلك الملك : سبحانك حيثُ كنت » .

وروى الحاكم وصححه ووافقه الذهبي في ذلك عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « إنَ اللَّهَ أَذِنَ لي أَنْ أُحدِثَ عنْ دِيكٍ قَدْ مَرقَت رجلاهُ الأرضَ ، وَعُنقهُ مثنِيةٌ تَحتَ العرشِ ، وَهُوَ يَقولُ : سُبْحانَكَ مَا أَعظَمَكَ !! » فَيرُد عَليهِ : لا يَعلَمُ ذَلِكَ مَنْ حَلَفَ بي كَاذِباً »[4]

---

(١) سورة البقرة الأيتان (١٦١ ، ١٦٢) .

(٢) ثبت هذا في الصحيحين اللؤلؤ والمرجان (١/٤) والبخاري (٤٦/١٤٠) ومسلم (١/ ١٠٩) .

(٣) سورة فاطر الآية (١) .

(٤) ذكره صاحب الحبائك وعزاه الى أبي داود ، والذي وقفت عليه في أبي داود نصه « أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ان ما بين شحمة أذنه الى عاتقه مسيرة سبعمائة عام » والمراد من الديك أنه ملك شبه الديك ، ومعنى مرقت : خرقت . أبو داود (٢/ ٥٣٤) .

الجن والشياطين

وبمناسبة بحث الركن الثاني من عقيدة المؤمن « الإيمان بالملائكة عليهم السلام » نعرض لقضية الجن والشياطين ، إذ الإيمان بوجودهما جزء من عقيدة المؤمن أيضاً ، وذلك لأنهما من الغيب الذي أمر المؤمن بالايمان به وبتصديق الله والرسول فيما قالا في شأنه ، وأخبرا به .

ولولا الرغبة في زيادة إنارة عقيدة المؤمن لما كان بنا حاجة إلى بحث هذه المسألة من العقيدة بحثاً مستقلاً ، وذلك لأمرين . أولهما : أن من آمن بالله تعالى ، وبعلمه ، وقدرته ، وحكمته لا يتردد في تصديق الله تعالى في أي شيء يخبر به من غيب ، أو شهادة ، لاسيما مسألة كهذه حيث قررها الله تعالى ، وأثبتها في عشرات الآيات من كتابه الكريم . وثانيهما : أن الأدلة العقلية ، والبراهين التي سقناها للإيمان بالملائكة عليهم السلام ، هي بعينها يؤتى بها هنا ، ويُستدل بها على وجود الجن والشياطين ، وخلاصتها : أن الكائنات كلها ما بين غيب وشهادة ، وأن الإنسان إذا كان في مكان خلت منه سائر الأمكنة وأصبح كل ما لا يراه ، ولا يسمعه ، ولا يحس به لبعده عنه غيباً له ، فإذا ما صدق به كان ذلك إيماناً منه بالغيب ، وطريقه إليه هو الآثار الدالة ، والأخبار الصادقة . فإذا وُجد أثر لشيء ما كان الإنسان مضطراً إلى التصديق به ، وإن لم يره ، ولم يسمعه ، ولم يحس به بأية حاسة من حواسه التي هي مصدر حصوله على أغلب علومه ، ومعارفه . كما أنه

إذا أخبره ثقة بشيء من الممكنات فضلاً عن أن تخبره جماعة كثيرة تستحيل عادة تواطؤها على الكذب آمن بما أخبر به ، وصدق تصديقاً جازماً ، بحيث لا يتردد في صحة ثبوته أبداً ، بل قد يُعد المكذب به ناقصاً في عقله ، هابطاً من شرف إنسانيته وكرامة آدميته .

ولما كان المؤمن قد آمن على مثل هذين الدليلين بالملائكة وهم من الغيب المحض فكيف لا يؤمن بعالم الجان والشياطين، وهما أقرب المغيبات إلى الملائكة عليهم السلام .



أدلة وجود الجان والشيطان

والآن نورد الأدلة والبراهين المثبتة لوجود الجن والشياطين بالآثار والأخبار كما برهنا بذلك على وجود الملائكة الأطهار ، واكتفينا به :

١ ـ الآثار :

إن الآثار الدالة على وجود الجن والشياطين كثيرة جداً وحسبنا منها ما يلي :

١ ـ الصرْع الذي لا يكاد يخلو منه زمان ولا مكان ، ومنذ فجر التاريخ ، ونعني بالصرع ما كان سببه الأرواح الخبيثة ، وهي أرواح الشياطين ، وأما ما كان سببه الأخلاط الرديئة فذاك شيء آخر ، فإنه قد يعالج بالأدوية المادية ، وقد يشفى صاحبه ، وقد لا يشفى ، وإنما نعني بالصرع الدال على وجود الجن والشياطين، الصرع الذي سببه الأرواح الخبيثة ، ذاك الصرع الذي وقف الطب حتى في أيام تقدمه ، وقف حياله لا يبدي ، ولا يعيد ، فإنه أثر من آثار الجان والشياطين ، ودليل قاطع على وجودهم .

٢ ـ تكلم الجان على لسان الشخص الذي يحل فيه ، ويتلبس به ، وإخباره بأمور لم يكن الإنسان المصاب به يعرفها ، حتى إن بعضهم ليتكلم بلغات لم يكن المصاب يعرف منها حرفاً واحداً .

٣ ـ خروج الجان من الإنسان الذي حل فيه ، وركبه بواسطة

الرقي من ذوي الأرواح الطيبة ، والنفوس الزكية ، أو بواسطة الأرواح الخبيثة من البشر ممن يوالون الشياطين ، ويتعاونون معهم ، وتصريح الجن بالخروج وعدم العودة بالمصروع ، وذلك بعد تخويفه وتهديده من الراقي ، وهذه المسألة قد يستغربها البعض ، أو ينكرونها ، غير أن الواقع أثبتها بما لا مجال للشك فيه بحال من الأحوال .

٤ ظهور بعض الجان لبعض الناس ، ومخاطبتهم إياهم وهذا أيضاً متواتر الأخبار بحيث يعد إنكاره غباء وجهالة . أو مكابرة وجحوداً ، لا يرضاهما العاقل لنفسه .

٥ ـ الجرائم التي يرتكبها الإنسان بين الناس من لواطٍ ، وزنا ، وقتل نفس ، وسرقة ، وشرب خمر ، وكفر ، وعقوق ، وكذب ، وخلف للوعد ، ونكث بالعهد . كل هذه الجرائم التي تتنافى مع الفطر البشرية ؛ والشرائع الإلهية ، والقوانين الدولية هي بدون شك آثار للشياطين . إذ هي التي تحسنها للانسان . وتزينها له . وتغريه بارتكابها . لإغوائه وإفساد روحه التي عليها مدار سعادته وشقائه في الدار الآخرة ، إذ الشياطين في إفساد أرواح الناس هي بمثابة الجراثيم التي تفسد أجسامهم وسواء بسواء .

وهنا نقول سبحان الله إننا لو قلنا لإنسان مريض إن سبب مرضك أيها الأخ الجراثيم الفلانية ، أو الفلانية فاستعمل لها الدواء الفلاني فإنك تشفى بإذن الله تعالى ، لما تردد في تصديقنا ، ولبادر إلى استعمال الدواء . وجربه مع أنه لم ير الجراثيم . ولم يحس بها بأية حاسة من حواسه . وإنما صدقنا للأثر الذي شاهده وهو المرض القائم بجسمه . والذي يشعر بآلامه وأتعابه كل ساعة من ساعات أيام مرضه ، وإذا قلنا له إن نفسك مريضة ، ولذا أنت تحب الكذب ، والخيانة . وترغب في الجريمة . وتميل إلى الخبث . وأن سبب مرض نفسك الشيطان فاستعمل له كذا وكذا فإنك تشفى بإذن الله لأنكر غالباً ولم

يصدق ، في حين أن الدليل واحد في المسألتين ، وهي الآثار الدالة على المرض الجثماني والروحاني ، وعدم تصديقه بالمسألة الأخيرة أكبر دليل على وجود الشيطان ، إذ لولا صرفه عن التصديق بما ألقي في نفسه من الريب ، والشكوك لما كذّب ، وأنكر أبداً ، إذ ما ثبت به وجود الجراثيم في الجسم وهو الأثر ، هو عين ما يثبت به وجود الشياطين وهو الأثر أيضاً .

٢ ـ الأخبار :

إن الأخبار الإلهية ، والنبوية الصادقة ، والناطقة بوجود الجن والشياطين لكثيرة جداً ، فلنكتف بذكر طائفة منها ، ولنبدأ بأخبار الله تعالى :

١ ـ أخبار الله تعالى :

أخباره تعالى المصرحة بوجود الجن والشياطين كثيرة منها ، قوله تعالى في خلق الإنسان والجان :

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[1]

وقوله في بيان العلة في خلقه للانس والجن :

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[2]

وقوله تعالى في الإخبار عن طاعة ملائكته له ، وفسق إبليس عن أمره ، وفي النهي عن اتخاذ إبليس وذريته أولياء :

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ

(١) سورة الرحمن الآيتان (١٤ ، ١٥) .

(٢) سورة الذاريات الآيات (٥٦ ـ ٥٨) .

فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾[1]

وقوله تعالى في إخباره بخلق الإنسان ، وتصويره ، وأمر ملائكته بالسجود له ، وامتناع إبليس عن ذلك ، وتوبيخه على عدم السجود ، واعتذار إبليس عن عدم السجود لآدم ، وهو عذر أقبح من ذنب ، وعن طرد الله تعالى له من الجنة وإبلاسه ، وإبعاده هو ومن تبعه من الناس بعذاب جهنم :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا[2] مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[3]

وقوله في الإخبار بأن شياطين الجن وشياطين الإنس يوحي بعضهم إلى بعض الباطل والكذب ، لتضليل الناس ، واغوائهم بالفتن والشرور :

---

(١) سورة الكهف الآية (٥٠) .

(٢) المذموم : المعيب بأسوء العيوب ، والمدحور : المطرود المبعد .

(٣) سورة الأعراف الآيات (١١ ـ ١٨) .

﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[1]

وقوله تعالى في الإخبار بما امتن به على عبده ورسوله سليمان عليه السلام ، وتسخير الجن والشياطين له ، حيث كان يستخدمهم عليه السلام في شتى الأعمال والأغراض :

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾[2]

وفي آية أخرى يقول :

﴿وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3]

وقوله تعالى في الإخبار عن جن نصيبين الذين حضروا صلاة الصبح مع الرسول عليه الصلاة والسلام في بطن نخلة[4] وكيف رجعوا إلى قومهم يدعونهم إلى الإيمان بالرسول ﷺ . وينذرونهم مما يترتب على عدم إيمانهم من العذاب الأليم :

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى

(١) سورة الأنعام الآية (١١٢) .
(٢) سورة سبأ الآيتان (١٢ ، ١٣) .
(٣) سورة ص الآيات (٣٧ - ٣٩) .
(٤) مكان بين مكة والطائف .

ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1]

وقوله تعالى في أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر بما أوحى إليه من استماع الجن لقراءته، وبالذي دار بين الجن من أحاديث عجيبة، تحوي حقائق مدهشة عظيمة عن الجن، وعقائدهم، وأعمالهم، وأحوالهم:

﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾[2]

في كذا آية من سورة الجن.

وقوله تعالى في الأمر بالاستعاذة من الشيطان في ثلاث آيات منها:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[3]

ومنها:

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾[4]

ومنها: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ

---

(١) سورة الأحقاف الآيات (٢٩ - ٣١).

(٢) سورة الجن الآيتان (١، ٢).

(٣) سورة الأعراف الآية (٢٠٠).

(٤) سورة النحل الآيات (٩٨ - ١٠٠).

﴿ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ (١)

أخبار الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وهي كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم في الأخبار عن القرين من الجن ، والذي وكل بكل إنسان :

« مَا مِنْ أَحَدٍ إلاَّ وَقَدْ وُكِلَ بِهِ قَرِينهُ مِنَ الجِنِ قَالُوا : وَإياكَ يا رسولَ اللَّهِ ، قالَ : وَإياي إلاَّ أَنَ اللَّهَ أعانَنِي عَليهِ فَأَسْلَمَ فَلاَ يَأْمُرني إلاَّ بِخيرٍ » ، أخرجه مسلم(٢) وقوله صلى الله عليه وسلم في الإخبار عن دخول الشيطان مع الإنسان بيته ، وتناوله من طعامه وشرابه وذلك من رواية مسلم : « إِذَا دَخَلَ الرَجلُ بَيتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَيطانُ (لأَولاَدِه ومَنْ مَعَهُ مِنَ الشَياطين) لا مَبيتَ لَكُمْ وَلا عِشَاءَ ، وإذا دَخَلَ فَلم يَذكر اللَّهَ عِنْدَ دخُولِهِ قَالَ الشَيطانُ : أَدرَكْتُمْ المَبيتَ ، وإِذَا لَمْ يَذكر اللَّهَ عِنْدَ طَعامِهِ قَالَ : أَدرَكْتُمْ المَبيتَ والعِشَاءَ »(٣) وقوله صلى الله عليه وسلم في النهي عن الأكل والشرب بالشمَال والتعليل بأكل الشيطان وشربه بشماله « لاَ يَأكلُ أحدُكُمْ بِشِمَالِهِ وَلاَ يَشرَبنَ بِهَا فَإنَ الشَيطانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِهَا »(٤) ، وقوله صلى الله عليه وسلم وهو يحذر المؤمنين من أن يبيت أحدهم وفي يده أثر طعام ، أو إدام من أن يأتي الشيطان للحس ذلك من يده فيؤذيه : « إنَ

---

(١) سورة الناس بكاملها .

(٢) مسلم (٨ / ١٣٩) .

(٣) مسلم (٦/ ١٠٨) .

(٤) رواه مسلم (٦ ـ ١٠٩) ومالك وأبو داود .

الشيطان حساسٌ لحاسٌ فاحذَروهُ على أنفسِكُمْ ، مَنْ بَاتَ وفي يَدِهِ غَمرٌ فأصَابَهُ شيءٌ فَلا يَلُومَنَ إلاَّ نَفْسَه »[1] ، وقوله صلى الله عليه وسلم لما سأله الجن الزاد في حديث الصحيح : « كُلُ عَظمٍ ذُكِرَ اسمُ اللَّهِ عليهِ وَقَعَ في يَدِ أحدِهمْ أوفَرَ ما يَكونُ لحماً وكُلُ بَعرٍ عَلفٍ لَدوابِهِم »[2].

ومن هنا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن الاستجمار بالعظم والروث وقال معللاً النهي : « فَإِنَهُ زَادُ إخوانِكُمْ مِنَ الجِنِ »[3] وقوله صلى الله عليه وسلم في صلاته بالليل : « إنَ عِفريتاً مِنَ الجِنِ تَفَلَّتَ عليّ البَارِحَةَ لِيقطَع عليّ الصَّلاةَ فَأمكَنني اللَّهُ مِنهُ فَأردتُ أنْ أربِطَه إلى سَارِيَة مِن سَواري المسجدِ حتى تصبحوا وَتنظُروا إليه كُلُكُمْ .. الحديث »[4]. وقوله صلى الله عليه وسلم في إرشاده لأمته أنْ تَسأل اللَّهَ تعالى عِنْدَ سِمَاعِ صِيَاحِ الديكِ وتَستعيذُ باللَّهِ مِنَ الشَيطَانِ عِنْدَ سِمَاعِ نَهيقِ الحمارِ « وإذا سَمِعْتُم صياحِ الديكةِ فاسألُوا اللَّهَ مِنَ فضلِهِ فَإنها رأتَ مَلكاً ، وإذا سَمعتُمْ نَهيق الحمَارِ فَتعوذُوا بالله مِنَ الشَيْطَانِ فَإنَهُ رأى شيطاناً »[5] وقوله صلى الله عليه وسلم في الارشاد الى الآداب في حديث البخاري « التَثَاؤُبُ مِنَ الشَيْطَانِ »[6] وقوله صلى الله عليه وسلم أيضاً وهو يرشد أمته إلى كيفية رد كيد الشيطان ومجاهدته بدفع ما يلقيه

---

(١) أخرجه الترمذي (أطعمة/ ٤٨) ، وأبو داود (١/ ٣٠) وابن حبان وغيرهم . ومعنى حساس : شديد الاحساس ، ولحاس : كثير اللحس ، غمر بفتح العين والميم : رائحة الطعام .

(٢) رواه البخاري من حديث أبي هريرة وجاء فيه فقلت : فما بال العظم والروثة ؟ قال هما من طعام الجن وأنه أتاني وفد جن نصيبين ونعم الجن فسألوني الزاد فدعوت الله لهم أن لا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا عليها طعاما (٧/ ٥٩) .

(٣) رواه أبو داود والترمذي والنسائي .

(٤) متفق عليه واللفظ للبخاري اللؤلؤ والمرجان (١/ ١٠٩) .

(٥) متفق عليه واللفظ للبخاري اللؤلؤ والمرجان (٣/ ٢٣٣) ومتن البخاري (٤/ ١٥٥) .

(٦) متفق عليه واللفظ للبخاري اللؤلؤ والمرجان (٣/ ٣٢٧) متن البخاري (٤/ ١٥٢) .

من الشبه في نفس العبد « يَأتي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقولَ : مَنْ خَلَقَ كَذَا مَنْ خَلَقَ كَذا حتى يَقولَ مَنْ خَلَقَ رَبُّكَ فَإذَا بَلَغَهُ فَليَسْتَعِذْ بِاللَّهِ ولينته »[1] وقوله صلى الله عليه في الصحيح كذلك « إذَا كَانَ جُنْحُ اللَّيلِ أَو أَمْسيتُمْ فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ فَإِنَ الشَياطِينَ تَنْتَشرُ حِينَئِذٍ . . . الحديث »[2]

وجوب الإيمان بوجود الجن والشياطين

لتلك الأدلة العقلية والفعلية ، التي سقناها كان الايمان بوجود الجن والشياطين واجباً حتماً ، بل كان جزءاً من عقيدة المؤمن لا يتجزأ وكل محاولة لإخلاء العقيدة الاسلامية من التصديق بوجود عالمي الجن والشياطين تعد كفراً صراحاً ، مخرجاً من الملة المحمدية لأجل ما في ذلك من التنكر للعقل ، ورفض بدهياته ، ولتكذيب الله تعالى في أخباره ، ولتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم . وكفى بتكذيب الله تعالى ، وتكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم كفراً وباطلاً .

بعض معلومات عامة عن الجن والشياطين

وها هي ذي بعض المعلومات عن عالمي الجن والشياطين، نوردها تقريراً لمبدأ الإيمان بوجودها ، وتوضيحاً لكثير من معالم ذلك العالم الغيبي المجهول عند الذين يعيشون بعيدين عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

١ ـ مادة خلق الجن :

الجان هو أبو سائر الجن ، وهو مخلوق من مادة النار المعروفة ،

---

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري اللؤلؤ والمرجان (١/ ٢٦) .

(٢) متفق عليه واللفظ للبخاري اللؤلؤ والمرجان (٣/ ١٦) .

وكان خلقه قبل خلق الإنسان ، وذلك لقوله تعالى

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ (١)

وهل السنة في خلق الجان وذريته كالسنة في خلق آدم وذريته ؟ بمعنى أن الجان الأول خلق من نار وأولاده خلقوا بطريقة أخرى كالتناسل محتمل والله أعلم .

٢ ـ لم سمي الجن جناً ؟

سمي الجن جناً لاجتنانهم وهو استتارهم ، وعدم ظهورهم للناس ، لأن الاجتنان هو الاستتار . وهو مأخوذ من جن الليل إذا أظلم ، فستر الأشياء بظلامه ، ومنه سميت جنة المقاتل وهي الخوذة التي يجعلها على رأسه في الحرب وسميت الجنة دار النعيم جنة ، لأنها تستر بأشجارها الكثيرة الملتفة من يدخلها كما سمي الجنين في بطن أمه جنيناً لاستتاره ببطن أمه ، وعدم ظهوره . قال تعالى في الشيطان من الجن :

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (٢)

٣ ـ إفتقار الجن الى الغذاء :

إن الجن مفتقرون إلى الغذاء المناسب لذواتهم كافتقار سائر الحيوانات والنباتات لأغذيتها المناسبة لها ، والدليل على هذه الحقيقة : ما صح من أن الجن سألوا رسول الله ﷺ الزاد فقال لهم : « كُلُ عَظْمٍ

---

(١) سورة الحجر الآيتان (٢٦ ، ٢٧) .

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٧ .

يُذْكَرُ بِسمِ اللَّهِ عَليهِ يَقَعُ في أيدِيكُمْ أَوْفَر مَا يكونُ لحماً »[1] ونهى ﷺ عن الاستجمار بالعظم ، وَقَالَ « إنَهُ طَعَامُ إخوانَنَا مِنَّ الجِنِ »[1]. كما نهى عن الأكل بالشمال والشرب بها وعلل ذلك بأَنَ الشَيطَانَ يَأكُلُ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ[1].

فثبت بهذه الأحاديث الصحيحة المخرجة في البخاري ومسلم أن الجن والشياطين يأكلون ويشربون ، وذلك لأجل التغذية اللازمة لهم حسب ذواتهم والطبيعة التي خلقهم الله تعالى عليها .

٤ ـ الجن يتوالدون :

لا شك أن الجن والشياطين تتم بينهم عملية التوالد بحسب طبيعة خلقهم وتكوينهم ، وأن لهم سنة في ذلك يتم بحسبها وجود ذرية لهم ، كما تتوالد سائر الأحياء ، كل على نظام السنة التي جعلها الله تعالى له . ويشهد لهذه الحقيقة ويقررها القرآن الكريم : حيث جاء فيه قول الله تعالى :

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[2]

فإن المنهي عن اتخاذه وذريته أولياء هو إبليس وذريته بدليل السياق إذ أوله :

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[3]

---

(١) تقدم تخريج هذا الحديث قريباً في فصل أخبار الرسول ﷺ .

(٢) سورة الكهف الآية (٥٠).

(٣) سورة الكهف الآية (٥٠) .

كما ورد في صحيح مسلم أن الشيطان يشارك الإنسان في طعامه وشرابه وفراشه إن لم يذكر اسم الله تعالى عند أكله وشربه ومخالطة أهله[1]. ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَقُولُ حِينَ يَأْتِي أَهلَهُ بِاسِم اللّهِ اللَّهمَ جَنبني الشَيطانَ وَجَنب الشَيطَانَ ما رَزَقْتَنا ، ثُمَّ قُدرَ بَينَهُما في ذَلِكَ ، أو قضىٰ وَلَدُ لم يَضُرهُ شيطان أبداً »[2]

٥ ـ هل بين الجن والشيطان فرق ؟

نعم إن بين الجن والشيطان فرقاً كبيراً ، ولكي تتجلى هذه الحقيقة واضحة نذكر أن الخلق الراقي أربعة أنواع وهي : الملائكة ، والإنس ، والجن ، والشياطين .

فالملائكة : عالم روحاني مستقل له خصائصه ، وصفاته ، وأحواله ، وقد تقدم البحث مستفيضاً في بيان حقيقة هذا العالم العلوي الكريم .

والجن : نوعان ، شياطين لا خير فيهم البتة ، وجن منهم الصالح . ومنهم الفاسد ، فحالهم كحال الناس ، منهم البار ومنهم الفاجر ، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر ، بيد أن الشياطين أصلهم من الجن ، وذلك لأن إبليس كان من الجن لإخبار القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى :

﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ ﴾[3]

---

(١) تقدم هذا الحديث بلفظه قريبا في فصل أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) متفق عليه واللفظ للبخاري ، اللؤلؤ والمرجان (٢/ ١٠٠) ، والبخاري (٧/ ٢٩ ، ٣٠) . ومسلم (٢/ ١٥٥) .

(٣) سورة الكهف (٥٠) .

ولما أبلس الشيطان ، وطُرد من الرحمة الإلهية ، وانقطع من الخير كلية ، كانت ذريته مثله بحكم الوراثة ، لا خير فيهم أصلاً ، فلا يعرفون إلا الشر ، ولا يدعون إلا إليه . والمثل القريب لذلك أن الحية لا تلد إلا حية ، فلم يطرأ ولن يطرأ على نسلها منذ أن كانت تغيير بحيث تلد أولاداً ، لاسُم فيهم ، ولا خبث معهم .

ثم إن كل من يخبث ، ويتمرد ، وينقطع عن الخير من أفراد الجان والإنسان يصبح شيطاناً ، فإن عتا قيل فيه مارد . وان زاد عتوه وطغيانه قيل فيه عفريت .

وقد أثبت القرآن العظيم هذه الحقائق كلها ، اذ جاء فيه أن من الجن شياطين ، ومن الإنس شياطين قال تعالى من سورة الأنعام :

﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[1]

كما جاء فيه أن من الجن صالحين وذلك في قوله تعالى فيما حكاه عن الجن من سورة الجن :

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾[2].

كما أخبر تعالى أنه خلق الجن كالإنس لعبادته وطاعته في قوله جل جلاله :

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[3]

---

(١) الآية (١١٢) .

(٢) الآية (١١) .

(٣) سورة الذاريات الآيات (٥٦ ـ ٥٨) .

كما أخبر تعالى أن الشيطان يأمر بالفحشاء في قوله من سورة البقرة :

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ﴾[1]

كما أخبر تعالى أن الشيطان يضل من يتبعه ، ويهديه إلى عذاب السعير في قوله من سورة الحج :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[2]

وهذا هو النوع الذي لا خير فيه من شياطين الجان ، وهو إبليس عليه لعائن الله تعالى .

٦ ـ هل الجن والشياطين يتشكلون ؟

لا شك في أن الجن كالشياطين يتشكلون بأشكال مختلفة ، ويتلونون تلوناً كبيراً ، وهذا مما دل عليه دليل السمع ، والمشاهدة . وهو من الممكنات الجائزة عقلاً ، اذ تصوُّر وجودها لا يوجب تناقضاً عقلياً أبداً .

ومن الأخبار الدالة على تشكل الجان بأشكال متعددة ما يلي :

١ ـ مجيء الشيطان إبليس إلى دار الندوة في مكة ورجال قريش مجتمعون فيها للتشاور في أمر النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ودعوته الإسلامية التي أظهرها فيهم ، فتحيروا لها ، وعظم عندهم أمرها ، فاجتمعوا يبحثون عن تخريج لهم منها ، ولو كان قتْل النبي صلى الله عليه وسلم ، أو حبسه ، أو نفيه ، فهم كذلك حتى دخل عليهم

---

(١) الآية (٢٦٨) .

(٢) الآيتان (٣،٤) .

الشيطان في صورة رجل كبير محترم من رجالات نجد ومشائخها الموقرين ، وشارك في اجتماعهم ، ومداولاتهم ، ورجّح لهم اقتراحاً حاز أغلبية الأصوات وهو أسوأ اقتراح تقدم به إنسان وأقبحه ، وأكثره شراً وفساداً ، ألا وهو الحكم بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم[1].

فهذه الحادثة متواترة لا مجال للشك فيها فضلاً عن إنكارها وجحودها .

٢ ـ تشكل جانٍ من جنان المدينة النبوية في صورة حية ، لما روى مسلم أن أبا سعيد الخدري قال : كَانَ فَتى مِنَّا حَدِيْثُ عَهدٍ بعرسٍ ، فَخَرجنَا مَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إلى الخَنْدَقِ ، فَكَانَ ذَلِكَ الفَتى يَسْتَأْذِنُ رسولَ اللَّهِ ﷺ بأنصافِ النَهارِ ، فَيَرجِعُ إلى أَهْلِهِ ، فاسْتَأذَنَهُ يوماً ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « خذْ عَليكَ سِلاَحَكَ فَإني أَخْشَى عَليك قُريظَةَ » ، فَأَخَذَ الرَجلُ سلاَحَهُ ، ثُمَّ رَجَعَ ، فإذا امرأَتهُ بَيْنَ البابينِ قَائمةً ، فأهوىٰ إليها بالرمحِ لِيطعَنَها بِهِ ، وَأَصَابَتْهُ غِيرَةٌ ، فَقَالَت لَهُ : أُكْفُفْ عَليكَ رِمحَكَ ، وادخُلْ البيتَ حتى تَنْظُرَ ما الذي أَخْرَجَني ؟ فَدَخَلَ فإذا بِحيةٍ عَظِيمةٍ مُنْطَويةٍ على الفراشِ فأَهْوىٰ إليها بالرمحِ فانْتَظَمَهَا بِهِ ، ثمَ ، خَرَجَ فَرَكَزَهُ في الدَّارِ فاضطربتْ عليهِ ، فما يُدرى أَيُهُمَا كَانَ أسرع موتاً : الحيةُ أم الفتى ؟؟[2].

٣ ـ تشكل شيطان في صورة إنسان ، وسرقته من تمر الصدقة كما جاء في حديث أبي هريرة عند البخاري ، إذ فيه ما معناه أن أبا هريرة جعله رسول الله ﷺ على حراسة تمر الصدقة « الزكاة » فكان الجان يأتيه

---

(١) ذكر القصة ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ١٧٥ ـ ١٧٦) وابن هشام (٢/ ١٠٣ ـ ١٠٥) .
(٢) مسلم (٧/ ٤٠) .

في صورة إنسان ويأخذ من تمر الزكاة ، فقبضه ، وأراد أن يوقع به فاعتذر اللعين فتركه ، ثم أتى للمرة الثالثة ، وعندها عزم أبو هريرة على أن يذهب به إلى رسول الله ﷺ غير أن الشيطان اعتذر كذلك بأن له عيالاً ، وأنه مضطر ، وطلب من أبي هريرة أن يعفو عنه ، على أن يعلمه آية من كتاب الله تعالى من قرأها فإن الشيطان لا يقربه . وهذه الآية هي آية الكرسي ، فعفا عنه وتركه . ولما لاقى أبو هريرة رسول الله ﷺ بادره النبي ﷺ قائلاً : **ما فعل أسيرك البارحة ؟** فقال له أبو هريرة كان من أمره كذا وكذا . . فقال له النبي ﷺ **صدقك وهو كذوب !!!**[1]

تنبيه :

على إثر تقريرنا أن الجن والشياطين يتشكلون ، كما تتشكل الملائكة ننبه إلى أنه لم يثبت لدينا خبر صحيح عن كيفية تشكل الملائكة ، والجان ، والشياطين ، غير أنه لا يبعد أن يكون الله تعالى قد علمهم أسماء يدعونه بها ، أو كلمات يقولونها فيتم لهم ذلك التشكل على الصورة التي يريدون ، في حدود ما أذن لهم فيه ، بدليل أن الشيطان لا يقدر على التمثل بصورة الرسول ﷺ لقوله عليه الصلاة والسلام : « **مَنْ رَآنِي فَقَدْ رَآنِي حَقاً فإنَ الشَيطانَ لا يَتَمَثَلُ بي** »[2]

٧ ـ أين يسكن الجان ؟

الغـالب في الجن والشيـاطين أنهم يسكنـون الخـرائب ، والحشوش ، والمزابل ، والقمائم لحديث أبي داود « **إن هذه الحشوش**

---

(١) رواه البخاري تعليقاً (٣/ ١٢٥) .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم ، اللؤلؤ والمرجان (٣/ ٨٠) والبخاري (٩/ ٤٢) ومسلم (٧/ ٥٤) .

محتضرَة فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل أعوذ بالله من الخبث والخبائث » .

ومن هنا كانت الشياطين تنزل على أخباث الرجال والنساء من أهل الآثام والأفاكين ، الملوثين بالذنوب ، والجرائم العظام . قال تعالى من سورة الشعراء :

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴾[1]

٨ ـ هل الجن تسترق السمع من الملأ الأعلى ؟

نعم إن الله تعالى أعطى الجن والشياطين قدرة على العروج إلى الملكوت الأعلى ، فلذا هم يعرجون كما تعرج الملائكة من الأرض إلى السماء ، ويسترقون السمع من الملائكة ، ويهبطونّ به إلى الأرض ، ومن كان له ولي من الإنس يقضي به إليه ، ليحدث به الناس ، فيفتنهم ، ويغويهم ، ويشهد لهذه الحقيقة ويثبتها ما قصه الله تعالى في كتابه ، وحكاه عن الجن أنفسهم في قوله من سورة الجن :

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾[2]

كما يؤكد هذه الحقيقة حديث البخاري ، والذي فيه أن النبي ﷺ قال :

« إنَّ المَلائِكَةَ تنْزِلُ في العِنَانِ وَهُوَ السَحابُ ، فَتَذْكَرَ الأمرَ قُضِي في السَماءِ ، فتَستَرِقُ الشياطينُ السمعَ ، فتَسمَعُهُ فتُوْحِيهِ إلى الكُهَانِ

---

(١) الآيات (٢٢١ ـ ٢٢٣) .

(٢) الآيات (٨ ـ ١٠) .

فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم »[1]

٩ ـ الجن أقل قدراً وأدنى كرامة من الإنسان :

إن الجن حتى الصالحون منهم لأقل قدراً ، وأدنى كرامة ، وأنقص شرفاً من الإنسان ، إذ قرر الخالق عز وجل كرامة الإنسان ، وأثبتها في قوله من سورة الإسراء :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[2]

ولم يثبت مثل هذا التكريم للجان لا في كتاب من كتب الله ، ولا على لسان رسول من رسله عليهم السلام ، فتبين بذلك أن الإنسان أشرف من الجان ، ويدل على ذلك أيضاً شعور الجن أنفسهم بنقصانهم ، وضعفهم أمام الإنس ، يدل على ذلك أنهم كانوا إذا استعاذ الإنس بهم تعاظموا وترفعوا لما في استعاذة الإنسان بهم من تعظيمهم ، وإكبارهم وهم ليسوا كذلك فيزدادون رهقاً أي طغياناً وكفراً . قال تعالى في الحديث عنهم من سورة الجن :

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾[3]

ويشهد لذلك أيضاً أن الإنسان إذا توسل بهم ، أو بأسماء عظمائهم ، أو أقسم بأشرافهم أجابوه ، وقضوا حاجته ، كل ذلك شعور منهم بالضعف ، والحقارة أمام ابن آدم الكريم على الله تعالى إذا آمن بالله تعالى ، وعبده موحداً له في ربوبيته ، وعبادته ، وأسمائه ، وصفاته

---

(١) البخاري (٤/ ١٣٥) .
(٢) الآية (٧٠) .
(٣) الآية (٦) .

أما بدون ذلك فإن الإنسان كالجان ، وصالحو الجان أفضل وأكرم من كفار بني آدم ومشركيهم .

١٠ ـ هل صالحو الجن يدخلون الجنة ؟

قد سبق أن قررنا فيما تقدم ، وبينا بوضوح أن الجن غير أولاد إبليس ، خُلقوا لعبادة الله تعالى وطاعته ، شأنهم في ذلك شأن بني الإنسان ، وأن منهم الصالحين ، ومنهم دون ذلك ، وعليه فالصالحون منهم ، وهم أهل الإيمان والتقوى يدخلون الجنة ، وينعمون فيها إن هم ماتوا على الإيمان والتوحيد ، والتقوى والعمل الصالح .

والدليل على هذه الحقيقة العلمية عمومات قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴾(١)

وقوله تعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾(٢)

وقوله تعالى :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(٣)

فكلمة (من) من ألفاظ العموم فيدخل فيها كل من حقق الشرط الذي قُرن بها من إنس وجن ، ويتلقى الجزاء ، وهو المغفرة ، والجنة كل من حقق الشرط من إنسي وجني . وأصرح في الدلالة من هذا قوله تعالى من سورة الرحمن

---

(١) سورة البروج الآية (١١) .

(٢) سورة الأنبياء الآية (٩٤) .

(٣) سورة المائدة الآية (٩) .

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[1]
في سياق ذكر الإنس والجن معاً .

١١ - هل الجن يؤذون الناس ؟

إن أذى الجن للإنس ثابت لا يُنكر ، حيث ثبت ذلك بالدليل السمعي ، والدليل الحسي ، والعقل لا يحيله ، بل يجيزه ويقره ، ولولا المعقبات من الملائكة التي أناط الله تعالى بها حفظ الإنسان لما نجا من الجن والشياطين أحد .

وذلك لعدم رؤية الإنسان لهم ، ولقدرتهم على الانتقال والتحول بسرعة ، ولكون أجسامهم من اللطافة بحيث لا نشعر بها ، ولا نحس ، ومن هنا كان مما لا شك فيه أن بعض الجن يؤذون بعض الناس ، إما لكون الإنسان قد تعرض لهم بالأذى فآذاهم بصب ماء حار عليهم ، أو ببوله عليهم ، أو بنزوله في بعض منازلهم وهو لا يشعر ، فينتقمون فيؤذونه .

وإما لمجرد الظلم من بعضهم ، فيؤذون الإنسان بدون سبب كما يحدث ذلك بين الإنسان وأخيه الإنسان ، إذ أحياناً يؤذي الإنسان أخاه لسبب خاص ، وأحياناً لمجرد الظلم ، كما هو مشاهد في الناس عند فساد فطرهم ، وضعف إرادتهم ، وعقولهم ، وقد تقدم حديث الصحيح وجاء فيه أن الشاب الأنصاري لما طعن الجني المتمثل في صورة حية ، ما ماتت الحية حتى انتقم منه الجن ، وقتلوه ، فمات لفوره حتى قال أبو سعيد « لم يدر أيهما كان أسرع موتاً من صاحبه الحية أم الفتى »[2]؟ ولشهرة هذه الحقيقة ، وتسليم الناس بها لا نطلب لها إيراد شواهد

---

(١) الآية (٤٦) .

(٢) رواه مسلم وتقدم في (هل الشياطين يتشكلون) ؟ (ص ٢٢٤ - ٢٢٦) .

أخرى ، ونكتفي بحادثة الأنصاري الثابتة في صحيح مسلم ، ونذكر حادثة أخرى تمت في بيتنا وعشنا آلامها ، وعانينا آثارها السيئة .

إنه كان لي أخت أكبر مني تدعى « سعدية » وكنا يوماً ونحن صغار نطلع عراجين التمر من أسفل البيت إلى سطحه بواسطة حبل يربط به القنو (العرجون) ونسحبه إلى السطح ونحن فوقه ، فحصل أن أختي سعدية جرت الحبل ، فضعفت عنه ، فغلبها فوقعت على الأرض على أحد الجنون ، فكأنها بوقوعها عليه آذته أذىً شديداً ، فانتقم منها فكان يأتيها عند نومها في كل اسبوع مرتين أو ثلاثاً ، أو أكثر فيخنقها ، فترفس المسكينة برجليها ، وتضطرب كالشاة المذبوحة ولا يتركها إلا بعد أن تصبح أشبه بميتة ، ونطق مرة على لسانها مصرحاً بأنه يفعل بها هذا لأنها آذته يوم كذا في مكان كذا . . وما زال يأتيها ويعذبها بصرعة تأتيها عند النوم فقط حتى قتلها بعد نحو عشر سنوات من العذاب الذي لا يطاق ، فصرعها ليلة على عادته فما زالت ترفس برجليها وتضطرب حتى ماتت ـ غفر الله لها ، ورحمها آمين .

هذه الحادثة عشتها ، وبعيني رأيتها ، وما راء كمن سمع !!!

فائدة عظيمـــة

ونختتم هذا البحث في موضوع الجن والشياطين بفائدة جليلة ، وهي أن التحصن من الشياطين ، والاحتراز منهم ممكن ، إذا استعمل المؤمن واحداً من سبعة أشياء وهي : -

١ - الاستعاذة بالله تعالى ، لقوله عز وجل ،
﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[1]
ولقول الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث الصحيحين : « إني لأَعلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَها لَذَهَبَ ذَا عَنْهُ : أَعُـوذُ باللَّهِ مِنْ الشيطَانِ الرَّجِيمِ »[2].

٢ - قراءة المعوذتين : قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس لحديث النسائي وغيره وهو حديث حسن الإسناد : « ياابن عابسٍ ألاَّ أَدُلُّكَ أو ألاَّ أُخبِرُكَ بِأَفضَلَ ما تَعوذَ بِهِ المتعوذونَ ؟ قَالَ : بَلى يا رسولَ اللَّهِ . قَالَ : قلْ أعوذُ بِرَبِ الفَلَقِ ، وَقلْ أَعُوْذُ بِرَبِ النَّاسِ هاتين السورتين »[3].

---

(١) سورة فصلت الآية (٣٦) .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم اللؤلؤ والمرجان (٣/١٩٩) . ومسلم (٨/٣١) . والبخاري (٨/٣٤ ، ٣٥)

(٣) النسائي (٨/٢٢٠ ، ٢٢١) .

٣ ـ قراءة آية الكرسي :

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[1]

لحديث أبي هريرة في صحيح مسلم وقد تقدم[2] حيث جاء فيه : « أَنَّ الشَيْطَانَ لَمَا أَلقَىٰ أَبو هُريرةَ عَليهِ القَبضُ قَالَ : أَطْلِقْني وَأُعلِمُكَ آيةً لا يقرؤهَا أحدٌ ويقربُهُ شيطانٌ أبداً ، وَقَدْ أَقر الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم ذَلِكَ بِقَولِهِ : « صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ » .

٤ ـ قراءة سورة البقرة بكاملها ، لحديث مسلم وفيه : « لَا تَجعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إنَّ الشيطانَ يَنْفُرُ مِنَ البَيتِ الذي تُقرأُ فيهِ سُورةُ البَقَرَةِ »[3]

٥ ـ ذكر لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة ، فإن من فعلها كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه »[4].

٦ ـ ذكر الله تعالى لحديث الترمذي وفيه قال يحيى بن زكريا

---

(٤) سورة البقرة الآية (٢٥٥) .

(٥) في « هل الجن والشياطين يتشكلون ؟ » في (ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤) .

(٣) رواه مسلم (١٨٨/٢) .

(٤) متفق عليه اللؤلؤ والمرجان (٥٢٥/١) .

« وآمركم أن تذكروا الله تعالى فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في آثره سرعان حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم . كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى »[1].

٧ ـ الوضوء عند الغضب ، فمن غضب فليتوضأ فإنه يعصم نفسه من الشيطان أن يحمله على ارتكاب ما لا ينبغي ، أو ما لا يحسن من قول أو فعل ، وذلك لحديث أبي داود : « إنَّ الغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَان ، وإنَّ الشَيطَان مِنَ النَّارِ ، وإنَّما تُطْفَأُ النَّارُ بالمَاءِ ، فإذَا غَضِبَ أحدُكُمْ فَلْيَتَوَضَأْ »[2] .

---

(١) الترمذي (أدب/٧٨) .

(٢) أبو داود (٢/٥٥٠) ، وأحمد (٤/٢٢٦) .

الركن الثالث
من أركان عقيدة المؤمن
الإيمان بالكتب

تعريف :

الكتب جمع كتاب ، والكتاب : مصدر كتب يكتب كتباً وكتاباً وكتابة إذا جمع الحروف ، وألف بينها ، فكانت كلمات ذات معان خاصة ، ثم كون من تلك الكلمات ذات المعاني جملاً مفيدة ، تسمَّى كلاماً .

فالكتاب إذاً هو ما حوى كلاماً مفيداً ، ذا أغراض متعددة . وكتب الله تعالى التي يجب الإيمان بها : هي الصحف التي حوت كلام الله عز وجل الذي أوحاه إلى رسله عليهم السلام فكونت كتباً ، أو بقيت صحفاً لم تجمع ، ولم يتكون منها كتاب خاص . فالصحف كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام . والكتب كالتوراة ، والزبور ، والإنجيل والقرآن العظيم .

حقيقة الإيمان بالكتب :

إن معنى الإيمان بالكتب الإلهية الذي هو جزء من عقيدة المؤمن : التصديق الجازم بما أوحى الله تعالى من كلامه الخاص إلى من اصطفى من رسله عليهم السلام ، فَجُمع ودوّن فكان صحفاً مطهرة ، وكتباً قيمة .

فما عرف منها آمن به المؤمن تفصيلاً ، وما لم يعرف آمن به إجمالاً .

ما عرف من الكتب الإلهية وما لم يُعرف

إن المصدر الوحيد الذي يرجع إليه في معرفة الكتب الإلهية بالتفصيل هو القرآن الكريم وحده ، إذ هو الكتاب المحفوظ حفظاً ، لا يتطرق إليه معه الزيادة ، ولا النقص ، ولا التحريف ، ولا التغيير ، أو التبديل ، بحال من الأحوال : لأنه من ساعة نزول الآية منه أو الآيات ، أو السورة القصيرة أو الطويلة ورجال متوفرون لكتابته في سطورهم ، وحفظه في صدورهم ، فلم يتم نزوله في خلال الثلاث والعشرين سنة من عهد النبوة المحمدية حتى حفظه عن ظهر قلب مئات الرجال الأذكياء الأمناء ، ثم لم يمض غير قصير زمن حتى أصبح حفاظ القرآن غيباً في الصدور عشرات آلاف من الرجال الأفاضل ، والنساء الفضليات ، واستمر محفوظاً في الصدور ، ومدوناً في السطور ، ترعاه دول ، وأمم ، وشعوب ، وحكومات ، وتتوارث حفظه ، ورعايته الأجيال جيلاً بعد جيل إلى يومنا هذا . وأكبر شاهد أني أنا كاتب هذه العقيدة أحفظه عن ظهر قلب ، وكذا والدي رحمه الله ، وجدي كذلك ، وقد يكون جد أبي كذلك . وسوف يستمر القرآن محفوظاً بحفظ الله تعالى له إلى قرب نهاية هذه الحياة ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[1]

---

(١) سورة الحجر الآية (٩)

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[1]

وقد ذكر القرآن الكريم من الكتب السابقة صحف إبراهيم ، وصحف موسى وثلاثة كتب هي :

توراة موسى ، وزبور داودَ ، وإنجيل عيسى ، عليهم السلام ، ذكرها في مواضع متفرقة منه : نذكر منها قوله تعالى من سورة الفرقان :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴾[2]

والمراد من لفظ الكتاب في هذه الآية التوراة ، وقوله تعالى في الحديث عن اليهود :

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾[3]

وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾[4]

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾[5]

---

(١) سورة فصلت الآيتان (٤١ ، ٤٢) .

(٢) الآية (٣٥) .

(٣) سورة المائدة الآيتان (٤٣ ، ٤٤)

(٤) سورة الإسراء الآية (٥٥) .

(٥) سورة الحديد الآية (٢٧) .

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[1]

فقد جاء في هذه الآيات ذكر ثلاثة كتب إلهية مع كل من صحف إبراهيم وموسى ، كما جاء في مواضع أخرى من القرآن ذكر بعض ما جاء فيها من أخبار نحو قوله تعالى في التوراة :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[2]

حيث ذكرت حكماً من أحكام القصاص في الأطراف . ونحو قوله تعالى :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾[3]

فقد نصت هذه الآية القرآنية على أن وصفَ الرسول محمد ﷺ ووصف أصحابه في كل من التوراة والإنجيل بنفس المعنى الذي حوته هذه الآية القرآنية الكريمة . كما جاء في قوله تعالى :

---

(١) سورة الأعلى الآيتان (١٨ ، ١٩).

(٢) سورة المائدة الآية (٤٥) .

(٣) الآية (٢٩) من سورة الفتح

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾[١]

فقد نصت هذه الآيات من القرآن الكريم على أن في صحف كل من إبراهيم وموسى : الإخبار بأن النفس المذنبة يوم القيامة لا يحمل عنها ذنبها غيرها ، وأن الإنسان ليس له من نتائج العمل إلا ما عمله ، وسعى فيه بنفسه ، كما أن سعي الإنسان سوف يعرف به ، ويجزاه كاملاً غير منقوص .

فهذه الكتب التي ذكرت في القرآن الكريم بأسمائها ، وأسماء أصحابها الذين نزلت عليهم ، يؤمن بها المؤمن تفصيلاً كما ذكرت مفصلة ، ويؤمن بباقي كتب الله تعالى التي لم تذكر في القرآن مفصلة ، حيث لم يرد في القرآن ذكر أسمائها ، ولا أسماء من نزلت عليهم ، وإنما ذكرت مجملة كما في قوله تعالى من سورة الحديد :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾[٢]

وكما في قوله تعالى من سورة البقرة :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾[٣]

---

(١) سورة النجم الآيات (٣٦ ـ ٤١) .
(٢) الآية (٢٥) .
(٣) الآية (٢١٣) .

فقد جاء في هاتين الآيتين ذكر الكتب مجملاً فيؤمن بها المؤمن مجملة ، وإن لم يعرف أسماءها ولا أسماء من أنزلت عليهم .

وهكذا تتلخص عقيدة المؤمن في الإيمان بالكتب بأنه يؤمن بكل كتاب أنزله الله تعالى على من اصطفى من رسله ، لحمل رسالاته ، وإبلاغها إلى عباده ، فما عُرف منها مفصلاً آمن به مفصلاً ، وما عرفه منها مجملاً آمن به مجملاً . ولا يؤمن ببعض ويكفر ببعض تعصباً وضلالاً ، كما هو حال اليهود والنصارى الذين آمنوا بالتوراة المحرفة ، والإنجيل المبدل المغير ، وكفروا بالقرآن المحفوظ الباقي غضاً طرياً كما نزل ، والصافي المحض ، الذي لم يُشب . فكانوا كمن آمن بالباطل وكفر بالحق . وهم ـ يعلم الله ـ لكذلك .



على أي دليل آمن المؤمن بالكتب ؟

إن المؤمن لم يكن في حاجة إلى أدلة عقلية ، ولا حسية سمعية ليؤمن بالكتب الإلهية بعد أن آمن بالله وملائكته إيماناً راسخاً ، لا تزعزعه أعاصير الشك ، ولا تعصف به عواصف الأوهام مهما كانت عنيفة قوية لأنه يبني دائماً أسس معتقده على العلم والمعرفة ، ويتحاشى دوماً أن يؤمن إيمان التقليد والتبعية ، فلذا سنذكره هنا بأصل كل الأدلة ، وأم كل البراهين ليقيم اعتقاده بالكتب عليهما ، كما أقام ويقيم كل معتقداته عليها إذ هما الدليلان اللذان لا يسقطان ، والبرهانان اللذان لا يُغلبان ، وهما دليلا الأثر والخبر اللذان ثبت بهما كل غيب ، وآمن به كل عقلاء البشر ، فمن دليل الأثر نكتفي بأثر واحد وهو القرآن الكريم ، الكتاب الذي دل وجوده دلالة قوية قطعية على وجود منزله ، وعلى علمه ، وقدرته ، وحكمته ، ورحمته ، ودل على نبوة من أنزل عليه ، وعلى رسالته ، وعلمه ، وحكمته ، وفضله ، وشرفه ، وكماله ، كما دل بالتالي على ذات نفسه ، بأنه كتاب الله ، ووحيه ، وتنزيله ، كما قرر نزول كتب الله السابقة النزول عليه ، حيث ذكر صحف إبراهيم ، وتوراة موسى ، وزبور داود ، وإنجيل عيسى عليه السلام ، وذكر طرفاً مما جاء فيها من أخبار وأحكام ، كما قرر أن لله كتباً أخرى لم يكن اليوم بيد الناس منها شيء . .

وبعد : فأي أثر من الآثار الدالة على غيرها دل دلالة القرآن الكريم على نفسه وعلى غيره من كتب الله تعالى ؟؟ .

إن من يصغي إلى صوت العقل ، ويستمع إلى شهادة الفطرة ، ويحكم شواهد الوجدان البشري ، ويرضى بحكمها ، لا يسعه أبداً غير الإيمان بالله رباً ، وبمحمد نبياً ورسولاً ، وبالقرآن إماماً وحاكماً ، وبالإسلام شرعاً وديناً ، كل ذلك لدلالة القرآن العظيمة التي لا أرى ما هو أعظم منها في باب الدلالات على اختلافها وتنوعها ، إذ القرآن ـ وهو كتاب معجز ـ قد حوى علوماً ومعارف لم يتأت للبشر أفراداً وجماعات ، وأمماً ، وشعوباً الإتيان بمثله حتى ولو أضيف إليهم العالم الثاني (الجن) ، والتحدي ما زال قائماً في قوله تعالى :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (١)

القرآن الذي هذا هو واقعه قد ثبت ثبوتاً قطعياً يغنينا أيضاً أنه نزل وحياً على محمد ، النبي الأمي ﷺ ، ولم يكن من تأليف أحد من الخلق، ولا من نظمه فضلاً عن أن يكون من تأليف محمد ﷺ ، أو من نظمه ، وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب ، إذ حكم العادة البشرية جار على أن من لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يجلس بين يدي معلم قط ، يستحيل في حقه أن يأتي بمثل القرآن في علومه ، ومعارفه ، وشرائعه ، وآدابه ، وقصصه ، وأخباره ، يأتي بمثله من نفسه ، لاسيما وأن المنزل عليه ﷺ قد قضى أربعين سنة من عمره المبارك لم يتكلم فيها بوحي ، ولم ينطق فيها بقرآن قط .

وبالجملة فإن دلالة القرآن على ما ذكرنا من وجود الله تعالى ، وعلمه ، وحكمته ، وقدرته ، ورحمته ، وعلى نبوة محمد ورسالته وفضله ، وشرفه ، وكماله ، وعلى أن القرآن نفسه وحي الله ، وكتابه ،

---

(١) سورة الإسراء الآية (٨٨) .

وأن الكتب التي سبقته هي كذلك كتب الله ، مُنزلة وموحى بها إلى من نزلت عليه من رسل الله ، وأنبيائه ، دلالة عقلية منطقية ، لا ترد بحال ، وبرهان عقلي لا يغلب بآخر ، وأن كل من أراد أن ينفي عن القرآن دلالته العظيمة على ما ذكرنا إنما أراد أن يتورط في إثبات مستحيلات قضت كل العقول باستحالة إثباتها وهي :

١ ـ وجود كلام بدون متكلم .
٢ ـ وجود علم بدون عالم .
٣ ـ وجود رسالة بدون رسول ولا مرسل .
٤ ـ وجود نبوة بدون نبي ولا منبيء .
٥ ـ وجود دلالة بدون دليل .
٦ ـ وجود أثر بدون مؤثر .

هذه ستة مستحيلات كلها يقول بها من يركب رأسه ، ويحاول أن ينكر دلالة القرآن على ما ذكرناه آنفاً . وهل يليق بعاقل أن يرتكب هذه الحماقات ، ويقول بتجويز هذه المستحيلات الستة ؟ اللهم ، لا .

ودليل الخبر :

ما الذي نورده من الأخبار وهي متكاثرة متواترة ؟ إن العاقل الحي من الناس ليخجل إذا أراد أن يدلل على وجود البدهيات العقلية ، والضرورات الكونية .

أرأيت لو قام أحد في وسط جمع حاشد من الناس ، يدلل لهم في حماس على وجود الشمس والقمر ، والأرض والسماء ، أو على حاجة العطشان إلى الماء ، والجائع إلى الطعام ، أو المريض إلى الدواء ، والخائف إلى الأمان ، فكيف يكون حاله من الغرابة والعجب ؟!

إذاً فإن حال من نصب نفسه للناس يدلل لهم على أن الله تعالى

قد أنزل كتباً ، أوحاها إلى رسله بعد أن قرأ الناس تلك الكتب ، وعملوا بها ، وانتفعوا بهديها ، ورفعتهم إلى المستوى اللائق بهم من الكمال البشري ، ومنذ آلاف السنين ، لأعجب وأغرب من حال الأول ـ والله المستعان !! .

ومع هذا فسوف نورد أخباراً هي أصدق أخبار تلقاها الإنسان منذ أن كان : هي أخبار الله تعالى الخلاق العليم ، ومَن أصدق من الله حديثاً ؟ يقول تعالى في تقرير إنزاله الكتاب على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليحكم بين الناس :

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾[1]

ويقول في الامتنان على رسوله بما فضله وأنعم به عليه ، ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[2]

ويقول في الإخبار عن توحيده في ألوهيته ، وبيان إفضاله وإنعامه على خلقه بإنزال الكتاب بالحق على رسوله مصدقاً لما بين يديه من الكتب التي سبقته ، وبإنزال التوراة ، والإنجيل ، والفرقان :

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾[3]

---

(١) سورة النساء الآية (١٠٥) .
(٢) سورة النساء الآية (١١٣) .
(٣) سورة آل عمران الآيات (١ ـ ٤) .

ويقول في تقرير وحيه إلى أنبيائه ورسله ، وايتائه داود زبوراً ، وتكليمه موسى تكليماً ، وفي بيان الحكمة من إرسال الرسل .

﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾[1]

ونكتفي بهذا القدر من أخبار الله تعالى محيلين من أراد المزيد على كتاب الله القرآن الكريم ، فإن فيه من أخبار الله تعالى المصرحة بوحيه وكتبه ، وبأسماء كتبه ، وأسماء رسله الذين أوحى إليهم ، وأنزل كتبه عليهم ، الأمر الذي لا يترك مجالاً لأدنى شك يمكن أن يوجد في نفس انسان في شأن الكتب الإلهية ، ووجوب الإيمان بها ، والتصديق بما ورد فيها من أخبار وأحكام ، وشرائع وآداب .

---

(١) سورة النساء الآيات (١٦٣ - ١٦٥) .

أدلة وجوب الإيمان بالكتب الإلهية ، وكونه ركن الإيمان

إن الإيمان بالكتب السماوية الإلهية لواجب شرعاً كما هو واجب عقلاً وهذا بيان ذلك :

أما كون الإيمان بالكتب الإلهية واجباً شرعاً فذلك لأن الله تعالى أمر به أمراً جازماً لا يقتضي إلا طاعة الله تعالى فيه ، وتحريم معصيته إذ قال تعالى في الأمر بالإيمان بكتبه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[1]

إن هذه الآية وحدها كافية في الدلالة على وجوب الإيمان بكتب الله تعالى عامة ، وبالقرآن الكريم كتاب الإسلام والمسلمين خاصة ، وفي تحريم التكذيب بها ، وعدم التصديق بكل ما جاء فيها ، مما هو وحي الله ، وكلامه سبحانه وتعالى .

إن الإيمان بالكتب ليس واجباً فحسب بل هو أحد أركان الإيمان الستة التي لا يصح إيمان عبد إلا باستكمالها بالإيمان بها كلها . وإنه ـ الإيمان بالكتب ـ للركن الثالث من تلك الأركان ، التي هي بناء العقيدة

---

(١) سورة النساء الآية (١٣٦) .

الإسلامية ، كما جاء ذلك في الكتاب والسنة ؛ ففي الكتاب يقول تعالى من سورة البقرة :

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[1]

ويقول :

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[2]

ومن السنة حديث مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه والذي جاء فيه سؤال جبريل للرسول صلى الله عليه وسلم عن الإيمان ، وجواب الرسول له بأنه : الايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خير وشره (حلوه ومره)[3].

وأما كون الإيمان بها واجباً عقلاً فإنه يظهر للمتأمل من حيث حاجة العباد إليها ، وإقامة الحجة عليهم بها ، فإن الرسول المبلغ عن الله شرائعه وأحكامه يحتاج غالباً في إثبات رسالته إلى كتاب من الله تقوم به الحجة له على تلك الأمة التي أرسل إليها حتى يؤمنوا به ،

---

(١) الآية (١٧٧) .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٨٥) .

(٣) مسلم (١/٢٨/٢٩) .

ويصدقوه ، ويتبعوه ويعملوا بما جاءهم به ، والتشريع الإلهي نفسه يفتقر إلى كتاب يحويه ، ويتضمنه ، ويُثبت فيه ، ليبقى بعد وفاة الرسول الذي جاء شرعاً محفوظاً ، تعمل به الأجيال إلى المدى الذي حدد له بنسخه برسالة أخرى ، أو بنسخ بعض ما جاء فيه كما حصل للتوراة والإنجيل ، فقد نسخ الله تعالى بالإنجيل بعض أحكام التوراة ، ونسخ بالقرآن الكريم الإنجيل والتوراة كليهما .

ولولا بقاء الكتاب بعد الرسول لضاع الدين الذي جاء به ، أو ضاع الكثير منه ، وحينئذ يقول الناس : بم نعبد الله ، وكيف نعبده ولم يكن لدينا من شرائعه ما نعبده به ؟؟ .

وتكون لهم الحجة على الله تعالى ، وهذا ما لم يرده الله تعالى حيث صرح بنفسه في قوله
﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[1]

فهذه المسائل الثلاث :

* احتياج الرسول في إثبات رسالته إلى كتاب من ربه تقوم له به الحجة على قومه .

* افتقار التشريع الإلهي إلى كتاب يحويه ، ويتضمنه ، ويُثبت فيه .

* عدم إعطاء الناس الحجة على الله تعالى ببقاء التشريع الإلهي محفوظاً في كتاب ، ثابتاً فيه ، هي التي اقتضت عقلاً وجوب كتب إلهية، كما اقتضت وجوب الإيمان بها ، وتصديقها ، والعمل بما فيها ، لافتقار سعادة البشرية في الحياتين اليها ، وتوقفها عليها .

---

(١) سورة النساء (١٦٥).

منزلة القرآن الكريم
بين كتب الله تعالى

إن مما لا شك فيه عند الدارسين للقرآن الكريم ، الواقفين على أسراره وعجائبه ، العالمين بما حواه من أصول التشريع وقواعده ، والمدركين للحقائق العلمية التي أثبتها ، ولفت النظر إليها ـ أن للقرآن الكريم منزلة خاصة بين سائر الكتب الإلهية التي تقدمته في النزول .

وقد تتجلى هذه المنزلة العلية للقرآن العظيم بإمعان النظر في النقاط الخمس التالية والتأمل فيها : ـ

ـــ كونه ناسخاً لها لفظاً وحكماً ، فلا تُقرأ للتعبد ، ولا يعمل بما فيها من شرائع وأحكام وذلك :

أولاً ـ لما داخلها من تحريف ، وما أصابها من تضييع ونسيان إذ لم يبق فيها ما يُجزم بصحة نسبته إلى الله تعالى أبداً ، عرف هذه الحقيقة وقررها المنصفون والمحققون من علماء أهل الكتابين معاً .

وثانياً ـ كان التشريع فيها خاصاً ببني إسرائيل ، وموقوتاً بزمن معين ، وليس أدل على نسخ القرآن للكتب قبله من أمر الله تعالى لنبي القرآن محمد ﷺ أن يحكم بين سائر الناس على اختلاف ما ينتحلون من ديانات بالقرآن الحكيم ، وذلك في قوله تعالى :

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ[1] بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ[2] وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[3]

وقوله :

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ[4]

* كونه مهيمناً عليها رقيباً شهيداً ، فما صححه منها وأقره فيها صح وقر ، وما أبطله منها ونفاه لكونه دخيلاً عليها ليس منها بطل وانتفى . كما جاء شاهد هذا في الآية السابقة :

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾

* كون ما يحمل من التشريع الإلهي عاماً لكل الناس في أي مكان كانوا وفي أي زمان وجدوا ، وذلك لعموم رسالة صاحبه المنزل عليه ﷺ، إذ قال الله سبحانه وتعالى :

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[5]

---

(١) أل هنا تدل على الكمال فيه فهو الكتاب الذي أكمل الله به الدين ، فهو الحري بأن يتصرف إليه لفظ الكتاب دون غيره من الكتب السابقة، ومعنى بالحق : متلبساً به مؤيداً له ، مشتملا عليه ، مقرراً له .

(٢) أل في الكتاب للجنس أي من جنس الكتاب ، فيدخل في ذلك التوراة والزبور والإنجيل وغيرها .

(٣) سورة المائدة الآية (٤٨) .

(٤) سورة النساء الآية (١٠٥) .

(٥) سورة الفرقان الآية (١) .

وقال :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [(١)]

وقال :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [(٢)]

بخلاف الكتب التي سبقته فإنها كانت خاصة في المكان والزمان ، ولا عموم فيها البتة .

* تعهد الرب تبارك وتعالى بحفظه إلى أن يرفعه إليه ، إذ قال تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [(٣)]

وقال :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [(٤)]

فحفظه الرب تبارك وتعالى بأن قيض له رجالاً أمناء ، حفظوه في صدورهم ، وسطورهم فلم تقو يد الزمان ، ولا يد العدوان على أن تزيد فيه حرفاً ، ولا أن تنقص منه حرفاً ، بخلاف غيره من الكتب وخاصة ألتوراة فقد ضاعت كلها في غزو بختنصر البابلي لمملكة بني إسرائيل ، ولم يعثر عليها إلا فيما بعد ، ثم ما إن جمعت والله أعلم بصحة ما جمع فيها حتى تسلط عليها عبدة المادة فحرفوها وبدلوها حسب مصالحهم وأهوائهم ، أما الإنجيل فيكفي في الدلالة على عدم حفظه

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٥٨) .

(٢) سورة سبأ الآية (٢٨) .

(٣) سورة الحجر الآية (٩) .

(٤) سورة فصلت الآيتان (٤١ ، ٤٢) .

اليوم خمسة أناجيل[1]، بعد أن كان يوم نزوله إنجيلاً واحداً. !!!

* شموله لأصول الهداية البشرية وفروعها، واحتواؤه على أعظم منهج رباني محقق لسعادة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة متى آمن به وعمل بما فيه. قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[2]

(١) هي إنجيل متى ومرقص ولوقا ويوحنا ويرنابا والأخير أصحها وقد أخفي من القرن الرابع إلى القرن السابع عشر. الميلادي.

(٢) سورة المائدة الآيتان (١٥ - ١٦).

لوحة مشرقة
ببيان ما في القرآن من الهدى والخير

إن في القرآن المجيد من الهُدى والخير لبني الناس كافة ما لا يوجد اليوم ـ والله ـ معشار عشره في كتابٍ غيره ، وفي الأرقام التالية بيان ذلك وتحقيقه : ـ

١ ـ الهدى الموصِل إلى كل خير ، والمرشد إلى كل كمال ، والهادي إلى سعادة الدارين ، قال منزله سبحانه وتعالى :

﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [١]

٢ ـ الرحمة بأتم معناها ، الرحمة التي تعم الانسان ، والجان ، والحيوان، والكبير والصغير ، والكافر والمؤمن ، والحي والميت . قال تعالى في اثباتها :

﴿ الٓمٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ [٢]

٣ ـ الشفاء التام العام لجميع الأمراض العقلية ، والنفسية ، والقلبية شفاء من الكفر والشرك ، والقلق والاضطراب ، والحيرة والخوف ، والكبر والحسد ، والكسل والعجز، والبخل والشح ، والظلم والخرَف . قال تعالى في اثبات هذا الشفاء وتقريره :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٣]

---

(١) سورة البقرة الآيتان (١ ـ ٢) .

(٢) سورة لقمان الآيات (١ ـ ٣) .

(٣) سورة الإسراء الآية (٨٢) .

٤ - النور الكاشف لجميع الظلمات القلبية ، والمبدد لسائر الجهالات النفسية ، والمبين لسائر الحقائق والأسرار الكونية . قال تعالى في تقرير نورانيته

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (١)

٥ - الموعظة الداعية إلى اكتساب كل فضيلة ، والزاجرة عن كل رذيلة ، قال تعالى في ذلك

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ (٢)

٦ - البشرى بخير الدنيا والآخرة وسعادتهما . قال تعالى في ذلك :

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٣)

٧ - الحق الإلهي الثابت في نفسه ، المحقق المثبت لغيره من كل ما هو حق ، فكل حق القرآن يؤيده ، والقرآن يقرره ، قال تعالى :

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ (٤)

---

(١) سورة النساء الآية (١٧٤) .

(٢) سورة يونس الآية (٥٧) .

(٣) سورة النحل الآية (٨٩) .

(٤) سورة الأسراء الآية (١٠٥) .

وقال :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾[1]

أي متلبساً به مشتملاً عليه ، مؤيداً له ، ومقررا .

٨ - الذكر الإلهي الذي تحيا عليه القلوب ، وتطيب بتلاوته الأرواح ، وتزكو بالعمل به النفوس . الذكر المكسب للشرف ، والموصل لحضرة القدس ، والرافع إلى ملأ الأخيار . قال تعالى :

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾[2]

وقال في الحديث عنه :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾[3]

٩ - الخير العام لكل إنسان ، وجان ، وحيوان ، فما من كائن في هذه الحياة إلا وناله من خيرية القرآن من يوم نزوله إلى يوم رفعه إلى الله ، وقبضه إليه ، اللهم إلا من كان من المطرودين من شياطين الانس والجان ، المبلسين من كل خير . قال تعالى :

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ خَيْرًا ﴾[4]

١٠ - التبيان والبيان لكل شيء مما الانسان في حاجة إليه مما تتوقف عليه سعادته دنيا وأخرى . قال تعالى :

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[5]

---

(١) سورة المائدة الآية (٤٨) .
(٢) سورة ص الآية (١) .
(٣) سورة الزخرف الآية (٤٤) .
(٤) سورة النحل الآية (٣٠) .
(٥) سورة النحل الآية (٨٩) .

١١ - الروح التي تتوقف عليه حياة الإنسان ، فالقرآن هو الروح اللازمة للحياة الفاضلة الكريمة . إن الناس بدون أن تسري فيهم الروح القرآنية أموات حقاً ، لا ينتفعون بوجودهم ، ولا بحياتهم المادية ، قال تعالى في هذا :

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١]

---

(١) سورة الشورى الآية (٥٢) .

شروط الانتفاع التام بما في القرآن من الخير والهدى

إنه بالرجوع الى تلك اللوحة المشرقة بنور القرآن وهدايته يتبين لنا بحق وصدق أن في القرآن الكريم من الهدى والخير ما يكفل للإنسان سعادة ، في دنياه وأخراه ، غير أننا إذا عاودنا النظر لتلك اللوحة نجد أن ما في القرآن من الخير والهدى مخصوص بأناس وُصفوا بصفات أربع هي : الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ، والتقوى ، فمن استجمع تلك الصفات فقد تهيأ لتلك الفيوضات الربانية ، وفاز بما في القرآن من الخير والهدى ، ومن قصر عنها ، ولم يستكملها فإن حظه منه بقدر حظه منها .

وهذا إيضاح لتلك الصفات الأربع :

١ ـ الإيمان : بأن يؤمن المرء إيماناً عاماً بكل ما جاء به رسول الله عن الله ، ويؤمن إيماناً خاصاً بما في القرآن من الهدى والخير إيماناً يحمله على تعرفه عليه ، وطلبه منه ، وذلك بدراسة القرآن ، والعمل بما فيه من العقائد والشرائع ، والآداب ، والأخلاق .

٢ ـ الإسلام : بأن يسلم المرء لله تعالى قلبه ، ووجهه ، فيسخّر كل شيء فيه لله تعالى بحيث لا يكون له هم إلا الله تعالى ، فيعيش طالباً لما يرضاه الله من اعتقاد ، وقول ، وعمل ، متجنباً لكل ما يسخطه الله تعالى من اعتقاد ، وقول ، وعمل .

٣ ـ الإحسان : بأن يحسن في إيمانه وإسلامه ، فيعيش يراقب الله

تعالى في كل ما يأتي ويذر ، وما يقدم وما يؤخر ، يراقبه في طاعته كما يراقبه في معصيته ، وبعبارة أخرى يراقبه في محابه فيأتيها بصدق ويعملها بإتقان ، وفي مساخطه فيتجنبها في بغض لها ، ويبتعد عنها في كره منه لها تام .

٤ ـ التقوى : بأن يتقي الله تعالى في أن يشرك به ، أو أن يعصِيَه بترك ما أوجب عليه ، أو انتدبه إليه ، أو بفعل ما حرمه عليه ، أو كرهه له .

وكلمة أخيرة أن من استكمل هذه الصفات ، وحققها كما هي موضحة أعلاه ، ومبينة فيما سلف فقد استوجب كل ما في القرآن من خير وهدى ، وتحقق له ذلك كاملاً ، فحصل له الشفاء في صدره وبدنه ، والرحمة في قلبه ، والنور في بصيرته ، والذكر والموعظة في قلبه ، والبيان في لسانه ، والحق في حُكمه ، والبشرى في حياته وآخرته .

وأما من لم يستكمل تلك الصفات فإنه لم ينتفع بما في القرآن من الهدى والخير ، وليس ذلك عائداً إلى أن القرآن نفد منه هداه وخيره اللذان كانا فيه ، وإنما هو عائد إلى عدم أهلية المرء للاستفادة منه . وإن لذلك مثلاً نضربه هو وجود مريض يُوصف له دواء نافع ، ويقدم له ، ولم يكلف نفسه مشقة تناوله ، فيبقى الدواء في خزانته ، ويبقى هو يعاني من آلام مرضه إلى أن يُكره على استعمال الدواء فيشربه ، فيشفى من مرضه ، أو لا يكرهه أحد على شربه واستعماله فيبقى يعاني من أسقامه ، وأوجاعه حتى يهلك بها ويموت . فهل الذنب في هذا ذنب الدواء ؟ والجواب لا ، إن الذنب ذنب المريض نفسه الذي لم يستعمل الدواء وهو بين يديه ، فكان حاله كحال من قال :

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

تقرير أخير لعقيدة المؤمن
في الكتب الأربعة
القرآن ، والتوراة ، والزبور ، والإنجيل

إن المؤمن قد آمن ويؤمن بكل ما أنزله الله من كتاب إجمالاً فيما لم يعرف ، وتفصيلاً فيما عرف . فآمن بصحف إبراهيم ، وألواح موسى وتوراته ، وبزبور داود ، وإنجيل عيسى ، وفرقان محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين وسلم تسليماً كثيراً .

كما آمن بالقرآن على أنه كتاب إلهي هو أكملَ الكتب ، نسخ الله تعالى به كل ما سبقه من الكتب ، لأنه متأخر عنها في النزول ، وسنة النسخ وطريقته دائماً أن ينسخ المتأخر المتقدم ، واللاحق السابق ، ولأن الرسالة التي تضمنها رسالة عامة لكل الناس أبيضهم ، وأحمرهم ، وأصفرهم ، وأسودهم ، فلم تكن مخصوصة بشعب دون آخر من شعوب البشر ، كما أن الكتب المتوفرة والموجودة لدى نزوله كالتوراة ، والزبور ، والإنجيل كان قد داخلها التحريف ، والتبديل ، والتغيير ، والزيادة ، والنقصان ، وذلك بنسيان أهلها لأكثرها ، ولانقطاع سندها إلى من أوحيت إليهم من أنبياء بني إسرائيل ورسلهم ، كما هو معروف ومسلم لدى عقلائهم ، والمنصفين منهم . فأصبحت تلك الكتب لا تمثل حقيقة كتب الله تعالى ، ولا تحمل الهدى ، والنور ، والرحمة ، والموعظةلأهلها ، فضلاً عن غيرهم فلم تكن قادرة على الاصلاح ولا الهداية للخلق ، ومن ثم اقتضت رحمة الله تعالى بعباده أن يجدد لهم عهد النبوة بعد اندثارها ، وعهد الوحي بعد اندراسه ، فيبعث الله تعالى النبي الخاتم ، النبي المنتظر ، النبي الأمي محمداً ﷺ ، وأن ينزل عليه

الكتاب الكامل الجامع ، فينسخ به سائر الكتب ، وضمنه هداية الأبيض والأسود ، والعربي والعجمي من الناس أجمعين .

فهو الكتاب الذي أنزله مصدقاً لما بين يديه من الكتب ، ومهيمناً عليها ، أمر محمداً عبده ورسوله أن يحكم به بين الناس كافة إذ قال تعالى :

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾(1)

وقال عز وجل :

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾(2)

فتعين لذلك نسخ القرآن لما سبقه من كتب الله تعالى ، ونسخ الدين الإسلامي لسائر الأديان السابقة . قال تعالى :

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾(3)

وقال : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(4)

وقال رسول الله ﷺ مُبيناً نسخَ كتابِهِ « القرآنَ » لغيرِهِ مِنَ الكتبِ ، ونسخَ دينهُ « الإسلام » لغيرِهِ مِنَ الأديانِ ، قَالَ : « والذي نَفسي بيدِهِ لو أَنَّ موسى كانَ حياً ما وسعهُ إلا أَنْ يتبعني » . قَالهُ لعمرَ بنِ الخطابِ

---

(1) سورة المائدة الآية (48) .

(2) سورة النساء الآية (105) .

(3) سورة آل عمران الآية (19) .

(4) سورة آل عمران الآية (85) .

رضيَ اللَّهُ عنهُ لما أتاهُ بكتابٍ أصابهُ من بعض أهلِ الكتابِ ، فقرأ عليهِ ، فغضَبَ ، وقالَ : « **لقد جئتكمُ بها بيضاءَ نقيةً لا تسألوهمُ - أهلَ الكتابِ - عن شيءٍ فيخبروكمُ بحقٍ ، فتكذّبوا بهِ ، أوْ بباطلٍ فتصدقوا بهِ ، والذي نفسي بيده . . . الخ** »[1] وكيف لا يكون إلا ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وجزم به من اتّباع موسى عليه السلام له فضلاً عن أمته ، والله تعالى يقول :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى[2] قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[3]

(١) رواه أحمد والبزار وابن أبي شيبة واسناده صحيح

(٢) إصري : قال ابن جرير : عهدي ووصيتي .

(٣) سورة آل عمران الأيتان (٨١ ، ٨٢) .

الركن الرابع
الإيمان بالرسل عليهم السلام

مقدمات :

(أ) إمكان الوحي :

تعريف الوحي :

الوحي اسم مصدر من أوحى إليه بكذا يوحي إيحاءً : إذا أعلمه بمراده في سرعة وخفاء .

فالوحي إذاً هو الاعلام السريع الخفي ، وبأي واسطة حصل ، إذ ليس شرطاً فيه أن يكون من قرب ، أو بقول ، أو بين متجانسين ؛ فقد قال تعالى :

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾[1]

وقال تعالى :

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾[2]

فقد أعلم الله تعالى النحل مراده ففهمت عند ذلك ، ونفذته كاملاً ، ولم يكن هنا قرب ، ولا قول . ولا تجانس مما يعرف الناس

---

(١) سورة النحل الأيتان (٦٨ ، ٦٩) .

(٢) سورة القصص الآية (٧)

في حياتهم المادية هذه . كما أنه تعالى أعلم أم موسى بمراده ففهمته ، ونفذته كاملاً تاماً ، وبدون قرب أيضاً ، ولا قول ، ولا تجانس أبداً بين الموحِي ، والموحَى إليه .

فالوحي بهذا المعنى ممكن ، ولا معنى لانكاره أبداً ، ونقول هذا تنزلاًمع الشاكين فقط ، وإلا فالوحي قد وقع ، وتم ، ومنذ وجد الانسان الأول على هذه الأرض وهو آدم عليه السلام .

والذين كلت أذهانهم أمسِ عن فهم الوحي وإدراكه لم يبق لهم اليوم من عذر في دعوى كلال الذهن عن فهم الوحي وهم يشاهدون الاتصالات السلكية واللاسلكية ، والاذاعية وغيرها .

وقد بلغهم أن الاكتشافات العلمية أثبتت بما لا مجال للشك فيه أن الوحي بالمعنى الذي قررنا موجود حتى بين الحيوان وأخيه الحيوان ، بل بين أصغر الحشرات كالفراش والنمل وما إلى ذلك ، فيتم الاعلام السريع الخفي بين حيوان وآخر وبدون قرب بل أبعاد شاسعة ، وبدون قول أيضاً ، ولا مشابهة البتة .

فالوحي إذاً ممكن وموجود ، وإنكاره يعد إنكاراً للحس ، وتكذيب بالواقع المشاهد . نعم الوحي تختلف وسائله ، فالوحي الإلهي كان يتم بوسائل متعددة ، وكيفيات مختلفة وفيما يلي : بيان ذلك .

الوحي الإلهي وطرقه

تعريف :

الوحي الإلهي هو ما يوحي به الله تعالى من كلماته الصادقة في أخبارها ، العادلة في أحكامها ، بطريقة من طرق الوحي إلى من يصطفي من الناس ، ولا شاهد أقوى على وجوده وإمكانه من كلام الله تعالى الموجود بين أيدي المؤمنين يقرءونه محضاً لم يشب بكلمة واحدة من كلام الناس ، وهو القرآن الكريم الموحى به إلى النبي محمد ﷺ آيات وسوراً ، شيئاً فشيئاً حتى اكتمل نزوله ، ووحيه في خلال ثلاث وعشرين سنة .

وقد حاول خصومه منذ شروق أنواره أن يبعدوه عن حقيقته ، ويخرجوا به عن كونه وحياً تلقاه النبي محمد ﷺ من ربه كما قال تعالى :

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[1]

حاول أولئك الخصوم أن يخرجوا به عن حقيقته ، فقالوا : سحر ، وقالوا : شعر ، وقالوا : أساطير الأولين ، وقالوا غير ذلك . بيد أنهم لم تطل بهم الحياة حتى أذعنوا للحق ، وسلموا أنه وحي الله وكلامه ، الذي أوحاه إلى صفوة خلقه ، وسيد أنبيائه ورسله

(١) سورة النمل الآية (٦) .

محمد ﷺ ، فآمنوا به ، وعملوا بهدايته ، فكملوا ، وسعدوا ، وسادوا أيضاً .

ولتلقي الوحي الإلهي طرق بيَّنها الله تعالى في كتابه بقوله من سورة الشورى :

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[1]

فهذه ثلاث طرق لتلقي الوحي الإلهي : ـ

الأولى : الوحي المباشر وهو أن يعد الله تعالى قلب العبد إعداداً خاصاً بتصفيته من الكدورات ، والرعونات النفسية ، ثم يلقي إلى صاحبه بكلماته التي أراد أن يوحي بها إليه . فيتلقاها ذو القلب الطاهر وهو النبي من أنبياء الله تعالى ويعيها وعياً كاملاً صحيحاً ، وهو جازم بأنها كلام الله تعالى ، ووحيه إليه ، وذلك لما يجد في نفسه من ضرورة تحتم عليه ذلك وتضطره إليه أكثر من ضرورة معرفة أحدنا بوجوده إنساناً حياً بين الناس ، أو بضرورة معرفة صوت ، أبيه أو أمه أو أخيه ، ذلك الصوت الذي عاش دهراً يسمعه ، ويفرق بينه وبين سائر الأصوات .

الثانية : أن يخاطب الله تعالى من أعده لذلك من أنبيائه ورسله فيُسمعه كلامه المباشر مع القرب ويدونه . ولكن من وراء حجاب ، فيسمع النبي الكلام ولا يرى المتكلم ، وقد تم هذا للنبي محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج في الملكوت الأعلى ، إذ عُرج به ﷺ حتى بلغ سدرة المنتهى ، وكلمه ربه تعالى ، وفرض عليه الصلوات الخمس هذه التي يصليها المؤمنون خمس مرات في كل يوم وليلة ، غير أنه لم ير

---

(١) الآية (٥١) .

ربه تعالى ، فقد سئل عن ذلك فقال : « نور أنى أراه »[1]. أما قوله تعالى من سورة النجم :

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[2]

فإن الضمير في قوله تعالى « ولقد رآه نزلة أخرى » عائد إلى جبريل عليه السلام وليس عائداً إلى الله تعالى .

كما تم هذا التكلم من وراء حجاب لموسى بني إسرائيل عليه السلام ، وكان بجبل الطور من سيناء حيث ناداه ربه بالواد المقدس طوى ، ونبأه ، وأوحى إليه ، وأرسله إلى فرعون وملأه ، كل هذا وموسى عليه السلام يسمع كلام الله تعالى المباشر ، ولا يرى الله تعالى مُكلمه عز وجل حتى تاقت نفسه لرؤيته ، فسأل ربه ذلك فقال :

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾

فقال الله تعالى له : ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾[3]. وأقنعه بعجزه عن الرؤية لله تبارك وتعالى ، فأمره أن ينظر إلى الجبل وقد تجلى له ، فصار دكا فنظر موسى إلى الجبل فلم يقو على رؤيته فخر ، مغشياً عليه فلما أفاق من غشيته قال :

﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4]

---

(١) حديث الإسراء ثابت في الصحيحين وغيرهما اللؤلؤ والمرجان (١/٣٥) وقوله ﷺ نور أنى أراه رواه مسلم (١/١١١) .

(٢) الآيات (١٣ ـ ١٨) .

(٣) سورة الأعراف الآية (١٤٣) .

(٤) سورة الأعراف الآية (١٤٣) .

الثالثة : أن يوحي الله تعالى إلى من اصطفى من رسله بواسطة ملك يرسله إليه ؛ وكان جبريل عليه السلام موكلاً بالنبي ﷺ ، وهو الذي صحبه في إسرائه ومعراجه[1] ؛ وما زال معه يأتيه بوحي ربه حتى قُبض ﷺ ، والملك الرسول يأتي أحياناً في صورته الملائكية ، وأحياناً يتمثل بشراً كما تمثل لمريم البتول عليها السلام ، وقال لها لما استعاذت بالرحمن منه :

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[2]

---

(١) إن الإسراء والمعراج المجيدي ثابتان بالكتاب والسنة ، ففي الكتاب عن سورة الإسراء يقول تعالى : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ، لنريه من آياتنا » ففي هذه الآية تصريح بالاسراء وأنه كان من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس . وفي قوله لنريه من آياتنا ، إشارة إلى المعراج بعد التصريح بالإسراء إذ المعراج تم مع الإسراء في رحلة واحدة ، كما بينت ذلك الأحاديث الصحيحة . وفي قوله تعالى من سورة النجم :

«ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى » تصريح بالمعراج ووصول الرسول ﷺ فيه إلى سدرة المنتهى عند جنة المأوى ، وفي الملكوت الأعلى وما في الآيات من إجمال لحادثة الإسراء والمعراج فقد بينته السنة وفصلته أيما تفصيل إذ أغلب كتب الصحاح والمسانيد قد روت حادثة الإسراء والمعراج مفصلة . ولما كانت عقيدة المؤمن مبنية على أساس تصديق الله والرسول في كل ما أخبرا به وجاء عنهما فإن تصديق المؤمن بحادثة الإسراء والمعــراج ليس موضع شك أبداً كما ان إثبات هذه الحادثة لا يتطلب دليلا بعد إثبات الكتاب السنة لها إن الإسراء والمعراج ثبتا للنبي محمد ﷺ بروحه وجسده ويقظة لا مناماً وذلك في السنة الحادية عشرة من البعثة المحمدية، ولا التفات إلى رأي من يقول بحصولها بالروح دون الجسد ، أو في المنام دون اليقظة إذ هذا الرأي فاسد وباطل لمنافاته لمعنى (أسرى بعبده) ولرفض سلف هذه الأمة له وإنكاره على قائله ومرتئيه .

(٢) سورة مريم الآيات (١٩ - ٢١) .

كما كان يأتي النبي ﷺ في صورة دِحْيَة بن خليفة الكلبي وجاء مرة في صورة أعرابي فدخل المسجد وجلس إلى النبي ﷺ وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع يديه على فخذيه ، وأخذ يسأل الرسول ﷺ والرسول يجيبه وهو يصدقه بقوله : « صدقت » حتى عجب الصحابة منه ، كيف يسأله ويصدقه . ولما انصرف أمر الرسول أصحابه أن يردوه عليه فطلبوه فلم يظفروا به ، فقال لهم « إنهُ جبريلُ أتاكُمْ يُعلمكُمْ أمر دينكمْ »[1] .

ب ـ ضرورة الوحي ، وحاجة الناس إليه .

إن الوحي الإلهي ضرورة من ضرورات شتى قد اقتضاها وجود الانسان على هذه الأرض ، يكابد فيها حياة طويلة فُرضت عليه ، وقدرت له ، ولا ينتهي منها إلا بانتهاء هذا الكون وانقراضه ، حيث ينقل إلى ملكوت آخر فهو في هذه الرحلة الطويلة من حياته لا بد له من تعاليم من ربه تنظم حياته ، ولا بد له من هدي يعيش عليه ، وكيف يتم له ذلك بغير الوحي ؟ فالوحي إذاً ضرورة من الضرورات لا غنى عنه بحال من الأحوال .

وضرورة الوحي ، وحاجة الانسان إليه تظهران بوضوح إذا عرفنا أن الانسان مكون من روح وجسد ، وأن العالم عالمان علوي وسفلي ، وأن الحياة حياتان : أولى تنقضي ، وثانية تدوم ولا تنتهي ، وتبقى أبداً ولا تنقص ، وأن بين الحياتين برزخاً تقضي فيه الأرواح فترة ما بين موت الإنسان وبعثه للحياة الثانية ، وبيان ذلك : أن كون الإنسان روحاً يقتضي وحياً إلهياً ، يخبره عن الروح ، وصفاتها ، وأحوالها ، وأسباب كمالها ونقصانها ، وسعادتها وشقائها . وأن كون الإنسان جسماً يقتضي كذلك وحياً إلهياً يبين له فيه طرق المحافظة على جسمه ، ويضع له

---

(١) مسلم (١/٢٨ ، ٢٩)

القوانين ، التي تساعده على بقائه صالحاً المدة المحددة له من هذه الحياة . وأن كون العالم عالمين علوياً وسفلياً يقتضي وحياً إلهياً يخبره عن العالم العلوي ، وما فيه ، لعجز الانسان عن معرفة ذلك بوسائله الخاصة ، وإدراكه دون الوحي الإلهي ، وأن كون الحياة حياتين يقتضي كذلك وحياً إلهياً يعرف الانسان بواسطته الحياة الثانية ماذا فيها ؟ وما الذي يتم للانسان يوم يُنقل إليها ؟ إذ مثل هذا لا يدركه الانسان بواسطة عقله مجرداً عن الوحي الإلهي بحال من الأحوال .

فهذه أكثر من ضرورة قد اقتضت الوحي الإلهي ، وجعلته حاجة من حاجات الانسان التي لا يستغني عنها بحال ، فالوحي إذاً مع إمكانه هو ضرورة من ضرورات حياة الانسان ، وحاجة من حاجاته . وإنكاره والتكذيب به يُعد خطأً عقلياً كبيراً ، وعجزاً فكرياً مُشيناً ، وفساداً فطرياً خطيراً ، لأن إنكار ما هو موجود وواقع ، وجحود ما هو ضرورة للحياة ، وحاجة أكيدة لها لا تقره العقول ، ولا توافق عليه بحال أبداً .

(جـ) النبوة .

تعريف :

النبوة اسم مشتق من نبا الشيء ينبو نبوة إذا ارتفع متجاوزاً غيره ، ومنه قولهم . نبا السيف ينبو نبوة إذا ارتفع متجاوزاً مضرب الفارس ، أو هي اسم مشتق من أنبأ فلان غيره ينبئه إنباء إذا أخبره بخبر ذي شأن ، ولهذا يقال النبوءة بالهمزة بعد الواو وبها قرأ ورْش عن نافع :

﴿ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوءَةَ ﴾[1]

وقرأ حفص عن عاصم النبوة بواو مشددة . ويمكن رد القراءة الأولى إلى هذه وذلك بقلب الهمزة واواً ، وإدغامها في الواو ، وهو إعلال معروف عند النحاة .

---

(١) سورة الأنعام الآية (٨٩) .

وبناء على هذا فالنبوة الشرعية هي إعلام الله تعالى من اجتبى من الناس لرفعته ، والإعلاء من شأنه بإنبائه بالوحي الذي أراده له ، أو له ولغيره .

والأنبياء جمع نبي ويمد مهموزاً فيقال نبيء كما هي قراءة ورش عن نافع في جميع القرآن أو في غالبه ، وهو عائد إلى الاشتقاق الأول الذي تقدم في كلمة النبوة .

والنبي : ذكر من بني آدم ، أوحى الله تعالى إليه بأمر ، فإن أُمر بتبليغه إلى الناس فهو نبي ورسول ، وإن لم يؤمر بتبليغه فهو نبي غير رسول ، وبهذا يظهر الفرق بين كل من النبي والرسول ، وهو أن الرسول من أمر بإبلاغ ما أوحي إليه ، والنبي من أوحي إليه بشيء ولم يؤمر بإبلاغه لاختصاصه به دون غيره من الناس ، وعليه فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً . ومثال النبي غير الرسول يوشع بن نون صاحب موسى وفتاه عليهما السلام ، فقد نبأه الله تعالى ، وخلف موسى وهارون في بني إسرائيل وهو الذي غزا بيت المقدس وفتحها الله تعالى عليه .

ومثال النبي الرسول نبينا محمد ﷺ ، إذ هو نبي الله ورسوله إلى الناس أجمعين ، وكذا سائر الأنبياء والمرسلين المذكورين في القرآن الكريم كما سنقف عليه إن شاء الله تعالى في بحث هذا الركن من أركان عقيدة المؤمن .

د ـ مؤهلات النبوة

الذي ينبغي أن يُعلم هنا أن النبوة لا تأتي من طريق الكسب والاجتهاد أبداً ، فلو انقطع المرء إلى العبادة كلية ، وتخلى عن سائر الحظوظ النفسية ، وعن كل الرغبات ، والشهوات ، وسائر متع الحياة ، ولذائذها لم يؤهله ذلك لأن يكون نبياً أو رسولاً بحال من الأحوال . إن النبوة هبة خاصة ، يختص بها الله واهبها من أهّله لها من عباده

المؤمنين ، بيد أن الله يهيء لها بإعداد خاص عبدا من عباده ، فيحفظه من التلوث النفسي ، والضلال العقلي ، والفساد الخلقي ، والانحراف الفطري ، ويضفي عليه من الكمالات النفسية ، والعقلية ، والخلقية ما يؤهله به لمقام النبوة الشريف ، ومن المؤهلات للنبوة ، وتلقي الوحي الإلهي : -

١ - المثالية : ونعني بالمثالية ذلك الكمال البشري الذي يحوزه المرء المرشح لمقام النبوة ، والذي لا يسمو إليه سواه من المرشحين لها من سائر الناس .

٢ - شرف النسب : إن عامل الوراثة سبق أن قررناه ، ولم ننكره ، وهو أن كثيراً من الصفات ، والخصائص ، والمميزات تنتقل بهذه السنة الإلهية (عامل الوراثة) من الأصل الوالد إلى الفرع المولود ، ومن هنا كان الأنبياء ، يبعثون في أشراف أقوامهم ، والمراد من الشرف بالمعنى العام : الترفع عن الدنايا الخلقية ، والتنزه عما يخل بالمروءات ، ويهبط بالقيم البشرية ، من كل سلوك شائن منحرف ، تكرهه الطباع البشرية السليمة ، وتشمئز منه النفوس الكريمة .

٣ - عامل الزمن : إن المرادَ من عامل الزمن هو وجود مقتضيات في الزمن المعين ، تحتم بعثة نبي ؛ وإرسال رسول ، وتقتضيه ، ومن ذلك وجود فراغ روحي تسبب عنه فساد اجتماعي كبير ، فأصبحت الحال تتطلب نبياً مصلحاً ، يرد للحياة اعتبارها ، وللإنسان قيمته ، وذلك كالفراغ الذي كان قبل إرسال موسى وأخيه هارون عليهما السلام ، وكالذي كان قبل نبوة عيسى ورسالته عليه السلام وكالذي كان قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام ورسالته ، فإن الأحوال التي كانت سائدة في تلك الأزمنة الثلاثة كانت تلح مطالبة بنبوة نبي ورسالة رسول ، لإصلاح البلاد والعباد ، وكان الناس يومها يشعرون بالحاجة الملحة إلى نبوة تغير الأوضاع الفاسدة التي سادت يومئذ ، والذين قالوا

لفرعون إن زوال ملكك سيكون على يد رجل من بني إسرائيل وبنو إسرائيل يومئذ مستعبدون ، مضطهدون أكثر من غيرهم ، لاشوكة لهم ، ولا قوة ، هذا القول وإن نسب إلى الكهنة فأنه هو نفسه عامل الزمن ، وهو الشعور العام بالحاجة إلى مُصلح يصلح الأرض بعد أن أفسدها الطغيان الفرعوني ، وجبروت الكبر ، وفساد العلو في الأرض ، والإسراف في الشر .

كما أن زمن ما قبل البعثة المحمدية كان يوحي بقرب نبوة مصلحه ، بحيث تطلع كثير من أهل الكتاب لها ، بل صرحوا بقربها ، وجاهروا به ، وانتظروه ، لذا بادر كثير منهم بالإيمان بنبوة محمد ﷺ ورسالته ، ولم يترددوا في ذلك بمجرد ظهورها ، وذلك كالنجاشي من النصارى ، وعبد الله بن سلام من اليهود وغيرهما من أحبار اليهود ، ورهبان النصارى ، وذلك لما شاهدوا من الفساد العام الذي انتظم العالم بأسره وبخاصة جزيرة العرب ، وبلاد الروم ، وفارس ، وهي تمثل العالم الإنساني تقريباً[1] .

ومجمل القول أن وجود فساد عام في الأرض من شأنه أن تتطلع معه النفوس إلى مصلح يصلح الله به البلاد والعباد ، وذلك لما غرز الله تعالى في الفطر البشرية من الشعور بالرحمة الإلهية ، وقربها كلما عم الشر ، وعظم الفساد، شعور كشعور العطشان بالحاجة إلى الماء ، وتطلعه إليه .

وها هي ذي البشرية اليوم في حاجة ملحة إلى نبوة إلهية تصلح فسادها ، وتخرجها من محنتها المادية التي تعاني منها . والنبوة الإلهية

---

(١) ويشهد لهذا القرآن الكريم إذ جاء فيه قوله من سورة البقرة « ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها » فهي الاقرار بأن الأرض كانت قبل البعثة المحمدية فاسدة ، وأن الله تعالى قد أصلحها بها .

موجودة بين أيدينا ولكن الذي أعوزنا العبقري الملهم الذي يحملنا على الاهتداء بهديها ، والسير على ضوء هدايتها ، حتى ننجو من هلكتنا ؛ ونسعد في حياتنا . إن النبوة المطلوبة هي نبوة محمد ﷺ ، وهي محفوظة لم تُشب بفساد ، ولم تخلط بباطل ولم يمسها سوء ، ولأمر ما حفظها الله تعالى صالحة نقية بعد مضي زمن طويل على ظهورها ، وما يدرينا أن الله تعالى قد ادخر لنا عبداً من عباده المؤمنين ، سيظهر في يوم ما من الأيام فيملأ به الأرض طهراً وعدلاً بعد ما ملئت خبثاً وظلماً .

هـ ـ صفات الأنبياء :

إن للمؤهّلين لحمل رسالة الخالق إلى الخلق صفات كمال لا تفقد في أحدهم أبداً ، إذ هي واجبة لكل من يحمل رسالة الله تعالى إلى عباده ، ومن تلك الصفات .

١ ـ الصدق : صدق النية ، والإرادة ، صدق القول ، والعمل بحيث يستحيل أن يتصف المؤهل للنبوة بضد الصدق وهو الكذب ، والنفاق ، أو الإهمال ، واللامبالاة ، والمتتبع لسِيَر الأنبياء يعرف هذه الحقيقة ، ويؤمن بها .

٢ ـ الأمانة : الأمانة في كل شيء في القول والعمل ، في الحكم والقضاء في الحديث والنقل ، في الرواية والتبليغ ، في السر والعلن معاً ، إذ يستحيل أن يتصفوا بضدها وهي الخيانة بحال من الأحوال ، فلا خيانة فيهم أبداً ، ولو في أقل الأشياء وأتفهها ، ومتى وجد شيء من الخيانة فلا نبوة ولا أهلية لها أبداً .

٣ ـ التبليغ : والمراد منه أن يبلغ الرسول كل ما أمر بتبليغه فلا يخفي منه شيئاً ، ولا يكتمه بحال من الأحوال . فلا تحمله رغبة ولا رهبة على أن يكتم بعضاً مما أوحي إليه ، وأمر بإبلاغه إلى الناس ،

والكتمان للوحي الإلهي يتعذر على المرسلين ، ويستحيل في حقهم ، ولا يتأتى لهم ، لأن الله تعالى أهّلهم للبلاغ عنه ما أراده لعباده من الهدى والخير . فمتى وجد الكتمان بطلت النبوة ، وانتفت الرسالة .

٤ ـ الفطنة : إن الفطنة ليست الفهم والذكاء فحسب ، بل هي مع ذلك رقة الشعور ، وصفاء الذهن ، ورهافة الحس وصدقه ، وسرعة البداهة . على حد قول حسان بن ثابت في النبي محمد ﷺ :

لو لم يكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر

إذ الفطنة من المؤهلات لتلقي الوحي ، والأمانة عليه ، فالغباء، وبلادة الحس ، وبطء الإدراك تتنافى مع مقام النبوة ، وشرف التلقي عن الله تعالى ، وسوف نكشف عن هذه المؤهلات ونجلي الكثير من معانيها إن شاء الله تعالى عند الحديث عن خاتم الأنبياء محمد ﷺ ، إذ هو المقصود بهذه الدراسات كلها ، وذلك لوجود رسالته قائمة بين أيدي الناس ، ولحاجة الناس إليها .

الرسل عليهم السلام

الرسل في التاريخ :

لقد سبق أن عرفنا الرسول في اصطلاح الشرع وهو : ذكر من بني آدم أوحي إليه بشرع ، وأمر بتبليغه ، وأنه بوحي الله تعالى إليه أصبح نبياً ، وبإرساله كان رسولاً

والآن نعرض لجملة من تاريخ الرسل فنقول : أن التاريخ الذي كتبته يد البشر ومهما كانت اليد الكاتبة أمينة ، وعليمة لتاريخ ناقص عن توفية الرسل حقهم فيما وهبهم الله تعالى من الكمال ، وقاصر عن اعطاء الصورة الواضحة لرسل الله وأنبيائه الذين لم تخل من وجودهم فيها أمة من الأمم ، ومن بدء الخليقة إلى أن ختموا بإمامهم ، وسيدهم ، محمد صلى الله عليه وعليهم وسلم تسليماً كثيراً ، لقول الله تعالى : ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [1]

ومع هذا فإنه لا يوجد في مصادر التاريخ اليوم ما يعول عليه في هذا ، الشأن ، وما يعتمد عليه في هذه المهمة العظيمة ، وهي التاريخ الصادق الكامل لصفوة الخلق ، وخلاصة البشر الرسل عليهم السلام ، اللهم إلا ما كان من كتاب الله تعالى القرآن الكريم ، فإنه المصدر الوحيد الموثوق ، الذي لا يُعدَل به غيره ، ولا يلتفت معه إلى سواه ،

---

(١) سورة فاطر الآية (٢٤) .

اذ لا يعرف الأنبياء ، كمن نبأهم ، ولا يعرف المرسلين المصطفين كمن اصطفاهم وأرسلهم . فحسبنا اذاً القرآن في هذا الشأن فنكتفي بإيراد بعض ما جاء فيه عن رسل الله من حيث عددهم ، وبيان زمن وجود كل منهم ، ومعرفة أسمائهم ، ومعرفة أعاظمهم وأولي العزم منهم ، وذكر بلادهم ، وأقوامهم ، وما إلى ذلك من تاريخ حياتهم .

عدد الرسل

لم نشك أبداً في أن الرسل كانوا جماً غفيراً ، وذلك لقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[1]

وقوله :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾[2]

غير أننا لا نستطيع أن نجزم بعدد معين لا نزيد عليه ، ولا ننقص منه ، ذلك لعدم ثبوته عن الوحي الإلهي ، والخبر النبوي الصحيح ، وكل ما ورد عن النبي ﷺ في بيان عدد الأنبياء والمرسلين حديث أبي ذر الغفاري في مسند أحمد وسنده ليس بالقوي كما قيل ، ولفظه : « قلتُ : يا رسولَ اللّهِ أيّ الأنبياءِ كانَ أولُ ؟ . قالَ آدمُ ، قلتُ : يا رسولَ اللّهِ أنبيٌّ كان ؟ قَالَ نعمُ ، نبيٌّ ، مكّلمُ ، قلتُ يا رسولَ اللّهِ كمْ المرسلونَ ؟ قَالَ ثَلثمائةُ وخمسةُ عشرَ جماً غفيراً » . وفي لفظ : « كمْ وفاء عددِ الأنبياءِ ؟ قالَ مائةَ ألفِ وأربعةُ وعشرونَ ألفاً ، الرسلَ منهم ثلثمائةَ وخمسةُ عشرَ جماً غفيراً »[3] . ففي هذا الخبر المرفوع بيان أن

---

(١) سورة النحل الآية (٣٦) .

(٢) سورة فاطر الآية (٢٤) .

(٣) أحمد (١٧٨/٥ ، ١٧٩ ، ٢٦٦) .

آدم كان نبياً يكلمه الله تعالى ، ويوحي إليه ، وبيان عدد كل من الأنبياء والمرسلين . ولا يبعد أن يكون هذا الخبر صحيحاً وإن ضعف سنده وذلك لما فيه من آثار طابع النبوة وروحها .

ولما لم يجد علماء الإسلام بديلاً عنه قالوا بالمعنى الذي جاء فيه فحكموا بنبوة آدم ، وحدّثوا أن عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفاً ، وأن المرسلين منهم ثلثمائة وخمسة عشر . ولا تثريب عليهم في ذلك لعدم وجود ضرر يترتب على القول بهذا الخبر ، إذ هو كاخبار بني إسرائيل تصح روايتها للاعتبار بها ، إذ لم يوجد في الإسلام ما ينافيها ،[1]. أو يتنافى معها .

زمن وجود كل منهم

إن تاريخ الرسل عليهم السلام يبتدىء بآدم أبي البشر عليه السلام ، ووجوده في الأرض ، وتكاثر أبنائه فيها مقتض للوحي الإلهي ، إذ به تكمل آدمية الإنسان ، وبه يتم شرفه ، وعليه تزكو نفسه ، ويتأهل للسعادة في الحياتين الأولى والآخرة .

ولم يعرف الناس نبياً من أولاد آدم لصلبه اللهم إلا ما كان من شيث عليه السلام ، فإنه روي أنه كان حفيداً لآدم أبي البشر النبي عليه السلام ، وقد أنزل عليه عدة صحف ، تعرف بصحف شيث عليه السلام . وجاء بعد شيث نبي الله ورسوله إدريس عليه السلام وهو مذكور في الكتاب الكريم ، وتقول الأخبار أنه من ذرية شيث عليه السلام .

ثم جاء نوح عليه السلام وهو أول رسول كما صرح بذلك القرآن

---

(١) ولا يقولن قائل بل جاء في القرآن ما يتنافى معها وهو قوله تعالى : « منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك فاننا نقول المنفى هو أخبارهم ، وأسماؤهم وأحوالهم مع أممهم . أما خبر إجمالي كهذا فانه لا يتنافى مع الآية أبدا .

الكريم في قوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾[1]

ثم جاء بعده هود فصالح فإبراهيم ، فلوط ، فإسماعيل ، فإسحاق ، فيعقوب ، فيوسف ، ثم شعيب ، فموسى فهارون ، فداود . فسليمان . ثم إلياس فأيوب ، واليسع ، وذو الكفل ، ويونس ، وزكريا ، فيحيى ، وعيسى ، ثم خاتمهم محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين .

وهذا الترتيب الزمني صحيح إلى حد ما ، ولولا الخفاء في زمن كل من يونس ، وأيوب ، وذي الكفل ، واليسع لكان إلى الصحة أقرب منه إلى غيرها . والحقيقة في هذا أنه من باب علم لا ينفع ، وجهالة لا تضر ، إذ المطلوب هو الإيمان بالرسل ، وتوقيرهم ، وتعزيزهم ، واتباعهم ، والاقتداء بهديهم في أي زمان كانوا ، وفي أي أرض وجدوا .

ديار الرسل :

إن عامة من ذُكر من الرسل في القرآن الكريم كانت ديارهم في الشرق الأوسط ، منها بُعثوا ، وفيها عاشوا مع أقوامهم ، وفيها ماتوا ودفنوا ، فإبراهيم عليه السلام بعث بالعراق ، وهاجر منها إلى أرض كنعان ، فتنقل بين الحجاز والشام وأرض المعاد حتى توفاه الله تعالى ، وإسماعيل عليه السلام ولد بالشام وعاش بمكة المكرمة لم يفارقها ، وفيها بعث ، وبين القبائل العربية دعا إلى الله حتى توفاه الله . وإسحاق كان بأرض المعاد وكذا يعقوب ولده إلا أن الأخير هاجر إلى أرض مصر ، فعاش بها مع أولاده ، ولعله توفي بها وأرسل من بعده يوسف ،

---

(١) سورة النساء الآية (١٦٣) .

فعاش بمصر حتى هلك بها ، ثم أرسل موسى وهارون ، وعاشا بين مصر وسيناء إلى أن توفاهما الله تعالى ، وجاء داود وسليمان فكانا في أرض القدس ، وتوالت أنبياء بني إسرائيل على أرض الشام ، وكان آخرهم عيسى عليه السلام فولد في بيت لحم ، وعاش بأرض المقدس حتى رفعه الله تعالى إليه . ثم بُعث خاتم الأنبياء محمد ﷺ بمكة ، فولد بها وعاش إلى أن هاجر إلى المدينة من أرض الحجاز ، فعاش بها عشر سنوات ، وبها توفي ، وبها قبره الشريف .

أما نوح عليه السلام فلا يبعد أنه كان كذلك بين الشرقين الأوسط والأدنى ، وأما هود ، وصالح ، وشعيب فقد كانوا بأرض العرب ، هود في الجنوب ما بين حضرموت والشحر ، وصالح بالشمال ما بين الحجاز والشام ، وشعيب بغرب الجزيرة ، جنوب الأردن الشرقي بأرض مدين ، ولوط عليه السلام كان قد هاجر مع عمه إبراهيم الخليل من أرض بابل بالعراق ، فبعثه الله تعالى إلى المؤتفكات ، وكانت خمس مدن كبيرة أشهرها سَدوم ، وعَمورة فأهلك الله أهل تلك البلاد لفسادهم وخبثهم ، ونجى لوطاً ومن معه من المؤمنين ، فارتفعوا إلى أرض الشام وأقاموا بها .

أولو العزم من الرسل :

مما يعتبر جزءاً من العقيدة الإسلامية معرفة أولي العزم من الرسل عليهم السلام ؛ إذ جاء في القرآن قوله :

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[1]

فتعينت معرفتهم لذلك ، كما جاء في القرآن بيان عددهم ، وأسمائهم معاً ، وذلك في آية من سورة الأحزاب وهي قوله تعالى :

---

(١) سورة الأحقاف الآية (٣٥)

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾[1]

فالكاف من قوله ومنك حرف خطاب تعني محمداً ﷺ ، فهو مقدم في اللفظ الفضل ، ويأتي أربعتهم بعده وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، مرتبون في الفضل ، والزمن ، فنوح أولهم وعيسى بن مريم آخرهم فصلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

---

(١) الآية (٧) .

وجوب الإيمان بالرسل عليهم السلام

بعد أن عرفنا إمكان الوحي ؛ وعرفنا الوحي . وطرقه الخاصة به ، وعرفنا .ضرورته ، وحاجة الناس إليه ، كما عرفنا النبوة ، ومؤهلاتها وعرفنا صفات الأنبياء والرسل ، وتاريخهم العام ، نذكر إتماماً للبحث في هذا المعتقد أن الإيمان بالرسل إجمالاً وتفصيلاً جزء من عقيدة المؤمن لا يتجزأ ، بحيث لا تصح عقيدة المؤمن ، ولا تكمل إلا به .

ومعنى الإيمان بالرسل إجمالاً أن يؤمن المرء بكل ما نبأ الله من نبي وبكل ما أرسل من رسول ممن عرف نبوتهم ورسالاتهم ، وممن لم يعرف ، فيؤمن إيماناً إجمالياً .

ومعنى الإيمان بالرسل تفصيلاً : أن يؤمن المرء بكل نبي ورسول عرف نبوته ورسالته عن طريق الوحي إيماناً تفصيلياً ، فمن عرفهم من طريق الوحي الإلهي بأسمائهم آمن بهم واحداً واحداً على التفصيل ، ولا يؤمن برسالة بعض ويكفر برسالة بعض آخر ، إذ الكفر بواحد منهم يعتبر كفراً بجميعهم . وقد تقدم آنفاً بيان الرسل الذين ذكروا في القرآن الكريم . وهم خمسة وعشرون نبياً ورسولاً ، منهم ثمانية عشر قد ذكروا في آية من سورة الأنعام

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ

إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[١]

وذكر السبعة الباقون مفرقين في عدة سور من القرآن الكريم وَهم آدمُ ، وإدرِيسُ ، وَهُودٌ ، وَصَالِحٌ ، وَشُعيبٌ ، وذو الكفلِ ، وَخاتِمَهمْ محمدٌ صلى الله عليه وسلم »[٢].

والايمان بالرسل ضروري ، لا يتوقف على نظر ولا استدلال بالنسبة إلى المؤمنين بالله تعالى ، لأن الله تعالى هو الذي نبأهم ، وأرسلهم ، وأخبر عنهم ، وأمر بالايمان بهم ، وتصديقهم ، والايمان بالله تعالى مستلزم للايمان بكل ما أمر الله بالايمان به من الملائكة ، والكتب ، والرسل ، والبعث ، والخبراء ، والقدر ، والقضاء ، وبكل غيب أمر الله تعالى بالايمان به فيكفي المؤمن دليلاً أن يبلغه خبر الله ، وأمره بالإيمان بالرسل كقوله تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ [٣]

---

(١) الآيات (٨٣ ـ ٨٦) .

(٢) آدم في (٣٣) من آل عمران ؛ وإدريس في (٥٦) من مريم ؛ وهود في (٥٠) من سورة هود ؛ وصالح في (٧٣) من الأعراف ؛ وشعيب في (٨٥) من الأعراف ؛ وذو الكفل في (٨٥) من الأنبياء ؛ ومحمد في (٤٠) من الأحزاب .

(٣) سورة النساء الآية (١٣٦) .

وقوله تعالى :

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[1]

فلهاتين الآيتين وغيرهما يؤمن المؤمن برسل الله تعالى ، ولا يفرق في الإيمان بهم بين رسول ورسول منهم ، كما فعل اليهود والنصارى ، حيث آمن اليهود بأنبياء بني إسرائيل وكفروا بعيسى بن مريم ومحمد ﷺ ، ولا كما آمن النصارى بكافة الأنبياء ، وكفروا بخاتمهم وإمامهم محمد ﷺ .

وقد كفّر الله ، وتوعد بالعذاب المهين من يؤمن ببعض الرسل ، ويكفر ببعض في قوله من سورة النساء :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[2]

هذا ونظراً لنسخ جميع شرائع الرسل عليهم السلام بشريعة خاتمهم محمد ﷺ ، فإنه لم يبق هناك ما يلزم المؤمن إزاء أولئك الرسل بسوى الإيمان بهم واعتقاد عصمتهم ، وكمالهم ، ووجوب تعظيمهم ، واحترامهم .

ولهذا نكتفي بما سبق من البحث في اعتقاد المؤمن بالرسل عليهم السلام لنخص بالبحث النبي الخاتم ، صاحب الشريعة المتممة لسائر الشرائع ، والعامة لكل الناس ، وهو النبي الأمي محمد رسول الله ﷺ .

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٨٥) .

(٢) الآيتان (١٥٠ ، ١٥١) .



التعريف به صلى الله عليه وسلم :

نسبه : هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصي بن كلاب بن كعب بن مرة بن لؤي بن غالب بن فِهر ابن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ابن معد بن عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام .

نشأته :

ولد صلى الله عليه وسلم بمكة بدار أبي يوسف ، ولدته آمنة بنت وهب بن زُهرة بن عبد مناف بن قصي بن كلاب . ولدته صبيحة يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول عام الفيل ، الموافق لأغسطس عام (٥٧٠) ميلادية ومات والده عبد الله وهو حمل في بطن أمه ، وكفله جده عبد المطلب ، وماتت والدته آمنة وهو ابن ست سنين ، وحضنته أم أيمن جارية أبيه . ومات جده فكفله عمه أبو طالب .

زواجه وأولاده :

ولما بلغ الخامسة والعشرين من عمره صلى الله عليه وسلم تزوج بخديجة بنت خويلد ، إحدى شريفات قريش ، فأنجب منها ولدين هما القاسم وعبدالله [١] ماتا صغيرين ، وأربع بنات هن فاطمة الزهراء

---

(١) ومن أصحاب السير من يزيد الطيب فيجعل الأبناء ثلاثة والله اعلم بالحقيقة .

وزينب ورقية ، وأم كلثوم رضي الله عنهم ، ولم يزاول من الأعمال صلى الله عليه وسلم في هذه الفترة من عمره سوى رعي الغنم ، إذ قال صلى الله عليه وسلم «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبياً إلاَّ وَرَعَى الغَنَمَ ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ : وَأَنْتَ ؟ فَقَالَ : نَعَم ، كُنْتُ أرعَاهَا على قَرَارِيطَ لأَهلِ مَكَةَ»[1] والتجارة حيث خرج مع عمه إلى الشام مرة واحدة وخرج بعد ذلك في تجارة لخديجة فربح لها ربحاً عظيماً .

وكان صلى الله عليه وسلم في هذه المدة من حياته يتمتع بأفضل الأخلاق ، وأطيب الشمائل ، فلم يُؤثر عليه ما يخل بمكارم الأخلاق قط ، فلم يأت ولا مرة ما كان يأتيه بنو قومه أبداً ، فلم يسجد لصنم ، ولم يشرب خمراً ، ولم يلعب قماراً ولا ميسراً ، ولم يستقسم بزَلم ولم يظلم أحداً في عِرض ، ولا مال ، ولا دم ، لقد كان بشهادة أعدائه وخصومه مثالياً في أخلاقه ، وناهيك بإجماع قريش على إضفاء لقب الأمين عليه ، هذا اللقب الذي لم يظفر به أحد في ديارها أبداً ، لقد كان صلى الله عليه وسلم أميناً في سره ، وفي علنه ، أميناً في قوله وفي عمله ، أميناً في غيبه ، ومشهده ، أميناً في كل شيء ، وعلى كل شيء .

وإذا كانت قريش قد اضطرت إلى منحه ذلك انلقب السامي ، الرفيع ، والكريم ، لقب الأمين ، فإن الله تعالى قد أقسم له في مطلع نبوته على أنه على خُلق عظيم ، وهي شهادة والله لا تعادلها شهادة أبداً ، إذ قال من سورة القلم :

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]

---

(١) البخاري (٣/١٠٩ ، ١١٠) كتاب الإجارة ، باب رعي الغنم على قراريط .
(٢) الآيات (١ ـ ٤) .

عناية الله به :

لم يكن الكمال الذي عاش عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف به قبل نبوته ، لم يكن نتيجة أم أو أب ، أو أثر تعليم أستاذ ، أو مرب قط ، وإنما كان أثر عناية الله تعالى له ، فالله الذي خلقه لأن يكون واسطة بينه وبين عباده ، ليبلغهم شرعه ، ودينه ، هو الذي حماه من كل ما يلوث نفسه ، أو يعكر صفاء روحه ، إعداداً له لحمل رسالته إلى خلقه ، وحمْل مثل تلك الرسالة يتطلب كمالاً نفسياً يكون صاحبه فيه مثلاً أعلى لغيره من سائر الناس ، وكذلك كان رسول الله ﷺ ، ولنستشهد على عناية الله للرسول ، وحمايته تعالى له من التلوث النفسي منذ ولادته بشاهدين اثنين نستغني بهما عن عشرات الشواهد والأمثلة وهما :

١ ـ ما روى البيهقي عن محمد بن إسحق عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : « سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقولُ : ما هَمَمتُ بِشيءٍ مِمَا كَانَ أهلُ الجاهليةِ يَهمُونَ بِهِ إلا لَيلتينِ ، كِلتَاهُمَا عَصَمَني اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ فِيهمَا : قُلتُ لَيلةً لِبعضِ فِتيانِ مَكَةَ وَنَحنُ في رِعاءِ غَنَمِ أهلِها ، فَقُلتُ لصاحبي : أبصرْ لي غَنَمي حتى أدْخُلَ مَكَةَ أَسْمَرُ فِيهَا كَمَا يَسْمَرُ الفتيانُ : فَقَالَ : بَلىٰ ، قَالَ : فَدَخَلتُ حتى جِئتُ أولَ دارٍ مِنْ دُورِ مَكَةَ ، فَسَمِعتُ عَزْفاً بالغرابيلِ ، والمزاميرِ ، فَقُلتُ : مَا هَذا ؟ قَالوا . تَزوجَ فلانٌ فلانةً فَجلستُ أَنْظُرُ ، وَضَرَبَ اللَّهُ عَلى أُذُني ، فَواللَّهِ ما أيقَظَني إلاَّ مسُّ الشَّمسِ فَرَجعتُ إلى صَاحبي ، فَقَالَ : مَاذا فَعلتَ ؟ فَقُلتُ : ما فَعلتُ شيئاً ، ثمَّ أَخبرتُهُ بالذي رَأيتُ (وَذَكَرَ أنه حَصَلَ لَهُ مرةً أُخرى فَتم لَهُ مِثلُ الذي حَصَلَ في الأُولى) ثُمَّ قَالَ : فَواللَّهِ ما

هَممتُ ، ولا عُدتُ بَعدَهُمَا لشيءٍ مِنْ ذَلِكَ حتى أكْرَمَنِي اللَّهُ عَزّ وجلَ بنبوتِهِ »[1]

٢ ـ ما روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ كانَ يَنْقُلُ مَعَهُم الحجارةَ لِلكَعبَة (لمَا أرَادُوا تَجْدِيْدَ بِنَائِهَا) وعَليهِ إزَارُه ، فَقَالَ لَهُ العباسُ عَمَّهُ : يا ابنُ أخي لَو حَلَلتَ إزارك فَجَعْلتَهُ على مَنكبيكَ دُونَ الحجارةِ ، قَالَ : « فَحَله فَجعلَه على مَنْكَبيهِ ، فَسَقَطَ مغشياً عليه ، فما رُؤي بَعْدَ ذَلِكَ عَرياناً ﷺ »[2].

نبوته وبعثته :

وعلى رأس الأربعين كما هي سُنة الله في الأنبياء نبىء محمد ﷺ إذْ جَاءَهُ الحقُ وَهُو بِغَارِ حِرَاءٍ ، بَعدَ أنْ كَانَ قَد حُببَ إليهِ الخَلاءُ فِيهِ مُدة شهرِ رَمَضَان ، فَجَاءَهُ جِبريلُ وَهُوْ بِهِ فَضَمَهُ إلى صَدرِهِ وَأرْسَلهُ ثلاثاً وَقَالَ لَهُ : إقرأْ . فَقَالَ : مَا أنَا بِقاريء وفي الرَابِعةِ قَالَ :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ﴾[3]

فَذَهَبَ بِهَا ﷺ إلى خَدِيجة زَوجُهِ الكَريمة ترجفُ بَوادِره ، وَهُوَ خَائفٌ على نَفْسِهِ ، وهي تَقولُ لَهُ : كَلا ، واللّهِ مَا يُخزِيكَ اللَّهُ أبَدَاً إنكِ

---

(١) ذكر هذه الحادثة ابن كثير في البداية والنهاية ، وقال هذا حديث غريب جداً ، وقد يكون عن علي نفسه ، ويكون قوله في آخره « حتى أكرمني الله بنبوته » مقحماً ، والله أعلم . أ . هـ ـ (٢٨٨/٢) الطبعة الأولى ١٩٦٦ أشرف عليها مكتبة المعارف ومكتبة النصر .

(٢) اللؤلؤ والمرجان (٧٢/١) البخاري (٩٧/١) ومسلم (١٨٤/١) وما بين القوسين ليس من الحديث .

(٣) سورة العلق الآيات (١ ـ ٣) .

لتَصل الرَحَم ، وَتَحْملُ الكلُ ، وتُكسبُ المَعدُوم ، وتقَرَى الضيفُ ، وَتعينُ على نوائِب الحقِ ، وانطَلَقَتْ بِهِ رضي اللَّهُ عنها إلى وُرقِة بن نَوَفلِ بنِ أسدِ ابن عمِها ، وكَانَ امرءاً قَدْ تَنصر في الجاهليةِ ، وكَانَ يكتُبُ الكتابَالعبرَاني ، فَيكتبُ مِنَ الإنجيلِ ما شاءَ اللَّهُ أنْ يكتبُ ، وكان شيخاً كبيراً قَدْ عَمِي ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجةُ : يا ابنُ عَم اسمعْ مِنْ ابنِ أخيكَ ، فقَالَ لَهُ وُرْقةِ : يا ابنَ أخي مَاذَا تَرَى ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ خبَرَ مَا رَأى فَقَالَ لَهُ وُرقة ، هَذا النَّاموس الذي نَزَّلَ اللَّهُ على موسى ، ياليتني فيها جِذَعاً[1] ، يا ليتني أَكُونَ حياً ، إِذْ يُخرجُكَ قَومُكُ ، فَقَالَ النبيَ ﷺ : أو مُخرجِي هُمْ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، لم يأتِ رَجلٌ قَطْ بِمثلِ مَا جِئْتَ بِهِ إلا عُودي ، وإنْ يُدركَني يومُكَ أنْصرُكَ نَصراً مُؤزَراً ، ثُمَّ لَمْ ينشب وُرَقة أنْ توفي وَفتر الوحي »[2].

وبعد فترة فتر فيها الوحي ، تبدّى له جبريل في صورته الملائكية وقد سد الأفق ، وله ستمائة جناح ، ثم أخذ يدنو منه ويتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله ما أوحى !! ونزل عليه قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[3] فأرسل بها ﷺ .

---

(١) جذعا منصوب على أنه خبر كان المحذوفة والتقدير ليتني أكون فيها جذعا ، أو الخبر متعلق بالجار والمجرور وجذعا منصوب على الحال .

(٢) لم ينشب أي لم يتعلق بأي عمل من الأعمل ، كناية عن كونه مات بعد قليل ولم تطل حياته ، والحديث بطوله أخرجه البخاري في أول كتابه (١/٥،٦) ومسلم (١/٩٧ ، ٩٨) واللؤلؤ والمرجان (١/٣٢) .

(٣) سورة المدثر الآيات (١ ـ ٥) ، والحديث رواه البخاري ومسلم إلا أنه ليس فيهما في هذا الحديث أن له ستمائة جناح وأنه أخذ يدنو منه ويتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله ما أوحى راجع اللؤلؤ والمرجان (١/٣٤) ومسلم (١/٩٨ ، ٩٩) . والبخاري (١/٦) .

بدء الدعوة :

وبدأ ﷺ دعوته إلى الإيمان بالله ورسوله ، وكتابه ، ولقائه وتوحيده تعالى في عبادته ، بدأها فردية ، وتلقى هو ومن آمن به صنوفاً من الأذى ، وأنواعاً من الاضطهاد مما اضطر بعض أصحابه إلى الهجرة إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة النبوية . كما حُوصر هو وأسرته الشريفة والمؤمنون من بني هاشم ، حوصروا في شِعْب أبي طالب ثلاث سنوات ، جاعوا فيها جوعاً أكلوا معه ورق الشجر ، مع كامل الأسف .

وفي هذه الأثناء توفيت أم المؤمنين خديجة ، زوجه المفضلة رضي الله عنها ، كما توفي عمه أبو طالب الذي لم يأل جهداً يدفع عن رسول الله ﷺ ، ويحميه من كيد أعدائه له ، فكان ذلك العام يدعى عام الحزن كما قيل .

وفي نهاية السنة العاشرة من بعثته ﷺ ومطلع الحادية عشرة عُرج به ﷺ إلى الملكوت الأعلى حتى بلغ سدرة المنتهى عند جنة المأوى ، وتجاوزها إلى مقام أسمى سمع عنده صريف الأقلام ، وناجاه ربه ، وناداه ، وفرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس[1]، وفي هذه الأثناء عقد ﷺ اتفاقية مع بعض رجالات الأوس والخزرج تنص على أن يحمي أولئك الرجال من يهاجر إليهم من المؤمنين مما يحمون به أنفسهم وأموالهم ، وأن لهم عند الله تعالى الجنة ، وسميت هذه الاتفاقية ببيعة العقبة الأولى ، وتمت عندها أخرى مثلها فسميت بيعة العقبة الثانية[2]، وهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة بعد أن كثر بها الإسلام والمسلمون ، وكانت قبل ذلك تسمى (يثرب) فصارت بحلول النبي فيها تسمى المدينة النبوية ، والعامة تسميها المدينة المنورة ، وفيها شُرعت كل

---

(١) حديث الإسراء ثابت في الصحيحين ، اللؤلؤ والمرجان (١/٣٥) .

(٢) راجع أحاديث العقبة في البخاري (٥/٦٩ ، ٧٠) .

الأحكام والقوانين الجنائية والمدنية ، وبها تكونت الدولة الإسلامية الأولى في تاريخ الاسلام . ومن المدينة انطلق المسلمون ينشرون راية العدل والحق في ربوع الأرض ، ويخرجون الناس من ظلمات الكفر إلى أنوار الإيمان ، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جُور السلطان إلى عدل الإسلام كما قال ربعي ابن حراش لكسرى ملك الفرس . ولم يُقبض رسول الله ﷺ حتى انتظم الإسلام كامل شبه جزيرة العرب ، وحتى تم التشريع الإسلامي أوفر وأقوى ما يكون ، ونزل في ذلك قوله تعالى من سورة المائدة :

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾(١)

وقُبض رسول الله ﷺ يوم الاثنين من شهر ربيع الأول بعد ما مضى عشر سنوات وشهران وبعض الليالي على هجرته إلى المدينة ، والتي كانت مبدأ التاريخ الإسلامي ، ولم يلتحق ﷺ بالرفيق الأعلى حتى لم يترك خيراً قط إلا دل أمة الإسلام عليه ، ولا شراً إلا حذرها منه فصلوات الله عليه إلى يوم أن نسعد برؤيته وشفاعته .

هذه نظرة سريعة ألقيناها متبركين بها على تاريخ محمد رسول الله ﷺ بمناسبة الحديث عن نبوته ، فكانت مثل ترجمة قصيرة نقدمها بين يدي بحث دلائل نبوته ، وعموم رسالته ، وتقرير أن سعادة الانسان في الدنيا والآخرة رهن ذلك ومتوقفة عليه .

مؤهلاته للنبوة :

لقد سبق أن ذكرنا أن من مؤهلاته للنبوة العامل الزمني ، والمثالية ، وشرف النسب فلننظر الآن فيما إذا كانت هذه العوامل الثلاثة

---

(١) الآية (٣) .

متوفرة للنبي العربي ﷺ أم لا ؟ ولنبدأ بالعامل الزمني فنقول :

لقد أجمع من أرّخوا للدولتين الكبيرتين الفارسية والرومانية قبل البعثة المحمدية ، أجمعوا على أن فساداً عاماً قد عم تينك الدولتين العظيمتين فساداً في الدين ، فساداً في الأخلاق ، فساداً في الحكم ، فسرى ضعف هائل في كل أجهزة تينك الدولتين ، وخلايا تينك الأمتين الكبيرتين . هذا في دولة الفرس والروم الحضاريتين أما في غيرهما فإن الأحوال أسوأ ، والأمور أردأ ، والظلام في كل جوانب الحياة أحلك ، ففي شبه جزيرة العرب أصنام تُعبد ، وخمور تشرب ، وبنات توأد ، كهانات حلت محل النبوات ، وأعراف قبلية سائدة سيادة الشرائع الإلهية ، من له يُعطى ويزاد ، ومن ليس له يؤخذ منه ، وليس حال غيرهم خيراً من حالهم ، فالعالم يومئذ كله يعيش في ظلام دامس من الظلم والشر والفساد ، وهي حال تدعو بل تصرخ بذي نبوة إلهية ، ورسالة ربانية ، يصلح الله به وعلى يديه فساد البلاد والعباد .

وحقاً فقد تطلع الناس إلى صاحب هذه النبوة ، وحامل تلك الرسالة ، ففي الجزيرة العربية إرهاصات كثيرة ، وبين أهل الكتاب تنبؤات أكثر ، همسات خفية في كل واد ، وممنية بقرب نبوة سماوية . كل الدلائل تشيرإلى أن هذه النبوة ستكون هذه المرة في الأمة العربية ، قد يلوح سناها بين جبال فاران (مكة) وتطلع شمس ضحاها في يثرب ذات النخيل والظل الظليل ، إنها مهاجر النبي الذي قد أظل زمانه .

وسابق بعض أهل الكتاب الأحداث ، فهاجروا إلى الحجاز ، ونزلوا يثرب نفسها ، وتأكدت التنبؤات عند بعضهم ، حتى استفتحوا على العرب جيرانهم بأن النبي المنتظر سيبعث فينا ، ونقاتلكم معه .

وبالجملة فإن تلك الفترة وهي السبعون سنة بعد الأربعمائة من ولادة السيد المسيح عليه السلام ، كانت فترة ارهاصات كثيرة ،

وتطلعات كبيرة ، وتنبؤات لا حد لها ، وفي أنحاء شتى من العالم إلى نبوة يتغير بها مجرى التاريخ الانساني ويوقف بها تيار الفساد العام بين البلاد والعباد ، ومن يا تُرى يكون المؤهل لهذه النبوة ؟ .

إنه كان محمداً بن عبد الله ، دعوة إبراهيم القائل :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١)

وبشارة عيسى القائل :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (٢)

إنه كان محمداً النبي الأمي الذي نادى قائلاً :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (٣)

فمرحباً بوفادته على الدنيا ، ومرحباً بقيادته للإنسانية ومرحباً به وهو الرحمة الإلهية ، ومن العامل الزمني إلى المثالية ، فلنلق نظرة سريعة على المثالية المحمدية التي أهلته بإذن الله لقيادة البشرية ، وهيئته لتلقي الوحي من السماء ، ليكون رسول الله إلى الناس كافة . فلننظر إليها في الجانب الخلقي الذاتي ، ثم في الجانب الخُلقي النفساني . إن أصحاب السير وجميع من كتب في السيرة المحمدية مجمعون على أن محمداً بن عبد الله والنبي الأمي كان أكمل الناس ذاتاً ، وأجملهم وجهاً ، وأحسنهم قدا واعتدالاً ، ولنترك الرواة الصادقين يصفون لنا

---

(١) سورة البقرة الآية (١٢٩) .

(٢) سورة الصف الآية (٦) .

(٣) سورة الأعراف الآية (١٥٨) .

الذات المحمدية كما رأوها ، وعرفوها قال البراء في رواية مسلم « كَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجُلاً مَربُوعاً ، بَعِيْدَ مَا بَينَ المَنكِبَينِ عَظِيمُ الجُمة إلى شَحمةَ أُذُنيهِ ، عَليهِ حُلَةٌ حمراءُ مَا رَأَيتُ شَيئاً قطُ أَحْسنُ مِنْهُ ﷺ »[1] وقال أنس في رواية مسلم « كَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَزْهرُ اللَّونِ ، كَأَنْ عِرَقهُ اللؤلؤ إِذَا مَشَىٰ تكَفأ ، وَلاَ مَسستُ ديبَاجة ولا حريرة ألينُ مِنْ كَفي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ولاَ شممتُ مِسكةً ولا عنبرَة أطيبَ مِنْ رَائحةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم »[2] ، ولنصغ أخيراً إلى ما قاله الحسن بن علي رضي الله عنهما حيث قال : « سألت هند بن أبي هالة عن حِلية رسول الله ﷺ وكان وصّافاً ، وأنا أرجو أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به ، فقال : كان رسول الله ﷺ فخماً مفخما ، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ، أطول من المربوع (بين القصر والطول) وأقصر من المشذب (البائن الطول) عظيم الهامة ، رَجل الشعر (ليس بسبط ولا جَعد) إن انفرقت عقيقته فرقها ، وإلا فلا يجاوز شعره مشحمة أذنيه إذا هو وفّره ، أزهر اللون ، واسع الجبين ، أزج الحواجب[3] سوابغ من غير قَرَن بينهما ، عرق يُدره الغضب ، أقنى العرنين[4] ، له نور يعلوه ، يحسبه من لم يتأمله أشم ، كث اللحية ، أدعج ، سهل الخدين ، ضليع الفم ، أشنب[5] ، مفلّج الأسنان ، دقيق المسربة[6] ، كأن عنقه جيد دُمية في صفاء الفضة ، معتدل الخلق ، بادنا (ذو لحم) متماسكاً سواء البطن والصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس

---

(١) الحديث متفق عليه واللفظ لمسلم اللؤلؤ والمرجان (١٠٧/٣) ومسلم (٨٣/٧) ، والبخاري (٢٢٨/٤) .

(٢) مسلم (٨١/٧) .

(٣) الأزج : الحاجب المقوس الطويل الكثير الشعر .

(٤) القنا : ارتفاع الأنف ، واحديداب وسطه ، ودقة أرنبته .

(٥) الشنب : رقة الأسنان ، ورونقها ، وحسنها .

(٦) المسربة : الشعر الذي بين الصدر والسرة .

(رؤوس العظام) أنور المتجرد ، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط ، عاري الثديين ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر ، طويل الزندين ، رحب الراحة ، شثن الكفين والقدمين ، سائل الأطراف ، عبل الذراعين[1] ، خمصان الأخمصين ، مسيح القدمين ، ينبو عنهما الماء ، إذا زال زال تقلعاً ، ويخطو تكفؤاً ، ويمشي هوْنا ، ذريع المشية ، إذا مشى كأنما ينحط من ضبب (علو) ارتقاه ، وإذا التفت التفت جميعاً ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة ، يسوس أصحابه ، ويبدأ من لقيه بالسلام[2].

هذا الجانب الخَلقي الذاتي هو محض عطاء الله تعالى وهبته ، ولا كسب فيه للإنسان ، فإن النبي الأمي محمداً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم قد أعطي منه ما لم يُعط غيره ، حتى كان في جماله الذاتي مثلاً عالياً لا يسامى فيه ، ولا يُطاول أبداً . ولننظر إلى مثاليته ﷺ في الجانب الخُلقي النفساني ، متبعين عناصر الكمال فيه عنصراً بعد آخر فنقول ـ ولسنا بموفينه ﷺ كماله مهما حدثنا وكتبنا .

رجاحة عقله :

نكتفي من عشرات الأمثلة الدالة على ما كان للنبي محمد ﷺ من كمال العقل ورجاحته بأربعة أمثلة ، اثنين منها قبل نبوته واثنين بعدها فأما اللذان قبل نبوته ﷺ فهما :

١ ـ حضوره حلف الفضول وقوله فيه : « لَقَد حضرت حِلفَ الفُضُولِ بِدَارِ عَبدِ اللهِ بِنْ جدعان ، وَمَا أُحَبَ أَنْ لي بحِلفِ حضرتُهُ في

---

(١) العبل : الغلظ .

(٢) محمد المثل الكامل (١١/١٠) .

دَارِ عَبدُ اللَّهِ ابنِ جدعان حُمر النعم ، وَلَو دُعِيتُ بِهِ لأَجَبْتُ »[1].

فهذا الحلف تم على أساس نُصرة المظلوم ، والوقوف إلى جنبه حتى يؤخذ له الحق ممن ظلمه ، فحضور النبي ﷺ له تأييداً للحق ، واغتباطه به حتى قال : « ما أحب أن لي به حُمر النعم » دال على كمال عقله ورجحانه بدون شك .

٢ ـ حكمه بأن يوضع الحجر الأسود في ثوب ، ثم تأخذ بأطرافه القبائل القرشية ، حتى إذا بلغ الحجر مكانه من جدار البيت تناوله هو ووضعه في مكانه . فقضى بذلك على خصومة من أشد الخصومات ، وحقن دماء كانت قد تُراق لولا ذلك التصرف الحكيم ، الذي إن دل على شيء فإنه يدل على كمال العقل المحمدي ورجاحته ، بما لا مجال للشك فيه .

وأما المثلان اللذان في عهد نبوته فهما :

١ ـ تنازله لقريش على كتابة لفظة الرحمن الرحيم ، وعلى لفظ رسول الله في كتابة وثيقة المعاهدة التي أبرمها مع قريش عام صلح الحديبية ، إذ أمر الكاتب وهو علي بن أبي طالب أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال ممثل قريش وهو سُهيل بن عمرو : أمسك لا أعرف الرحمن الرحيم ، بل أكتب باسمك اللهم ، فتنازل عن ذلك وكتب باسمك اللهم . ولما قال للكاتب أكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، قال ممثل قريش : أمسك لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن أكتب هذا ما صالح عليه محمد ابن عبد الله ، فتنازل عن ذلك وكتب »[2] في حين أن أصحابه وعلى رأسهم عمر وعلي قد كرهوا ذلك

---

(١) سيرة ابن هشام (١/١٤٣) بمعناه ، وذكر الحلف أحمد رحمه الله في مسنده (١/١٩٠ ، ١٩٣) وابن سعد في طبقاته الجزء (١) القسم (١) ص (٨٢) .

(٢) متفق عليه بذكر (محمد رسول الله) دون بسم الله الرحمن الرحيم ، اللؤلؤ ـ

وأبوا أن يفعلوه، ورأوه أنه إعطاء للدنية في دينهم[1]، غير أن النتائج الطيبة التي أعقبت ذلك التنازل أدلت على قصر نظر القوم. وبعد نظر الرسول محمد ﷺ، وكمال عقله ورجاحته، الأمر الذي كان به مضرب المثل في كمال العقل، وحسن السياسة، والتدبير.

٢ ـ لما دخل ﷺ مكة يوم الفتح منتصراً ووجد رجالات قريش قد تجمعوا حول الكعبة ينظرون حكم الفاتح المنتصر فيهم: ناداهم ﷺ قائلاً: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَا تَرَوْنَ أني فَاعِلٌ بِكُمْ؟ قَالُوا: خَيراً أَخٌ كَرِيمٌ وابنُ أَخٍ كَرِيمٍ. قَالَ: إذهَبُوا فَأَنْتُم الطُلقاء[2]».

إن هذا الموقف المثالي في تاريخ العظماء يُنم قطعاً على ما أوتي رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم من رجحان العقل وكماله، ما أصبح به مثلاً عالياً في هذا الشأن.

شجاعته:

إن شجاعة قلب النبي محمد ﷺ لم تكن أقل من رجاحة عقله، إنه قد بلغ فيها بحق المثالية التي لا توصف، وناهيك في إثبات هذا الخلق العظيم أن يقول أفذاذ الأبطال كعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وخالد بن الوليد، وغيرهم ممن عُرفوا بالبطولات النادرة، والشجاعات الفذة أن يقولوا: «كُنَّا إِذَا حَمِيَ الوَطِيسُ، واشتدَ البأسُ نلوذُ برسولِ اللَّهِ ﷺ نَتَقي بِهِ»[3] لقد انهزم الجيش الإسلامي يوم حُنين

= والمرجان (٢/ ٢٢٤) ورواه مسلم بقريب من هذا اللفظ المذكور في الكتاب في (١٧٥/٦).

(١) جاء هذا في حديث متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان (٢/ ٢٢٤)، والبخاري (٣/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ومسلم (٥/ ١٧٣ ـ ١٧٥).

(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٤١).

(٣) روى مسلم عن البراء قوله «كنا والله إذا احمر البأس نتقي به» (٥/ ١٦٨)

شر هزيمَة ، وثَبت رسول الله ﷺ في الميدان وحده ، حتى ثاب إليه أصحابه ، وقاتل بهم حتى انتصر نصراً ساحقاً على أعدائه ، وأمسوا في قبضته ، وتحت سلطانه ، ولهذا الموقف نظيره في أحد أيضاً ، وهذا مصداق شهادة القرآن له بالشجاعة في قوله تعالى :

﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَ ﴾[1]

إن شخصاً يكلف بالقتال وحده ، وقتال مَن ؟ إنه قتال كل أهل الكفر على الأرض وما على الأرض يومها إلا كافر باستثناء تلك الحفنة من أصحابه المؤمنين لشخص هو أشجع من طلعت عليه الشمس وغربت في دنيا الناس ، ذلك هو محمد رسول الله ﷺ .

سياسته :

إنسياسة النبي محمد ﷺ وفي كلا مجاليها المدني والعسكري ، أو السلمي والحربي كانت وبدون شك ، ولا مبالغة مضرب المثل ، وكانت على نحو لم يطمع في الوصول إلى مثله أحد من الناس . ومهما أوتي من الكمال في هذا الخصوص . ولنكتف في الاستشهاد على هذه المثالية في السياسة المحمدية الرشيدة السديدة بذكر مسائر معينة منها :

* إذنه ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة بعد أن اشتد أذى المشركين لهم ، حيث علم أنه لا يقدر على دفع الأذى عنهم ، وأن بالحبشة ملكاً صالحاً كريماً ، سيكرم وفادة أصحابه ، ويحسن جوارهم وهو أصحمَة النجاشي ، فكان هذا الإذن بالهجرة تدبيراً سياسياً جديراً بالتقدير والاحترام[2].

---

(١) سورة النساء الآية (٨٤) .

(٢) ذكر البخاري رحمه الله الهجرة إلى الحبشة في (٥/٦٢ ـ ٦٤) وراجع البداية والنهاية (٦٦/٣) وما بعدها . وسيرة ابن هشام (١/٣٣٠) وما بعدها .

* اتخاذه دار الأرقم بن أبي الأرقم مركزاً للدعوة الإسلامية أيام اضطهاد المشركين لها ، وتثقيف أصحابه فيها ، وتربيتهم ، وتعليمهم كان تدبيراً حكيماً دل على رشد في السياسة ، وحسن فيها ، مع حكمة التصرف ، وكمال التدبير .

* عقده اتفاقيتي العقبة ـ وهما بيعتان بايع فيهما رجالاً من أهل المدينة لتأمين الهجرة إليها ، وحماية المهاجرين فيها ، ثم أمره أصحابه بالهجرة ، وبالتالي هجرته هو ﷺ إليها ، مما جعلها في بضعة أعوام دار إسلام ، وعاصمة خلافة في الأرض ، ومنطلق فتح ، وهداية لكافة البشر»[1].

معاهداته لطوائف اليهود الثلاث بالمدينة ، وما حققته تلك المعاهدات من فوائد للدعوة الاسلامية ، وما وفرته من حماية لها أيام حاجتها الملحة إلى الحماية والتأمين ، وذلك لضعفها ، ومناوأة كل الناس لها .

* مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار تلك المؤاخاة التي لحمت ما بين المهاجرين النازحين ، وأهل البلاد المواطنين فجعلتهم كجسم واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائره بالحمى والسهر ، تلك المؤاخاة التي لم يتم نظيرها على وجه الأرض قط . تحققت بفضل الله تعالى ، ثم بتلك الحُنكة السياسية والرشد المنقطع النظير فيها .

* زواجه ﷺ من خديجة وهي بنت أربعين سنة ، وهو شاب لم يتخط الخامسة والعشرين من عمره ثم زواجه من عدة أرامل من النساء المسنات ، وكزواجه من أم المؤمنين عائشة بنت الصديق وسنها لم يتجاوز التاسعة من عمرها ، كل ذلك دال على بعد نظر ، وعمق

---

(١) بيعتا العقبة مذكورتان في البخاري (٥/٦٩ ، ٧٠) وابن هشام (٢/٤٧ ـ ٥٦) والبداية والنهاية (٣/١٤٧ / ١٥٨) .

سياسة ، وحسن تصرف ، وكمال تدبير حيث أعطى به لدعوة ربه الاسلامية دفعاً قوياً إلى النصر ، والتقدم ، والانتشار ، ما لم تكن لتصل إليه وتحققه لولا تلك السياسة الحكيمة الرشيدة .

* سراياه وغزواته العديدة ، والتي تجلت في جميعها الخبرة العسكرية ، والقيادة المثالية الحكيمة والأمر الذي اعترف به الصديق والعدو على حد سواء ، ويكفي في تقرير ذلك أنه في خلال عشر سنوات من جهاده المقدس انتظم الإسلام أرض الجزيرة العربية كلها ، واستنارت بنوره كل ديارها ، وأن قتلى تلك الحروب والمعارك الهائلة التي دارت رحاها مدة عشر سنوات تقريباً ، ودانت نتيجة لها أرض شبه الجزيرة كلها بالإسلام . لم يتجاوزوا الألفين والخمسمائة ما بين شهيد وقتيل .

رحمته :

إن الرحمة التي كان يحملها قلب محمد النبي ﷺ لرحمة مثالية ، لا تتأتى لغيره من بني الناس ، وإذا أردنا أن نذكر بعض مظاهرها تقريراً لها ، فماذا عسانا أن نذكر منها بعد أن قال الله تعالى فيه :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (١)

ومع هذا فلنشر إلى بعض المظاهر للرحمة المحمدية والتي منها :

١ ـ رُفع إليه ولده إبراهيم بن مارية القبطية رضي الله عنهما ، وهو مريض يجود بنفسه ، فوضعه بين يديه وبكى ﷺ ، وقال « **إنَ العَينَ تدمعُ ، والقلبُ يَحزنُ ، ولا نَقولُ إلاَّ ما يرضي رَبّنَا ، وإنّا بِفُراقِكَ يا**

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨ .

إبراهيمُ لَمحزونُونَ! »[1].

٢ - زار مرة قبر أمه بين مكة والمدينة ، وقف عليه وبكى طويلا ، وانصرف وهو يقول : « استأْذَنْتُ رَبي في أنْ أستَغفرَ لَهَا فَلَمْ يُؤذنْ لي ، واستأذَنْته في أنْ أزُورَ قَبرَهَا فَأذِن لي . . »[2].

٣ - ولما فتح رسول الله ﷺ القَموص حصن بني أبي حُقيق (من خيبر) أتى رسول الله ﷺ بصفية بنت حي بن أخطب وبأخرى ، فمر بهما بلال على قتلى يهود ، فلما رأتهم الجارية التي مع صفية صاحت ، وصكت وجهها ، وحثت التراب على رأسها فلما رأى رسول الله ﷺ بتلك الجارية ما رأى قال « أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمربامرأتين على قتلى رجالهما ؟ »[3] . ولم تكن رحمته ﷺ قاصرة على بني الناس فحسب بل تعدتهم إلى الحيوانات ، فكان يقول صلى الله عليه وسلم : « في كُلِ ذَاتِ كَبِدٍ رَطَبةُ أجرٍ »[4] ويقول : « عُذبَت إمرأةٌ في هِرةٍ ، أوثقَتهـا فَلَمْ تُطعِمُهَا وَلَم تَسقها ، وَلَمْ تَدعَهَا تَأكُلُ مِنْ حشَائِشِ الأرضِ حتى مَاتَتَ »[5]. وأخبر مقرراً الرحمة وآثارها في أهلها فقال : « بينَمَا كَلبٌ يَطيفُ بركيةِ كَادَ يَقْتُلُهُ العَطَشُ إذ رأته بغي مِنْ بَغايا بني إسرائيلَ ، فَنَزعَتْ موقها فسقته ، فَغُفر لَها بِهِ »[6] .

(١) متفق عليه اللؤلؤ والمرجان (١٠٣/٣) .
(٢) أخرجه مسلم (٦٥/٣) .
(٣) ذكر هذا ابن كثير عن ابن اسحاق في البداية والنهاية (١٩٧/٤) .
(٤) متفق عليه . اللؤلؤ والمرجان (٧٥/٣) .
(٥) متفق عليه واللفظ لمسلم . اللؤلؤ والمرجان (٧٣/٣) مسلم (٣٥/٨) وقوله (حتى ماتت) في روايةأخرى لمسلم في الصفحة المذكورة .
(٦) متفق عليه . اللؤلؤ والمرجان(٧٥/٣) .

كرمه :

إن الكرم النفسي الذي كان يتحلى به محمد رسول الله ﷺ لا يأتي عليه الوصف ، وكيف يوصف كرمِ من لم يُسأل شيئاً طول حياته وهو في حوزته وقال : لا ، قط . خرج يوماً وعليه حلة من أجمل الحلل فرآه أحد أصحابه ، فعزم أن يطلبها ليلبسها فتمس جلده بعد أن مست جلد الرسول ﷺ فقال : يا رسول أعطنيها ، فدخل رسول الله ﷺ بيته فخلع الحلة وأتاه بها » .

جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : « يَا قَومُ أَسْلِمُوا فَإِنَّ مُحمداً يُعطِي عَطَاءً لا يَخشَى الفَاقَةِ »[1].

وبايع مرة جابر بن عبد الله في جمل له كان قد كلَّ في السفر فباعه إياه بكذا مائة درهم ، ولما جاء يتقاضاه الثمن أعطاه الثمن والجمل[2].

الله أكبر ماذا يُذكر عن كرم محمد ﷺ ؟ إنه في هذا الباب كما في غيره المثل المثل الأعلى في الكرم النفسي .

عــدلــه :

إن المثالية في عدل محمد ﷺ تتجلى في مواقف عديدة ، نقتصر منها على موقفين لم يقفهما غيره ﷺ قط ، أولها : حينَما سَرقت المخزومية ، وجاء أسامة بن زيد مدفوعا برجالات قريش يشفع لها في إسقاط الحد عنها ، فقال له الرسول ﷺ وهو في غضب شديد : « أتشفعُ في حدٍ منْ حدودِ اللّهِ يا أسامة ؟ واللّه لوْ سَرقتْ فاطمةُ بنتُ محمدٍ لقطعتُ يدها »[3] وثانيهما : أن رسول الله ﷺ عدل صفوف

---

(١) رواه مسلم (٧٤/٧١) . (٢) متفق عليه بمعناه اللؤلؤ والمرجان (١٨٥/٢)

(٣) متفق عليه بمعناه اللؤلؤ والمرجان (١٨٥/٢ ، ١٨٦) .

أصحابه يوم بدر وفي يده قدح يعدل به القوم ، فمر سواد ابن غذية حليف بني عدي بن النجار وهو مستنتل ـ أي متقدم ـ من الصف فطعن في بطنه بالقدح وقال « استو يا سواد ». فقال : يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني !! فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه فقال « استقدْ . . . »[1].

عفوه وحلمه :

إن الاستقصاء للشمائل المحمدية غير محتمل أبداً وأحسن من قال :

إنما مثّلوا صفاتك للناس كما مثل النجوم الماء

ولذا فإننا نكتفي دائماً بنماذج لذلك الكمال المحمدي في كل مظهر من مظاهره . ومن شمائل الحلم والعفو عنده صلى الله عليه وسلم نذكر الأمثلة التالية :

١ ـ صح أنه كان صلى الله عليه وسلم في غزاة فأعطى رجاله فرصة للاستراحة فيها ، فانتشروا في واد يستريحون تحت ظلال أشجاره وأتى هو شجرة فعلق سيفه في أحد أغصانها ، ونام ، فجاء أعرابي من المشركين فاخترط السيف وقال للرسول : من يمنعك اليوم مني يا محمد ؟ فرفع إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه وقال : « **اللّهُ** » **فارتاعَ الرجلُ ، وسقطَ السيفُ منْ يدِهِ ، فتناولهُ الرسولُ صلى اللّهُ عليهِ وسلمَ وقالَ** : « **منْ يمنعكَ أنتَ الآنَ مني** ؟ **فقال الأعرابي** « **لا أحد** » فعفا عنه الرسول وانصرف[2] .

---

(١) البداية والنهاية (٢٧١/٣) وسيرة ابن هشام (٣٠١/٢) .

(٢) متفق عليه بمعناه اللؤلؤ والمرجان ١٦٢/٢ واللفظ المذكور قريب من لفظ البخاري (١٤٦/٥ ، ١٤٧) .

إنه عفو بعد مقدرة ، وهو من العفو الكريم الذي يستحق صاحبه كل إجلال وتقدير .

٢ ـ قسم صلى الله عليه وسلم مالاً بين الناس فجاءه أعرابي فجذبه من طرف ردائه وقال : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله : فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وما زاد أن قال : « فمنْ يعدلُ إذا لمْ يعدلُ اللّه ورسوله ؟ رحَمَ اللّهُ موسى قدْ أوذيَ بأكثرِ منْ هذا فصبرَ »[١].

٣ ـ دخل أعرابي مسجده صلى الله عليه ،وسلم ، واضطرته الحاجة إلى البول ، فانتحى ناحية من المسجد وأخذ يبول ، فانتهره أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحوا فيه فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دعوهُ لا تزرموهُ[٢] فتركوهُ حتى قضىَ حاجتهُ منْ بولهِ . ثمَ أمرَ رسولَ اللّهِ صلىَ اللّهُ عليهِ وسلَم بدلوٍ منْ ماءٍ فصبَ عليهِ ، فحلُم الرسولُ صلىَ اللّهُ عليهِ وسلَم أنطقَ الأعرابيُ فقالَ : اللهمَ ارحمني ومحمداً ، ولا ترحَمَ معنا أحداً ، فقالَ الرسولُ صلىَ اللّهُ عليهِ وسلَم : تحجرتُ واسعاً »[٣].

كانت هذه نماذج من المثالية المحمدية وهي أحد مؤهلات ثلاثة تقدم اثنان منها وبقي الثالث ، وهو شرف النسب ، وطيب الأصل . فلنلق نظرة على تلك الأرومة الطاهرة ، وذلك المحتد الشريف ، فنقول : إن من ينظر بإنصاف في النسب النبوي الشريف يجده بحق أشرف نسب وأطيبه ، وأطهره ، وأزكاه على الإطلاق ، إنه لم يعرف

---

(١) متفق عليه بقريب من هذا اللفظ اللؤلؤ والمرجان (١/ ٢٢٩ ، ٢٣٠) .
(٢) لا تزرموه : أي لا تقطعوا عليه بوله .
(٣) متفق عليه بمعناه اللؤلؤ والمرجان (١/ ٦٤) وزيادة «اللهم ارحمني ومحمداً . الخ عند أبي داود في أول الحديث مثل مسألة البول . متن (١ : ٩١) .

التاريخ البشري نسباً كان أوضح وأنصع ، ولا أطيب ، ولا أطهر من نسب النبي محمد صلى الله عليه وسلم إذ قريش كانت أشرف القبائل العربية بلا منازع ولا مدافع ، وبنو هاشم كانوا أشرف قبائل قريش أيضاً بلا منازع ، والأنبياء يبعثون دائماً في أشرف أقوامهم هذه كلمة قالها هرقل ملك الروم وعظيمها[١].

ولنستمع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه وهو يقرر هذه الحقيقة فيقول : **« إنَ اللَّهَ اصطفى كنانةَ منْ ولِد إسماعيلَ ، واصطفى قريشاً منْ كنانةَ ، واصطفى منْ قريشٍ بني هاشمَ ، واصطفانيَ منْ بني هاشمَ »**[٢] فكانَ صلىَ اللّهُ عليهِ وسلَم خياراً منْ خيارٍ منْ خيارٍ .

وأخيراً فهذه مؤهلات النبوة كلها قد توفرت لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبصورة لا أكبر منها ، ولا أوضح . فهل يصح في العقول نفي نبوته ، أو جحود رسالته ؟ اللهم . لا ، إلا أن يكون ذلك من جاهل متعصب ، أو من مُعرض ذي طمع فاسد ، يجاحد ويعاند ، ومع هذا فسنورد طرفاً من الأدلة العقلية والنقلية ما نؤكد به نبوته صلى الله عليه وسلم ، ونقرر به وجوب الايمان به ، وبكل ما جاء عن الله من الهدى والخير ، وتحتم اتباعه ، واتباع دينه توخياً للحق ، وطلباً للنجاة من العذاب ، وفوزاً بالنعيم الأخروي في الملكوت الأعلى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين والشهداء ، والصالحين .

(١) راجع حديث أبي سفيان في البخاري (١/٧) .
(٢) مسلم (٧/٥٨) ورواه الترمذي أتم منه (٢/٢٨١) .

وجوب الايمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم

وأدلة ذلك

إن تلك المؤهلات العقلية والشرعية الدينية ، وقد توفرت كاملة للنبي محمد ﷺ لكافية في إيجاب الإيمان بنبوته ورسالته ﷺ ، بيد أنه لا مانع من المزيد من ذكر الأدلة والبراهين تأكيداً لنبوته ﷺ ، وتقريراً لها ، حتى تجعل الإيمان بها اضطرارياً لا يمكن دفعه إلا على ضرب من التمحل والمكابرة والعناد والمجاحدة .

ومن تلك الأدلة ما يلي : ـ

(أ) شهادة الكتب السابقة له على نبوته ، وتبشير الأنبياء السابقين بها ، فقد جاء في إنجيل يوحنا :

١ ـ إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي ،وأنا أطلب من (الأب) فيعطيكم معزياً (فارْقليط) آخر ليمكث معكم إلى الأبد »[١].

فالفارقليط ترجمته : محمد أو أحمد . وبقاؤه معهم إلى الأبد هو بقاء دينه وكتابه ، وسنته ، إذ هذه محفوظة بحفظ الله ، وباقية ببقاء هذه الحياة وهذا معنى إلى الأبد في قوله : « يبقى معكم إلى الأبد » .

٢ ـ لكني أقول لكم الحق ، إنه خير لكم أن أنطلق لأني إن لم

(١) الباب الرابع عشر الفقرتان (١٥ ، ١٦) .

أنطلق لم يأتكم المعزي (الفارقليط) ولكن إنْ ذهبت أرسلته إليكم[1] .
فالفارقليط هو محمد ﷺ ، ولو لم يذهب عيسى عليه السلام برفع الله تعالى له لما بعث محمد ﷺ ، إذ بعثة النبي محمد ﷺ كانت على فترة من الرسل كما قال تعالى من سورة المائدة :

﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩ ﴾[2]

٣ - « والفارقليط روح القدس الذي يرسله الأب ، باسمي هو يعلمكم كل شيء ، وهو يذكركم بكل ما قلته لكم »[3] .

فالفارقليط روح القدس هو محمد ﷺ الذي أرسله الله إلى الناس كافة ومن بينهم اليهود والنصارى كما قال تعالى من سورة النساء :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾[4]

فجاء في هذه الآية القرآنية لفظ الرسول معرفاً بالألف واللام وهي وإن دلت على تفخيم الرسول ﷺ وتعظيمه في كماله فإنها دالة على العهدية فهي إشارة إلى ما في الكتابين : التوراة والإنجيل من البشارة بالرسول محمد ﷺ كما ذكرنا ونذكر ، وكما اعترف به الصالحون والمنصفون من

---

(١) الباب السادس عشر الفقرة (٧) .
(٢) الآية (١٩) .
(٣) الباب الرابع عشر الفقرة (٢٦) .
(٤) الآية (١٧٠) .

علماء الطائفتين ، اليهود والنصارى .

وجاء في سفر التثنية من التوراة قوله : « جاء الرب من سيناء وأشرق لنا من ساعير ، واستعلن من جبال فاران ومعه ألوف الأطهار »[1].

فهذهشهادة صريحة من التوراة واضحة لمحمد صلى الله عليه وسلم بنبوته ورسالته ، إذ معنى هذا اللفظ : أن الله تعالى ناجى موسى وأوحى إليه بسيناء ، وأرسل عيسى وأوحى إليه بساعير وهي من أرض الجبل بالقدس ، وبعث محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً معلناً كلمة « لا إله إلا الله » مستعلنا بها من مكة الواقعة بين جبال فاران كجبل أبي قبيس وحراء وغيرهما من جبال مكة المحيطة بها .

ب ـ شهادة علماء أهل الكتابين :

جاء من سورة الشعراء قول الله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾[2]

فقد وبخ الله العرب الكافرين على عدم إيمانهم برسالة محمد صلى الله عليه وسلم مع وجود آية عظيمة تدل على صدق نبوته ، وثبوت رسالته ، وهي معرفة علماء بني إسرائيل وشهادتهم له بأنه نبي الله ، وما جاء به هو من عند الله .

وجاء من سورة البقرة قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا

(١) الباب الثالث والثلاثين ، هذه النصوص الأربعة من التوراة والإنجيل نقلت عن العقيدة الإسلامية وأسسها ثم صححت على التوراة والإنجيل .

(٢) الآية (١٩٧) .

مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾[1]

فقد أخبر تعالى في هذه الآية أن الذين أوتوا الكتاب . التوراة والإنجيل يعرفون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وصدقه فيها معرفة مثل معرفتهم لأولادهم . كما أخبر أن فريقاً كبيراً منهم يكتمون الحق بعد معرفتهم له ، ولذا لم يؤمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم بعد معرفنهم لها تمام المعرفة .

ونكتفي بشهادة عبد الله بن سلام رضي الله عنه عن غيرها من شهادة كثير من علماء اليهود وأحبارهم ، روى البخاري في صحيحه من كتاب الأنبياء عن أنس بن مالك : « أن عبد الله بن سلام بلغه مَقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فأتاه فقال : « إني أسألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي ، قال :

ما أول أشراط الساعة ؟

وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟

ومن أي شيء ينزِع الولد إلى أبيه ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **أخبرني بِهنَ آنفاً جبريل ،** قالَ : عبدُ اللّهِ بن سلام : ذاكَ عدوُ اليهودَ منْ الملائكةِ . فقالَ رسولُ اللّهِ صلى اللّهُ عليهِ وسلَم : **« أما أوَلُ أشراطِ الساعةِ فنارُ تحشرُ الناسَ مِنَ المشرقِ إلى المغربِ وأما أولُ طعامٍ يأكلهُ أهلُ الجَنةِ فزيادةُ كبدِ الحوتِ . وأما الشبهُ في الولدِ ، فإنَ الرجلُ إذا غشى المرأةُ فسبقها ماؤهُ**

---

(١) الآيتان (١٤٦ ، ١٤٧) .

كانَ الشبهُ لهُ ، وإذا سبقَ ماؤها كَانَ الشبهُ لها ، قالَ عبدُ اللَّهِ بنُ سلامٍ : أشهدُ أنكَ رسولُ اللَّهِ . ثُمَ قالَ : يا رسولَ اللَّهِ إنَ اليهودَ قومُ بُهتٌ إنْ علموا بإسلاميَ قَبْلَ أنْ تَسألهمُ بهتوني عندكَ . فجاءتْ اليهودُ ، ودخلَ عبدُ اللَّهِ البيتَ . فقالَ رسولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليهِ وسلمَ : أي رجلٌ فيكمُ عبدُ اللَّه بنُ سلام ؟ قالوا . أعلمُنا وابنُ أعلمُنا ، وأخيرنا وابنُ أخيرُنا ، فقالَ رسولُ اللَّه صلَى اللَّهُ عليهِ وسلَم : أفرأيتمْ إنْ أسلَم عبدُ اللَّهِ ؟ قالوا : أعاذهُ اللَّهُ منْ ذلكَ . فخرجَ عبدُ اللَّهِ إليهمْ فقالَ : أشهدُ أن لاَ إلَهَ إلاَ اللَّهُ وأشهدُ أنَ محمداً رسولُ اللَّهِ ، فقالوا أشرُنا وابنُ شرِنا ووقعوا فيهِ !! »[1]

وبعد : فإن شهادة عبد الله بن سلام هذه تُعد من أكبر الشهادات بعد شهادة الله ورسوله ﷺ لمحمد بالنبوة والرسالة ، ولذا لم نذكر بعدها من شهادات علماء اليهود شهادة غيرَها .

أما علماء النصارى فإن لهم من الشهادات برسالة محمد ونبوته ما لا يسعه المقام ، فلذا فإنا نكتفي من كل ذلك بشهادة عظيمة أقرها القرآن ، وسجلها في صفحاته ، ألا وهي : شهادة الملك الصالح أصحمة النجاشي ، إذ جاء من سورة المائدة قول الله تباركوتعالى :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا

(١) البخاري (٤/١٦٠) .

فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾[1]

فقد أجمع علماء التفسير والأخبار والسير على أن هذه الآيات نزلت في النجاشي وأصحابه المؤمنين ، فقولهم : ﴿ وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ﴾ . قولهم هذا يعد شهادة عظيمة بالإسلام ، ونبيه ، وكتابه ، وأمته ، ولنستمع إلى شهادة النجاشي رحمه الله تعالى من خلال رده على كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ورده وهو في دار ملكه ، وحاضرة بلاده ، إذ جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبحر

سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته . لا إله إلا الله هو الذي هداني إلى الإسلام فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقرّبنا ابن عمك (جعفر) وأصحابه . فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً . وقد بايعتك وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين . وبعثت إليك يا نبي الله . بأريحا ابن الأصحم بن أبحر ، فإني لا أملك إلا نفسي . وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله »[2] .

---

(1) الآيات (٨٢ ، ٨٥) .

(2) البداية والنهاية (٣/٨٤) وجاء في أبي داود أن النجاشي قال : أشهد أنه رسول الله ﷺ ، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم (٢/١٨٩) .

جـ ـ شهادة بلايين من المسلمين !

إن إيمان بلايين البلايين من المسلمين الذين شهدوا لمحمد ﷺ بنبوته ورسالته وآمنوا به حق الإيمان ، واتبعوا ما جاء به من الحق والهدى ، وجاهدوا دونه ، وبينهم العلماء ، والحكماء ، والصلحاء الصادقون الذين يفوق عددهم الخصر ، ويتعذر الإحاطة بهم علماً ، لهو من أعظم الشهادات ، وأقواها ، وأكثرها اقناعاً للعقول ، وجلباً للطمأنينة والسكون في نفوس المؤمنين بنبوة محمد ورسالته ﷺ .

د ـ شهادة الحق عز وجل وملائكته :

إن شهادة الله عز وجل ، وشهادة ملائكته للنبي محمد ﷺ بالنبوة والرسالة لشهادة مغنية عن كل شهادة . قال تعالى من سورة النساء : ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[1]

ولولا كزازة النفوس ، ورعوناتها[2]، وظلمات الجهل بالله تعالى التي تغشي كثيراً من قلوب الناس لما ذكرنا مع شهادة الله تعالى لمحمد ﷺ بالرسالة شاهداً أبداً . ولكن نظراً لما ذكرنا أوردنا تلك الشهادات السابقة وقفينا عليها بشهادة الله تعالى التي لا يردها عاقل أبداً .

وشهادة الله تعالى تنقسم إلى قسمين : شهادة أخبار ، وشهادة معجزات فشهادة الأخبار . هي أخباره تعالى في كتابه عن وحيه ، واصطفائه لرسوله وإرساله ، ونصرته إياه ، وشهادة المعجزات هي ما أظهره الله تعالى على يد نبيه من خوارق العادات ، إذ كل خارقة تقول

---

(١) الآية (١٦٦) .

(٢) الكزازة القبح والانقباض ، والرعونة : الحمق .

بلسان حالها عن الله تعالى : صدق محمد عبدي ورسولي فيما أخبر عني من أني أرسلته وهو رسولي .

ومن شهادة الأخبار ما يلي :

* قوله تعالى من سورة (الفتح) . .

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾[1]

* قوله تعالى من سورة الأعراف :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[2]

* قوله تعالى من سورة البقرة :

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[3]

* قوله تعالى من سورة النساء :

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾[4]

* قوله تعالى من سورة الأحزاب :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[5]

* قوله تعالى من سورة المائدة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾[6]

---

(١) الآية (٢٩) .
(٢) الآية (١٥٨) .
(٣) الآية ١١٩ .
(٤) الآية (١٦٣) .
(٥) الآيتان (٤٥ ؛ ٤٦) .
(٦) الآية (٦٧) .

* قوله تعالى من سورة النساء :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾[1]

ومن شهادة المعجزات ما يلي :

١ ـ نزول القرآن الكريم عليه وحياً أوحاه الله تعالى إليه ، فإنه أكبر معجزة عرفها الوجود البشري ، إذ العادة قاضية بأن أمياً لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يجلس بين يدي أستاذ ، أو مرب أو معلم قط، قاضية باستحالة تكلمه بالعلوم والمعارف ، ومعرفته لها ، وتفوقه فيها ، فضلاً عن أن يأتي بما لم يأت به غيره من كل معاصريه ، وممن يأتي بعدهم إلى انقراض الحياة ونهاية الكون .

فالقرآن الكريم وقد حوى أعظم تشريع ، واشتمل على قدر من العلوم الإلهية ، وعلى أثبت الحقائق العلمية ، كنظام الزوجية[2]، والقوانين الكونية[3]، كما تعرض لبدء الخليقة ، وذكر من قصص الماضين ، وأخبار السابقين الشيء العجب، وأخبر بمغيبات عديدة فكانت كما أخبر حرفياً وبلازيادة أو نقصان[4]. هذا الكتاب يأتي به أمي ، يتحدى كل الخلق على الإتيان بمثله ، أو بعَشر سور من مثل

---

(١) الآية (١٧٠) .

(٢) يشير إلى هذا القانون قوله تعالى من سورة يس : ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ (الآية ٣٦) .

(٣) كعملية إنزال المطر المشار إليها بقول الله تعالى ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله﴾ سورة الروم الآية (٤٨) .

(٤) كالإخبار بنهاية حرب الروم مع فارس ، وغلب الأولى للأخيرة بعد أن كانت قد غلبت وانهزمت ، وذلك في قوله تعالى من سورة الروم ﴿ الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾ الآيات (١ ـ ٣) .

سوره ، أو سورة واحدة[1] فتعجز البشرية ومعها الجن كلهم ، وتطأطىء رأسها ، وتسكت عن المعارضة لأكبر معجزة أوتيها محمد صلى الله عليه وسلم لتدل على صدق نبوته ، وثبوت رسالته ، عرف هذا فداه أبي وأمي حين قال : « ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحي إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة »[2]

وهذه صورة التحدي قائمة إلى يوم القيامة تحويها آية واحدة من سورة البقرة ، هي قوله تعالى :

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [3]

فقوله تعالى : ﴿ ولن تفعلوا ﴾ أي الإتيان بسورة قرآنية من أمي مثل محمد ﷺ في أميته ، هذا التحدي وهو نفي الإتيان بسورة من أمي مثل محمد في أميته ما زال قائماً . وقد مضى عليه الآن قرابة الألف والأربعمائة سنة ، ولا يؤمل أبداً أن يأتي أحد فيبطله بأن يأتي بسورة قرآنية من رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب قط . هيهات هيهات أن يأتي أحد بمثل هذا القرآن والله يقول : ﴿ ولن تفعلوا ﴾ .

---

(١) يقول الله تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) سورة الإسراء (٨٨) . ويقول تعالى (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) سورة هود الآية (١٣) . ويقول عز وجل (قل فأتوا بسورة مثله) سورة يونس الآية (٣٨) .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم اللؤلؤ والمرجان (١/ ٣٠) ومسلم (١/ ٩٢) ، والبخاري (٦/ ٢٢٤) .

(٣) الآيتان (٢٣ ، ٢٤) .

٢ - فيضان الماء من بين أصابعه بالحديبية حتى سقى وروى جيشاً كاملاً قوامه ألف وأربعمائة رجل وامرأة[١] .

٣ - تكثير الطعام يوم الخندق حتى أطعم بصاع من شعير وجدي صغير جيشاً كاملاً تعداده ألف رجل أو يزيدون[٢] .

٤ - حنين الجذع إليه ﷺ ونطقه وسماع مئات الرجال الأخيار له ، وعدم سكوته إلى أن أتاه الرسول وهدهده كما تهدهد الأم طفلها ، فسكت[٣].

٥ - رده ﷺ عين قتادة حيث خرجت حتى تدلت على وجنته بسبب ضربة أصابته يوم أحد فردها ﷺ ، ومسح عليها فكانت أحسن منها قبل إصابتها[٤].

٦ - تسبيح الطعام بين يديه ﷺ وأصحابه يسمعون ، وهم عدد كبير من خيار البشر[٥].

٧ - انشقاق القمر له ﷺ حين طلبت قريش ذلك استدلالا على نبوته ﷺ فانشق القمر فكان فلقتان على جبل أبي قبيس وأهل مكة كلهم يشاهدون ويعجبون ، أثبتت هذه الحادثة في القرآن بقول الله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾[٦]

---

(١) رواه البخاري (٤/٢٣٤ ، ٥/١٥٦ ، ١٥٧) .
(٢) متفق عليه ، اللؤلؤ والمرجان (٣/٢٠ ، ٢١) وكان هذا في غزوة الخندق .
(٣) رواه البخاري بمعناه (٢/١١) .
(٤) سيرة ابن هشام (٣/٣٣) .
(٥) رواه البخاري (٤/٢٣٥) .
(٦) سورة القمر الآية (١) . وحديث الانشقاق ثابت في الصحيحين ، اللؤلؤ والمرجان (٣/٢٨٠) .

٨ ـ تسليم الشجر والحجر عليه على مرأى من الناس ومسمع ، وعشرات المرات[١].

٩ ـ الإسراء به ﷺ ، والعروج من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم إلى السماء السابعة حيث سدرة المنتهى عند جنة المأوى ، فبلغ مستوى سمع فيه صريف الأقلام ، وناداه ربه ، وفرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس[٢]، كل هذه المعجزات وغيرها كثير قد ثبت بما هو أشبه بالمتواتر من الأخبار .

١٠ ـ إخباره بالمغيبات الكثيرة[٣] فكانت كما أخبر . ونذكر منها على سبيل المثال خبراً واحداً من أعجب الأخبار وهو قوله في رواية أحمد بسند صحيح « سَيكُونُ في آخرَ أُمَتي رِجَالٌ يَركَبُونَ على السُرُوجِ كَأَشَباهِ الرِحَالِ ، يَنْزِلُونَ بِهَا على أَبوابِ المَسَاجِدِ ، نِسَاؤُهُمْ كَاسِياتٌ ، عَارِياتٌ على رُؤسِهِنَ البُخْتُ البُخْتُ العِجَافَ ، العنُوهُنَّ فإنَهُنَ مَلعُونَاتٍ »[٤].

فما هذه المركوبات يا تُرى التي أخبر أنها سيركبها رجال من

---

(١) حديث تسليم الحجر عليه ﷺ بمكة واخباره بهذا ثابت في مسلم (٥٨/٧) وتسليم الأحجار والأشجار عليه ﷺ وسماع علي رضي الله عنه هذا في الترمذي في المناقب . برقم (٣٦٣٠) من كتاب المناقب ، باب (٣ ، ٦) .

(٢) راجع تعليقات الصفحات السابقة من الكتاب تجد آيات وأحاديث الإسراء والمعراج .

(٣) من ذلك قوله في الحسن بن علي رضي الله عنه فيما أخرجه البخاري (٣٢/٥) . إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين (عظيمتين) من المسلمين فكان كما أخبر ، وقوله في عمار بن ياسر وهو يحمل اللبن لبناء المسجد (تقتلك الفئة الباغية) فكان كما اخبر كذلك ، فقد قتل عمار في حرب على معاوية قتله جيش الشام . والحديث ثابت في مسلم (١٨٦/٨) .

(٤) (رواه أحمد ، والطبراني في الثلاثة ورجال أحمد رجال الصحيح) هكذا قال الساعاتي في شرحه على الفتح الرباني (٣٠١/١٧ ، ٣٠٢) .

أمته ؟ إنها كسرج الفرس ، وليست بفرس وإنها لتشبه رحل البعير ولكن ليست على البعير ، إنها قطعاً السيارة بنت القرن التاسع عشر الميلادي ، فهل كانت البشرية تحلم يومئذ بالسيارة التي تقطع مئات الأميال في بضع ساعات ، حاملة الركاب وأمتعتهم ؟ والجواب : لا ، ولكن الوحي المحمدي أخبر بقدر ما يمكن أن يفهمه السامعون يومئذ ، وانتظر المؤمنون حتى يتم هذا الخبر ، وتمضي الأجيال جيلاً بعد جيل إلى القرن الثالث عشر الهجري حيث ظهر ما أخبر به صلى الله عليه وسلم ؛ وركب الناس على السروج كأشباه الرحال ، ونزلوا بها على أبواب المساجد . . ثم هل عرفت الدنيا يوم أخبر الرسول ﷺ (الميني جيب) ؟ وهل يعقل أن امرأة مؤمنة تمشي في الشوارع بين المسلمين وهي كاشفة عن فخذيها ، وكل جسمها ما عدا بطنها وظهرها إلى ركبتيها ؟ وهل عرفت النساء وكل النساء كفكفة الشعر على الرأس حتى يكون كذروة البعير الهزيل في غير القرن العشرين ؟ وهل يعقل أن امرأة مسلمة تفعل بشعرها هكذا ، وتخرج بارزة في الشوارع والطرقات ؟ والجواب : لا . ولكن ما أخبر به محمد الرسول صلى الله عليه وسلم قد تحقق وهو من الغيب البعيد في أعماق المجهول ، فكان ذلك آية أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم . اللهم صل على محمد وآله وصحبه والمؤمنين به ، الناهجين نهجه ، المستقيمين على صراطك المستقيم إلى يوم الدين .

ختم النبوات

والكلمة الأخيرة في مبحث الإيمان بالرسل عليهم السلام نتناول فيها أمرين هامين :

أولهما : ختم سائر النبوات :

وثانيهما : النبي الخاتم .

أما عن الأمر الأول فنقول : إن الله تعالى قد ختم سائر النبوات بآخر نبوة ، وهي نبوة محمد رسول الله ﷺ ، فلم يبق من مطمع لأحد في أن يدعي النبوة ، أو يُؤتاها بعد نبوة محمد النبي الأمي أبداً . ومن جهل هذه الحقيقة ، أو تجاهلها تضليلاً وخداعاً وادعى النبوة فقد كذب على الله ، وأعظم الفرية عليه ، وكذبه في قوله ، وكذب على خلقه . ولم يلبث طويلاً حتى يفتضح شر فضيحة ، ويُلعن بين الناس ، كما حصل لعدد من الدجالين الكذابين ، مثل مسيلمة الكذاب في الأولين ، وأحمد مرزا غلام[1] في الآخرين عليهما لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . وذلك لأن الله تعالى قد أخبر بختم النبوات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى من سورة الأحزاب :

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[2]

(١) غلام أحمد بن غلام مرتضى القادياني هو صاحب القاديانية الباطلة الكافرة .

(٢) الآية (٤٠) .

وبهذا كان الإيمان بمحمد ورسالته ، والعمل بها ضرورياً للنجاة من عذاب يوم القيامة ، وللفوز بالنعيم المقيم فيه . وأيما عبد لا يؤمن بهذه الرسالة ، ولا يعمل بمحتواها في حدود طاقته وما يستطيع إلا وهو من أهل الخسران يوم القيامة ، ولا ينفعه إيمان بالله ، ولا بأنبيائه ، وذلك لعدم عمله برسالة محمد الختامية ، التي جعلها الله تعالى مزكية للنفوس ، مطيبة للأرواح ، فلا تزكو نفس امرىء إلا على الإيمان بها ، والعمل بما جاء فيها . وزكاة النفس هي المؤهل للفرد لأن ينجو من النار ، ويفوز بالجنة دار الأبرار ، وذلك لقوله تعالى من سورة الشمس :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [1]

وعن الأمر الثاني نقول : إن خاتم الأنبياء قطعاً هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، لقول الله تعالى :

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [2]

وإن الواجب على كل إنسان في هذا الوجود البشري أن يؤمن به ، ويتبع ما جاء به من الحق والهدى ، وذلك لأمر الله تعالى بالإيمان به وباتباع ما جاء به في مثل قوله :

﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ [3]

ولتخصيص الرب تبارك وتعالى رحمته وهي الفوز بالجنة بعد النجاة من النار بمن آمن به واتبعه فيما جاء به صلى الله عليه وسلم قال تعالى من سورة الأعراف :

---

(١) الآيتان (٩ ، ١٠) .

(٢) سورة الأحزاب الآية (٤٠) .

(٣) سورة التغابن الآية (٨) .

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَـٰلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُۥ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [1]

ولتعليق الله تعالى هداية الإنسان إلى الكمال البشري ، وحصوله على مؤهلات الفرد للسعادة في الدنيا والآخرة على الإيمان به واتباعه إذ قال تعالى : من سورة الأعراف :

﴿فَـَٔامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [2]

وأخيراً فإن من الأدلة السمعية على ختم النبوة ، وأن محمداً هو خاتم الأنبياء حديث الصحيحين ، الذي فيه يقول الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم « **إن مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ! فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين** »[3].

ومثل هذا الحديث في الدلالة على ختم النبوة ، بنبوة محمد

---

(١) الآيتان (١٥٦ ، ١٥٧) .

(٢) الآية (١٥٨) .

(٣) اللؤلؤ والمرجان (٣/٩٤) .

صلى الله عليه وسلم ، وأنه الخاتم للأنبياء قبله ، قوله فداه أبي وأمي في رواية الصحيحين : « إِنَّهُ سَيكُونُ في أُمتي كَذَابُونَ ثلاثون كُلُّهُمْ يَزعُمُ أَنَهُ نَبِيٌّ ، وَأَنَا خَاتمُ النَبِيينَ ، لا نَبِيَ بَعْدي »[1].

وقوله « إنَّ لِيَ أَسماءً : أَنَا مُحمَّدٌ وَأَنَا أَحمدٌ ، وأَنَا المَاحِي الذي يَمحُو اللَّهُ بِيَ الكُفْرَ ، وَأَنَا الحَاشِرُ الذي يُحشَرُ النَّاسُ على قَدَمي ، وَأَنَا العَاقِبُ الذي لَيس بَعْدهُ أحدٌ »[2].

ومن أقوى الأدلة وأعظم البراهين على ختم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لسائر النبوات نبوة محمد نبيه ورسوله . أن يمضي الآن ما يقرب في ألف أربعمائة سنة على الإعلان بختم النبوات بنبوته صلى الله عليه وسلم . ولم تأت نبوة حق ، ولا نبي صدق ، في كل هذه الحقبة من الزمن الطويلة ، في حين أنه كان قبل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم تظهر النبوات في عصر ومصر[3] وقد يوجد العدد من الأنبياء في الأمة الواحدة ، والبلد الواحد[3]، كما هو معلوم من التاريخ البشري وفي جانبه الديني بالخصوص .

---

(١) ورواه أحمد الترمذي وأبو داود واللفظ له (٤١٤/٢) ، وهو متفق عليه للؤلؤ والمرجان (٣٠٩/٣) ورواه البخاري بلفظ « ولا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريباً من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله » (٢٤٣/٤) وكذا مسلم (١٨٩/٨) .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم وفي رواية لمسلم (وأنا العاقب والعاقب الذي ليس بعد نبي) (٨٩/٧) . واللؤلؤ والمرجان (١١٠/٣) والبخاري (٢٢٥/٤) .

(٣) كما وجد داود وسليمان في عصرواحد ، وكما وجد زكريا ويحيى ، وعيسى في بلد واحد وأمة واحدة . والأمثلة كثيرة ؛ وما هناك بحاجة إليها .

الركن الخامس
من أركان الإيمان
الإيمان باليوم الآخر

تعريف :

ما المراد باليوم الآخر ؟

إن المراد من اليوم الآخر أمران : الأول : فناء هذه العوالم كلها ، وانتهاء هذه الحياة بكاملها . والثاني : إقبال الحياة الآخرة وابتداؤها ، فدل لفظ اليوم الآخر على آخر يوم من أيام هذه الحياة وعلى اليوم الأول والأخير من الحياة الثانية ، إذ هو يوم واحد لا ثاني له فيها البتة . فالإيمان باليوم الآخر مقتض للتصديق بأخبار الله تعالى بفناء هذه الحياة الدنيا ، وبما يسبقه من أمارات وما يتم فيه من أهوال ، واختلاف أحوال ، كما هو مقتض كذلك لتصديق الله تعالى في أخباره عن الحياة الآخرة ، وما فيها من نعيم وعذاب ، وما يجري فيها من أمور عظام ، كبعث الخلائق ، وحشرهم وحسابهم ، ومجازاتهم على أعمالهم الارادية الاختيارية التي قاموا بها في هذه الحياة الدنيا .

إمكان الفناء :

هل الفناء ممكن ؟

والجواب : نعم . الفناء ممكن ، لأن العالم ليس أزلياً أبداً ، ومالم يكن أزلياً فهو حادث ، وما كان حادثاً فالفناء من صفاته اللازمة له ، التي لا تنفك عنه بحال ، وطروء الفناء على الحادثات مشاهد في هذه الحياة لا يحتاج إلى دليل .

إنه قد ثبت بالبراهين العقلية والمادية معاً حدوث العالم ، إن التغير الجاري ، والمستمر على العوالم دال على حدوثها ، وإن حدوثها دال على فنائها ، كما أن قانون الطاقة المتاحة ـ وهي نظرية علمية في غاية الصحة ـ قد أثبتت حدوث العالم وبالتالي قد أثبتت وجود الله تعالى الأزلي ، الموجد لكل موجود ، وكما أثبتت حدوث العالم أثبتت إمكان فنائه أيضاً إذ حقيقة هذا القانون العلمي الهائل هي أن الحرارة تنتقل دائماً من وجود حراري إلى آخر غير حراري . واستمرار هذه العملية سيترتب عليها أن تتساوى حرارة جميع الموجودات ، وحينئذ لا تبقى أية طاقة مفيدة للحياة والعمل ، فتنتهي العمليات الكيماوية الطبيعية ، وعندها تنتهي الحياة تلقائيا ، وبهذا بطلت أزلية العالم أي قدمه اللاإبتدائي ، إذ لو كان أزلياً لفقد طاقته منذ زمان بعيد وانتهت بذلك الحياة .

وثبت أيضاً إمكان فنائه اللازم له ، والذي هو في طريقه إليه لأن عملية انتقال الطاقة من الأجسام الحرارية إلى خلافها مستمرة ، ولا بد أن يأتي عليها يوم تتساوى فيه حرارة جميع الأجسام ، وعندها تتوقف العمليات الكيماوية الطبيعية ، وتنتهي الحياة ، ويعم الفناء هذا الكون كله .

ودليل آخر : أن العالم كلٌ له أجزاء ، ونحن نشاهد الفناء يجري في أجزائه باستمرار . فالانسان كالحيوان كالنبات كلها تفنى أمامنا ، وتحت سمعنا وبصرنا ونفقد وجودها باستمرار ودون انقطاع ، وهي قطعاً أجزاء من هذا العالم كما أننا نرى الزلزال من الفينة إلى الفينة يدمر مدناً وقرى كبيرة ، ويغير معالم الأرض في كثير من البلاد في العالم ، فظاهرة الفناء هذه لأجزاء العالم دالة على فناء العالم كله ، إذ ما أمكن الفناء في أجزائه أمكن فناء كله .

وبناء على هذا فاليوم الأخر ممكن الوقوع وهو مرتقب جداً ومنتظر

أنبائه ، وهو اليوم الذي لا يأتي بعده يوم من أيام هذه الحياة ، وذلك لخراب العالم وفنائه .

إمكان المعاد :

هل المعاد ممكن ؟

ولِمَ لا يكون ممكناً وإثباته لا يوجب أي تناقض عقلي أبداً . وكل ما لا يوجب تصور وقوعه تناقضاً عقلياً فهو من قبيل الجائز الإمكان .

وهل تصور وقوع الحياة بعد فنائها كما كانت وأفضل مما كانت يوجب تناقضاً عقلياً ؟ وإذا كان الجواب : لا ، أبداً . فالمعاد إذاً وهو بعث الخلائق أحياء بعد فنائهم الذي طرأ على حياتهم الأولى ممكن وجائز .

وشيء آخر وهو إذا كان المعاد غير مستحيل ولا واجب ، إذ المستحيل ما أوجب تصور وقوعه تناقضاً عقلياً كتصور وقوع الشيء موجوداً غير موجود . والواجب ما أوجب عدم تصور وقوعه تناقضاً عقلياً كتصور وجود مصنوع بدون صانع ، أو مخلوق بدون خالق ، أو معلول بدون علته فهو أي المعاد إذاً ممكن جائز ، وهكذا ثبت بالقياس العقلي ، والبرهان المنطقي إمكان البعث وجواز وقوعه .

أدلة البعث[1]

لقد سلك القرآن الكريم في اثبات المعاد والحياة الثانية مسالك عقلية هي غاية في الوضوح والسهولة منها :

* أن الشيء إذا لم يكن ثم كان وأعدم كانت اعادته أيسر وأهون

---

(١) البعث والمعاد واليوم الآخر ألفاظ مختلفة ، ومدلولها واحد ، وهو وجود حياة ثانية بعد فناء الأولى .

على من بدأه أول مرة ثم أعدمه . وأفناه . فالذي بني داراً ، ثم هدمها لا يستحيل عليه ولا في حقه إعادة بنائها كما كانت أو خيراً مما كانت .

والذي يصنع آلة من الآلات مخترعاً لها لا يستصعب عليه أن يعيدها كما كانت إذا هو كسرها بإرادته وإختياره ليحولها إلى آلة أفضل منها قبل . ورد هذا المسلك من الاستدلال في سورة الروم إذ قال تعالى :

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1]

كما ورد في سورة يس في قوله تعالى :

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾

﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[2]

* الاستدلال بنوم الانسان والحيوان واستيقاظهما ، فالنوم يعتبر موتاً مصغراً ، والاستيقاظ يعتبر حياة مصغرة أيضاً . فكما تتم عملية النوم للإنسان والحيوان ، وعملية الاستيقاظ لهما تتم عملية الموت والحياة الكاملة لهما . جاء هذا الاستدلال في قول الله تعالى من سورة الأنعام :

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3]

---

(١) الآية (٢٧) . (٢) الآيتان (٧٨ ، ٧٩) . (٣) الآية (٦٠) .

الاستدلال بالأرض الميتة بسبب المحل ، والجدب ، والقحط ، حيث تنعدم فيها الحياة تماماً ، ثم ينزل بها الغيث ، أو تسقى بالمـاء فتعود إليها كما كانت وخيراً مما كانت نماء وازدهاراً . قال تعالى من سورة فصلت :

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [1]

وقال تعالى من سورة الحج :

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [2]

* الاستدلال بالقدرة الكافية التي بها خلق آدم من تراب ، وذريته من نطفة على إمكان المعاد والبعث ، وتقرير وقوعهما ، قال تعالى من سورة الحج :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [3]

---

(١) الآية (٣٩) . (٢) الآيتان (٥ ، ٦) . (٣) الآية (٥) .

* الاستدلال بالقدرة على خلق العوالم على إمكان إعادة حياة الناس بعد موتهم . وفناء أجسامهم ، قال تعالى من سورة المؤمن :

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١)

وقال عز وجل من سورة النازعات :

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ (٢)

وقال تعالى من سورة يس رداً على من قال

﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ (٣)

* الاستدلال باختلاف سلوك الناس في هذه الحياة بالخير والشر والصلاح والفساد على وجود حياة أخرى يُجزى فيها كل عامل بما عمل من خير وشر ، لعدم استكمال المجازاة في هذه الحياة ، قال تعالى من سورة آل عمران :

---

(١) الآية (٥٧) .
(٢) الآيات (٢٧ ـ ٣٣) .
(٣) الآيات (٧٨ ـ ٨١) .

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾[1]

وقال تعالى من سورة يونس

﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾[2]

وقال تعالى من سورة الليل :

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ[3] ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾[4]

* الاستدلال بالتكاليف الشرعية على وجود حياة أخرى يتم فيها الجزاء على القيام بتلك التكاليف ، وعلى تركها واهمالها ، اذ لم يتوفر جزاء كاف في هذه الحياة الدنيا على تلك التكاليف قال تعالى من سورة الملك :

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[5]

---

(١) الآية (١٨٥) . (٢) الآية (٤) .

(٣) شتى : متنوع مختلف .

(٤) الآيات (٤ - ١١) .

(٥) الآيتان (١ ، ٢) .

وقال تعالى من سورة المؤمنون :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا[1] وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾[2]

وقال تعالى من سورة القيامة :

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾[3]

أدلة أخرى

١ ـ شعور كل أفراد البشر في جميع العصور والدهور ، وسواء منهم المتحضرون ، أو المتبدون ، شعور الجميع بوجود حياة ثانية يلقى فيها الإنسان جزاء عمله الذي قام به في هذه الحياة الدنيا من خير أو شر ، وصلاح وفساد هذا الشعور العام دال على وجود المعاد والحياة الثانية ، إذ لا يمكن أن يعم هذا الشعور كل أفراد البشر ولا يكون له حقيقة في نفس الأمر ، ولا صورة له في الخارج ، وهو شعور كشعور الانسان بالحاجة إلى الطعام ، والشراب الذي دل بوجوده وعمومه على وجود غذاء للإنسان لجوعه ، وماء لعطشه .

٢ ـ ما تأكد لدى الناس اليوم من مناجاة الأرواح . ومخاطبتها ، ورؤيتها دال على أن وراء هذه الحياة المادية حياة أخرى روحية وجثمانية[4] .

٣ ـ رؤى الناس المتعددة التي واكبت الحياة الانسانية ولم يخل

---

(١) عبثا أي لا نأمركم ولا ننهاكم إذ فعل الأمر . وترك المنهى هو العبادة التي خلق الإنسان من أجلها .

(٢) الآية (١١٥) .

(٣) سدى : أي مهملا ، لا يؤمر . ولا ينهى ولا يبعث ليحاسب ويجزى ؟ والآية برقم (٣٦) .

(٤) أصحاب هذه الفكرة يعتقدون أنهم يناجون أرواح البشر والحق أنها أرواح لبعض الجن والشياطين ، وليست أرواح من مات من البشر وذكرنا هذا لما فيه من إثبات عالم الغيب . وحياة روحية تخالف هذه الحياة المادية .

منها زمان ولا مكان . هذه الرؤى لأموات الناس في المنام ، والحديث معهم ، ومعرفة أحوالهم وسؤالهم ، وإخبار الأموات من رآهم في منامه بأمور غيبية فتكون طبق ما أخبروا بـه دلالة قطعية على الحياة الثانية .

آخر الأدلة :

وآخر الأدلة ، وأعظمها على البعث ، والجزاء ، والحياة الآخرة أخبار الله تعالى ، وأخبار رسوله صلى الله عليه وسلم . إن من آمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله لا يجد داعياً للشك ، ولا مثاراً للجدل والنزاع في ثبوت المعاد ، وكل ما يتم فيه من حساب وجزاء ، إذ أخبار الله تعالى كلها صدق وحق ، فقد أخبر تعالى بآلاف الأخبار فلم تكن إلا وفق ما أخبر . كما أخبر رسوله بآلاف الأخبار فلم يتخلف منها خبر واحد عن مدلوله ، فكيف يعقل إذاً أن يخبر الله تعالى ويخبر رسوله بمئات الأخبار عن ثبوت الحياة الثانية ، وعن كل ما يجري فيها من بعث ، وحساب ، وجزاء ، ثم لا يصح شيء من ذلك ولا يثبت ، اللهم إن هذا باطل لا يصح ، ومحال لا يُقبل ولا يعقل .

إن حتمية الفناء ، ووجود معاد كامل ، وحياة أفضل تحوي نعيماً للمحسنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وجحيماً للمسيئين الذين أشركوا وعملوا السيئات مما أخبر الله تعالى به ، وقرره في كل كتبه ، وعلى ألسنة جميع رسله فالشك فيه ضرب من المرض العقلي ، والهبوط الشخصي ، والعياذ بالله تعالى من ذلك .

الحكمة في المعاد :

إن الحكمة من المعاد الأخروي الذي هو بعث الخلائق أحياء بعد موتهم وفنائهم ، أحياء كما كانوا يوم بدأ الله تعالى خلقهم ، هو مجازاة المكلفين منهم بحسب كسبهم الإرادي الاختياري الذي كسبوه في هذه الدنيا ، لأن الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء قال تعالى :

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾[1]

فالناس يعيشون في هذه الحياة الدنيا متفاوتين تفاوتاً كبيراً في أرزاقهم ، وآجالهم ، وأعمالهم ، وفي سعادتهم ، وشقائهم ، فمنهم الظالم الغشوم ، ومنهم المظلوم المهضوم ، ومنهم الصحيح السليم ، ومنهم المريض السقيم ، ومنهم الغني الثري ، ومنهم الفقير الشقي ومنهم العزيز ، ومنهم الذليل ، ومنهم المحسن ، ومنهم المسيء ، إلى غير هذا من التفاوت والاختلاف فلو أنهم يموتون بانقضاء آجالهم ، ولا يبعثون لكان ذلك منافياً للحكمة ، مجانباً للعدل والرحمة ، ومن هنا قضى الله تبارك وتعالى بالبعث والجزاء ، وحكم بهما . فهما كائنان لا محالة ، فقد أمر رسوله محمداً ﷺ أن يقسم عليهما في قوله من سورة التغابن .

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[2]

وقال تعالى من سورة النحل :

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3]

---

(١) الآية (١٨٥) من سورة آل عمران .

(٢) الآية (٧) .

(٣) الآيات (٣٨ ـ ٤٠) .

وجوب الإيمان باليوم الآخر

إن الإيمان باليوم الآخر هو عبارة عن التصديق الجازم بانقلاب هائل يتم في الكون ، ويكون انتهاء هذه الحياة الدنيا بكاملها ، وابتداء حياة أخرى وهي الدار الآخرة بكل ما فيها من حقائق مدهشة ، من بعث الخلائق وحشرهم ، وحسابهم ، ومجازاتهم .

هذا الإيمان ليس واجباً فحسب بل هو أحد أركان ستة عليها تبنى عقيدة المؤمن ، فلا تتم إذاً عقيدته إلا به ، ولا تصح إلا عليه ، قال تعالى :

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[1]

ولأهمية هذا المعتقد في حياة المؤمن ، ولآثاره الكبرى في استقامة الفرد وصلاحه عنى القرآن الكريم به عناية لا تقل عن العناية بالإيمان بالله سبحانه وتعالى ، فقد ذكره في عشرات السور منه ، وفي مئات الآيات ، مرة بوصفه ، والحديث عنه كقوله تعالى :

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ

(١) سورة البقرة الآية (١٧٧) .

يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ
يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ
كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ
حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا
دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا
مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ
مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾
هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ
فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا
حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾[1]

ومرة تقريره، وتأكيد مجيئه، كقوله تعالى من سورة الحج:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾
وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾[2]

وقوله تعالى من سورة التغابن:

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ
بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[3]

---

(١) سورة الحاقة الآيات (١٣ - ٣٧). (٢) الآيتان (٦، ٧). (٣) الآية (٧).

ومرة بتعليق الاستقامة على الإيمان به ، كقوله تعالى :

﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾[1]

وقوله :

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾[2]

ومرة بإثبات الهداية والفلاح للموقنين به ، وذلك كقوله تعالى :

﴿وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝﴾[3]

ومما يؤكد أهمية هذا المعتقد ، ويجعله كالصمام لحياة الاستقامة والطهر ، والخير هو ذكره مقروناً بالإيمان بالله تعالى ، وذلك كقوله تعالى من سورة القرة :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[5]

وكقوله تعالى :

﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾[6]

---

(١) سورة الطلاق الآية(٢) وفي سورة البقرة الآية (٢٣٢) (ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الأخر) .

(٢) سورة الأحزاب الآية (٢١) .

(٣) سورة البقرة الأيتان (٤ ، ٥) .

(٤) الموضع الثاني في سورة لقمان الأيتان (٤ ، ٥) أيضا (وهم بالأخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) .

(٥) الآية (٦٢) .

(٦) سورة الطلاق الآية (٢) .

وقوله تعالى :

﴿ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾[1]

وقوله :

﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾[2]

في عدة آيات من كتاب الله تعالى .

فدلت هذه العناية القرآنية بهذين الركنين من أركان الإيمان على أنهما قوام حياة الروح ، وعليهما مدار استقامة المرء في هذه الحياة ، وأن الإيمان بدونهما ليس شيئاً ، وأن من عدمهما قد عدم كل خير ، وأن من افتقدهما فقد افتقد كل عناصر الخير والفضيلة في نفسه وأصبح من شر البرية .

وبالجملة فإن معتقد الإيمان بالله واليوم الآخر هو رأس كل عقيدة ، وأساس كل إيمان ، وعليه مدار استقامة الإنسان ، وصلاح خُلقه ، وطهارة روحه ، وبدونه فالإنسان مخلوق لا خير فيه لا لنفسه ، ولا لغيره ، وهو شر كله ، لا يؤمَن جانبه ، ولا يُطمأن إليه ، ولا تسكن النفوس عنده ، وذلك لما انعدم عنده من أصول الخير ، وينابيع الفضيلة والكمال البشري .

---

(١) سورة النساء الآية (٣٨) .

(٢) سورة النور الآية (٢) وسورة النساء الآية (٥٩) .

ظواهر الانقلاب الكوني
أو أشراط الساعة

إن لكل كائن حي كالإنسان والحيوان ، أو نامٍ كـالأشجار والنباتات علامات تظهر له عند دنو أجله ، وقرب ساعة هلاكه .

فالإنسان يشيب ويهرم ، ويمرض ويضعف ، ويكون ذلك علامة دنو أجله ، وقرب ساعة موته ، والحيوان في غالب أحواله كالإنسان يعتريه الهرم والضعف ، وينتابه المرض فتخور قواه ، وتنحل بنيته ويهلك . والنبات كالزرع مثلاً يصفر وييبس ، ثم يذوي ، ويسقط ويبيد .

هذه أجزاء من الكون يسبق هلاكها وفناءها علامات تؤذن بقرب ذلك ، والكون وهو كلٌ له (حتماً) علامات تدل على قرب فنائه ، ووقت دماره وخرابه ، قد جاء الوحي الإلهي بذكر تلك العلامات وبيانها ، ونبهت الرسل عليها . ولفتت النظر إليها تحذيراً وتعليماً . ففي القرآن الكريم يقول تعالى من سورة (محمد) صلى الله عليه وسلم :

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ (١)

ومن أشراطها التي جاء الوحي بذكرها : بعثة النبي محمد صلى

---

(١) الآية (١٨) .

الله عليه وسلم ، وانشقاق القمر آية له عليه الصلاة والسلام . أما بعثته صلى الله عليه وسلم فقد كانت شرطاً من أشراط الساعة لأن نبوته ختم الله تعالى بها سائر النبوات ، فلا نبي بعده ، وهذا إيذان بقرب نهاية الحياة حيث لم تتطلب الفترة المتبقية من عمر الحياة لقصر زمنها ، لم تتطلب تجديد التشريع ببعثة أنبياء آخرين ، ولذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم في الصحيحين : « بُعثتُ أنا والساعةِ كهاتينِ وأشارَ إلى أصبعيهِ السبابةَ والوسطى وقرنَ بينَهُما »[1].

وأما انشقاق القمر فقد كان شرطاً من أشراط الساعة ؛ لأن الله تعالى ذكره مقروناً بالإخبار باقتراب الساعة فقال تعالى من سورة القمر :

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ ﴾[2]

وقد انشق القمر فعلاً على عهد النبي ﷺ ، حيث طلبت منه قريش آية تدل على نبوته فدعا الله ، فانشق القمر فلقتين على جبل أبي قبيس ، على مرأى من أهل مكة وهم ينظرون إليه »[3].

ونزيد هذه الحقيقة توضيحاً فنقول : إن الله تعالى ما زال يبعث بالأنبياء ، ويرسل بالرسل لهداية الناس ، وإصلاحهم ، وإعدادهم للكمال الذي خُلقوا له في الدنيا والآخرة . حتى ختم الرسالات برسالة نبيه محمد ﷺ ، وأتم الشرائع بشريعته ، وجعله خاتم الأنبياء، وأخبر أنه

---

(١) متفق عليه بمعناه اللؤلؤ والمرجان (٣/٣١٤) ، والبخاري (٦/٢٠٦) ومسلم (٨/٢٠٨ ، ٢٠٩) .

(٢) الآيات ١ ـ ٣ .

(٣) جاء هذا في حديث متفق عليه كما تقدم . اللؤلؤ والمرجان (٣/٢٠٨) ، والبخاري (٤/٢٥١) ومسلم (٨/١٣٢ ، ١٥٣) .

لا نبي بعده ، فدل ذلك على أن الوقت الباقي من عمر هذه الدنيا قصير ، وأن الرسالة الأخيرة تتممها إصلاحاً وهداية ، فلا يحتاج معها البشر إلى وحي جديد ، وإلى رسالة ناسخة أو مجددة للشرائع والأحكام ، كما كانت الحال قبل هذه الرسالة الختامية ، ولهذا كانت بعثته ﷺ علامة من علامات قرب الساعة ، وانتهاء هذه الحياة الدنيا .

ومن الظواهر الكونية الخارقة للعادة التي ستظهر وتكون علامات الساعة ، وأشراطها لها ما جاء في الوحي الإلهي (القرآن الكريم) من نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض حكماً عدلاً ، فقد جاء من سورة الزخرف قوله تعالى : ﴿ وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها ﴾ وذلك بعد الحديث عنه في قوله تعالى :

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ (١)

ومن تلك الظواهر أيضاً ظهور دابة عجيبة الخَلق ، تخرج إلى الناس ، فتكلمهم ، فيفتنون بها أيما افتنان ، فقد جاء من سورة النمل قوله تعالى :

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (٢)

---

(١) الآيات (٥٧ ، ٦١) .

(٢) الآية (٨٢) .

ومنها انكسار سد يأجوج ومأجوج ، وخروج تلك الأمة المفسدة المدمرة لتعبث في الأرض فساداً ، وتروع الناس أيما ترويع إذ جاء من سورة الأنبياء قوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾[1]

هذا في الكتاب ، وأما في السنة وهي من وحي الله فقد أخرج مسلم من رواية حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال : « **اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر ، فقالَ ما تذاكرونَ ؟ قالوا : نذكرُ الساعةَ قالَ : إنها لنْ تقوم حتى ترونَ قبلها عشرَ آياتٍ . فذكرَ الدخانُ ، والدجالُ ، والدابةُ ، وطلوعَ الشمسِ منْ مغربها ، ونزولِ عيسى بنْ مريمَ ، ويأجوجُ ومأجوجَ ، وثلاثةُ خسوفٍ : خسفٌ بالمشرقِ ، وخسفٌ بالمغربِ ، وخسفٌ بجزيرةِ العربِ . وآخرَ ذلكَ نارٌ تخرجُ مِنَ اليمنِ تطردُ الناسَ إلى محشرهمْ** »[2].

وهذه من علامات الساعة الكبرى ، وستسبقها علامات صغرى وهي كثيرة جداً ، وقد ظهر منها من يوم الإخبار بها إلى الآن عدد كبير . وقبل ذكر بعضها ننبه إلى أن العلامات الكبرى إذا ظهرت آية منها تتابعت حتى لكأنها خرزات في خيط متى سقطت واحدة ، تتابع باقي الخرزات حتى تسقط عن آخرها في زمن وجيز محدود ، وبرهة من الزمن قصيرة . كما أن العلامات الكبرى أولها ظهوراً طلوع الشمس من مغربها لحديث مسلم في « أن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيهما ما كانت قبل

(١) الأيتان (٩٦ ، ٩٧) .
(٢) مسلم (٨ : ١٧٩) .

صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً »[1].

هذا ولنعلم هنا أن هذه العلامات الكبرى إذا ظهرت منها علامة أغلق باب التوبة على الناس ، فلم يقبل إيمان عبد بعدها لم يكن قد آمن من قبل ، كما لم يقبل منه خير لم يقدمه قبل رؤية الآية وظهورها ، وذلك لقول الله تعالى من سورة الأنعام :

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[2]

وهذا جدول بالآيات الصغرى ما ظهر منها حتى الآن وما لم يظهر منها بعد ، نقدمه كما ورد عن رسول الله ﷺ .

١ ـ قوله ﷺ في رواية الصحيحين : « لا تقومُ الساعةَ حتى تقتتلُ فئتانِ عظيمتان . وتكونُ بينَهُما مقتلةَ عظيمة ، ودعواهما واحدةً »[3] هذهِ العلامةُ قد ظَهرتْ كما أخبرَ بها رسولُ اللّهِ ﷺ :

إذا المراد من الفئتين عليّ ومن معه ، ومعاوية ومن معه رضي الله عنهم أجمعين ، والمقتلة العظيمة كانت بصفين .

---

(١) مسلم (٨/٢٠٢) .

(٢) الآية (١٥٨) وروى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض » (١/٩٥ ، ٩٦) وروى البخاري « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت فرآها الناس أجمعون فذلك حين لا ينفع إيمانها ما لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً » (٧/١٣٢) ، واللؤلؤ والمرجان (١/٣١) .

(٣) اللفظ لمسلم (٨/١٧٠) واللؤلؤ والمرجان (٣/٣٠٣) والبخاري (٤/٢٤٣) .

٢ - قوله ﷺ في رواية مسلم : « لا تقومُ الساعةُ حتى يكثرُ الهرجُ، قالوا : وما الهرجُ يا رسولَ اللّهِ ؟ قالَ : القتلُ القتلُ »[١]. وقد ظهرتْ هذهِ العلامةُ فعلاً فإنَ الحروبَ التي تقعُ في هذه الظروفْ قتلاها لا يعدونَ بالعشراتِ ولا بالمئاتِ ، ولا حتىَ بالألوفِ بلْ بعشراتِ الألوفِ ومئاتها . في حين أنَ قتلى حروبِ الإسلام الأولى التي كانتْ على عهد رسولِ اللّهِ ﷺ والتي دامت زهاءَ عشرِ سنواتِ ، لَمْ تتجاوزُ ألفين وخمسمائةَ قتيلٍ حَسبَ إحصائيةٍ وثيقة ذكرها غيرُ واحدٍ »[٢].

٣ - قوله ﷺ في رواية الصحيحين عن أبي هريرة « لا تقومُ الساعةُ حتى يَحسُرُ الفراتُ عنْ جبلٍ منْ ذهبٍ يقتتلُ الناسُ عليهِ »[٣].
هذه العلامة لم تظهر بعد .

٤ - قوله ﷺ في صحيح مسلم : « منعتْ العراقُ درهمها وقفيزها ، ومنعتْ الشامُ مُديها ودِينارها ، وَمَنَعتْ مصرَ إردِبها ودينارِهَا ، وعُدتمْ منْ حيثُ بدأتمْ . . الحديث »[٤].

وهذه العلامة قد ظهرت كاملة ، فقد ذهبت الخلافة الإسلامية منذ زمن واستقل أهل العراق بعراقهم ، وأهل الشام بشامهم ، وأهل مصر بمصرهم ، وانقطع ما كان يأتي أهل الحجاز من تلك البلاد من خراج وغيره ، وعاد الأمر في الحجاز كما كان قبل فتح تلك البلاد ، وفي هذا

---

(١) مسلم (١٧٠/٨ ، ١٧١)
(٢) لقد سمعت هذا واستقيته من أخينا الشيخ أبو الحسن الندوي ، وأكده لي مسنداً له بسند لا يتطرق إليه الشك .
(٣) اللفظ لمسلم (١١٤/٨) اللؤلؤ والمرجان (٣٠٥/٣) والبخاري (٧٣/٩) وللحديث تتمة .
(٤) مسلم (١٧٥/٨) .

الحديث آية من أعظم الآيات على صدق نبوة محمد ﷺ ، وثبوت رسالته ، إذ أخبر بهذا الغيب والإسلام لم يتجاوز أرض الجزيرة العربية ، فأخبر بأن العراق والشام ومصر ستفتح وتكون دار إسلام ، ويأتي منها الخير الكثير لأهل الحجاز ثم بعد ذلك يطرأ عليها ما يجعلها تمنع ما كانت تعطيه لأهل الحجاز . فتم كل ذلك حرفياً ، ولم يتخلف منه شيء قط ، فصلى الله وسلم على محمد نبي الله ورسوله صدقاً وحقاً . ويالخيبة من كفر به ؛ ولم يتبعه فيما جاء به .

٥ - قوله ﷺ في الصحيحين : « لا تقومُ الساعةَ حتى تخرجَ نارٌ منْ أرضِ الحجاز تُضيءُ أعناقَ الإبلِ ببصرى »[١] . وقدْ ظَهَرَتْ هَذِهِ العلامةُ كَما أخبر ﷺ ؛ فقَدْ احترقتْ الحرَّةُ الشرقيةُ منَ المدينةِ النبويةِ ، واستمرتْ النارُ ملتهبةَ فيها مدةً طويلةً ، ولهبها يُرى منْ بُصرى الشامِ . وما زالتْ حِجارتُها سوداء محترقةً كالفحمِ إلى الآنِ ، وكانَ ظهورُ هذهِ النَارُ ليلةُ الأربعاءِ ثالثُ جمادى الآخرةِ مِنْ عامَ (٦٥٤) هـ.

٦ - قوله ﷺ في الصحيحين : « لا تقومُ الساعةَ حتى تضطربُ ألَياتُ نساءُ دَوْسٍ حولَ ذي الخُلَصةُ ، وكانتْ صنماً تَعبدها دوسٌ في الجاهليةِ بِتَبالةِ »[٢]. وقد ظهرت هذه العلامة وفق أخباره ﷺ ، فقد عادت الجاهلية إلى أرض الجزيرة قبيل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى فعُبدت الأشجار والأحجار ، وانتشر ذلك في شتى بلاد العالم الإسلامي فذُبحت الذبائح ، وأوقدت الشموع ، ونذرت النذور للمزارات والأضرحة والقبور بصورة عجيبة ، وعلى مرأى ومسمع من كثير من علماء المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وفي هذا الخبر

---

(١) اللؤلؤ والمرجان (٣٠٥/٣) ، والبخاري (٧٣/٩) ومسلم (١٨٠/٨) .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم (١٨٢/٨) واللؤلؤ والمرجان (٣٠٦/٣) ، والبخاري (٧٣/٩) .

النبوي الشريف والذي تم طبق ما أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم رد على الذين يزعمون أن هذه الأمة لا يقع بينها الشرك ، ولا يوجد بينها من يعمل به مستدلين بقوله صلى الله عليه وسلم **« إنَ الشيطانَ قدْ يئسَ أن يعبدهُ المصلونَ في جزيرةِ العربِ »**[1] .

وفاتهم أن يفهموا أن يأس الشيطان ليس حجة في عدم وجود الشرك في الأمة الإسلامية . إن الشيطان يئس من أن يُعبد في الجزيرة العربية لما رأى أعلام التوحيد منشورة على ربوعها ، وأهل كلمة التقوى الذين هم أحق بها وأهلُها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يملأون كل أجوائها وأرجائها تهليلاً وتكبيراً ، وتحميداً وتسبيحاً فيئس اللعين ، ولكن ما إن ذهب ذلك الجيل الذي رباه القائد الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم وما تلاه من أجيال ، وجاءت أجيال أخرى لم تذق طعم تلك التربية النبوية ، ولم تعرف بحق هدى الله الذي جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم : فخالط أعمالها الشرك ، وداخل بعض معتقداتها الزيغ والضلال حتى ذهب عن الشيطان يأسه الأول ، وعاد إليه الأمل المفقود ، ومازال يحسّن لكثير من أفراد أمة الإسلام الشرك ، والعمل به حتى أصبح الشرك أكثر فشواً في الأمة من التوحيد ، وكفى بالواقع شاهداً على ما نقول ودليلاً ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[2]

٧ ـ قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين : « لا تقومُ الساعةَ

---

(١) رواه مسلم (١٣٨/٨) وله تتمة ورواه الترمذي بلفظ : «ألا ان الشيطان قد أيس أن يعبد في بلادكم هذه ابدا ، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من اعمالكم وسيرضى بها » « كتاب البر » باب ٢٥ » وأحمد (٣٦٨/٢ ، ٣١٣/٣ ، ٣٥٤ ؛ ٣٦٦ ، ٣٨٤ ، ٧٣/٥) والترمذي في الفتن أيضاً باب (٢) .

(٢) سورة يوسف الآية (١٠٦) .

حتىَ يخرجُ رجلٌ منْ قحطانٍ يسوقُ الناسَ بعصاهُ »[1]. وهذه العلامة لم تظهر بعد . .

٨ ـ قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين : « لا تقومُ الساعةَ حتى يقاتلُ المسلمون اليهودَ ، فيقتلهمُ المسلمونَ حتى يختبيءُ اليهوديَ منْ وراء الحجر والشجر فيقولُ الحجرُ أو الشجرُ يا مسلمُ يا عبدُ اللّهِ هذا يهوديٌ خلفَي فتعالَ فاقتلْهُ : إلاَ الغرقدُ فإنهُ منْ شجرِ اليهودِ »[2].

وقد بدت بوادر هذه العلامة تلوح في الأفق ، فقد قاتل العرب المسلمون اليهود في عدة معارك في أرض فلسطين ، وسوف يستمر قتالهم لهم حتى يكتب الله النصر للمسلمين ، ويستأصلون اليهود من أرض القدس نهائياً .

٩ ـ قوله ﷺ : « بادروا بالأعمالِ فتناً كقطع الليلِ المظلم يصبحُ الرجلُ مؤمناً ، وَيمسي كافراً ، ويمسىَ مؤمناً . ويصبحُ كافراً يبيعُ دينهُ بعَرَضٍ منَ الدنيا »[3] وقد أخذت هذه العلامة في الظهور ، ووقع لعدد كثير من الناس ما حمله هذا الخبر النبوي الصادق .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان (٣٠٧/٣) ومسلم (١٨٣/٨) والبخاري (٧٣/٩) .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم (١٨٨/٨) والبخاري (٥١/٤) واللؤلؤ والمرجان (٣٠٨/٣) .

(٣) مسلم (٧٦/١) .

آيات قريبة جداً من قيام الساعة

هذه بعض آيات أخرى تدل على قرب الساعة ، ولكنها قريبة جداً من قيام الساعة ، ولذا لم يظهر منها شيء بعد وهي :

١ ـ في قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزالُ طائفةٌ منْ أمتي يقاتلونَ على الحقِ ظاهرينَ إلى يوم القيامةِ ، قالَ : فينزلُ عيسى ابنُ مريمُ فيقولُ أميرهمُ تعالَ صلِ لَنَا ! فيقولُ : لا ، إنَ بعضكمْ على بعضٍ أمراء ، تكرمةُ اللّهِ هَذِهِ الأمةِ »[1] .

٢ ـ في قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين : « تقومُ الساعةَ والرجلُ يحلبُ اللقْحةَ[2] فما يصلُ الإناءَ إلى فيهِ حتى تقومُ ، والرجلانِ يتبايعانِ الثوبَ فما يتبايعانهِ حتى تقومُ ، والرجلُ يلوطُ[3] حوضهُ فما يصدرُ حتى تقومُ »[4].

٣ ـ في قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين : « واللّهِ لينزلنَ

---

(١) (٩٥/١) وروى البخاري « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم » (٢٠٤/٤ ، ٢٠٥) واللؤلؤ والمرجان (٣١/١) ، ومسلم (٩٤/١) .

(٢) اللقحة : الناقة ذات اللبن .

(٣) لاط الحوض يلوطه إذا مدره بالطين لئلا ينشف الماء : وهذا اللفظ يروى بألفاظ أخرى : ـ يلط ، ويليط .

(٤) اللفظ لمسلم (٣١٠/٨) وللبخاري معناه (٧٤/٩) .

ابنُ مريمَ حكماً عادلاً ، فليكسرنَ الصليبَ ، وليقتلنَ الخنزيرَ ، وليضعنَ الجزيةَ ، ولتتركنَ القلاصُ[1]، فَلَا يُسعَى عليها ، ولتذهبنَ الشحناءَ والتباغضَ والتحاسدَ ، وليدعونَ إلى المالِ فلا يقبلهُ أحدٌ »[2].

٤ ـ في قوله ﷺ في صحيح مسلم : «إنَ اللّهَ يَبعثُ ريحاً مِنَ اليمنِ ، ألينُ مِنَ الحريرِ فلا تدعُ أحداً في قلبهِ ـ قالَ أبو علقمةَ : مثقالَ حبةٍ من إيمانٍ إلا قبضتهُ »[3] .

٥ ـ في قوله ﷺ في صحيح مسلم أيضاً : « لا تقومُ الساعةَ إلا عَلى شرارِ الناسِ »[4] .

---

(١) القلاص : واحدها القلوص وهي الشابة من الإبل ، الطويلة القوائم .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم (١/٩٤) واللؤلؤ والمرجان (١/٣١) ، والبخاري (١٠١/٣ ، ١٠٢) بمعناه .

(٣) (٧٦/١).

(٤) (٢٠٨/٨) ، ورواه البخاري بلفظ « من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء » (٦١/٩) ، واللؤلؤ والمرجان (٣١٤/٣) .

(بداية الانقلاب الحقيقي)

إذا أذن الله جل جلاله ، وعظم سلطانه بانقراض الكون ، وانتهاء هذه الحياة الأولى أمر ملكاً يدعى إسرافيل أن ينفخ في الصور نفخة واحدة للفناء فينفخ نفخة فيصاب الكون كله بخلخلة عنيفة فتنحل بها كل الروابط التي كانت تربط بين أجزاء الكون ، فترتج الأرض رجاً عنيفاً ، وتتزلزل زلزالاً مروعاً[1]، وتندك مع جبالها دكاً ، فتصير هباء مُنبثاً .

وتُصاب السماء بانفطار عظيم يبطل معه قانون الجاذبية المعروف الآن ، فتتناثر الكواكب ، وتتكدر الشمس ، ويذهب ضوء الكل ، ويفقد الجميع كيانه ، فتنصهر تلك الأجرام السماوية بجميع مجراتها فإذا هي كالنحاس المذاب تماماً ،[2]. وإذا العالم كله سَديم وبخار كما كان قبل وجوده وخلق الله تعالى له .

تنبيــــه :

ولننبه هنا إلى أن كل هذا الذي ذكرناه من ظواهر الانقلاب

---

(١) أما الإنسان الذي يزعم أنه سيد هذا الكون ، ولم يبرح يتطاول ويتعالى حتى على خالقه جل وعلا فإنه عندما يشاهد هذه الأهوال بعينه . ويسمع دويها بأذنيه يفقد كل رشده ، وتخف أحلامه ، ويطير لبه ويفقد صوابه حتى يصبح كالفراش في حمقه . وقلة تعقله . هائجا مائجا سكران من شدة الفزع والهول وما هو بسكران ، مراضعه عما ترضع ذاهلة ، وحوامله لما في بطنها واضعة .

(٢) مصداقه في قوله تعالى : « يوم تكون السماء كالمهل » سورة المعارج الآية (٨) وقوله « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » سورة الرحمن الآية (٣٧) .

الكوني لقيام الساعة لم يكن مستقى من مجرد النظريات الكونية ، ولا مستقى من تقولات الناس وتنبؤاتهم ، ولا من تكهنات المعنيين بمثل هذه الأحداث الكونية ، وإنما هو الحق اليقين الثابت بالوحي الإلهي ، الواصل بواسطة جبريل الروح الأمين المنزل على قلب سيد المرسلين محمد ﷺ .

وها هي ذي آيات الله رب الكون وخالقه تنطق بكل ما سيجري فيه ، وعليه ، قال تعالى في فاتحة سورة الحج :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (١)

وقال تعالى في فاتحة القارعة :

﴿ الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ (٢)

وقال تعالى من سورة المعارج :

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَظَى﴾ (٣)

---

(١) الآيتان (١ ، ٢) .

(٢) الآيات (١ - ٥) .

(٣) الآيات (٨ - ١٥) .

وقال تعالى من أول سورة الزلزلة :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴾ (١)

٥ ـ وقال تعالى :

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ (٣)

وقال تعالى :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ (٤)

---

(١) الآيات (١ ـ ٣) .
(٢) الآيات . (١ ـ ٣) من سورة الانفطار .
(٣) الآيات (١ ـ ٦) من سورة التكوير .
(٤) الآيات (١ ـ ٦) من سورة الواقعة .

نشوء الحياة الثانية
بعد انتهاء الأولى

إنه لا مجال للعقل البشري في معرفة الحياة الثانية وإدراكها ، ولا في بدء نشأتها ، وكيفية وجودها ، وكل ما في الأمر أن العقل البشري يجيز ولا يحيل وجود حياة كهذه الحياة ، أو أرقى منها بالقياس إلى هذه الحياة ، إذ القدرة الفاعلة المختارة التي كان بها هذا الكون ، ووجدت بها هذه الحياة ، في إمكانها عقلًا أن تحدث كوناً وحياة أرقى وأفضل من الكون السابق ، والحياة المتقدمة .

وبناء على هذا فإن نشأة الحياة الثانية مرد معرفتها إلى إخبار الله تعالى في كتبه ، وإخبار رسله عليهم الصلاة والسلام . وأن مجمل ما عرفناه عن نشوء الحياة الثانية هو : أنه بعد فناء العالم بنفخة إسرافيل نفخة الفناء ، كما تقدم آنفاً[1] ـ وبعد مضي أربعين سنة لا ندري هل أيامها وشهورها مقدرة بأيام حياتنا هذه أو بأيام وشهور أخرى لا تخضع للنظام الشمسي الذي كانت به أيامنا وأعوامنا هذه؟؟ بعد مضي هذا الزمن ينزل من السماء ماء ، فتنبت الأجسام تحت الأرض كما ينبت البقْل ، وذلك بواسطة تفاعل الماء مع بذرة الحياة التي هي عبارة عن عُظيم صغير يوجد في آخر فقرات الظهر من كل إنسان وجد فيَ هذه الحياة الدنيا ، يسمى عَجب الذَنبِ . فاذا تم الخلق ، واكتمل النمو ، وأصبحت الأجسام هياكل تامة التكوين تحت الأرض لا ينقصها إلا أن

(١) في ص (٣٤٦) فصل : بداية الانقلاب الحقيقي .

تحلها الأرواح ، فتدب فيها الحياة وتتحرك ، وتقوم ، أرسل الله الخالق سبحانه وتعالى الأرواح التي قبضها ملك الموت يوم وفاة كل إنسان في هذه الحياة ، وأودعت في مستودعات بعضها في العالم العلوي وهي الأرواح الطاهرة الطيبة نتيجة إيمان صاحبها ، وعمله الصالح ، وتركه الشرك والمعاصي . وبعضها في العالم السفلي وهي الأرواح الخبيثة نتيجة كفر صاحبها ، وارتكاب الجرائم والآثام . فتدخل تلك الأرواح الآتية من مستودعاتها الأجسام التي هُيئت لها فتحيا : ثم ينادي مناد الله تبارك وتعالى : أن قوموا لربكم ، فتسمع وتجيب ، وتنشق الأرض عنهم بسرعة ويقومون من قبورهم أحياء للحشر بعد أن تم النشر .

وهذه المعلومات اليقينية التي سقناها ، وكشفنا بها عن كيفية المعاد وبدء الحياة الثانية ، وطريقة نشوئها ، جاءت بها آيات قرآنية ، وصحت بها سنن نبوية لا مجال أبداً لإنكارها ، أو الشك فيها . وها نحن نوردها مجملين لها فيما يلي : -

قال تعالى من سورة الحاقة :

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [١]

وقال تعالى من سورة ق :

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ

(١) الآيات (١٣ - ١٨) .

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾(١)

وقال تعالى من سورة القمر :

﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾(٢)

وقال تعالى من سورة المعارج :

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾(٣)

وقال تعالى من سورة الإسراء :

﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٤)

وقال رسول الله ﷺ في حديث البخاري ومسلم واللفظ له : **« ما بينَ النفختينِ أربعونَ قالوا : يا أبا هريرةَ أربعون يوماً ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعونَ شهراً ؟ قال أبيت ، قالوا أربعون سنة ؟ قال أبيت ، ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل. قال : وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عَجْب الذَّنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة »**(٥) .

---

(١) الآيات (٤١ - ٤٤) .

(٢) الآيات (٦ - ٨) . (٣) الآيتان (٤٣ - ٤٤) . (٤) الآيتان (٥١ - ٥٢) .

(٥) لم يجزم أبو هريرة راوي الحديث بتفسير لفظ الأربعين هل هو أربعون يوما ، أو شهرا ، أو عاما غير أنه ورد في رواية أخرى مفسرا بلفظ (سنة) قاله النووي في شرحه على مسلم (٥/٨١٣) طبعة الشعب تحقيق وإشراف عبد الله أحمد أبو زينة . والحديث في اللؤلؤ والمرجان (٣/ ٣١٥) ، والبخاري (٦/١٥٨ ، ٢٠٥) ومسلم (٨/ ٢١٠) .

الحشر
والموقف الصعب في عرصات القيامة

ما هو الحشر :

إن الحشر عبارة عن جمع الخلائق بعد بعثهم أحياء في ساحة واحدة تدعى عرصات القيامة ، وذلك لفصل القضاء ، وهو الحكم فيما بينهم من أجل مجازاتهم . فالناس إذا بُعثوا من قبورهم أحياء ، حفاة ، عراة ، غُرلاً ، كما بدأ الله تعالى خلقهم أولاً يعيده ثانياً ، قال تعالى من سورة الأنبياء :

﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾[1]

وقال الرسول ﷺ في الصحيحين : «يحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ على أرضٍ بيضاءَ عفراءَ كقرصةِ النقي ليسَ فيها علمٌ لأحدٍ»[2] وقال في الصحيحين أيضاً : « يحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ حفاةَ عراةً غرلاً »[3] قلتُ يا رسولُ اللّهِ النساءُ والرجالُ جميعاً ينظرُ بعضهم إلى بعضٍ ؟ قالَ ﷺ : يا عائشةَ الأمرُ أشدُ مِنْ أنْ ينظرُ بعضهُم إلى بعضٍ »[4].

---

(١) الآية (١٠٤) .

(٢) اللفظ لمسلم (٨/ ١٢٧) والبخاري (٨/ ١٣٥) واللؤلؤ والمرجان (٣/ ٢٧٥) ومعنى عفراء بيضاء تميل إلى الحمرة قليلا وقرصة النقي الخبز الأبيض السالم من الغش والنقي من النخالة .

(٣) الغرل جمع أغرل وهو من لم يختتن .

(٤) اللفظ لمسلم (٨ / ١٥٦) واللؤلؤ والمرجان (٣/٢٩٤) والبخاري (٨ /١٣٦) .

ويحشر الكافرون على وجوههم ، لقوله تعالى من سورة الإسراء :

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ۝ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٩٨﴾[1]

وقيل للرسول ﷺ : كيف يحشرالكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قالَ : « أليسَ الذي أمشاهُ علىَ رجليهِ في الدنيا قادراً علَى أنْ يمشيهِ على وجههِ يومَ القيامةِ ؟ »[2]

وتُدنى الشمس في ذلك اليوم من رؤوس الخلائق حتى تكون قريبة منهم جداً ، فتشتد الحرارة في الموقف ، ويعرق الناس لذلك حتى يذهب العرق سبعين ذراعاً ، فقد جاء بهذا الحديث الصحيح ففي مسلم عن المقداد بن الأسود قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقولُ : « تدنىَ الشمسُ يومَ القيامةِ مِنَ الخلقِ حتىَ تكونُ منهمُ كمقدارِ ميلٍ ، فيكونُ الناسُ علَى قدرِ أعمالهمُ في العرق ، فمنهمْ مَنْ يكونُ إلى كعبِهِ ، ومنهُمْ مَنْ يكونُ إلى ركبتيهِ ، ومنهُمْ مَنْ يكونُ إلى حقويهِ[3]، ومنهُمْ مَنْ يلجمهُ العرقُ إلجاماً قالَ : وأشَارَ رسولُ اللّهِ ﷺ بيدِهِ إلى فيهِ »[4]

---

(١) الأيتان (٩٧ ، ٩٨) .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم (٨/ ١٣٥) والبخاري (٦ ـ ١٣٧) واللؤلؤ والمرجان (٣/ ٢٨٢) .

(٣) الحقو بفتح الحاء والجمع حقاء كبناء هو الخصر . أو الإزار لأنه يشد على الحقو .

(٤) مسلم (١٥٨/٨) .

فصل القضاء
والشفاعة فيه

ما هو فصل القضاء :

إن المراد من فصل القضاء هو أن الناس لما يحشرون إلى ربهم . ويبلغ العناء منهم مبلغاً عظيماً ، وذلك من شدة الهول ، وصعوبة الموقف ، يرغبون في أن يحكم الله تعالى فيهم أو بينهم بما هو أهله . وبما هم متهيئون له بحسب طهارة أرواحهم ، أو خبثها . فيريحهم من شدة الموقف وأتعابه ومصداق هذا في قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ (١١) لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ (١٢) لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ (١٣) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ (١٤) وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴾[1]

كما في قوله عز وجل :

﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ (٣٦) وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴾[2]

ولما يطول موقفهم ويعظم كربهم يقول بعضهم لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه ؟ ألا ترون ما قد بلغكم ؟ فيأتون آدم ليشفع لهم عند الله تعالى

---

(١) سورة المرسلات الآيات (١١ ـ ١٥) .

(٢) سورة المرسلات الآيات (٣٥ ـ ٤٠) .

فيعتذر لهم ويقول : « إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسي نفسي !! اذهبوا إلى غيري ، فيأتون المرسلين واحداً واحداً نوحاً ، فإبراهيم ، فموسى ، فعيسى فيعتذر الكل ، ويقول نفسي نفسي !! حتى ينتهوا إلى خاتم الأنبياء ، وإمام المرسلين محمد ﷺ فيقول : « أنا لها فيأتي ربهُ فيخرُ ساجداً تحتَ العرشِ ، ويلهمهُ ربُّهُ تعالى محامداً يحمدهُ بها ، فلاَ يزالُ كذلكَ حتَى يقولُ لهُ الرَبُ تباركَ وتعالَىَ : « ارفعُ رأسكَ ، وسلْ تُعطَ ، واشفعْ تُشفعُ ، فيرفعُ رأسهُ ويقولُ : يا ربِ أمتي فيقالُ لهُ : يا محمد أدخلِ الجنةَ مِنْ أمتكَ مَنْ لا حسابَ عليهِ مِنَ البابِ الأيمنِ مِنْ أبوابِ الجنةِ ، وهمْ شركاءَ الناسِ فيما سوىَ ذلكَ مِنَ الأبوابِ[1] »، ويجري بعد ذلك القضاء مجراه فتعطى الكتب ، وتُوضع الموازين ، ويحاسب الناس .

(١) كل هذا الذي ذكرنا من بيان الموقف ، والشفاعة ثابت في الصحيحين ؛ وقد تقدم في مبحث الشفاعة من هذا العقيدة فليرجع إليه .

الحساب والميزان

إن الحساب يدور على محتويات الكتب التي يُعطاها كل فرد من أفراد الناس في ساحة فصل القضاء، ويقرؤها كل واحد من أهل الموقف، وسواء من كان يقرأ منهم ومن لم يكن يقرأ، ويختلف إعطاؤهم تلك الكتب، وتلقيهم لها، إذ منهم من يُعطى كتابه بيمينه ومن أمامه، ومنهم من يعطى كتابه بشماله ومن وراء ظهره، وبمجرد إلقاء نظرة على محتوى الكتاب يعلم صاحبه بمصيره، ويعلن على الفور عن فوزه، وفرحه، وسروره، أو عن خيبته، وحزنه، وخسرانه.
قال تعالى في بيان هذا وتقريره من سورة الانشقاق:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾[١]

وقال من سورة الحاقة:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢)

---

(١) الآيات (٧ - ١٢).

قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾[1]

وبينما هم كذلك إذ توضع الموازين القسط ، ويتقدم الناس واحداً واحداً للحساب ، فمنهم من يُحاسب حساباً يسيراً وهو العرض الذي قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيه لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها « منْ حوسبَ يومَ القيامةِ عُذِبَ » فقلتُ : أليسَ اللَّهَ عزَ وجلَ يقولُ : ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾[2]

فقال لها : ليسَ ذاكَ الحسابِ إنما قالَ العرضُ ، منْ نوقشَ الحسابِ يومَ القيامةِ عُذِبَ »[3].

ومنهم من يحاسب حساباً عسيراً ، يُستنطق الفرد ، ويسأل عن كل صغيرة وكبيرة ، فإن أجاب بالصدق والحق فيها ونعمت ، وإن حاول الكذب أو الكتمان فإنه يختم على فمه ، وتستنطق جوارحه ، فتنطق

(١) الأيات (١٩ - ٣٧) .
(٢) سورة الانشقاق الآية (٨) .
(٣) متفق عليه واللفظ لمسلم (٨/ ١٦٤) اللؤلؤ والمرجان (٣/ ٢٩٩) ، والبخاري (١/ ٣٩) .

بالذي عمل في دنياه ، ولا تخفي شيئاً ، فيلومها على نطقها وشهادتها عليه ، فيكون ردها عليه بقولها الذي حكاه القرآن الكريم من سورة فصلت :

﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1]

وقال تعالى في بيان هذه الحقيقة من سورة النور :

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2]

وقال تعالى في ذلك من سورة يس :

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[3]

ويجري هذا الاستجواب والاستنطاق في جو رهيب للغاية ، إذ تقوم فيه الأشهاد ، ولا يؤذن للمرء في الاعتذار فيعتذر ، ولا تقبل من ظالم معذرة ، وتُعرض الأعمال عرضاً حياً ناطقاً ، فيرى المرء عمله وهو يباشره ويا للفضيحة !!! قال تعالى من سورة الزلزلة :

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾[4]

ثم توضع الموازين العادلة ذات الدقة المتناهية ، وتحصر الأعمال فلا يترك منها عمل وإن قل ودق ، فتوضع في موازين العدل ، وتوزن ، وبحسب نتيجة الوزن تكون السعادة ، أو يكون الشقاء . قال تعالى في بيان هذه الحقيقة من سورة الأنبياء :

---

(١) الآية (٢١) .

(٢) الآية (٢٤) .

(٣) الآية (٦٥) .

(٤) الآيات (٦ ـ ٨) .

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[1]

وقال تعالى من سورة المؤمنون :

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[2]

---

(١) الآية (٤٧) .

(٢) الآيات (١٠٢ ـ ١٠٥) .

الصـراط

وأخيراً الصراط :

إنه بعد وزن الأعمال والفراغ منها ، وبيان السعيد من الشقي في الجملة ، يضطر الناس إلى المرور على الصراط ، وهو جسر دقيق منصوب على ظهر جهنم وهي عقبة كأداء في طريق الذاهبين إلى دار السلام ، وممر خطير للغاية يشهد لخطورته أن الرسول ﷺ يقف على جنباته والناس يمرون ، وهو : يدعو : « ربِ سلمْ سلمْ »[1]. ويكون مرور الناس بحسب أعمالهم في الدنيا ، فمنهم من يمر بسرعة مدهشة حتى لكأنه البرق الخاطف . ومنهم من يمر دون ذلك إلى أن ينجو من ينجو ولو حبواً على يديه وركبتيه ، ويهلك من يهلك بسقوطه في جهنم دار الشقاء ، والهوان ، والبوار ، والخسران .

وقد وصف رسول الله ﷺ الصراط في معرض حديثه عن الشفاعة العظمى والمقام المحمود الذي وعده به ربه تبارك وتعالى في قوله :

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾[2]

فقال ﷺ : « فيأتونَ محمداً ﷺ فيقومُ فيؤذنَ لهُ ، وترسلُ الأمانةُ والرحمُ

---

(١) رواه مسلم (١/ ١٢٩ - ١٣٠) وفي البخاري الحديث عن القيامة والصراط « وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم » (١/ ١٩٣ ، ١٩٤) واللؤلؤ والمرجان (٤٢ - ٤٤) ومسلم بلفظ « ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم » (١/ ١١٢ ، ١١٤) .

(٢) سورة الاسراء الآية (٧٩) .

فتقومانِ جنبتيِ الصراطَ يميناً وشمالاً فيمرُ أولكمُ كالبرقِ : قلتُ : بأبي وأميَ أي شيءٍ كمر البرق ؟ قالَ : ألم تروا إلى البرقِ كيفَ يمرُ وَيَرجعُ في طرفةِ عينٌ ، ثُم كمرِ الريحِ ، ثُمَ كمرِ الطيرِ ، وشدِ الرجالِ تجري بهمْ أعمالهمْ ، ونبيكمْ قائمٌ على الصراطِ يقولُ : ربِ سلمْ ، سلمْ . حتى تعجزُ أعمالُ العبادِ ، حتى يجيءُ الرجلُ فلا يستطيعُ السيرَ إلا زحفاً ». قَالَ : وفي حافتي الصراطِ كلاليبٌ معلقةٌ ، مأمورةٌ بأخذِ مَنْ أمرتْ بهِ ، فمخدوش ناجٍ ، ومكدوسٍ في النارِ »[1]

القنطرة بين الجنة والنار

هل هناك قنطرة بعد الصراط ؟

نعم : إنه بعد أن يجتاز المؤمنون الصراط بسلام وأمان من الوقوع في النار يوقفون على قنطرة بين الجنة والنار ، لتهذيبهم وتطهيرهم من كل ما كان بينهم من عداوات أو شحناء ، أو حقوقهم لبعضهم على بعض ، ثم بعد ذلك يؤذن لهم بدخول الجنة فيدخلون . وقد روي حديث القنطرة هذه الإمام أبو عبد الله البخاري في صحيحه ، وهذا نصه :

يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هُذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفسُ محمدٍ بيدهِ لأحدهمْ أهدىَ بمنزلِهِ في الجنةِ منهُ بِمنزِلِهِ كانَ في الدنيا »[2].

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ١٢٩ ، ١٣٠) .

(٢) البخاري (٨/ ١٣٨ ، ١٣٩ ؛ ٣/ ١٥٨ ، ١٥٩) .

دار السلام

إن من إتمام بحث عقيدة البعث والجزاء ، وتوفية هذا الركن من أركان عقيدة المؤمن حقه في الدرس والبحث أن يخص كل من دار السلام . ودار البوار[1] بعرض خاص يجلي حقيقة كل منهما بما يبعث على الرغبة في الفوز بدار السلام ، ويبتعد عن الثانية باجتناب الشرك ، وترك معصية الله تعالى ، ورسوله ﷺ .

ولما كان الحديث عن دار السلام شيقاً ومحبباً إلى النفوس المؤمنة ، فإن الإطناب فيه أولى من الإيجاز ، والاسهاب أولى من الاختصار . ومن هنا فسيكون بحثنا لهذا الجزء من ركن عقيدة المؤمن في البحث والجزاء ضافياً ، يتناول الحديث عن سعة دار السلام ، وأبوابها ، وأنهارها ، وخدمها ، ومطاعمها ، ومشاربها ، وسائر ألوان النعيم فيها . كما سيكون مصدر استقائنا لكل المعلومات في حديثنا عن دار السلام هو الكتاب والسنة ، إذ الأول كتاب من أوجدها ، وأوجد نعيمها ، وخلق أهلها ، وهداهم ، فأعدهم لها ، وعرفهم بها ، وأما السنة فإنها أخبار من دخلها ، ووطئت أقدامه أرضها ، وبلغ سدرة المنتهى فيها كما قال تعالى :

﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾[2]

---

(١) دار البوار جهنم لقوله تعالى : « وأحلوا قومهم دار البوار يصلونها » سورة إبراهيم الأيتان (٢٨ ، ٢٩) .

(٢) سورة النجم الأيات (١٢ ـ ١٥)

سعة دار السلام
وطيب ريحها

ما أوسع دار المتقين . وما أطيب ريحها !!

إن عرضها كعرض السموات والأرض ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة مائة عام ، إذ قال تعالى :

﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]

وقالَ رسولُ ﷺ : « إنَ ريحها ليوجدُ مِنْ مَسيرةِ مائةُ عامٍ »[2]

(أبوابها)

إن للجنة دار النعيم لثمانية أبواب[3]. أحدها يسمى الريان ، وهو خاص بالصائمين[4]. ومنها باب خاص بالذين لا يحاسبون من أمة محمد ﷺ[5].

وأبواب الجنة في غاية الوسع ، والكبر حتى إن ما بين مصراع

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٣٣) .

(٢) النسائي بلفظ (وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين سنة) (٨/٢٢) والترمذي ديات (١١) وابن ماجة (ديات / ٣٢) وأحمد (٢/ ١٧١ ، ١٨٦ ، ٥/٢٧ ، ٥٠ ، ٥١) والموطأ بلفظ : (وريحها يوجد من مسيرة خمسمائة عام) (٣/ ١٠٣) .

(٣) لحديث مسلم في فضل التشهد بعد الوضوء (١/ ١٤٤، ١٤٥) والبخاري (٤/ ١٤٥) .

(٤) ورد هذا في المتفق عليه اللؤلؤ والمرجان (٢/ ١٩ ، ٢٠) .

(٥) تقدم في حديث الشفاعة من فصل القضاء وهو مخرج في الصحيحين اللؤلؤ المرجان (١ / ٤٩ - ٥١) .

الباب مسيرة أربعين سنة ، ومع هذا الوسع فسوف تكتظ بأفواج الداخلين معها ، وتزدحم ، وقد عُلم أن حلق تلك الأبواب مكونة من ياقوت أحمر ، قائمة على صفائح من ذهب ، فقد روى مسلم في صحيحه عن الصادق المصدوق ﷺ قوله « إنَ ما بينَ مصراعينِ منْ مصاريع الجنةِ بينهما مسيرةِ أربعينَ سنةً ، وليأتينَ عليها يومٌ وهيَ كظيظٍ مِنَ الزحامِ »[1] .

وقال ﷺ وهو يحدثُ عنْ أهلِ الجنةِ : « وينتهونَ إلى بابِ الجنةِ فإذا حَلقه مِنْ ياقوتةٍ حمراءَ على صفائحِ الذهبِ »[2] .

عند باب الجنة

ماذا عند باب الجنة :

إن عند باب الجنة شجرة عظيمة ينبع من أصلها عينان ، قد خصصت إحداهما لشراب الداخلين ؛ وثانيتهما لتطهيرهم فإذا شربوا من الأولى جرت في وجوههم نضرة النعيم فلا ييأسون أبداً ـ وإذا اغتسلوا من الثانية لم تشعث أشعارهم أبداً ، وفي القرآن الكريم مصداق هذا قال تعالى : من سورة الإنسان :

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[3]

وفي الحديث يقول الرسول ﷺ : « وإذا شجرةٌ على بابِ الجنةِ ينبعُ منْ أصلُها عينانِ ، فإذا شربوا مِنْ إحداها جرتْ في وجوههمْ نضرةَ

---

(١) مسلم في كتاب الزهد (٨/ ٢١٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي في حديث طويل في وصف الجنة . وصحح المنذري وقفه على علي رضي الله عنه في الترغيب والترهيب (٤/ ٤٩٤) . ولكنه في حكم المرفوع لأن مثله مما لا يقال بالرأي .

(٣) الآية (٢١) .

النَعيمِ ، وإذا توضئوا مِنَ الأخرىَ لمْ تشعثُ أشعارهمْ أبداً »[1] .

استقبال أهل الجنة

إن دخول الجنة سيكون قطعاً في فترات متتالية ، وقد يبعد ما بين الفترة والأخرى ، إذ صح أن فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل ذوي الحظوظ بخمسمائة عام[2] ، وذلك لعدم ما يستلزم وقوفهم طويلاً في ساحة فصل القضاء ، وموقف الحساب بخلاف أهل الحظ والغنى .
وفي القرآن الكريم يقول تعالى من سورة الزمر :

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[3]

وفي الصحيحين من أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم : « أنَ أولَ زمرةً يدخلونَ الجنةَ على صورةِ القمرِ ليلةِ البدرِ . والذينَ يلونهمْ على أشدِ كوكبٍ دري في السماءِ إضاءةً لا يبولون، ولا يتغوطونَ ، ولا يمتخطونَ ، ولا يتفلونَ أمشاطَهمْ الذهبُ ، ورشحهمْ المسكُ ، ومجامرهمْ الألُوَّةَ[4]، أزواجهمْ الحورِ العينِ ، أخلاقهمْ على خلقِ رجلِ واحدِ ، على صورةِ أبيهمْ آدمَ ستونَ ذراعاً في السماءِ »[5] إن هذا التفاوت بين أهل الجنة في دخولهم ، وحسن هيئتهم وجمال وجوههم عائد إلى تفاوت أعمالهم في الدنيا ، في كمياتها وكيفياتها ،

---

(١) قال الحافظ المنذري « رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي وغيرهما عن عاصم ابن حمزة عن علي موقوفا عليه بنحوه وهو أصح وأشهر الترغيب والترهيب (٤/ ٤٩٤ ـ ٤٩٦) .
(٢) أبو داود (٢/ ٢٩٠) .
(٣) الآية (٧٣) .
(٤) العود يتبخر به .
(٥) اللفظ لمسلم (٨/ ١٤٦) واللؤلؤ والمرجان (٣/ ٢٨٩) ، والبخاري (٤/ ١٦٠) .

وهو أمر من الوضوح بحيث لا يخفى على ذي لب ، ففي الدنيا تكتسب النفس البشرية حسنها وجمالها من إيمان صاحبها ، وأعماله الصالحة ، وفي الآخرة يكتسب جمال الذات ، وكمال النعيم من نفس الزكاة الروحية التي كانت لها نتيجة إيمانها ، وصالح أعمالها في الحياة الدنيا .

وتستقبل الملائكة وفود الرحمن عند دخولهم إلى دار السلام ، وأول المستقبلين هو رضوان خازن الجنان ، ثم الملائكة الموكلون بنعيم الجنة وأهله . وفي القرآن الكريم :

﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[1]

وفيه أيضاً :

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾[2]

وفيه أيضاً :

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[3]

قصور دار السلام وتفاضلها

نكتفي بوصف قصور دار السلام ، وبيان تفاضلها بما جاء في رسالتي « الجنة دار الأبرار والطريق الموصل إليها » إذ قلت : « من الذي يقوى على وصف قصورهم ، أو يحسن التعبير عن نعيمهم

(١) سورة الأنبياء الآية (١٠٣) .

(٢) سورة الزمر الآية (٧٣) .

(٣) سورة الرعد الآيتان (٢٣ - ٢٤) .

وسروزهم ، والله مكرمهم ، والمنعم عليهم يقول :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾[1]

وقلت أيضاً : « إن الذي يمكن أن يحدثنا بعض الحديث عن قصور الجنة ، وما حوت من النعيم المقيم هو رجل واحد فقط ذلكم هو النبي الأمي محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ هو الذي تشرفت دار السلام بقدومه عليها ، ورؤيته لها في هذه الحياة الدنيا يقظة مرة ، ومناماً مرات أخرى ، ورؤيا الأنبياء وحي ، فلنستمع إليه صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عنها ويقول محدثاً عن آخر رجل يدخل الجنة « فيقول (يا رب) ألحقني بالناسِ . . فينطلقُ يرملُ في الجنةِ إذ دنا مِنَ الناسِ رفعَ لهُ قصرٌ ، من درةٍ ، فيخرُ ساجداً ، فيقالُ لهُ : إرفعْ رأسكَ . مالكَ ؟ فيقولُ : رأيتُ ربي فيقالُ لهُ : إرفعْ رأسكَ إنما هوُ منزلٌ منْ منازلك . ثم يلقيَ رجلاً فيتهيأ للسجودِ لهُ ، فيقالُ لهُ : مَهْ فيقولُ : رأيتُ أنكَ ملكٌ مِنَ الملائكةِ ، فيقولُ لهُ : إنما أنا خازنٌ مِنْ خزانكَ ، وعبدٌ منْ عبيدكَ . . فينطلقُ أمامهُ حتى يفتحُ لهُ القصرُ ، وهو درةٌ مجوفةٌ سقافها ، وأبوابها ، وأغلاقها ، ومفاتيحها منها ، تستقبله جوهرةٌ خضراءَ ، مبطنةٌ ، كلُ جوهرةٍ تفضيَ إلى جوهرةٍ على غيرِ لونِ الأخرى ، في كلِ جوهرةٍ سررٌ ، وأزواجٌ ، ووصائفٌ أدناهنَ حوراءُ عيناءُ عليها سبعونَ حلةً ، يرى مخُ ساقها منْ وراءِ حللها ، كبدها مرآتهُ ، وكبدهُ مرآتها ، إذا أعرضُ عنها إعراضة ازدادتْ

---

(١) سورة الإنسان الآيات (٢٠ ـ ٢٢) .

في عينيهِ سبعينَ ضعفاً ، فيقالُ لهُ : أشرفْ ، فيشرفُ ، فيقالُ لهُ : ملككَ مسيرةَ مائةَ عامٍ ينفذهُ بصركَ »[1] .

هذا وأما تفاوت درجات أهل دار السلام ، وتفاضل ما بينهم بحسب كمال إيمانهم ، وكثرة صالح أعمالهم . فلنورد له الحديث الصحيح التالي : إذ فيه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم ، قالوا ، يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، قال : بلى ، والذي نفسي بيدهِ رجال آمنوا باللّهِ ، وصدّقوا المرسلين »[2] .

وفي القرآن الكريم مصداق هذا في قوله تعالى من سورة الحديد :

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [3]

نظرة على أرض الجنة

وتحت هذا العنوان قلت في رسالتي المشار إليها آنفاً :

« ما تظن أخي القارىء في أرض الجنة ؟ .

---

(١) قال الحافظ المنذري : « رواه ابن أبي الدنيا ، والطبراني ، والحاكم هكذا عن ابن مسعود مرفوعاً . . وأحد طرق الطبراني صحيح واللفظ له وقال الحاكم صحيح الاسناد وهو في مسلم بنحوه باختصار عنه الترغيب والترهيب (٤/٥٠٣ ـ ٥٠٦) .

(٢) عليه » . اللؤلؤ والمرجان (٢/ ٢٨٨) والبخاري (٤/ ١٤٥) . ومسلم (٨/١٤٥)

(٣) الآية (٢١) .

هل هي من تراب أبيض أو أحمر ؟

وهل حصباؤها من حجارة ملونة جميلة ؟ .

وهل جدران مبانيها من لبن في غاية الحسن والجمال ؟ .

وهل الطين الذي يوضع بين اللبنات لرصفها وإحكامها من مزيج الرمل الأبيض و (الأسمنت)[١] الأزرق الناعم ؟ .

إعلم أخي القارىء أنه لا يستطيع أحد أن يجيبك عن هذه التساؤلات كلها إلا أحد شاهدها ، وعاش ساعة فيها كرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وها هو ذا يسأله أحد أصحابه عنها فيقول له : « إنها لبنةٌ من ذهبٍ ، ولبنةٌ منْ فضةٍ ، وملاطها[٢] المسكُ الأذفرُ ، وحصباؤها اللؤلؤُ والياقوتُ ، وترابها الزعفرانُ ، منْ يدخلها ينعمُ ولا ييأسُ ، ويخلدُ لا يموتُ ، ولا تبلى ثيابهمُ ولا يفنى شبابهمْ »[٣].

جنة عدن بين الجنان

لجنة عدن بين سائر الجنات ميزة خاصة لم تكن لغيرها ، ألا وهي أن إيجادها تم بخلق الله تعالى المباشر لها ، إذ ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرَ أنَ اللّهَ تعالى قدْ خلقَ جنة عدنٍ بيدهِ فقدْ أخرجَ ابنُ أبي الدنيا والطبراني عنهُ صلى اللّهُ عليهِ وسلَم قولهُ : « خَلقَ اللّهُ جنةَ عدنٍ بيدِهِ لبنةٌ منُ درةٍ بيضاءَ ، ولبنةٌ منّ ياقوتةٍ حمراءَ ، ولبنةٌ

---

(١) الاسمنت كلمة معربة لعل عربيها الجير أو الجص أو نوع منهما يخالفهما في القوة والشكل لا في الماهية والذات .

(٢) الملاط : الطين .

(٣) رواه الترمذي (جنة/٢) والدارمي (رقاق / ١٠٠) ، وأحمد (١/ ٣٠٥ ، ٤٤٥) ، وقال عبد القادر الأرناؤوط في تعليقه على جامع الأصول (١٠ / ٤٩٧) وابن حبان في صحيحه ، والطبراني في الأوسط .

منْ زبرجدةٍ خضراءَ ، وملاطها المسكُ ، وحشيشها الزعفرانُ ، حصباؤها اللؤلؤُ ، ترابها العنبرُ ، ثُمَ قالَ لها انطقي ، قالتْ : قدْ أفلحَ المؤمنونَ . . . »[1]..

تنبيـــه !

نحن نعلم أن الله تعالى هو خالق كل شيء ، وليس في الكون كله علويه وسفليه إلا خالق واحد هو الله رب العالمين ، وإله الأولين والآخرين ، وليس ثم غيره أبداً .

فعندما نذكر أنه تعالى خلق كذا بيده ، لإخباره تعالى بذلك كما في قوله :

﴿مَامَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [2]

أو لإخبار رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك كما في الحديث السابق الدال على خلق الله تعالى لجنة عدن بيده سبحانه وتعالى فإننا نعني أن هذا الخلق قد تم على خلاف سنة الله تعالى في خلق الكائنات ، وأن ما أخبر تعالى عنه بأنه خلقه بيده يكون له مزيد شرف ورِفعة بذلك الخلق الخاص وهو الخلق المباشر .

ومن باب تقريب هذه الحقيقة إلى الأذهان نقول : إنه عندما يأمر الملك أو ذو السلطان ببناء قصر مثلاً فيبنى ، فإنه يقال بنى الملك القصر ، وإن لم يباشر البناء بيده ، وذلك لأن البناء قد تم بأمره ، وبسبب الامكانيات التي وضعها تحت تصرف بانيه ، كما أنه إذا تناول الملك حجراً ووضعه بيده في زاوية من زوايا جدار القصر يقال وضع الملك حجر الأساس بيده ومعنى ذلك أنه باشر وضعه بيده حقاً وصدقاً

---

(١) الترغيب والترهيب (٤/ ٥١٣ ، ٥١٤) .

(٢) سورة ص (٧٥) .

وليس من باب المجاز المرسل الذي علاقته السببية في شيء .

ومن هنا قلنا : إن خلق الله تعالى لآدم بيديه هو خلق مباشر ، وحقيقة لا ينبغي إنكارها .

ومثل خلق آدم خلق جنة عدن ، وكل ما ورد في الكتاب والسنة أن الله تعالى خلقه بيديه هو من باب الحقيقة ، ولا معنى لذكر المجاز في ذلك ولا فائدة منه .

الخيام والأسواق في دار السلام

بما أن الجنة فيها ـ بإخبار الله تعالى ـ ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، ولأصحابها فيها كل ما يدعون ويطلبون ، وفيها من النعيم المقيم العظيم ما لم تره عين ، أو تسمع به أذن ، أو يخطر لبشر على قلب ، كما جاء ذلك في الصحيحين في قول الله تعالى على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿أعددتُ لعباديَ الصالحينَ مَا لاَ عَينٌ رأتْ ، وَلاَ أذنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ﴾[1] وفي قوله تعالى من كتابه العزيز :

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾[2]

---

(١) رواه مسلم (١٤٣/٨) والبخاري (٤/ ١٤٣) واللؤلؤ (٣/ ٢٨٦) .

(٢) سورة الزخرف الآيات (٦٨ ـ ٧٢) .

وفي قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾(١)

أقول بما أن الجنة حاوية لكل أوجه النعيم الروحاني والجثماني ، مشتملة على كل ضروب السعادة ، وصنوف النعيم لا يستنكر أن يكون فيها خيام ، ولا يستبعد أن يكون فيها أسواق إذ في الخيام متع ، وفي الأسواق سرور وحبور وسنكتفي بعرض هذه الحقيقة ، وتأكيدها بذكر كلمات قليلة جاءت في رسالتي « الجنة دار الأبرار » تحت عنوان جانبي صغير :

في الخيام ـ حيث قلت : في الجنة خيام قطعاً ، وكيف لا ؟ وخالقها عز وجل يقول :

﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾(٢)

والسؤال هو ما شكل تلك الخيام ؟ ما نوعها ؟ ما هي مادة تكوينها ؟ وما مدى حسنها وجمالها ؟ .

والإجابة الصحيحة عن هذه التساؤلات لا تتلقى إلا من فم النبوة الطاهر برهاناً ساطعاً ، وحقاً قاطعاً ، إذ يقول فداه أبي وأمي : « للمؤمنِ في الجنةِ لخيمةٌ من لؤلؤةٍ واحدةٍ مجوفةٌ طولها (في السماءِ) ستونَ ميلًا (وعرضها ستونَ ميلًا) للمؤمنِ فيها أهلونَ يطوفُ عليهِمُ المؤمنُ

---

(١) سورة فصلت الآيات (٣٠ ـ ٣١) .

(٢) سورة الرحمن الآية (٧٢) .

فلاَ يَرَىَ بعضهمْ بعضاً »[1] وقلت ومن الخيام إلى السوق :

سبحان الله ؟! وهل في الجنة أسواق ؟ وكيف لا يكون ذلك والله تعالى يقول لعباده من أهل الإيمان والاستقامة :

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[2]

إنه ليس من المستغرب أبداً أن تتوق نفس المؤمن في الجنة إلى دخول سوق من الأسواق وخاصة المؤمنين الذين تعودوا الضرب في الأسواق ، والأرباح الطائلة ، كعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأمثاله ممن كانوا يتعاطون التجارة في صدق وأمانة ، ويربحون أعظم الأرباح ـ فقد تتوق نفس أحدهم إلى ذلك وهو في دار السلام فيطلبه ويدعيه فيخلقَ الله تعالى لهم أسواقاً يدخلونها إتماماً للانعام في دار السلام .

وهذا مسلم يخرج لنا حديث السوق في الجنة فيقول : إن أنس ابن مالك قال قالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَ في الجنةِ لسوقاً يأتونها كلَ جمعةٍ فتهبُ ريحُ الشمالِ فتحثوُ في وجوهِهِمْ وثيَابَهِمْ فيزدادونَ حسناً وجمالاً ، فيرجعونَ إلى أهلهمْ وقدْ ازدادوا حسناً وجمالاً ، فيقولُ لهمْ أهلوهمْ : واللّهِ لقدْ ازددتُمْ بعدنا حسناً وجمالاً »[3] .

(١) رواه مسلم (٨/ ١٤٨ ، ١٤٩) وأما ما بين القوسين من الزيادات فهي في مسلم أيضاً في نفس الموضع ولكنها من أحاديث أخرى ورواه البخاري أيضاً في بدء الخلق باب صفة الجنة (٤/ ١٤٣) ، راجع اللؤلؤ والمرجان (٣/ ٢٨٩) .

(٢) سورة فصلت الأية ٣١ :

(٣) مسلم (٨/ ١٤٥) .

أنهار الجنة وأشجارها

تحت هذا العنوان من رسالة « الجنة دار الأبرار » قلت يا أخي القارىء هات يدك نتجول قليلاً بين أنهار الجنة وتحت أشجارها ، ونمتع النفس ساعة قبل يوم الساعة !

هيا بنا إلى ذلك النعيم المقيم ، هيا بنا إلى الأنهار الأربعة التي هي أصل كل أنهار الجنة ، إنها نهر الماء ، ونهر اللبن ، ونهر الخمر . ونهر العسل كما جاء ذلك في قول الله عز وجل من سورة محمد ﷺ .

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ (١)

إن من بين هذه الأنهار العظيمة نهر الكوثر ، وما أدراك ما الكوثر ! ؟ .

إن الله سبحانه وتعالى خص به نبينا محمداً ﷺ وأمته ، وهو أعظم أنهار الجنة ، وأحسنها ، جاء الوعد به في كتاب تعالى القرآن الكريم حيث قال :

---

(١) الآية (١٥) .

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾[1]

ولنستمع إلى صاحبه صلى الله عليه وسلم يصفه لنا فنمتع سمعنا بذلك ، روى البخاري عنه صلى الله عليه وسلم مرفوعاً قوله : « بينما أنا أسير في الجنة إذ أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هو الكوثر الذي أعطاك ربك . قال فضرب الملك بيده فإذا طينه مسك أذفر »[2] كما روى الترمذي بسند صحيح عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « الكوثرُ نهرٌ في الجنةِ ، حَافتاهُ مِنْ ذهبٍ ، ومجراهُ علَى الدرِ والياقوتِ ، تربتهُ أطيبُ مِنَ المسكِ وماؤهُ أحلَى مِنَ العسلِ وأبيضُ مِنَ الثلجِ »[3] قلتُ : ومنَ الأنهارِ إلى الأشجارِ .

فلنصغ إلى البخاري يروي لنا طرفاً من أخبار الأشجار ، فإنه أصح رواية ، وأدق عبارة في هذا الشأن . قال قال أبو هريرةرضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَ في الجَنةِ شجرةً يسيرُ الراكبُ في ظِلهَا مائةُ عامٍ لَا يَقطَعهَا ، واقرءوا إنْ شئتمْ :

﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝ وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾[4]

ويحدث ابن عباس عن هذا الظل فيقول « الظلَ الممدود » شجرة

---

(1) سورة الكوثر الأيتان (١، ٢) .

(٢) البخاري ٨/ ١٤٩ .

(٣) ذكر هذين الحديثين المنذري في الترهيب (٤/ ٥١٧) راجع الترمذي (٦/ ٨٤) .

(٤) رواه البخاري في (٦/ ١٨٣) ومسلم في (٨/ ١٤٤) واللؤلؤ والمرجان (٣/ ٢٨٧) والأيات من سورة الواقعة الأيات (٣٠ ـ ٣٤) وراجع الترمذي (٧/ ٢٠٩) .

في الجنة على ساق قدر ما يسير الراكب المجد في ظلها مائة عام في كل نواحيها ، فيخرج أهل الجنة ، أهل الغرف وغيرهم فيتحدثون في ظلها فيشتهي بعضهم ويذكر لهو الدنيا ، فيرسل الله تعالى ريحاً من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو كان في الدنيا[1]. ويقول : « نَخلُ الجَنةِ جِذْعُهَا مِنْ زُمردُ خُضُرٍ ، وَكَرَبُها ذَهبٌ أحمرٌ ، وَسَعفُها كِسوةٌ لأهلِ الجَنةِ ، مِنْها مُقطعاتِهمْ وَحُلَلِهِمْ ، وَثَمرُهَا أمثالُ القِلَالِ والدُلَاءِ أشدُ بياضاً مِنْ اللَّبَنِ ، وَأحلىٰ مِنَ العَسَلِ ، وَألينُ مِنْ الزبَدِ : لَيس فِيها عَجمٌ »[2].

المطاعم والمشارب في الجنة

لقد ضل قوم من الفلاسفة والنصارى فزعموا أن نعيم الجنة روحاني بحت ، لا شيء فيه من النعم للجسم بالمرة ، وهذا المعتقد خطأ محض ، وباطل لا شك في بطلانه عند من يعرف عن الله تعالى وعن رسله عليهم السلام .

وهذه حجج عقلية وسمعية نوردها على صحة هذا المعتقد الحيوي الخطير فنقول :

أولاً : إن الأرواح التي يراد لها النعيم لا يتم لها التنعم الحقيقي إلا إذا كانت حالة في أجسام تلائمها ، وتستقر فيها ، وتقوم بها ، ولذا فإنه لما أريد إنعام الشهداء وتكريمهم خلق الله لأرواحهم أجساماً خاصة تلائمها فتحل فيها ، فتم لها التنعم بما أعد لها من نعيم طيلة حياتها في

---

(١) رواه الترمذي وحسنه ، الترغيب والترهيب (٤/ ٥٢٠) .

(٢) رواه الحاكم وصححه وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٥٢٣) ، والحاكم (٢/ ٧٦) إلا أن في الحاكم لفظ « كرانيفها » بدل « كربها » وكلاهما بمعنى : أصل السعفة الغليظة العريضة .

البرزخ ، فقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم : « أَنَّ أرواحَ الشُّهداءِ في حَواصِلِ طيرٍ خضر ترعى في الجَنَّة ، وتَأْوي إلى قَناديلَ مُعَلقةً تَحتَ العَرش »[1] ومصداق هذا في قوله تعالى :

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾[2]

وثانياً : أن القدرة الكافية التي خلقت الإنسان اليوم ورزقه ، وخلقت له ضروباً من النعيم الدنيوي كأطيب المطاعم ، وألذ المشارب ، وأجمل الملابس ، وأحسن المساكن وأفره المراكب ، قادرة على إيجاد ذلك في الملكوت الأعلى وتوفيره بصورة أجل وأكرم .

وثالثاً : تفضيل الحياة الدنيا التي وجدت على أساس الفناء على الآخرة التي وجدت على أساس البقاء ، وتفضيل ما يفنى على ما يبقى مردود عقلاً ، ومن هنا كان من غير المعقول أن يكون النعيم في الحياة الدنيا جثمانياً روحياً ينال الجسم والروح معاً مع أن الدار دار كدر ، وتنغيص ، وفناء ، كل ما فيها وجد على مبدأ الزمان المؤقت ، والأجل المعدود ، ويكون النعيم في الآخرة وهي الحياة الباقية الخالدة روحياً بحتاً لا وجود للأجسام ، ولا علاقة للأرواح بها ، في حين أن الحياة في البرزخ وهو الفترة ما بين موت الإنسان إلى يوم أن يبعث لم تنقطع فيها علاقة الروح بالجسد ، وإن فني وكان تراباً ، إذ سيبقى للروح تعلق بالقبر كامل ، فيكون القبر لها أشبه بمحطة اللاسلكي متى أرادت

---

(١) معنى الحديث مخرج في الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٢/ ٢٩٧ ـ ٢٦٨) ، وقد رواه مسلم بقريب من هذا اللفظ (٦/ ٣٨ ، ٣٩) .

(٢) سورة آل عمران الآيتان (١٦٩ ، ١٧٠) .

الاتصال به اتصلت ، ولهذا ورد أن الميت إذا سلم عليه زائره في قبره عرفه ورد عليه السلام[1].

هذا وكل ما ذكرنا من هذه الأدلة العقلية على أن النعيم يكون في الآخرة جثمانياً روحياً معاً ليس بشيء إلى جانب الأدلة السمعية الدينية الشرعية التي هي أخبار الله تعالى ، وأخبار رسوله صلى الله عليه وسلم ، إذ لا أعلم بالخلق من الخالق : ولا من الرائي بما رأى وشاهد . فالله تعالى يقول مخبراً عما سينعم به على عباده المسلمين الذين آمنوا وكانوا يتقون :

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[2]

والرسول صلى الله عليه وسلم يحدث عن نعيم أهل الجنة ، ويصفه كما رآه وعرفه فيقول : « أهلُ الجَنة يأكُلون فيهَا وَيَشْرَبُونَ ، وَلَا يَتفُلُونَ ، وَلَا يَبولُونَ ، وَلَا يَتغوطُونَ . قَالُوا : فَمَا بالُ الطَعامِ ؟ قَالَ : جُشَاءٌ ورشحٌ كَرَشحِ المِسكِ ، يَلهمُونَ التَسبيحَ والتحميدَ كَما تُلهَمُونَ

---

(١) ورد هذا في الحديث الذي صححه ابن عبد البر عن النبي ﷺ أنه قالَ : « مَا مِنْ رَجلٍ يمرُّ بقبرِ الرجلِ الذِي كَانَ يَعرِفُهُ فِي الدُنيا فَيَسلِم عليهِ إلا رَدَّ اللَّهُ عليهِ رَوحه حتى يَرُدَّ عَليهِ السَّلَامُ » عن أضواء البيان (٦/ ٤٢٦) .

(٢) سورة الزخرف الآيات (٦٨ - ٧٣) .

لنفسَ »[1]. ويقول : « إنَ أسفَلَ أهلَ الجَنةِ أجمعينَ درجةً لِمَنْ يقومُ على رأسِهِ عشرةُ آلافِ خادمٍ ، مع كُلِ خادمٍ صَحفَتانِ واحدةٌ مِنْ ذَهبٍ والأخرى مِنْ فضةٍ ، في كُلِ واحدةٍ لونٌ ليسَ في الأخرى مِثْلَهُ ، يأكُلُ مِنْ آخرِهَا مِثلَ مَا يأكُلُ مِنْ أوَلِهَا يَجدُ لآخرها مِنَ الطيبِ واللذةِ مِثلَ مَا يَجدُ لأوَلِها ، ثُمَّ يكونُ ذَلِكَ ريحَ المِسكِ الأذفرِ ، لا يُبولُونَ ، وَلاَ يَتَغوطُونَ ، وَلاَ يَمتَخُطونَ »[2].

وما ذكرناه لم يعد أن يكون شاهداً فقط ، وإلا فإن هنـاك عشرات الآيات ، والأحاديث الصحاح تصرح بنعيم أهل الجنة ، وأنه روحاني جثماني ، وأنه ليس مقصوراً على المطاعم والمشارب بل يتعداه إلى لبس الحلل ، والتحلي بالحليّ ، والجلوس على الأرائك ، والتمتع بالنساء والطرب ، وركوب الخيل ، والزيارات الكريمة ، واللقاءات الحبيبة .

وهذه أخبار الله تعالى ، وأخبار رسوله صلى الله عليه وسلم تتحدث بذلك فلنستمع إليها وهي تقول : عن الحلي والحلل .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾[3]

---

(١) رواه مسلم (٨/ ١٤٧) وفي البخاري معناه (٤/ ١٤٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني : قال المنذري رواته ثقات الترغيب والترهيب (٤/ ٥٠٨) .

(٣) سورة الحج الآيتان (٢٣ ، ٢٤) .

وعن الأرائك والأسرة :

تقول :

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾[1]

وتقول :

﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾[2]

وعن النساء :

تقول :

﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾[3]

وتقولُ : « وَلَو اطلَعَتْ امرأةٌ مِنْ نِساءِ أهلِ الجَنةِ إلى الأرضِ لَمَلأَتْ مَا بَينَها رِيحاً ، وَلأضاءَتْ مَا بينها ، وَلِنَصيفِهَا على رأسِهَا خيرٌ مِنَ الدُنيا وَمَا فِيهَا »[4]

وَتقولُ : « لَو امرأةٌ مِنْ نِسَاءِ أهلِ الجَنّةِ أشرَفَتْ لَمَلأَتْ الأرْضَ رِيح مِسكٍ ،

---

(١) سورة الواقعة الآيات (١٠ ـ ١٦) .

(٢) سورة الإنسان الآيات (١٢ ـ ١٤) .

(٣) سورة الصافات الآيتان (٤٨ ، ٤٩) .

(٤) البخاري بقريب من هذا اللفظ (٤/ ٢٠ ، ٢١) .

وَلَذَهَبَ ضَوءُ الشَمْسِ وَالقَمَرِ »[1] .

وعن الطرب :

تقول : « إنَ في الجَنَةِ لمجتمعاً للحورِ العينِ يَرْفَعنَ بأصْواتٍ لَمْ تَسمعْ الخلائقُ بِمِثلِهَا يَقُلنَ :

نَحنُ الخَالِداتُ ، فَلا نَبِيدُ .

وَنَحنُ النَاعِماتُ ، فَلَا نَبأَسُ .

وَنَحْنُ الرَاضياتُ ، فَلَا نَسْخَطُ .

طُوبَى لِمَنْ كَانَ لَنَا وَكُنَا لَهُ »[2].

وتقول : « إنَ في الجنةِ نَهْراً طُولَ الجنةَ ، حَافَتَاهُ العَذارى قِيامٌ مُتَقَابِلاتٌ يُغَنينَ بأحسنِ أصواتٍ يَسمَعُها الخلائِقُ ، حتى ما يرونَ في الجَنةِ مِثلَهَا » قيلَ لأَبِي هُريرةَ (راوي هذا الخبر) : مَاذَاكَ الغِنَاءُ ؟ قَالَ : إنْ شاء اللَّهُ : التسبيحُ ، والتحميدُ ، والتقديسُ ، والثناءُ على الربِّ عزَ وجل »[3].

وعن الخيل وركوبها :

تقول : « قَال عبد الرحمن بن ساعدة رضي الله عنه كُنْتُ رجلاً أُحِبُ الخيلَ فَقُلتُ : يا رسولَ اللَهِ ، هَلْ في الجنةِ خيلٌ ؟ فَقَالَ : إنْ أَدْخَلَكَ اللَّهُ الجَنةَ يَا عبدَ الرحمنِ كَانَ لَكَ فِيها فَرسٌ مِنُ الياقوتِ لَهُ جَناحَانِ

---

(١) رواه الطبراني والبزار وإسناده حسن . الترغيب والترهيب (٤/ ٥٢٣) .

(٢) رواه البيهقي والترمذي ووسمه بالغرابة الترغيب والترهيب (٤/ ٥٣٧)

(٣) رواه البيهقي موقوفا الترغيب والترهيب (٤/ ٥٣٨ ، ٥٣٩) .

يطيرُ بكَ حيثُ شِئْتَ »[1]. وتقول :

« إنَ في الجنةِ لشجرةٍ يَخرجُ مِنْ أعلاَها حُلَلٌ ، ومِنْ أسفَلِهَا خيلٌ مِنْ ذَهَبٍ مُسَرَجَةٍ ملجمةٍ مِنْ دُرٍ وياقوتٍ لا تروثُ ولا تبولُ ، لَهَا أجنحةٌ خُطوَها مدُ البصرِ ، فيركَبُها أهلُ الجنةِ ، تَطيرُ بِهِم حيثُ شَاءوا »[2].

وعن تزاورهم :

تقول « إذَا دَخلَ أهلُ الجنةِ الجَنةَ فَيشتاقُ الإخوانُ بَعضُهم إلى بعضٍ ، فيسيرَ سريرُ هذا إلى سريرِ هذا ، ويسيرُ سريرُ هذا إلى سريرِ هذا حتى يجتمعا جميعاً ، فيتكىء هذا ويتكىءُ هذا فيقولَ أحدُهُمْ لصاحبِهِ : أتعلَمُ متى غَفرَ اللَّهِ لَنَا ؟ فيقولُ صاحِبُهُ: يومَ كذا ، في الوَضعِ كذا ، فَدعَونَا اللَّه تَعالىٰ فَغَفرَ لَنَا »[3].

وعن أعظم نعيم روحاني يتم لهم في دار السلام :

تقول : « إذَا سَكَنَ أَهْلُ الجنةِ الجنَةَ أَتَاهُمْ مَلَكٌ فَيقُولُ لَهُم : إنَ اللَّهَ تَعالى يَأمُرُكُمْ أَن تَزُوروهُ ، فَيجتَمِعُونَ ، فَيأمُرُ اللَّهُ تعالىَ دَاودَ عليهِ الصلاةِ والسلامِ فيرفَعُ صَوتَهُ بالتسبيح والتهليل ، ثُمَّ تُوضَعُ مائدةُ الخُلدِ ، قيلَ يا رسولَ اللَّهِ : ومَا مَائدةُ الخُلدِ ؟ قَالَ : زَاويةَ مِنْ زَوايَاهَا أوسَعُ ممَا بينَ المشرقِ والمَغربِ ، فَيُطْعَمُونَ ، ثُمَّ يُكسَونَ . فيقولُونَ : لَم يبقَ إلاَّ النظَرَ إلى وَجهِ رَبّنا عزَ وجَل فَيَتَجلى لَهُمْ فَيخِرونَ سُجَّداً ، فَيقَالُ : لَسْتُم في دار عملٍ إنَمَا أنْتُم في دارِ جزاءٍ »[4] وتقول : « بينَمَا

---

(١) رواه الطبراني ورواته ثقات . الترغيب والترهيب (٤/ ٥٤٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا وسكت عنه المنذري الترغيب والترهيب (٥/ ٥٤٤) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا والبزار وسكت عنه المنذري ، الترغيب والترهيب . (٤/ ٥٤٣) .

(٤) رواه أبو نعيم وسكت عنه المنذري وسكوت المنذري معناه موافقة منه على سلامة الرواية الترغيب والترهيب (٤/ ٥٤٦) .

أهلُ الجنةِ في نَعيمِهم إذْ سَطَعَ لَهم نورٌ ، فَرَفَعُوا رُؤوسَهُمْ ، فإذَا الربُّ جلَ جلالُهُ . قَدْ أشرفَ عَليهمْ مِنْ فوقِهمْ فقَالَ : السَلامُ عليكُمْ يَا أَهْلَ الجَنَةِ فَلاَ يَلتَفِتُون إلى شيءٍ مما هُمْ فيهِ مِنَ النَعيمِ ما دَامُوا يَنْظُرونَ إليهِ تَعالىٰ حتى يحتجبَ عَنْهُم ، وَتَبْقَىٰ فِيهِم بَرَكَتُه وَنُورُهُ »[1].

وتقـول « إنَ اللّهَ يَقولُ لأهْـلِ الجَنةِ : يَـا أهلَ الجنـةِ . فَيَقولُونَ : ـ لَبيكَ رَبَنَا وَسعديكَ ، والخيرُ في يَدَيكَ . فيقُولُ : هَلْ رَضيتُمْ ؟ يَقولُونَ وَمَا لَنَا لا نَرضَى يا رَب وَقدْ أَعْطيتَنَا مَا لم تُعطِ أَحَدَاً مِنْ خَلقِكَ فيقولُ : أَلاَ أُعطيكُمْ أفضلَ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقولُونَ : يا ربُّ وأيُ شيءٍ أفضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيقولُ أُحِلُ عَليكُمْ رضوَاني فَلاَ أَسخَطُ عَليكُمْ بَعْدَهُ أبداً »[2] .

(١) رواه ابن ماجه وغيره وسكت عنه المنذري (٤/ ٥٥٣) .

(٢) البخاري ومسلم واللفظ له (٨/ ١٤٤) ، واللؤلؤ والمرجان (٣/ ٢٨٧) . والبخاري (٨/ ١٤٢) .

دار البوار

إن دار البوار هي نار جهنم مأوى الكافرين[1]، كما أن دار السلام هي الجنة دار المؤمنين المتقين[2]، وقد تقدم لنا أنه من إتمام البحث لعقيدة المؤمن في اليوم الآخر، أو البعث والجزاء أن يخص كل من دار السلام، ودار البوار بعرض خاص يجلي حقيقة كل منهما بما يبعث على الرغبة في الفوز بدار السلام، وعلى الرهبة من دار البوار، فتطلب دار السلام بالإيمان والتقوى، وتطلب النجاة من دار البوار باجتناب الشرك، وترك المعاصي، وقد استعرضنا الجنة دار السلام استعراضاً كافياً - والحمد لله - حتى لكأن القارىء عندما ينهي آخر خبر عنها قد رآها بأم عينه، وعاش فيها بنفسه وبدنه، وها نحن نستعرض دار البوار - أعاذنا الله منها، زحزحنا عنها لننجو من عذابها، ونفوز بالجنة ونعيمها فنقول: إن الحديث عن دار البوار ليس كالحديث عن دار الأبرار، فإذا حسن الأطناب في الحديث هناك فإنه يحسن الاقتضاب في الحديث هنا، إذ النفس تنبسط عند سماع النعيم، وترتاح له، وتلذ، وتنقبض عند سماع الشقاء، وترتاع له، وترهبه. ولذا فسنسرع في العرض لدار البوار، ونوجز فيه ما أمكن الإيجاز على خلاف استعراضنا لدار السلام، وما فيها من نعيم مقيم، وهذا هو العرض:

---

(1) يقول الله تعالى: «ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار، جهنم يصلونها وبئس القرار» سورة إبراهيم الأيتان (٢٨، ٢٩).

(2) قال عز وجل: «والله يدعو إلى دار السلام..» سورة يونس الآية (٢٥). وقال عز من قائل: - «لهم دار السلام عند ربهم ..» سورة الأنعام الآية (١٢٧).

مخبىء جهنم للناس في الموقف

وها هي ذي جهنم قد جيء بها ، وبرزت للناس في عَرصات القيامة قال تعالى :

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ [1]

وقال : ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [2]

إن الانقلاب الكوني الذي يتم ، وتتبدل فيه الأرض غير الأرض ، والسموات غير السموات ، ويبرز للناس فيه الله الواحد القهار . كما قال تعالى من سورة إبراهيم عليه السلام :

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [3]

يفاجأ فيه الناس من أهل الموقف بظاهرة غريبة وهي بروز جهنم لهم ، ورؤيتهم لها ، حيث يجاء بها تُجر بالأزمة كما تجر القاطرة ، ولها تغيظ وزفير كما قال الله تعالى :

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾ [4]

---

(١) سورة الفجر الآية (٢٣)

(٢) سورة الشعراء الآية (٩١) .

(٣) الآية (٤٨) .

(٤) سورة الفجر الآيتان (٢٣ ، ٢٤) .

وكقوله تعالى :

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾[1]

وقوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح « يُؤْتَى بِجَهَنَّم يومئذٍ لَهَا سَبْعُونَ ألفِ زِمَامٍ ، مَع كُلِ زمامٍ ، سَبْعُونَ ألفَ مَلَكٍ يَجُرونَهَا »[2] .

(١) سورة الشعراء الآيتان (٩١ ـ ٩٥) .

(٢) رواه مسلم (٨ / ١٤٩) ورواه الترمذي كتاب صفة جهنم (١) .

أبواب جهنم

إن دار البوار وهي عبارة عن عالم الشقاء ذات دركات، دركة تحت الأخرى إلى نهايتها، وهي سبع تتفاوت في شدة عذابها، أخفها عذاباً أعلاها، وأشدها أسفلها، ولكل دركة اسمها الخاص بها، وبابها الخاص كما قال تعالى:

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾[١]

وكما قال تعالى:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[٢]

وقد وردت أسماء دركات دار البوار في القرآن الكريم، غير أنها وردت مفرقة في عدة سور، ومذكورة في عشرات الآيات بحسب سياق الحديث عنها، وقد يكون ترتيبها كالتالي: نار جهنم، لظى، الحطمة، السعير، سقر، الجحيم، والهاوية. هذه هي السبع الدركات، اللهم أجرنا منها، واصرف عنا عذابها

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[٣]

---

(١) سورة الحجر الآيتان (٤٣، ٤٤).

(٢) سورة النساء الآية (١٤٥).

(٣) سورة الفرقان الآيتان (٦٥، ٦٦).

كيف يدخلونها ؟

إنه يؤتى بأهل النار يساقون إليها أفواجاً متتابعة فوجاً بعد آخر وزمراً متداركة زمرة بعد أخرى ، وقد برزت لهم كما قال تعالى :

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾[1]

وما إن تراهم من مكان بعيد حتى سمعوا لها تغيظها وزفيرها ، كما قال تعالى :

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [2]

ثم يخرج منها عنق فيلتهم من شاء الله أن يلتهمهم من أهل الموقف من الجبارين والمشركين ، فقد جاء هذا واضحاً في رواية الترمذي إذ يقول صلى الله عليه وسلم : « **يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران ، وأذنان تسمعان ، ولسان ينطق ، يقول : إني وكلت بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر ، وبالمصورين ، وتساق تلك الزمر إلى جهنم حتى إذا وصلوها وجدوا أبوابها مغلقة ، فتفتح لهم ، ويدفعون إليها دفعاً عنيفاً كما قال تعالى :**

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3]

ثم يلقون منها في أماكن ضيقة وهم مقيدون في الأصفاد ، مكبلون بالسلاسل

---

(١) سورة الزمر الآية (٧١) .

(٢) سورة الفرقان الآية (١٢) .

(٣) سورة الطور الآيات (١٣ ـ ١٦) .

والأغلال كما قال تعالى :

﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ﴿١٣﴾﴾(1)

وكما قال تعالى :

﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ ٱلنَّارُ﴾(2)

هذا طرف من بعض أحوال أهل النار عند دخولهم لها ، ذكرناه بياناً لجانب من جوانب الحديث عن دار البوار ، وسنواصل العرض والحديث في اقتضاب وإيجاز وفاء بما وعدنا والله المستعان .

عذابهم فيها وتلاومهم

وما أن تستقر تلك الجماعات الهالكة ، والزمر الخاسرة في جهنم بعد أن ألقوا فيها مهانين ، حقيرين ، ذليلين حتى ينزل بهم عذاب نفساني أليم ، مهين ، ذلك هو عذاب التوبيخ ، والتقريع ، والتأنيب الذي يتلقونه من ملائكة العذاب الموكلين بهم مثل قولهم : ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾(3)

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ﴾(4) ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾(5)

---

(1) سورة الفرقان الآية (13) .
(2) سورة إبراهيم الآيتان (49 ، 50) .
(3) سورة الملك الآية (8) .
(4) سورة الزمر الآية (71) .
(5) سورة الطور الآية (14) .

﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾[2]

كل هذا التوبيخ والتقريع والتأنيب جاء بيانه في كتاب الله عز وجل ، وما ذكرناه قليل من كثير .

وأما تلاومهم فحدّث ولا حرج ، ويكفينا أن نصغي إلى بعض الآيات القرآنية التي سجلت تلاومهم بأمانة وصدق فلنسمع خاشعين إلى قول الله تعالى وهو يخبر عنهم فيقول :

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[3]

ويقول :

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ

---

(١) سورة الطور الآية (١٦) .

(٢) سورة النبأ الآية (٣٠) .

(٣) سورة الأعراف الآيتان (٣٨، ٣٩) .

وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1]

ويقول :

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾[2]

ويقول :

﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾[3]

---

(١) سورة سبأ الآيات (٣١ - ٣٣) .

(٢) سورة الصافات الآيات (٢٧ - ٣٣) .

(٣) سورة ص (٥٥/ ٦٤) .

خطبة إبليس في أهل النار

ومن أغرب ما يعرف عن أهل النار من أحوال في غاية العجب أن يخطب فيهم إبليس خطبة من أبلغ الخطب، وأفصحها، وأشدها أثراً، ووقعاً في نفوس سامعيها أقمأهم الله وإياه سوء الخاطب والمخطوب. فقد يُنصب لإبليس منبر من نار فيرقاه فيخطب أهل النار عليه، فيزيدهم في كربهم، وطول محزنهم، وشدة إبلاسهم، وذلك لما يكسبهم خطابه من الندامة الممضة، والحسرة القاتلة، وقد سجل القرآن الكريم هذه الخطبة الإبليسية فلنستمع إليها كما جاءت من سورة إبراهيم عليه السلام

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١)

درجة الحرارة في جهنم

إن حر نار جهنم لشدته قد يصهر كل ما يُلقى فيه، وإن الاستعار والتأجج في جهنم يزداد باستمرار، لقوله تعالى:

﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ

---

(١) الآية (٢٢).

﴿ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾[1]

ولهذا فلن نستطيع أن نقدر حر نار جهنم بأية نسبة من النسب التي يعرفها الناس اليوم عندما يقيسون حرارة أي جسم حراري ، سواء كان مغلياً ، أو ناراً ملتهبة . بيد أننا إذا أخذنا في اعتبارنا حديث الصحيحين الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نَارُكُمْ هَذِهِ التي يُوقِدُ بنو آدم جزءٌ مِنْ سبعينَ جزءاً مِنْ حرِّ جَهَنَّمَ . قَالُوا : إنْ كَانَتْ لكافيةٍ يا رسولَ اللَّهِ : فَإِنَهَا فُضِلَتْ عَليهَا بتسعةٍ وستينَ جُزْءاً كُلُهَا مِثْلُ حَرِهَا »[2]. وإذا عرفنا درجة حرارة النار اليوم وضربناها في النسب المذكورة في الحديث أمكننا حينئذ أن نعرف درجة حرارة نار جهنم على وجه التقريب والمقايسة فقط .

لون نار جهنم

إننا نعرف أن : النار جسم حراري ملتهب مضيء ، كما نشاهده عندما نوقد أي نار ، ونضرمها لحاجتنا إليها ، ولكن نار جهنم ليست معلومة عندنا ، ولا يمكننا أن نعرف أي شيء عنها ، إلا من طريق الوحي فقط ، فلو سئلنا عن لونها ؛ لما أمكننا أن نجيب بشيء مقنع ما لم يكن لدينا وحي فنجيب به . غير أن مالكاً رحمه الله تعالى قد روى لنا في موطئه حديثاً شريفاً ، صحيحاً أمكننا به أن نعرف لون نارِ جهنم ، وأنه أسود ، أشد سواداً من القار لقوله صلى الله عليه وسلم : في رواية مالك المشار إليها آنفاً : « أَتُرَونَها ـ نَارُ جَهنَمَ ـ حَمْراءُ كنَارِكُمْ هَذِهِ ؟ لَهِيَ أسودُ مِنَ القَارِ »[3] ويروي لنا الترمذي في جامعهِ عن أبي

---

(١) سورة الإسراء الآيات (٩٧ ـ ٩٩) .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم (٨/ ١٤٩ ؛ ١٥٠) واللؤلؤ والمرجان (٢/ ١١٠) والبخاري (٤/ ١٤٧) ، والموطأ (٣/ ١٥٥ ـ ١٥٦) .

(٣) القار : الزفت المعروف . راجع الموطأ (٣/ ١٥٦) .

هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أُوقِدَ على النَّارِ أَلفِ سَنةٍ حتى احمرتْ ، ثُمَّ أُوقِدَ عَليهَا أَلفِ سَنَةٍ حتى ابيضتْ ، ثُمَّ أُوقِدَ عَليهَا أَلفِ سَنةٍ حتى اسودتْ فهي سَوداءُ مُظلِمةٌ »[1] فمن خلال هذا الوحي عرفنا لون نار جهنم . وبلغني وأنا أكتب هذا البحث أن علماء الكون اليوم قد أقروا هذه الحقيقة للون النار حسب مشاهداتهم للشموس الهائلة في هذا الفضاء الكبير والذي هو دون السماء الدنيا .

عمق جهنم وبعد غورها

إن جهنم وهي إحدى دركات دار البوار ليس من الممكن بغير الوحي الإلهي أن نعرف مدى عمقها ، ولا بعد غورها بحال من الأحوال ، لأنها لا تقاس بفرن من أفران الدنيا اليوم مهما كان عظيماً ، وحتى في عصر أفران الذرة والهيدروجين ، وذلك لاختلاف ما بين الدنيا والآخرة ، وبعد ما بين طبيعتهما ، وللفرق الهائل الكبير بين صنع الخالق عز وجل وصنع المخلوق الضعيف .

ولكي نعرف على وجه التقريب عمق جهنم ، وبعد غورها نورد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنَّ الصَخْرَةَ لَتُلقىٰ مِنْ شَفيرِ جَهَنَمَ فَتَهْوَي سبعينَ عَاماً وَمَا تُفضي إلى قَرارِهَا »[2] . وقوله صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم من رواية أبي هريرة : قال : « كُنَّا مَعَ رَسولَ اللَّهِ ﷺ إذْ سَمِعَ وَجْبَةً[3]. فَقَالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : تَدرُونَ مَا

---

(١) الترمذي (صفة جهنم / الباب الثامن) وابن ماجه (الزهد / الباب الثامن والثلاثين) وقال الترمذي فيه : « حديث أبي هريرة في هذا موقوف أصح ، وذكره عنه المنذري في الترهيب والترغيب (١ / ٤٦٤) قلت : ولكن هذا الكلام مما لا مجال للرأي فيه فهو في حكم المرفوع .

(٢) رواه الترمذي (جهنم / ٢) وأحمد (٤/ ١٧٤) .

(٣) صوت سقوط الحجر .

هَذا ؟ قُلنَا : اللَّهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قَالَ هَذا حَجَرٌ رُمي بِهِ في النَّارِ مُنْذُ سبعِينَ خَريفاً فَهو يهوي في النَّارِ الآنَ حتى انتهى إلى قَعرِهَا »[1]. ومما يؤثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول في خطبه : « أَكْثِروا ذِكْرَ النَّارِ ، فإنَ حَرَهَا شديدٌ ، وإنَّ قَعرَهَا بَعيدٌ ، وإنَ مَقامِعُها حديد[2]

أودية جهنم

إن دار البوار لعالم كبير ، لا يعرف له مدى ولا منتهى ، غير أننا لو أردنا أن نستشف منه وسعه وكبره لأمكننا ذلك من خلال ما صح عن النبي ﷺ « من أن ناب الكافر في جهنم يكون كجبل أحد الذي يزيد طوله عن خمسة أميال ، وارتفاعه عن ميل كامل »[3].

إن عالم الشقاء : دار البوار لا شك أنه مكون من أودية ، وجبال لورود الوحي بذلك ، ففي التنزيل الكريم وردت ألفاظ مقرونة بما يدل على أنها ألوان من العذاب ، وفسرها في الجملة كثير من السلف بأنها أودية في جهنم ، ومن ذلك : الغي في قوله تعالى :

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[4]

والأثام في قوله تعالى :

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا﴾[5]

---

(١) مسلم (٨/ ١٥٠) .

(٢) رواه الترمذي في صفة جهنم ، الباب الثاني .

(٣) رواه مسلم بلفظ « ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد ، وغلظ جلده مسيرة ثلاث » (٥/ ١٥٣ ، ١٥٤) .

(٤) سورة مريم الآية (٥٩) .　　(٥) سورة الفرقان الآية (٦٨) .

والويل في قوله تعالى :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾[1] ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾[2]

كما قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم : « تفسير الويل بواد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره »[3] .

سلاسل جهنم وأغلالها

إن من لوازم العذاب الشديد عادة السلاسل والأغلال ، والكبول والأنكال[4] حتى إنه قد لا يتصور عذاب أليم لا يُغل فيه صاحبه ولا يكبل ، أو لا يوضع في سلسلة .

ومن هنا كان في جهنم السلاسل والأغلال ، والكبول والأنكال ، وقد جاء ذلك وبيانه في كتاب الله عز وجل مفرقاً في عدة سور منه كقوله تعالى :

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا ﴾[5]

وقوله :

﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾[6]

وقوله :

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾[7]

---

(١) سورة المطففين الآية (١) . (٢) سورة إبراهيم الآية (٢) .

(٣) رواه الترمذي (تفسير سورة الأنبياء) وأحمد (٣/ ٤٧٥) والحاكم وصححه (٤/ ٥٩٦) .

(٤) الكبول جمع كبل القيد الشديد ، وكذا النكل الذي جمعه انكال .

(٥) سورة الإنسان الآية (٤) .

(٦) سورة المزمل الآيتان (١٢ ، ١٣) . (٧) سورة غافر الآيات (٧٠-٧٢) .

وقوله : ـ

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤﴾[1]

وقد روي بأسانيد جياد عن كثير من السلف أن هذه السلسلة تدخل في فم الكافر ، وتخرج من دبره ، فينظم فيها كما تنظم السمسمة في الخيط ، والخرزة في السلك .

الحيات والعقارب في جهنم

إذا كانت جهنم ـ أجارنا الله تعالى منها ـ هي دار العذاب ، وعالم الشقاء ، كان العذاب أنواعاً متنوعة ، وصنوفاً مصنفة حتى في عالمنا الأرضي هذا ، وحياتنا الدنيا هذه ، فما بالنا بعالم الشقاء ، ودار البوار ، إن فيها من صنوف العذاب ، وضروب الشقاء ما لم تره عين ، ولم تسمعه أذن ، ومن هنا فلا يستغرب أبداً وجود حيات ناهشة ، ولا عقارب لاذعة مميتة في جهنم ، يعذب بنهشها ولسعها أهل دار العذاب ، وكيف ، وقد فسر الخبر ابن عباس رضي الله عنهما ، وقوله تعالى :

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾[2]

فسر زيادة العذاب بأنها عقارب تلسعهم العقرب كالبغلة الموكفة[3].

---

(١) سورة الحاقة الآيات (٣٠ ـ ٣٤) راجع ابن جرير الطبري في تفسيره (١١/ ٦٣) .

(٢) سورة النحل الآية (٨٨) .

(٣) الموكفة: الضخمة الغزيرة اللبن ، راجع ابن جرير في تفسير سورة النحل (٦/ ١٦٠) .

ولا يبعد أن يكون هذا التفسير من ابن عباس مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم لاسيما وقد روى الحاكم وصححه عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله «إنّ في النّارِ حَياتٌ كَأمثالِ أَعْنَاقِ البُخْتِ [١] تَلْسَعُ إحْدَاهُنَّ اللَسعَةَ فَيجِدُ حَرَهَا سَبعينَ خَرِيفاً ، وإنَّ في النَّارِ عَقارِبَ كَأَمْثَالِ البِغَالِ الموكَفَةِ تَلْسَعُ إحْدَاهُنَّ اللَسعَةَ فَيجدُ حَموَتَهَا[٢] أربعينَ سَنَةٍ»[٣].

(١) البخت : الإبل الخراسانية .

(٢) الحموة : سورة وشدة الألم .

(٣) الحاكم وقال فيه صحيح الاسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي (٤/ ٥٩٣) .

طعام أهل النار

هل لأهل النار من طعام ؟ وهل حياتهم تمكنهم من أن يأكلوا أو يشربوا ؟

نعم ، إن لأهل النار مطاعم كثيرة ومشارب ، إذ الطعام والشراب من لوازم الحياة ، وأهل النار أحياء فيها لا يموتون : إذ لو ماتوا لاستراحوا من العناء والعذاب ، ولكنهم لا يموتون كما قالَ تعالى :

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ (١)

وقد يسألون الموت بالفعل ، ويطلبونه ولكن لا يُستجاب لهم . جاء طلبهم الموت في القرآن في قوله تعالى :

﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ (٢)

وقد أخبر تعالى عن عدم موتهم بقوله :

﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ (٣)

كما أخبر تعالى أن من يصلى النار الكبرى لا يموت فيها ولا يحيا جاء ذلك في قوله من سورة الأعلى :

---

(١) سورة النساء الآية (٥٦) .

(٢) سورة الزخرف الآية (٧٧) .

(٣) سورة فاطر الآية (٣٦) .

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾[1]

بعض أنواع طعامهم :

١ ـ الزقوم :

هو ثمر يخرج من شجرة تنبت في أصل الجحيم ، مذاقه مر شديد المرارة ، يغص في الحلق فلا يسوغ إلا بالماء الحميم ، ومن خواصه أنه يغلي في البطن غليان الماء فهو شبيه بالجير ، الذي إن صب عليه الماء فار وغلا ، قال تعالى في بيانه :

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾[2]

وقال :

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾[3]

وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى من سورة آل عمران :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

---

(١) الآيات (١١ ـ ١٣) .

(٢) سورة الصافات الآيات (٦٢ ـ ٦٧) .

(٣) سورة الدخان الآيات (٤٣ ـ ٤٦) : والمهل : الزيت العكر أو الرصاص أو الفضة إذا أذيبت .

وقال «لَوْ أنَّ قَطرةً مِنْ الزقومِ قُطِرَتْ في الدّنيا لأفسَدَتْ على أهلِ الدُنيا مَعَايشهُمْ ، فَكَيفَ بِمنْ يَكونُ طَعَامَهُمْ ؟ »[1].

٢ ـ الغسلين :

وهو ما تجمع من عصارة أهل النار من قيح ، وصديد ، وعرق ، وما يخرج من فروج الزناة ، وما يسيل من لغاب شاربي الخمور ، والمغتابين ، والكذابين ، وقائلي الباطل ، وشاهدي الزور .

ورد ذكر الغسلين في سورة الحاقة في قوله تعالى :

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ﴾[2]

والمراد من الخاطئين الذين كسبوا السيئات فأحاطت بهم خطاياهم فدخلوا النار بذلك . قال تعالى من سورة البقرة :

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[3]

٣ ـ الضريع :

وهو شوك مر متناه في المرارة ، ينشب في الحلق ، يسيغه الأكل بالحميم ، فيسبب له إسهالاً فظيعاً ، فلذا هو لا يسمن آكله ، ولا يغنيه من جوع ، كما قال تعالى من سورة الغاشية :

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾[4]

---

(١) رواه الترمذي وصححه (صفة جهنم / ٤) وابن ماجه (زهد / ٣٨) وأحمد (١/٣٠١ ، ٣٣٨) .

(٢) الآيات (٣٥ ـ ٣٧) .

(٣) الآية (٨١) .

(٤) الآيتان (٦ ، ٧) .

بعض انواع مشاربهم :

الشراب لازم لكل ذي كبد رطبة ، وأهل النار ذوو أكباد ، فلا بد لهم من ماء يشربون ، كما لا بد لهم من طعام يأكلون ، إذ الأكل والشرب ضروريان لبقاء الحياة ، واستمرار نمائها ، وقد قدر لأهل النار البقاء فيها ، فلذا هم يأكلون ويشربون ولم يكن الأكل والشرب ليدفع عنهم غائلة الجوع والعطش ولكن ليزيد في محنتهم وطول عذابهم ، وقد سبق بيان بعض مآكلهم ، وهذا بيان بعض مشاربهم .

١ ـ الحميم :

وهو ماء حار يجري من عين آنية[١]، ومن خواصه أنه يصهر به ما في بطونهم ، ويقطع أمعاءهم قال الله تعالى :

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾[٢]

وقال تعالى :

﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[٣]

وقال تعالى :

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[٤]

---

(١) آنية : أي درجة حرارة الماء قد انتهت إلى ما لا مزيد عليه أبداً .

(٢) سورة الغاشية الآيات (٢ ـ ٥) .

(٣) سورة محمد الآية (١٥) .

(٤) سورة الحج (١٩ ـ ٢٢) .

٢ ـ ماء الصديد :

وهو ماء كدر ، يحوي كميات من الصديد ، يُغص به شاربه حتى لا يكاد يسيغه ، يعاني شاربه منه آلاماً لا يعلم مداها إلا الله تعالى : قال تعالى من سورة إبراهيم :

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾[١]

٣ ـ ماء المهل :

وهو ماء ثخين حار حتى لكأنه النحاس المذاب بحيث إذا أدناه أحدهم من فمه ليشربه ، شوت حرارته جلدة وجه ، قال تعالى فيه :

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[٢]

٤ ـ ماء نهر الغوطة :

وهو ماء متجمع مما يسيل من فروج الزواني من النساء فقد روى أحمد بسند صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عنه فقال : « نَهرٌ يَجري مِنْ فُروجِ المُومِسَاتِ يُؤذِي أَهْلَ النَّارِ رِيحُ فُروجِهم »[٣]، هذا وننهي الكلام على مطاعم أهل النار ومشاربهم بحديث تفصيلي

---

(١) الآيات (١٥ ـ ١٧) .

(٢) سورة الكهف الآية (٢٩) .

(٣) أول هذا الحديث : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ومصدق بالسحر ، ومن مات مدمن الخمر سقاه الله جل وعلا من نهر الغوطة ، قيل : وما نهر الغوطة قال : نهر .. الخ » أحمد (٤/٣٩٩) .

رواه الترمذي موقوفاً عن أبي الدرداء رضي الله عنه، حيث قد استعرضت فيه أحوال أهل النار بصورة وافيةعجيبة يقول: «يُلقى على أهلِ النَّارِ الجوعُ، فَيَعدِلُ مَاهُمْ فِيهِ مِنْ العَذَابِ، فَيَستَغِيثُوا فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ مِنْ ضَرِيعٍ لا يسمنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جوعٍ، فَيَستَغِيثُونَ فَيُغاثُون بِطعامٍ ذي غُصَةٍ، فَيتذَكَروُنَ أَنَهُم يُجيزونَ الغَصَص في الدُنيا بالشرابِ، فَيستَغِيثُونَ بالشرابِ، فيدفعُ إليهمْ بكلاليبِ مِنَ الحديدِ، فإذا دَنَتْ مِنْ وُجوههمْ شوتْ وجوهَهُم، فإذا دخلتْ بطونهم قطعتْ ما في بُطونِهِمْ فيقولونَ: ادعوا خزنةَ جهنمَ، فَيقولونَ: «ألم تكُ تأتيكمْ رسلكمْ بالبيناتِ؟ قالوا: بلى قالوا: فادعوا، وما دعاءُ الكافرينَ إلاَ في ضلالٍ» قالَ: فيقولونَ: ادعوا مالكاً، فيقولونَ: «يا مالكُ ليقضيَ علينا ربكَ! قَالَ: إنكمْ ماكثونْ» !! قال: قال الأعمش: نُبئْتُ أن بَينَ دعائهمْ وبينَ إجابةِ مالكٌ إياهمْ ألفَ عامٍ قالَ فيقولونَ: ادعوا ربكمْ فلاَ أحدٌ خيرٌ من ربكم، فيقولونَ: «ربنا غَلبتْ علينا شِقوتنا وكنا قوماً ضالينْ، رَبَّنَا أخرجْنا منها فإنْ عُدنا فإنا ظالمونْ»، قالَ فيجيبهمْ: «اخسؤا فيها ولاَ تكلمونْ»، قَالَ: فعندَ ذلك يئسوا منْ كلِ خيرٍ وعندَ ذلكَ يأخذونَ في الزفيرِ، والحسرة، والويلْ»[1].

---

(١) الترمذي صفة جهنم (٥).

فحش أجسام أهل النار وقبح منظرهم

ماذا عسى أن نقول في فحش أجسام أهل النار ، وقبح منظرهم ، وهل في الإمكان تصور ذلك في الذهن ، أو تصويره للناس ليدركوه ، ويفهموا حقيقته لولا أن الوحي الإلهي الذي نطق به رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رسم لنا صورة واضحة نستشف من خلالها مدى فحش أجسام أهل النار وقبح منظرهم ؟ ولنستمع إلى كل من الشيخين يروي لنا حديثاً في هذا الشأن يقول البخاري ومسلم في صحيحه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم . « ما بينَ منكبيَ الكافرِ مسيرةُ ثلاثةُ أيامٍ للراكبِ المسرعِ »[1] ويقولُ مسلم قالَ رَسولُ اللّهِ صلَى اللّه عليه وسلم « ضرسُ الكافرِ أو نابُ الكافرِ مثل أحدٍ ، وغلظُ جلدِه مسيرةُ ثلاثٍ »[2] ويقولُ أحمدُ بنْ حنبلْ في مسنده : قال رَسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم : « ضرسُ الكافرِ مثلُ أحدً ، وفخذهُ مثلُ البيضاءِ[3] ومقعدهُ من النارِ كما بينَ قديدٍ ومكةَ ، وكثافةُ جسدهِ اثنانِ وأربعونَ ذراعاً بذراعِ الجبارِ . . »[4] ويروي لنا أحمد وغيره بسند لا بأس به : « أنَّ

---

(١) متفق عليه اللؤلؤ والمرجان (٣/٢٩٣) ، والبخاري (٨/١٤٢ ، ومسلم (٨/١٥٤) .

(٢) مسلم (٨/١٥٣ ، ١٥٤) .

(٣) البيضاء : جبل .

(٤) الجبار : ملك من ملوك اليمن له ذراع معروف المقدار . والحديث في أحمد(١/٣٣٤ ، ٥٣٧) .

الكافرَ ليَجرُ لسانَهُ يومَ القيامِة ووراءهُ قَدرُ فرسَخينِ يَتَوَطّؤهُ الناسُ »[1].

وما أحسب أن هناك منظراً أقبح من هذا المنظر ، لولا ما أخبر به الله تبارك وتعالى في سورة المؤمنون عن كلوح أهل النار كقوله :

﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾[2]

حيث فسر الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : « تتقلصُ شفةُ الكافرِ العليا حتىَ تبلغُ وسطَ رأسِهِ ، وتسترخيَ شُفتهُ السفلى حتَى تضربُ سرتَهُ » روى هذا التفسير للكلوح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . أحمد والترمذي والحاكم رحمهم الله تعالى أجمعين[3].

تفاوت عذاب أهل النار

إن تفاوت العذاب بين أهل النار في دار البوار ثابت مقطوع به ، صرحت بذلك الأحاديث النبوية الصحاح ، وهو تابع لتفاوت أعمالهم ، وما كسبوا من خير وشر في هذه الحياة الدنيا ، كما هو مقتضى العدل الإلهي القاضي بأن تُجزى كل نفسٍ بما عملت ، لها ما كسبت من خير وعليها ما اكتسبت من شروها هي ذي الأحاديث المصرحة بتفاوت أهل النار في العذاب بحسبِ كسبهم الإرادي الاختياري في الحياة الدنيا ، روي مسلم في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قالَ : « أهونُ أهلِ النارِ عذاباً أبو طالبٌ وهو متنعلٌ بنعلينِ يغلىَ منهما دماغُه »[4] وخف عذاب أبي طالب إلى هذه الدرجة من أجل ما قدمه من خدمات

---

(١) أحمد (٩٢/٢) ورواه الترمذي (صفة جهنم/٣) بلفظ « إن الكافر ليسحب لسانه الفرسخ والفرسخين يتوطؤه الناس » .

(٢) سورة المؤمنون الآية (١٠٤) .

(٣) الترمذي (جهنم/٥) أحمد (٨٨/٣) .

(٤) مسلم (١٣٥/١) .

للاسلام في شخص نبيه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما روى البخاري قوله صلى الله عليه وسلم : « إنَ أهونُ أهلِ النارِ عذاباً رجلٌ على أخمصِ قدميه جمرتانِ يغلَى منهما دِماغُه كما يغلَى المرجلُ بالقَمقَمِ »[1] كما روى مسلم أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم « منهم - من أهلِ النارِ - مَنْ تأخذهُ النارُ إلى كعبيهِ ومنهمْ مَنْ تأخذهُ النارُ إلى ركبتيهِ ، ومنهمُ مَنْ تَأخذهُ النارُ إلى حُجزتهِ ، ومنهمْ مَنْ تأخذهُ النارُ إلى عنقِهِ ، ومنهمْ من تأخذهُ النارُ إلى ترقوتِه »[2] وفي هذا أظهر دليل وأوضحه على تفاوت العذاب بين أهل النار .

بكاء أهل النار وعويلهم

إن العويل والبكاء من لوازم معاناة المخاوف والآلام ، ومقاساة الشدائد والأهوال ، ودار البوار وسكانها لا يبرحون يتجرعون الغصص ، ويتذوقون مر العذاب ، حزنهم دائم ، وعذابهم لا ينقطع ولا يخف ، ومن هنا لا يستغرب منهم البكاء والعويل ، ولا يستنكر عليهم الصياح والنواح ، فهم يتضاعون فيها ، ويصطرخون ، يدعون بالويل ، والحسرة ، والثبور .

وهذا القرآن الكريم يقص علينا بالحق ما سوف به يدعون ويقولون ، قال الله تعالى :

﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾[3]

---

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري (٨/١٤٤) ، واللؤلؤ والمرجان (١/٥٣) ومسلم (١/١٣٥ ، ١٣٦) .

(٢) رواه مسلم (٨/١٥٠) إلا أن قوله « ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه » ليس في هذه الرواية إنما هو في أخرى لمسلم أيضاً في نفس الجزء والصفحة .

(٣) سورة الفرقان الآية (١٣) .

وقال تعالى :

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾[1]

وقال تعالى :

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾[2]

وقال تعالى :

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾[3]

وقال تعالى :

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾[4]

وأخيراً فقد روى الحاكم بسند صححه عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « إنَ أهلَ النارِ يبكونَ حتى لو أجريتَ السفنْ في دموعهمْ لجرتْ ، وإنهمْ ليبكونَ الدم يعني مَكانُ الدمعِ »[5] فاللهمَ قنا عذابكَ ، يومَ تبعثُ عبادكَ ، وأجرنَا منَ النارِ وأدخلنَا الجنةَ معَ الأبرارِ .

---

(١) سورة فاطر الآية (٣٧) .

(٢) سورة الأنبياء الآية (١٠٠) .

(٣) سورة الزمر الآيتان (٥٥ ، ٥٦) .

(٤) سورة الفرقان الآيات (٢٧ ـ ٢٩) .

(٥) الترغيب والترهيب (٤٩٣/٤) . والحاكم وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي (٥٩٣/٤) .

البرزخ

تعريف :

البرزخ في عرف اللغة : ما حجز بين شيئين ، أو ما فصل بين ماهيتين ، كاليابس من الأرض يكون بين بحرين ، أو نهرين فاصلاً بينهما ، وقد يكون فاصلاً بين ماهيتين كالحد الفاصل بين ماهية الإنسان ، والحيوان وهو النطق أو الكلام مثلاً ، وقد يكون حتى بين الشك واليقين .

وفي عرف الدين : البرزخ هو : الحياة المجردة عن النعيم أو الشقاء الجثماني التي تستقل فيها الروح عن الجسد ، إذ الحيوات ثلاث :

الأولى : الحياة الدنيا ، والتي تَسعد أو تشقى فيها الأرواح مع الأجساد القائمة بها ، والحالة فيها .

الثانية : حياة البرزخ وهي الحياة التي تنفصل فيها الأرواح عن أجسادها التي كانت تعمرها ، ويستقل فيها الروح عن الجسد بالنعيم أو العذاب ، وسواء وجد لها في العالم العلوي هياكل تناسبها فتحل فيها مؤقتاً ، أو لا يوجد لها ذلك[1] .

والثالثة : الحياة الآخرة وهي التي تعود فيها الأرواح إلى أجسادها التي كانت لها في الحياة الأولى ، وانفصلت عنها بالموت ، فالحياة الثانية بين الأولى والثالثة هي حياة البرزخ ، إذ هي حد فاصل بين الحياة الدنيا والحياة

---

(١) في هذه العبارة إشارة إلى ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن حياة الشهداء التي أثبتها لهم القرآن فقال : « أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة في العرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل . . » مسلم (٣٨/٦ ، ٣٩) .

الآخرة ، وهي عبارة عن عملية تربص وانتظار ، والغرض منها : اجتماع الأرواح ، وتكاملها استعداداً للدخول في الحياة الآخرة ، وذلك أن الحياة الأولى قامت على أساس الإيجاد المتلاحق ، فيخلق الله تعالى الجسد والروح على طريقة معينة في الخلق ، فيعيش ذلك المخلوق عاملاً بما خُلق له زمناً معيناً ، ثم تجري له عملية انفصال الروح عن الجسد وهي ما يسمى بالموت فيموت ، ويحفظ له عمله في ديوان خاص ليجزى به في الحياة الآخرة إن كان قد مُكن من العمل ببلوغه من حياته زمن التكليف وهو سن الرشد ببلوغه عاقلاً ، وسميعاً ، بصيراً ، ولما كان الخلق في الحياة الدنيا يأتي متلاحقاً جيلاً بعد جيل ، هذا يُوجد وذاك يعدم إلى أن ينتهي الخلق الذي قدر الله خلقه وإيجاده في الحياة الدنيا ، ويومها يحدث الانقلاب الكوني العظيم الذي تنتهي فيه حياة ، وتبتدىء فيه أخرى .

أقول : إنه لما كان الخلق يجري على ما ذكر . كان لا بد من وجود حياة وسط بين الحياتين ، تجتمع فيها الأرواح بعد انتهاء مهماتها التي خلقت لها في الحياة الدنيا ، وعندما يتكامل جمعها يعيد الله تعالى لها أجسادها التي كانت لها ، ويبعثها فيها لتتلقى جزاءها في الحياة الآخرة من نعيم أو جحيم . فالحياة الدنيا إذاً هي حياة عمل ، والحياة الآخرة هي حياة جزاء ، والحياة الوسط بين الحياتين هي حياة البرزخ ، وهي حياة تربص وانتظار . قال الله تعالى من سورة آل عمران تقريراً لمبدء أن الحياة الأولى حياة عمل لا جزاء ، وأن الحياة الآخرة حياة جزاء لا حياة عمل :

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾(١)

---

(١) الآية (١٨٥) .

والسؤال الآن هو هل في حياة البرزخ ـ وهيْ حياة علمنا أنها تستقل فيها الأرواح عن الأبدان ـ من نعيم يجري على الروح فتسعد به فترة تتربصها ، أو عذاب تشقى به مدة حبسها وانتظارها ..؟؟

والجواب : نعم ، وهذا بيانه مفصلاً .



مراحل جريان النعيم أو العذاب على الروح في البرزخ

المرحلة الأولى عند الموت ونزع الروح :

إن نعيماً أو عذاباً يتم للروح عند نزعه بواسطة ملائكة رحمة أو عذاب كما جاءت الأخبار الصادقة الصحيحة بذلك ففي القرآن الكريم يقول الله تعالى من سورة الأنفال :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (١)

ويقول عز وجل من سورة الأنعام :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ۝٩٣ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (٢)

---

(١) الآيتان (٥٠ ، ٥١) .

(٢) الآيتان (٩٣ ، ٩٤) .

فقوله : ﴿ باسطوا أيديهم ﴾ دال على أن الملائكة تعذب المحتضر الكافر أو الفاجر بضربه على وجهه وظهره ، كما هو صريح قوله تعالى في آية الأنفال المتقدمة : ﴿ والملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ هذا العذاب عند الموت ، وحال النزع هو بالنسبة إلى ذي الروح الخبيث من أهل الكفر والإجرام ، وأما بالنسبة إلى ذي الروح الطيب الطاهر من المؤمنين المتقين فقد قال الرسول ﷺ : « إنَ العبدَ المؤمنُ إذا كانَ في انقطاعٍ مِنَ الدُّنيَا ، وإقْبَالٍ مِنَ الآخرةِ نزلَ إليهِ ملائكةٌ من السماءِ ، بيضُ الوجوهِ ، كأنَ وجُوههمْ الشمسُ ، مَعهمْ كفَنٌ من أكفانِ الجنةِ ، وحنوطٍ منْ حنوطِ الجنةِ ، حتَى يَجلِسوُا منهُ مدَ البصرِ ، ويجيءُ ملكُ الموتِ حتى يجلسُ عندَ رأسهِ فيقولُ : أيتها الروحُ الطيبةُ أُخْرجي إلى مغفرةٍ مِنَ اللّهِ ورضوانَ ، قالَ : فتخرجُ فتسيلُ كما تسيلُ القطرةُ منْ في السقاءِ » الحديث .

وأما ذو الروح الخبيثة من الكافرين والمنافقين فقال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وإنَ العبدَ الكافر إذا كانَ في انقطاعٍ مِنَ الدُّنيا ، وإقبالٍ مِنَ الآخرةِ ، نَزَلَ إليهِ ملائكةٌ سودُ الوجوهِ ، معهمْ المسوحُ فيجلسونَ منهُ مدَ البصرِ ، ثُمَ يجيءُ ملكُ الموتِ حتى يجلسُ عندَ رأسهِ فيقولُ : أيتها النفس الخبيثةُ أُخرجي إلى سخطٍ مِنَ اللّهِ وغَضَبِهِ ، فَتفرقُ في جَسَدِهِ ، فَيَنتَزِعُها كما يَنتزِعُ السفودُ مِنَ الصوفِ المبلولِ » . . الحديث[1] .

---

(1) رواه أحمد ، قال المنذري رواته محتج بهم في الصحيح ، الترغيب والترهيب (٤/٣٦٦ ، ٣٦٧) ، وأحمد (٤/٢٨٨ ، ٢٩٦ ، ٥/١٣٦) والفتح الرباني (٧/٧٤ ، ٧٨) ورواه النسائي بلفظ قريب من هذا (٤/٧ ، ٨) ، ومعنى حنوط : طيب ، وفي السقاء : فم القربة ؛ والمسوح : ثياب خشنة غليظة ، والسفود : الحديد التي يشوى بها اللحم ، والمراد من سيل الروح كسيل القطرة من في السقاء : كناية عن سهولة خروجها من جسد المؤمن . والمقصود بنزعها كما ينزع السفود من الصوف المبلول : كناية عن شدة وصعوبة خروجها من جسد الكافر والفاجر ، والمراد من تفرق روح الكافر في جسده . كناية عن شدة الخوف والفزع وكأنها تريد الهرب عند سماعها ذلك الكلام . والله اعلم .

المرحلة الثانية :

النعيم في القبر أو العذاب :

القبر أول منازل الحياة الثانية وهو العتبة للدار الآخرة ، ويجري فيه النعيم والعذاب على الروح والجسد معاً ، في الساعات الأولى منه ، ثم تستقل الروح بهما دون الجسد . إن نعيم القبر أو عذابه ثابت بالدليلين العقلي القياسي ، والنقلي الشرعي الديني ، فالدليل العقلي هو عدم استحالته ، وما لم يكن مستحيلاً فهو جائز ، إذ ثبوت النعيم أو العذاب للميت في القبر لا يوجب تصوره تناقضاً عقلياً . وثانياً : ما علمه كل إنسان ، وعرفه من نفسه المرات العديدة من رؤ ى منامية يرى فيها نفسه في نعيم كامل لا يؤ سفه إلا أن ينقطع عنه بالاستيقاظ . أو عذاب شديد لا ينهيه عنه إلا استيقاظه ، بل يبقى أثر الرؤ يا في نفس المرء فترة من الزمن خيراً كان أو شراً .

وأما الدليل النقلي الديني فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إنَ ملكُ الموتِ إذا أخذَ روحُ العبدِ المؤمنِ لمْ تدعها الملائكةُ في يدِ ملك الموتِ طرفةُ عينٍ حتىَ يأخذوها ، ويضعوها في ذلكَ الكفنِ ، وذلكَ الحنوطِ (تقدم الحديث عنهما) ويخرجُ منهُ كأطيبِ نفحةُ مِسكٍ وجدتْ على وجهِ الأرضِ ، ثُمَّ قالَ : « فيصعدونَ بها فلا يمرونَ على ملإٍ مِنَ الملائكةِ إلا قالوا : ما هذا الروحُ الطيبُ ؟ فيقولونَ : فلانٌ ابنُ فلانٍ بأحسنِ أسمائهِ التي كانَ يُسمىَ بها في الدنيا حتى يَنتهوا بها إلى السماءِ الدنيا ، فيستفتحونَ لهُ ، فيفتحُ لهُ ، فيشيعهُ منْ كلِ سماءٍ مقربوها إلى السماءِ التي تليها ، حتى ينتهيَ بها إلى السماءِ السابعةِ فيقولُ اللّهُ عزَ وجلَ . اكتبوا عبديَ في عليينْ (في أعلى درجةِ في الجنةِ) ، وأعيدوهُ إلى الأرضِ في جسدِهِ ، فيأتيهِ ملكانُ فيجلسانهِ فيقولانِ : منْ ربَكَ ؟ فيقولُ : ربي اللّهُ ، فيقولانِ : مَا دِينكَ ؟ فيقولُ دينيَ الإسلامُ ، فيقولانِ : ما هذا الرجلُ الذي بعثَ فيكُمْ ؟ فيقولُ :

هو رسولُ اللّهِ ، وآمنتُ بهِ ، وصدقتهُ ، فينادي مُنادٍ مِنَ السماءِ : أنْ صدقَ عبديَ ، فأفرشوهُ مِنَ الجنةِ ، وافتحوا لَهُ باباً في الجَنةِ ، قالَ فيأتيهُ مِنْ رُوحها ورائحتها ، وطيبها ، ويفسحُ لَهُ في قبرِه مَدَ بصرهِ . قال : ويأتيهِ رجل حسنُ الوجهِ ، حسن الثيابِ ، طيب الريحِ ، فيقولُ : أبشرْ بالذي يسركَ ، هذا يومكَ الذي كنتَ توعدُ . . فيقولُ : مَنْ أنْتَ !؟ فوجهكَ الوجهُ الحسنُ يجيءُ بالخيرِ . فيقولُ : أنا عملكُ الصالحُ ، فيقولُ : ربِ أقمِ الساعةَ حتى أرجعَ إلى أهلي ومالي »[1].

وفيه أيضاً أنه قال : إن ملكُ الموتِ إذا أخذَ رُوحَ العبدِ الكافرِ لمْ تدعْها الملائكةُ في يدِه طرفةَ عينٍ حتى يَجعلوها في تِلكَ المسوحِ [2]، وَتَخرجُ مِنْهَا كأنتنِ جيفةٍ وجدتْ على وجِه الأرضِ ، فيصعدونَ بِهَا فَلاَ يمرونَ بها على ملإٍ مِنَ المَلاَئِكَةِ إلاَ قَالُوا : مَا هَذِهِ الرّوحُ الخبيثةُ ؟ فيقولونَ : فلانٌ ابنَ فلانٍ بأقبحِ أسمائِه التي كانَ يُسمىَ بِهَا في الدُنيَا ، فَيستَفْتَحُ لَهُ فَلا يُفْتَحُ لَهُ . وقرأ رسول الله ﷺ :

﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾[3]

فَيَقُولُ اللّهُ عَزّ وَجلَ اكتبوا كتابهُ في سجينٍ في الأرضِ السفلى ، ثُمَّ تُطرَحُ رُوحَهُ طَرحَاً ، ثُمَّ قرأ ،

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ

---

(١) هذا اللفظ الذي سبق كلاهما حديث واحد وقد تقدم انه اخرجه أبو داود واحمد وأن رواة أحمد كلهم محتج بهم في الصحيح كماقال الحافظ المنذري . راجع ص (٤١٣) .

(٢): المسوح جمع مسح بكسر فتكون ثوب من شعر غليظ .

(٣) سورة الأعراف الآية (٤٠) .

ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴾[1]

فَتُعَادُ رُوحَهُ في جَسَدِهِ ، ويأْتِيهِ ملكانٌ فيجلسانِهِ فيقولانِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ؟ فيقولُ : هاهُ هاهُ[2] لَا أدري ، قَالَ فيقولانِ لَهُ : ما دينكَ ؟ فيقولُ : هاهْ ، هاهْ لَا أدري ، قَالَ فيقولان لَهُ : ما هذا الرجلُ الذي بعثَ فيكُمْ؟ فيقولُ : هاه هاه لَا أدري ، فينادي منادٍ من السماءِ أنْ كذَبَ فافرشوهُ من النارِ ، وافتحوا لهُ باباً إلى النارِ ، فيأتيهِ مِنَ حَرِها وسُمُومِها ، وَيَضيقُ عليهِ قَبْرهُ حتى تختلفُ أضلاعهُ ، ويأتيهِ رجلٌ قَبيحُ الوَجهِ ، قَبيحُ الثِيابِ ، منتن الريحِ ، فيقولُ لَهُ : أبشرْ[3] بالذي يسوكَ ، هذا يومَكَ الذي كنتَ توعدُ ، فَيقولُ . منْ أَنْتَ فوجهكَ الوجهُ القبيحُ يجيءُ بالشرِ ؟ فيقولُ . أنا عملك الخبيثُ . فيقولُ ربِ لا تُقمْ الساعةَ ، ثُمَّ يَقيضُ لَهُ أعمى ، أصمَ ، أبكمَ في يدِهِ مرزبةٌ لو ضُرِبَ بِهَا جبلٌ كانَ تراباً ، فيضربهُ ضربةً فيصيرُ تراباً ، ثم يعيدهُ اللَّهُ كما كَانَ ، فيضربهُ ضربةً أخرى ، فيصيحُ صيحةً يسمعهُ كل شيءٍ إلا الثقلينِ قال البراء ، ثُمَّ يفتحُ لَهُ بابٌ من النارِ ، ويمهدُ لَهُ مَنْ فرشِ النارِ . وصحَ عنه صلى الله عليه وسلم . أنَ اسمَ أحدِ المَلكينَ يقالُ لهُ مُنكرٌ ، وأن اسمَ الثاني يقالُ لَهُ نَكيرٌ ، وأنهما يثيرانِ الأرضَ بأنيابهما ، يلجفان[4] الأرضَ بشفاههما ، أصواتهما كالرعدِ القاصفِ وأبصارهما كالبرقِ الخاطفِ ، فيجلسانِهِ . . الحديث »[5] .

---

(1) سورة الحج الآية (٣١) .

(٢) كلمة هاه ، هاه هي صوت الضاحك وهي هنا التوجع ، والحيرة لعدم علمه مما يقول .

(٣) كلمة « أبشر » هنا المراد بها التهكم والتوبيخ والتقريع والتهديد .

(٤) يلجفان : يضربان الأرض بشفاههما ، ويحفرانها بهما .

(٥) رواه أحمد وقال الحافظ المنذري اسناده حسن . الترغيب والترهيب (٤/٣٦٩) .

المرحلة الثالثة :

نعيم الرّوح أو عذابه وهو في برزخ بعيد عن القبر ، متصل به

إنه بعد انتهاء فترة القبر التي تتم فيها فتنة الإنسان ، وبها ينكشف أمره ، وتظهر حاله ، فيسعد أو يشقى نتيجة لما يجيب به عن سؤال الملكين ، حيث يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ، ويضل الله الظالمين .

بعد انتهاء الفترة هذه تودع الروح البشرية في مستودع للرحمة أو العذاب في عليين ، أو في سجين ، وتبقى هكذا مرهونة محبوسة في ذلك المستودع إلى يوم يبعثون ، حيث يعيد الله تعالى الأجسام بعد فنائها ويأذن للأرواح أن تدخلها .

بيد أن للأرواح . وسواء كانت في عليين مستودع الأخيار ، أو في سجين مستودع الأشرار اتصالاً مباشراً بالقبر الذي ضم رفاة صاحبها ، وأودعت جثته فيه ، وهو اتصال مباشر شبيه بالاتصال اللاسلكي الذي يتم اليوم بين محطتي الإرسال والاستقبال . وبذلك يتم معرفة الزائر للقبر ، والمسلم على صاحبه[1]، بل ذلك الاتصال تجد الروح معه لذة النعيم ، أو ألم الجحيم في القبر ، ولا يستثنى من هذه الحقيقة إلا أرواح الشهداء ، فإن القرآن والسنة قد صرحا بأن أرواح الشهداء تكون بعد الاستشهاد في حواصل طير خضر ترعى في الجنة ، وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش قال تعالى :

---

(١) روى ابن عبد البر صححه عن ابن عباس مرفوعا : «ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد عليه روحه حتى يرد عليه السلام » وقد مر في المطاعم والمشارب في الجنة فليرجع إليه .

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[1]

وقال رسوله صلى الله عليه وسلم « أرواحهمْ ـ الشهداءُ ـ في جوفِ طيرٍ خُضرٍ ، لها قناديلُ مُعلقةٌ بالعرشِ ، تسرحُ مِنَ الجنةِ حيثُ شاءتْ ، ثُمَّ تأوى إلى تِلْكَ القناديلِ . فاطلعَ إليهمْ رَبُهمْ اطلاعة فَقَالَ : هَلْ تشتهونَ شيئاً ؟ قالوا : أي شيءٍ نشتهي ، ونحنُ نسرحُ مِنَ الجنةِ حيثُ شئنا ؟ ففعلَ بِهمْ ذلكَ ثلاثُ مراتٍ ، فلما رأى أنهم لنْ يتركوا منْ أنْ يسألوا قالوا : يا ربْ نريدُ أن تردَ أرواحنا في أجسامنا حتى نقتلُ في سبيلكَ مرةً أخرى ، فلما رأى أنَ ليسَ لَهُمْ حاجةً تركوا »[2].

---

(١) سورة آل عمران الآيتان (١٦٩ ، ١٧٠) .

(٢) مسلم (٦/٣٨ ، ٣٩) .

الركن السادس من أركان عقيدة المؤمن
الإيمان بالقضاء والقدر

إنه ما تزال العقيدة الإسلامية منذ إحداثها في العالم ذلك الانقلاب العظيم ، وهزتها العنيفة لأركانه المتداعية ، وخلخلتها للكيان البشري المهزوز . منذ ذلك الانقلاب الهائل العظيم الذي أطاح بصروح الباطل ودك عروش الشر والكفر والفساد ، ما تزال العقيدة الإسلامية ، تُستهدف للطعن الشديد ، وتتعرض للنقد القاسي المرير من خصومها الألداء ، وأعدائها الأشداء من يهود ونصارى ، ومجوس وملحدين على حد سواء ، علماً منهم أن سر ذلك الانقلاب العظيم الذي وقع في الكون على أيدي أصحاب رسول الله ﷺ ، وأتباعهم من التابعين المؤمنين المحسنين إنما كان في العقيدة الإسلامية ، فلهذا لم يبرح أولئك الخصوم يشككون فيها ، ويطعنون حتى زلزلوها في نفوس أكثر المسلمين ، ويومها فقط تسنى لهم[1]، أن يوقفوا تيارها ، ويقطعوا أسلاك أنوارها ، فتعود الظلمة إلى العالم الإنساني ، وتصاب البشرية بنكسة كبيرة أدت بها إلى مهاوي الرّدى ، وأسقطتها في جحيم لا يطاق .

ولنذكر في هذا وعلى سبيل المثال فقط : أن عقيدة القضاء والقدر وهي أحد أجزاء العقيدة الإسلامية ، وليست كلها أبداً قد تعرضت لطعن عنيف ، وتشكيك سخيف ، بصورة تدعو إلى العجب والاستغراب . إنه لم تكد تذهب آثار شمس النور المحمدي المتخلف مع البقية الباقية من أصحاب

---

(١) تسنى : تهيأ وتيسر .

رسول الله ﷺ حتى ظهر في المسلمين مبدأ نفي القدر ، والقول بالجبر ، ومذهب الاعتزال ، والتشيع ، ونجم[1] الشر واستطار ، وطرق كل الأقطار ، وتعرضت أمة الإسلام بعقائدها ، وبلادها ، وبكل وجودها إلى أعنف الهزات التي زلزلت كيانها ، تتهاوى تحت ضربات الحانقين ، وطعنات الناقمين .

ولما هوى ذلك النجم الذي أضاء المعمورة ، وغمر الحياة بالهدى والخير قال الذين كفروا ـ تشفياً من الإسلام ، وإمعاناً في الإجرام ـ إن ما أصاب المسلمين من الانهيار والسقوط ، بعد التفكك والضعف الكبير ، كان نتيجة بعض العقائد عندهم ، وخصوا بالذكر عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر ، وكان ذلك منهم إفكاً[2] مفترى ، وكذباً مقلوباً ، مشوهاً للحقيقة ، إذ الواقع هو أن الذي أحل بالمسلمين ما أحل بهم من ضعف وهـوان ودوْن لم يكن نتيجة إيمانهم بالقضاء والقدر على الوجه الصحيح المطلوب ، وإنما كان نتيجة إيمانهم بالقضاء والقدر على وجه غير صحيح ولا مطلوب ، وذلك بما دس فيها الأعداء ، وما شوهوها به من تأويل باطل ، وتحريف سخيف قضى عليها ، وأماتها في نفوسهم أو كاد .

وهذا من أشد ما يملأ النفس أسى وحزناً ، إن أعداء المسلمين ما زالوا يفسدون عليهم عقائدهم ، ويشككونهم فيها حتى تخلوا عنها ، فضعفوا لذلك ، وهانوا ، ثم انبرى أولئك الأعداء يقولون : إن ضعف المسلمين كان من جراء عقائدهم التي يعيشون عليها معتقدينها ، منفعلين بها ، مستجيبين لها .

ومن المؤسف حقاً أن أكثر المسلمين مازالوا إلى اليوم لم يصرفوا داءهم ، ولا ما كادهم به أعداؤ هم ، إذ أننا نرى كثيراً منهم يلوك بلسانه عقيدة القضاء والقدر ، ويحتج بها مرة على فسقه ، وتهربه من مسئولياته ، ومرة يتجنى بها على الله تعالى ربه وخالقه ومدبر أمره ، وميسره إلى ما خلقه له .

---

(١) نجم : ظهر .

(٢) الإفك : الكذب المقلوب وهو أسوأ الكذب .

فينسب إليه تعالى الظلم ، ويعترض عليه في قضائه ، ومجاري أقداره ، وعادل أحكامه .

ومن هنا رأيت العناية ببحث هذا الجزء من عقيدة المؤمن واجبة ، لما عسى أن ينفع الله به من يقرؤه أو يسمعه ممن هم في بلبلة فكر ، واضطراب نفسي من عقيدة القضاء والقدر ، فينقطع بلبال أفكارهم ، ويزول اضطراب نفوسهم ، فيؤمنون ويرضون ، ويعملون بطاعة الله ورسوله فينجون ويسعدون .

وبين يدي بحث هذا الجزء من عقيدة المؤمن وهو القضاء والقدر أقدم ثلاث كلمات تمهيدية قد تساعد على فهم هذا المعتقد ، وتسهل الوصول إلى إدراك حقيقته .

الكون ومظاهر التنظيم فيه

إن كلمة الكون تعني هذا الوجود من العوالم العلوية والسفلية كالأرض والسماء وما فيهما ، وما بينهما . وهو كون هائل عظيم يحوي عوالم كثيرة لا تحصى عداً ولا يحاط بها حداً ، كل عالم منها يقف العقل البشري أمامه حائراً مشدوهاً ، ففي سمائنا الدنيا هذه وحدها بلايين الكواكب والنجوم ، تختلف في أحجامها ، وأبعادها ، وقوانين سيرها ، كما تختلف في أجرامها ، ومحتوياتها ، وخصائصها .

وفي أرضنا هذه التي نعمرها ، ونعيش عليها عوالم لا تقل عظمة وروعة عن العوالم العلوية . ففي عالم الإنسان ، كعالم الحيوان ، كعالم النبات عجائب كثيرة في الخلق ، وعجائب في العدد والكثرة ، وعجائب في الخصائص والطباع .

وكل هذا الكون الضخم العجيب قد ربطت بين أجزائه كلها العلوية والسفلية أنظمة من السنن الإلهية الدقيقة المدهشة ، فسار الكون كله متحداً متناسقاً إلى غاية لم ينته إليها بعد ، إذا ما وصلها يكون قد استنفد طاقته وانتهى . قال الله تعالى من سورة الأنعام :

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[1]

---

(١) الآية (٢) .

هذا الكون المدهش المحير تجري فيه حوادث هائلة عظيمة ، كل حادثة منها لها عواملها ، وأسبابها ، ومقتضياتها الخاصة بها ، فدورة الأفلاك ، وسير الكواكب ، وهبوب الرياح ، واختلافها ، وتراكم السحب ، وسقوط الأمطار ، ونبات الزروع ، وتوالد الإنسان والحيوان ، وما يتجدد من موت وحياة كل هذا خاضع لسنن تحكمه فتقوده لحكم عالية ، وأغراض صالحة سامية ، فليس بين هذه الأحداث والحوادث الجارية في الكون ما هو عار عن حكمة متوخاة ولا ما هو جار على غير قانون ثابت يربطه بكل أجزاء الحياة .

ومن أجل هذا التنظيم الساري في كل أجزاء هذا الكون ما شك الذين أوتوا العلم في أن رب هذا الكون جل جلاله، وعظم سلطانه قيد علمه قبل خلقه كلا وتفصيلاً ، ووضع هذا النظام الذي يحكمه قبل وجوده ، ثم ربطه به بعد أن أوجده فهو يسير فيه ، لا يتخلف عنه ، ولا يخرج ، وهذا النظام هو سر اطراد الحياة الدنيا ، وبقائها إلى أجلها الذي تنتهي إليه ـ وهو بالتالي نظام القضاء والقدر الذي دعت رسل الله جميعاً إلى الإيمان به والرضى بكل مجاريه خيره وشره على حد سواء .

الثانيـــة :

كيف كان الكون موجوداً ؟

الوجود قائم لا معنى لإنكاره ، ولا حاجة إلى إقامة الدليل على وجوده ، وإنما المسألة التي شغلت أذهان الباحثين فيه قديماً وحديثاً هي مسألة قدم العالم وحدوثه ، أي هل الوجود قديم أزلي أو حادث سبقه عدم ، وطرأ عليه وجود .

إن أكثر علماء البشر قد أطبقوا على حدوث العالم ، وذلك لعلة التغير ، والكون أو الوجود متغير فهو إذاً حادث غير أزلي قطعاً ، هكذا كان استدلال العلماء على حدوث العالم . واستمر كما هو إلى القرن التاسع عشر الميلادي ، وحتى اكتشف قانون الطاقة المتاحة والذي أثبت بمالا مجال

للشك فيه ، كما يقول علماء الكون اليوم أن العالم لم يكن أزلياً أبداً وإنما هو حادث ـ مخلوق ، كما لم يكن أبدياً أبداً ، بل لا بد له من نهاية حتماً ، وسر ذلك أن الطاقة الحرارية المتاحة تنتقل دائماً من جسم حراري إلى آخر على خلافه ، ولا يمكن أن يكون العكس ، فهذه الطاقة المتاحة لا بد وأن يكون هناك من أتاحها أولاً ، إذ العدم السابق لا ينتج شيئاً فتعين أن يكون خالقه أزلياً ، وبهذا يبطل أن يكون الوجود أزلياً كما ادعى بعض الفلاسفة الملحدين ولزم أن يكون حادثاً ، له بداية ، ولما كان له بداية كان له نهاية حتماً .

وعند تقرير هذه الحقيقة العلمية يقول أحد علماء الغرب : وهكذا أثبتت البحوث العلمية دون قصد أن لهذا الكون بداية ، فأثبتت تلقائياً وجود الإله لأن كل شيء ذي بداية لا يمكن أن يبتدىء بذاته . ولا بد أن يحتاج إلى المبدىء الأول وهو الإله الخالق سبحانه وتعالى ، وفي القرآن الكريم مصداق هذا حيث جاء فيه قول الله تعالى :

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1]

يحكم هذا القانون السابق الذكر وهو انتقال الطاقة من الأجسام الحرارية إلى غيرها ، وهي عملية مستمرة فإن هذه الطاقة ستنفد في يوم من الأيام وعندها تنتهي هذه الحياة ، هكذا يقول علماء الكون ، وهي نظرية سليمة ، غير أن نهاية الحياة أخبر عنها خالقها بأنها تكون عند نهاية الأجل المسمى لها ، ولا تكون بفقد الطاقة الحرارية ، ولكن باختلال الأفلاك ، كما قال تعالى في كتابه العزيز :

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾[2]

---

(١) سورة فصلت الآية (٥٣) .

(٢) سورة الواقعة الآيات (١ ـ ٦) .

و﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾[1]
و﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾[2] .

بيد أن أولئك العلماء حسبهم أنهم قد أثبتوا بطريقتهم العلمية الخاصة حدوث العالم ، وعدم أبديته ، وأنه لا بد من فنائه ، ونهاية هذه الحياة الدنيا .

وبعد هذا فإن السؤال الملح هو كيف كان بدء الوجود . أو كيف كان هذا الكون ؟ وعند الجواب عن هذا السؤال انقطعت ألسنة الماديين من كونيين ومن غيرهم . فلم يحاروا جواباً ، وأنّى لهم أن يجيبوا بشيء سوى الهوس ، والتخمين ، والحدس ، أو الظن ، والكذب ، والخرص ، ومن تلك الظنون والتخرصات قول بعضهم : إن الأرض قد انفصلت عن الشمس شرارة ملتهبة ، ثم بردت بعد ملايين السنين ، وتحجرت ، وأصبحت ذات قشرة ترابية ، فتهيأت بذلك للخلق ، والحياة عليها .

وأما الحياة فإنهم يقولون : إنها بدأت خلية بسيطة ، ثم أخذت تتطور وتتكاثر حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن ، ثم لو سئلوا وقيل لهم : إذا كانت الأرض قد انفصلت عن الشمس ، والشمس وسائر الكواكب والنجوم وهي ملايين بتقديراتكم أنفسكم عمّا كان انفصالها ؟ .

وخلية الحياة ، وهم يقولون : إنه لا يبعد أن تكون قد جاءت في شكل جرثومة من بعض الكواكب الأخرى لم لا تكون خلية أخرى إذاً قد وقعت على كوكب آخر كالقمر مثلاً ، ونمت فيه كما نمت على الأرض ، وأصبح في ذلك الكوكب عالم من الأحياء كعالمنا هذا ؟ مع أنهم يقولون إن القمر خال من الحياة تماماً بناء على ما ادعوه من مشاهدة سطح القمر عند نزولهم على

---

(١) سورة التكوير الآيات (١ - ٣) .

(٢) سورة الانفطار (١ ، ٢) .

سطحه كما يزعمون ؟؟ والحمد لله القائل :

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾(١)

فقد أغنى الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين عن هذه الهواجس ، والوساوس ، والظنون والتخرصات حيث أخبر تعالى وهو الخالق عن كيفية خلق الكون ، وكفى بمن خلق مخبراً ؛ وكيف لا يعلم ما خلق وهو اللطيف الخبير ؟ إذ يقول تعالى :

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۞ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٢)

وقال :

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ

---

(١) سورة الكهف الآية (٥١) .

(٢) سورة الأنبياء الآيات (١٠ ـ ٣٣) .

أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[1]

هذا خبره تعالى عن خلق الكون ، وأما عن خلق الانسان ، والجان ، والحيوان ، والنبات فيقول تعالى :

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[2]

ويقول :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[3]

ويقول :

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[4]

ويقول :

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَآئِقَ غُلْبًا وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾[5]

---

(1) سورة فصلت الآيات (٩ ـ ١٢) .
(2) سورة الرحمن الآيتان (١٤ ، ١٥) .
(3) سورة الحجر الآيتان (٢٦ ، ٢٧) .
(4) سورة النور الآية (٤٥) .
(5) سورة عبس الآيات (٢٤ ـ ٣٢) .

أين هذا الإيمان الواقي ، والقول الشافي ، والنبأ اليقين في خلق الإنسان والكون ، من ذلك الهراء الخواء ، والخرص والتخمين ، بل الكذب والإفك المبين؟؟ إن ما بينهما كما بين الوجود والعدم ، والسمع والصمم !!

وأين هؤلاء من أولئك؟!!

هؤلاء هُدوا بإيمانهم لمعرفة الحق فعرفوه ، وقبلوه ، وسكنت له نفوسهم ، وآثروه ، وأولئك ضلوا بكفرهم ، فآثروا العمى على الهدى ، فعارضوا العلم الحق بالشبهات ، وردوا اليقين بالشك والمين[1].

المؤمنون أضاء لهم نور الوحي المبين ، فرأوا في نوره أهل الظلمات في آرائهم يعمهون ، وفي ضلالاتهم يتهوكون[2] وفي ريبهم يترددون . والكافرون لاح لهم في بيداء الهوى سراب ، فجروا وراءه ظانين أنه الحكمة وفصل الخطاب ، ولما انتهوا إليه بعد كلال ، وجدوه خيبة آمال وسوء مآل . قال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[3]

الثالثة :

لقد أصبح معلوماً بالضرورة لدى العالمين بأحوال الكون أن الكون كله

---

(١) المين بفتح الميم ، وسكون الياء الكذب ومنه قولهم : أكثر الظنون ميون .

(٢) العمه والتهوك كلاهما بمعنى التحير والتردد .

(٣) سورة النور الآيتان (٣٩ ، ٤٠) .

علويه وسفليه مربوط بنظام دقيق هو غاية في الدقة . فمن أكبر حجم فيه كوكب الشمس مثلاً إلى أصغر شيء كنواة الذرة الكل مشدود بقوانين عجيبة ، ومحكوم بسنن ثابتة لا تتبدل ولا تتغير ، كما صرح بذلك القرآن الكريم في قوله :

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾[1]

ولو فرض أن سنة من تلك السنن التي تربط الكون قد اختلت لخرب العالم أجمع .

ففي العالم العلوي مثلاً لو أن خللاً طرأ على النظام الشمسي بخروج بعض الكواكب عن مسارها ، واصطدامها ببعض الكواكب الأخرى لكانت نهاية العالم حتماً . ولو أن حرارة الشمس زادت نسبتها على ما هي عليه الآن بعض الزيادة ، أو نقصت على ما هي عليه بعض النقصان لما أمكن الحياة على الأرض للاحتراق الذي يصيبها في الحالة الأولى ، أو التجمد الذي يصيبها في الحالة الثانية .

هذا في العالم العلوي ، وفي العالم السفلي لو أن نسبة الأكسجين وهي واحد وعشرون في المائة (٢١٪) زادت على نسبة الهواء فكانت خمسين مثلاً لاحترق كل شيء قابل للاحتراق .

كما أنها لو نقصت عن هذه النسبة المحددة لاختنق البشر ، وهلك الناس ، هذا مجرد مثال سقناه للأنظمة العامة التي أوجدها الله سبحانه وتعالى في هذا الكون وربط بها الحياة ، وجعلها متوقفة عليها . وأما النظام الخاص والموضوع لكل كائن في الحياة فهو نظام مدهش جداً . إنه يوجد لكل كائن سنن خاصة به في وجوده ونشأته ، وتطور حياته ، وفي طرق معاشه ، واكتساب رزقه ، وسنن تناسله ، وحفظ نوعه ، وكيفية موته وفنائه . وأكثر هذه

---

(١) سورة فاطر الآية (٤٣) .

السنن الخاصة بالأحياء معلومة لمن تأملها ، وفكر فيها . ومن هذه السنن أذكر على سبيل المثال ثلاث سنن من سنن اللقاح في الإنسان ، والحيوان ، والنبات فأقول : ـ

إن الميل الفطري الذي يجده الرجل إلى امرأته ، والمرأة إلى زوجها ، وذلك الغشيان الخاص للنسل ، وحفظ النوع عميل يتم وفق سنة موضوعة للانسان لحفظ نوعه .

ومن أجل تحقيق تعاون بين الزوجين ينتج عنه حفظ الأولاد ، وتربيتهم توجد الظاهرة التالية ، وهي أن الرجل يبقى في حاجة إلى غشيان المرأة حتى في حال حبلها ، بخلاف الحيوان فإنه إذا حبلت أنثاه عافها وتركها مما يدل على أنه مفطور على إتيانها لا لغريزة الشهوة المركبة فيه كما هو الظاهر فقط ، وإنما للنسل ، والذي بواسطته يتوفر للانسان غذاؤه من اللحم ، واللبن ومشتقاته ، والصوف ، والوبر ، والشعر لفراشه ولباسه ، في حين أن الحيوان ينصرف عن أنثاه في حال حبلها ، وتنقطع المودة بينهما ، وذلك لعدم الحاجة إلى التعاون بينهما على تربية الولد ، وحفظه كما هي الحال في الإنسان في تربية أولاده ، وحفظهم . ولعل هذه الظاهرة قد توجد في الحيوان الذي يفتقر إليه ولده في تربينه وحفظه إلى أمد معين ـ فسبحان من أعطى كل شيء خَلقه ، ثم هَدى ، هذا في الإنسان والحيوان ، وإنه ليبدو معقولاً ، مقبولاً . أما في النبات فإنه لم يأخذني العجب من شيء في ظواهر هذا الكون كما أخذني من ظاهرة كيفية عملية لقاح شجر التين . وحقاً إنها لظاهرة جد عجيبة ، تأخذ بلب المتأمل فيها ، وبكل مشاعر الناظر إليها .

إنه يوجد في نوع شجر التين شجر منه يعرف بذكر التين . وفي أوساط الربيع وبعدما يورق كل من ذكره وأنثاه يخرج كل منهما حباً صغيراً هو ثمره المعتاد ، غير أن الملاحظ في ذلك أن حب الذكر يكبر بسرعة حتى إذا ما تهيأت الأنثى للقاح حسب سنة الله تعالى فيه كان حب الذكر قد ينع ، فيأخذ

الفلاح ثمرة الذكراليانعة فيعلقها بأغصان الشجرة الأنثى ، فيخرج من حبة الذكر المعلقة ذباب صغير في غاية الصغر ، ويعرف ذلك الذباب طريقه إلى حبة الأنثى فيدخل في مكان على سطحها قد أعد لذلك هو أشبه ما يكون بفرج حيوان ، فيدخل ذلك الذباب حاملاً معه مادة بيضاء قد علقت بجسمه الصغير ، ثم يخرج منها بعد أن يكون أتم عملية التلقيح ، ليدخل في حبة أخرى ليلقحها وهكذا حتى يلقح عدداً كثيراً من حبات التين الصغيرة المهيأة للتلقيح ، وبعدها يموت ذلك الذباب وقد أتم مهمته التي خلقه الله تعالى لها . هكذا تتم هذه العملية المعقدة العجيبة التي هي من أقوى البراهين على وجود الله تعالى ، وقدرته ، وعلمه ، وتدبيره ، فسبحان من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

والآن ونحن في غاية التأثر والإعجاب بهذه الظاهرة الكونية في لقاح شجر التين لا يسعنا إلا أن نسجل كلمة نستودعها الله تبارك وتعالى ليردها علينا يوم القيامة ، فينفعنا بها وهي أن ظاهرة كهذه في لقاح هذا الشجر الطيب المبارك يستحيل أن تتم بالضرورة ، أو الصدفة ، أو الطبيعة كما يقول الملاحدة والطبيعيون ، وإنما تتم بخلق وتقدير ، وتدبير خلاق عليم ، مدبر حكيم ، هو الله رب العالمين ، رب السموات والأرض وما بينهما ، ورب كل شيء ومليكه الذي أشهد شهادة علم ويقين ، أنه الله الذي لا إله إلا هو القائم بالقسط ، العزيز الحكيم . اللهم إنا نستودعك هذه الشهادة فهي لنا عندك وديعة تردها علينا يوم القيامة . وأخيراً فهذا النظام في الكون كله علويه وسفليه لم يكن إلا نتيجة قدر وعلم سبقاه فكان كل شيء في هذا الكون يتم على مقتضى ذلك التقدير الأزلي القديم الذي هو القضاء والقدر ، والذي لا يتم إيمان عبد إلا به ، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

القضاء والقدر

ولكي يسهل علينا معرفة القضاء والقدر ينبغي أن نرجع بالذاكرة إلى تلك الكلمات الثلاث التي قدمناها تمهيداً لبحث القضاء والقدر ، وما أوردنا فيها من كلام في خلق الكون والنظام الذي رُبط به ، والسنن التي تحكم كل أجزائه وما وقفنا عليه من عجيب الخلق والتدبير في هذا الكون كله : في الإنسان ، والحيوان ، في النبات ، والجمادات . لقد رأينا أن النظام الشمسي في غاية الدقة إذ لكل كوكب بل لكل نجم من النجوم وهي بلايين مساره الذي يسير فيه ، ومداره الذي يدور عليه ، وذلك على مر هذه الحياة الطويلة ، ولم يقع أن خرج كوكب عن مداره الذي يدور عليه ، ولا نجم عن مساره الذي يسير فيه إذ لو وقع ذلك لانتهى العالم من الوجود .

كما رأينا سنن الله تعالى في حياة الإنسان ، والحيوان ، والنبات نشوءاً ، وتطوراً ، ونماء ، وبقاء ، وفناء . وأن ذلك مربوط بسنن لا تتبدل ، وبذلك انتظمت الحياة فهي تسير إلى غاياتها المحدودة لها . وعرفنا أن هذا هو سر للقدر وتفسيره .

ومن هنا صح لنا أن نُعرف القدر والقضاء بأنهما : علم الله تعالى الأزلي بكل ما أراد إيجاده من العوالم ، والخلائق ، والأحداث ، والأشياء ، وتقدير ذلك الخلق ، وكتابته في الذكر الذي هو اللوح المحفوظ ، كما هو حين يقضي بوجوده في كميته ، وكيفيته ، وصفته ،

وزمانه ، ومكانه ،وأسبابه ، ومقدماته ونتائجه بحيث لا يتأخر شيء من ذلك عن إبانه[1]، ولا يتقدم عما حدد له من زمان ، ولا يتبدل في كميته بزيادة أو نقصان، ولا يتغير في هيئة ولا صفة بحال من الأحوال ، وذلك : ـ

أولاً : لسعة علم الله تعالى الذي علم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وعظيم قدرته عز وجل التي لا يحدها شيء ، ولا يعجزها آخر ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

وثانياً : لربطه تعالى الوجود كله بقانون السنن الذي يحكم كل أجزاء الكون علويه وسفليه على حد سواء . هذان هما القضاء والقدر اللذان لا ينكرهما إلا مكابر مجاحد ، أو جاهل معاند ، إذ هما يتجليان في شكل قوانين ثابتة تشمل كل كائن في هذا الوجود من الفلك إلى النور والحلك ، ومن الإنسان إلى الحيوان ومن النباتات إلى الجمادات .

ولنستمع بآذان صاغية إلى الخلاق العليم ، والصانع الحكيم سبحانه وتعالى وهو يخبر عن قدرته وحكمته فيه[2]، ومشيئته له ، وقضائه به :

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[3]

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[4]

---

(1) الإبان : بتشديد الباء الموحدة التحتية : الوقت والزمن الذي يوجد فيه الشيء .

(2) الضمير في « فيه » عائد إلى القدر .

(3) سورة الحديد الآية (٢٢) .

(4) سورة الحجر الآيات (١٩ / ٢١) .

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[1] ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾[2]
﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[3] ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[4]
﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[5]

هذا ولم ينكر القدر ؟ والإنسان المخلوق المحكوم بقوانين القدر التي لا يستطيع أن يخرج عنها بحال من الأحوال ، لا ينكر عليه إذا أراد أن يبني منزلاً أن يرسم له صورة كاملة على ورقة صغيرة ، ثم يأخذ في بنائه ، فيخرجه إن كان ذا قدرة وعلم كافيين ، صورة طبق الأصل . فلا يختلف شيء مما قدره فيه ، ولا يختلف فيه شيء عما رسمه له .

إذا كان الإنسان على ضعفه وعجزه لا يستغرب منه ذلك ، بل يُحمد عليه ، ويثنى عليه به . فكيف يستغرب مثل ذلك من الله الخلاق ، العليم ، ذي القوة المتين ؟!! .

وإذاً فكيف وجد من ينكر القدر ، ويجادل فيه ؟ .

وقبل الإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن نذكر هنا أن القدر قدران : قدر سلمه ، وآمن به كل المؤمنين بالله تعالى ، ولم ينكره أحد ؛ أو يمار فيه آخر ، وهذا النوع من القدر هو ما كان مثل خلق العالم ، وما فيه من سنن ، وما يجري فيه من أحداث كالحياة والموت ؛ والقحط والجدب ، وما ينزل بالإنسان من مصائب لم يتسبب هو فيها ، ولم يكن له قدرة بحال على دفعها ، وذلك ككونه يولد جميلاً

---

(١) سورة القمر الآية (٤٩) .
(٢) سورة طه الآية (٤٠) .
(٣) سورة الفرقان الآية (٢) .
(٤) سورة الأحزاب الآية (٣٨) .
(٥) سورة الأعلى الآيات (١ - ٣) .

أو دميماً ، طويلاً أو قصيراً ، وفي زمن كذا دون غيره من الأزمنة ، وفي بلد كذا دون غيره من البلاد مثلاً .

وككون القضاء مضى بسعادة المرء أو شقائه ، كما مضى بتحديد رزقه وأجله ، فهذا النوع من القدر هو من مراد قوله تعالى :

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [1]

وقول الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما «واعلمْ أنَ الأمةَ لو اجتمعتْ علَى أنْ يَنْفَعوكَ بشيءٍ لم ينفعوكَ إلاَ بشيءٍ قدْ كتبهُ اللّهُ لكَ ، ولو اجتمعوا علَى أنْ يضروكَ لمْ يَضروكَ إلا بشيءٍ قدْ كتبهُ اللّهُ عليكَ ، رفعتْ الأقلامُ ، وجفتِ الصحفُ»[2]. وهذا النوع من القدر كما يجب الإيمان به ، يجب الرضى به ، والتسليم لله تعالى فيه فإنه على وفق رضى الله تعالى ، وبناء على مشيئته وحكمته وواقع على أساس تدبيره لملكه وخلقه ، وإنه ما من حادثة تحدث في الكون إلا ولله تعالى فيها حكمة ، عالية ، مقصودة ، ومن هنا قبح بالمرء أن يتبرم من هذه الأحداث المقدرة له ، كما جمل به أن يقابلها بكامل الرضى ، ومطلق التسليم .

(١) سورة الحديد الآية (٢٢) .

(٢) رواه الترمذي (قيامة/ ٥٩) وأحمد (١/ ٢٩٣) وابن أبي عاصم في كتاب السنة .

ثمرة الرضا بالقضاء

وللرضاء بهذا القضاء نتائج سارة ، وثمرات طيبة ، ومن تلك النتائج السارة والثمرات الطيبة . أنه يكبسب صاحبه قوة الشكيمة ، ومضاء العزيمة ، إذ من اطمأنت نفسه إلى أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأ لم يكن ليصيبه خلت جميع أعماله من الحيرة والتردد ، وانتفى من حياته القلق والاضطراب ، لأنه بمجرد ما يترجح لديه الإقدام على أمر ما أقدم عليه في غير ما خوف ، ولا هيبة . ولا تردد ، ومن هنا فإنه لا يحزن على ماض . ولا يغتم لحاضر ، ولا يؤلمه هم المستقبل وبذلك يكون أسعد الناس حالاً وأطيبهم نفساً ، وأصلحهم بالاً ، وأهدأهم خاطراً ، ومنها أيضاً أنه يكون من أشجع الناس عقلاً وقلباً ، وأكرمهم قولاً ونفساً ، إذ من عرف أن أجله محدود ، ورزقه معدود فلا الجبن يزيد في عمره ، ولا الشح يزيد في رزقه ، نافس في البطولات وسابق في المكرمات .

ومما لا شك فيه أن هذه الصفات قد تجلت واضحة في هذه الأمة ، أمة الإسلام أيام كانت عقيدة القضاء والقدر واضحة في نفوسهم ، قوية في قلوبهم فقد فاقوا الناس شجاعة وكرماً ، وصبراً وحلماً ، ومعرفة وعلماً الأمر الذي تمكنوا به من سيادة العالم وقيادته مدة من الزمن طويلة غير قصيرة .

والآن يحسن بنا أن نجيب عن السؤال الذي أرجأنا الإجابة عنه

وهو : كيف وجد من ينكر القدر ويجادل فيه ؟ فنقول : لقد علمنا من الكلمة التي استطردناها هنا عند إرجائنا الإجابة عن هذا السؤال أن القدر الذي وجد بين المسلمين من ينكره ويجادل فيه ليس هو القدر العام الذي يشمل الكون كله وما يجري فيه من أحداث لا بد للإنسان فيها ، ولا قدرة له على دفعها أو تغييرها إذ هي جارية على نظام السنن التي يقول الله تعالى فيها :

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾[1]

وإنما هو القدر الخاص المتعلق بأفعال العباد ، حسنها وسيئها ، صالحها وفاسدها ، وأول ما ظهر القول فيه على عهد عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي الراشد ، وذلك في حدود المائة الأولى من الهجرة ، قال به ، وأظهره ودعا إليه غيلان الدمشقي حتى قتله هشام بن عبد الملك ، وهذا لا ينافي ما روي من أن القول بنفي القدر كان في أواخر أيام الصحابة رضي الله عنهم ؛ إذ ما قيل في تلك الأيام لم يعد كونه مجرد قول قاله فرد أو أفراد فأنكره عليهم من وجد من أصحاب رسول الله ﷺ كابن عمر ، وابن عباس رضي الله عنهم حتى قضوا عليه ، وأخمدوا نار فتنته إلى حين .

ونفي أولئك النفر للقدر معناه أن الأمور المتعلقة بأفعال العباد لم تقض أزلاً ، ولم تكتب في كتاب المقادير[2] ولم يعلمها الله تعالى قبل وجودها ، ويبدو أن الطائفة التي قالت بنفي القدر بهذا المعنى قد دُحضت حجتها ، وذهب باطلها وانتهك نهائياً من الوجود لأن نصوص الكتاب والسنة في إثبات القدر الخاص والعام متكاثرة متضافرة بحيث يعد منكرها كافراً لا مُقام له بين المسلمين ، وها نحن نورد تلك

---

(١) سورة فاطر الآية (٤٣) .

(٢) المراد من كتاب المقادير اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء .

النصوص تسجيلاً لها في هذا المقام بهذه المناسبة ليرتادها القلب كلما رانت عليه آثار الشبه التي لا تبرح تمر بالقلب ، وتوجد حوله للإغواء والفتنة ، ومن تلك النصوص قوله تعالى :

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[1]

وقوله :

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾[2]

وقوله :

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾[3]

وقوله :

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[4]

وقول الرسول ﷺ في رواية لمسلم « كَتَبَ اللَّهُ مُقاديرَ الخلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخلُقَ السَّمواتِ والأرضِ بخمسينَ ألفِ سَنَةً قَالَ وَعَرشِهِ على المَاءِ »[5] وقوله ﷺ في رواية للبخاري : « كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيءٌ قَبْلَهُ ، وَكَانَ عَرشُهُ عَلى الماءِ ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرضِ ، وَكَتَبَ في الذِكْرِ كُلَّ شيءٍ »[6] وقوله ﷺفي رواية أبي داود « أَولَ مَا خَلَقَ اللَّهُ القَلَمَ فَقَالَ أُكْتُبْ فَقَالَ : رَبِّ مَاذَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : أُكْتبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شيءٍ حتى تَقومَ

---

(١) سورة القمر الآية (٤٩) . (٢) سورة الفرقان الآية (٢) .

(٣) سورة الأعلى الآيات (١ ـ ٣) .

(٤) سورة الحديد الآية (٢٢) .

(٥) مسلم (٨/ ٥١) .

(٦) البخاري (٩/ ١٥٢) والمراد بالذكر اللوح المحفوظ .

الساعةُ »[1] وقوله ﷺ لبعض أهل بيته وقد لاموا أنساً في بعض تقصيره في إحضار شيء طلبوه منه : « دَعُوهُ فَلَو قَضَى شيءٍ لَكَانَ »[2] وقول ابن عمر رضي الله عنهما في صحيح مسلم وقد أخبر بأن ناساً يزعمون أن لا قدر ، وأن الأمر أنف[3]. قوله لمن أخبره بذلك : « إذَا لَقِيتَ هَؤُلَاءِ فَأَخْبِرهُمْ أني بَريءٌ مِنهُمْ وَأَنَهُمْ بَرآءُ مني ، وَالَذي يَحْلِفُ بِهِ عَبدُ اللّهِ بنُ عمرٍ لَو أَنَ لِأحدِهِمْ مِثلَ أُحدٍ ذَهَباً فَأَنْفَقَ في سَبيلِ اللّهِ مَا قَبِلَ اللّهُ مِنْهُ حتى يُؤمِنَ بالقدرِ »[4]، وقد تقدم حديث ابن عباس عند الترمذي وفيه قوله ﷺ « رفعت الأقلام ، وجفت الصحف » . غير أنه قد وجد فيما بعد من يقول بنفي القدر عن أفعال العباد ، فزعم أن العبد يخلق أفعاله بنفسه . وأن الله تعالى لا دخل له في ذلك ، ولا عمل ، وأن أفعال العباد لم تقدر ولم يعلمها الله تعالى قبل وجودها . وقالوا : كيف يفعل الله القبيح وهو ينهى عنه ويحرمه ، وهذا هو أساس شبهتهم التي بنوا عليها مذهبهم في كون الله تعالى لم يخلق أفعال العباد ولم يقدرها لهم أو عليهم ، وإنما العبد وحده هو الخالق لأفعاله . وأضافوا إلى شبهتهم هذه شبهة أخرى وهي قولهم : كيف يخلق الله أفعال العباد ثم يعاقبهم عليها ؟ وأصبحوا بهذا يعرفون بالقدريةُ ، أي نفاة القدر ، ولزمهم أن العبد ما دام يستقل بخلق أفعاله فقد أصبح رباً يخلق ما أراد أن يخلق من الأفعال ، ويبطل بذلك التوحيد الذي هو أصل الدين وأساسه ، ومن هنا سموا بمجوس هذه الأمة ، لتعدد الخالقين بحسب مذهبهم في أن الإنسان خالق أفعاله بمقتضى قدرته وعلمه لا بمقتضى قدرة الله وعلمه .

---

(١) أبو داود (٢/ ٥٢٧ ؛ ٥٢٨) وكذا رواه الترمذي (قدر/ ١٧) وأحمد (٥/ ٣١٧) .

(٢) هذه الرواية ذكرها ابن القيم في كتاب القدر وهي ضعيفة سنداً والحديث رواه أحمد (٣/ ٢٣١) عن أنس رضي الله عنه بلفظ « خدمت النبي ﷺ عشرين سنة فما أمرني بأمر فتوانيت عنه او ضيعته فلامني فإن لامني احد من أهله الا قال: دعوه فلو قدر أو قال قضى أن يكون كان » .

(٣) الأنف : المستجد الذي لم يسبق به علم الله ولا قدره .

(٤) مسلم (١/ ٢٨) . (٥) في ص ٤٢٠ .

الجبر وحقيقته

وعلى العكس من نفاة القدر كانت طائفة الجبرية من المعتزلة، وأول من ظهر منهم الجعد بن درهم، وكان قد تلقى مذهب الجبر من يهودي من يهود الشام، وتلقاه عنه الجهم بن صفوان رئيس الطائفة الجهمية نفاة الصفاة المعطلين.

ومما تجدر الإشارة إليه أن مذهب القدر كمذهب الجبر كليهما من صنع اليهود، لإفساد عقيدة المسلمين، إذ سبق أن ذكرنا أن أول من قال بنفي القدر غيلان الدمشقي الذي قتله هشام بن عبد الملك فلا يبعد أن يكون غيلان هذا قد تلقاه من يهود الشام أيضاً.

وحقيقة الجبر: أن الإنسان لا يخلق أفعاله، ولا ينبغي أن تنسب إليه إلا على سبيل المجاز، فهي نسبة فعل لا نسبة إرادة واختيار إذ هي أفعال الله تعالى، أجراها على يد العبد بدون إرادة من العبد؛ ولا اختيار؛ ولازم هذه العقيدة أن العبد غير مؤاخذ على أفعاله، وأنه لا يعاب منه فعل، ولا يلام عليه، ولو كان في غاية القبح والفساد، ولذا كان هذا المذهب أفسد وأشد شراً من سابقه الذي هو مذهب القدرية والذي ينبغي الإشارة إليه هنا هو أن عقيدة الجبر بالرغم من كونها أكثر ضرراً وفساداً من عقيدة نفي القدر فقد ظلت ظاهرة في المسلمين، سارية فيهم وبدون إرادة منهم لها، ولا رغبة فيها، ولعل السبب يعود في ذلك إلى أن عقيدة الجبر هذه تلقي التبعة عن العبد فيما يرتكب من المعاصي، وفيما يقارف من الذنوب، وتجعله معذوراً أمام نفسه، حتى قال بعض ضحايا هذا المعتقد الخطير:

أصبحت منفعلاً لما يختار مني ففعلي كله طاعات

وكم قعد هذا المعتقد الخاطىء الفاسد بكثير من المسلمين عن العمل الجاد النافع فضعفوا ، وهانوا ، وأصيبوا بكل قاصمة للظهر ، حتى أصبحوا المثل في العجز والكسل ، والتخلف في ميادين العمل والإنتاج . ووجَد بسببهم ـ العدوالكافر مجالاً للطعن في عقيدة الإسلام والاحتجاج على المسلمين فيما أصابهم ، ونزل بهم بسلوك هؤلاء الذين قتلهم مذهب الجبر ، وأفسد عليهم دينهم ودنياهم ، فأصبحوا يرون أحياءهم أمواتاً ويبررون موتهم وقعودهم عن كل خير يكسبه غيرهم ، ويسعد به في حياته يبرّرونه بمثل قول شاعرهم :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان[1] التحرك والسكون
جنون بك أن تسعى لرزقك ويُرزق في غيابته[2] الجنين

فلننظر كيف تحول مذهب الجبر إلى مذهب معطل قاتل ، لا يقود أهله إلا إلى خسران الدنيا والآخرة . أرأيت لو أخذ الناس كلهم بهذا المذهب ماذا كان يحدث للحياة ؟ كانت تنتهي وكفى !!

فسبحان الله ! ماذا يفعل التضليل بالناس ! وهذا شأن كل المذاهب الهدامة التي هبطت بالإنسان إلى منزلة الحيوان ، وبالتأمل يظهر لنا أن جميع المذاهب الهدامة ، المدمرة في العالم كانت من صنع اليهود الحاقدين على البشرية ، الناقمين عليها ، ومن هنا فإني لا أشك أن مذهب الجبر كمذهب القدر ، كمذهب التشيع كأكثر طرق التصوف الكل طبخ في مطابخ اليهود ، وقدم طعاماً مسموماً للمسلمين ليموتوا به ، ويهلكوا عليه . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

والآن حان لنا أن نعرض عقيدة القدر والقضاء عرضاً أكثر وضوحاً وتحديداً من ذي قبل وتحت عنوان :

---

(١) سيان : بمعنى مستو .
(٢) غيابته : ظلمة الرحم .

لا جبر ، ولا نفي للقدر
الإنسان فاعل مختار
والله خالق الإنسان وخالق أفعاله

إنه قد صعب على غير الموفقين من الناس التوفيق بين كون الانسان فاعلاً لأفعاله ، مريداً لها ، مختاراً فيها ، مهيأ للثواب عليها إن كانت خيراً ، وللعقاب عليها إن كانت شراً ، وبين كون الله تعالى هو خالقه وخالق أفعاله خيرها وشرها ، مع اعتقاد عدل الله ، وتنزيهه عن الظلم .

ومن هنا انقسموا فرقاً فقالت فرقة منهم : إن العبد هو خالق أفعاله بنفسه ، وليس لله تعالى فيها دخل البتة ، واعتذروا بكون أفعال الإنسان منها ما هو شر وقبيح يُنزه الله تعالى عنه ، ولا تجوز نسبته إليه ، فالتزموا بناء على هذا المذهب بمبدأ نفي القدر عن أفعال العباد ، أي لم يعلمها الله تعالى أزلاً ، ولم يقدرها ، ولم تكتب في الذكر (كتاب المقادير) ؛ ولزمهم في معتقدهم هذا أن يكون للكون غير خالق واحد ، وهو رد صريح لقول الله تعالى

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾[1] وقوله : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[2] وقوله :

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾[3]

---

(١) سورة الأعراف الآية (٥٤) .

(٢) سورة الصافات الآية (٩٦) .

(٣) سورة الأنعام الآية (١٠٢) .

فكانوا بهذا مجوساً لإثباتهم خالقين مع الله تعالى في الكون ، وقد روى أحمد وأبو داود بسند حسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « القَدَرِيةُ مجوسُ هَذِهِ الأُمةِ ، إنْ مَرِضُوا فَلا تَعودُوهُمْ ، وإنْ مَاتُوا فَلا تَشْهدُوهُمْ »[1] .

وقالت فرقة أخرى بعكس ما قالت الأولى ، فكانوا على النقيض معهم : إذ قالوا : -

إن العبد لا إرادة له في أفعاله ولا اختيار ، وليس هو بالفاعل على الحقيقة أبداً ، وإنما الفاعل هو الله عز وجل . وما ورد في القرآن من نسبة الفعل إلى العبد كقوله تعالى :

﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾[2]

وقوله : -

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[3]

إلى غير ذلك من الآيات التي تسند الفعل إلى العبد خيراً كان أو شراً ، إنما هي نسبة مجازية علاقتها السببية ولم تكن نسبة حقيقية أبداً . إن هي إلا أفعال الله تعالى أجراها على يد العبد ، والعبد مجبور عليها ، غير مريد لها . ولا اختيار له في فعلها أو تركها . ولزمهم بذلك أن لا يكون في فعل العبد حُسن ولا قبح ، ولا خير ولا شر ، وبالتالي فلا حساب عليها ولا عقاب . وبناء على مذهبهم هذا فإنه لمَ يبق من معنى لبعثة الرسل ، وانزال الكتب . ووضع الشرائع ، ومن هنا كان هذا

---

(١) أبو داود (٢/ ٢٤ ، ٢٥) وأحمد (٢/ ٨٦ ، ١٢٥) والفتح الرباني (١/ ١٤٠ ، ١٤١) وابن ماجه (مقدمة/ ١٠) .

(٢) سورة البقرة الآية (١٩٧) .

(٣) سورة النحل الآية (٩١) .

المذهب مذهب الجبر والتعطيل أسوأ ، وأفسد ، وأقبح من القدرية « نُفاة القدر » .

وقال فريق ثالث : إنه ما دام الله تبارك وتعالى قد نفى الظلم عن نفسه في قوله :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾[1]

وحرمه على نفسه وعلى عباده في قوله في حديث مسلم القدسي : ﴿يَا عِبَادِي إني حَرَمْتُ الظُلْمَ على نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرماً فَلا تَظَالموا﴾[2] .

فكيف يجوز إذاً عقلاً أن يكتب على العبد أزلاً أعماله ليقوم بها حتماً ، ثم يؤاخذه عليها ؟ بل ذهبوا إلى أكثر من هذا القول بشاعة وقبحاً فقالوا : ما دام الله تعالى قد علم مصير العبد ، وقرره ، حيث قدره بكتابته في كتاب المقادير العام اللوح (المحفوظ) ، وأصبح العبد لا محالة صائراً إليه شاء أم أبى ، أحب أم كره ، فكيف يؤمر العبد إذاً وينهى ، ويُطالب بفعل الطاعات ، وترك المعاصي ، والأمر قد بُت فيه ، وفرغ منه ، إنما يؤمر وينهى من لم يحدد له مصير ، وتقرر له نهاية ، فمثل هذا يؤمر وينهى ليتقرر مصيره بحسب استجابته لما أمر به ونُهي عنه ، وعدمها .

---

(١) النساء الآية (٤٠) .

(٢) مسلم ٨/ ١٧ .

(الإبليسيه)

هذا ملخص هذا المذهب الثالث ، وإنه ليبدو أن أصحابه مترددون بين إثبات القدر ونفيه ، والقول بالجبر وعدمه ، ولزمهم في مذهبهم هذا ما أصبحوا به شراً من إبليس ألا وهو الاعتراض على الله تعالى ، ونسبة الظلم إليه وهو المنزه عن الظلم ، البعيد عن كل نقص سبحانه لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

وأخيراً ينبغي أن تسمى هذه الفرقة الحيرىَ المترددة (بالإبليسية) وإن كانت شراً من إبليس .

وهدى الله أهل الإيمان والتقوى إلى الحق الذي اختلفت فيه تلك الفرق فضلّت عنه وجانبته ، وعاشت بعيدة عنه ، وهي ما بين مجوسية نافية لأقدار الله تعالى ، مثبتة باطلاً خالقين متعددين في العالم ، في حين أنه لا خالق إلا الله سبحانه وتعالى .

وبين جبرية معطلة للشرع ، منكرة للعقل ، وبين إبليسية معترضة على الله تعالى في قدره ، نافية لمشيئته وحكمته ، شاكة في عدله ، ورحمة قضائه .

هداهم ـ أهل الإيمان والتقوى ـ إلى الحق بإذنه فآمنوا بقضاء الله وقدره ، وعدله ورحمته ، وإرادته ومشيئته ، وحكمته ، وحسن تدبيره ، وقالوا لا يتم إيمان عبد حتى يؤمن بقدر الله تعالى .

ذلك القدر الذي هو سر نظام الحياة ، وهو علم الله الأزلي ،

وتقديره لكل شيء ، وكتابته في اللوح المحفوظ ، والمعبر عنه أحياناً بالإمام المبين كقوله تعالى :

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾[1]

فلا يزيد شيء عما كتب ولا ينقص ، الأحداث الصغار التي تجري في هذا الكون كالأحداث الكبار ، والأعراض والصفات كالأجسام والذوات ، كل شيء كان منذ كان الكون أو سيكون إلى انقراض الكون ، قد جرى به العلم ، ومضى فيه التقدير ، وكتب في الذكر حتى عجْز الخاملين ؛ وكيس النابهين . روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ قوله : « **كُلُّ شيءٍ يُقَدَّرُ حتى العَجز والكيسَ** »[2] وأخرج الشيخان عن عليّ أن النبي ﷺ قال : « **مَا مِنْكُمْ مِنْ أحدٍ إلاّ وَقَدْ كُتِبَ مَقعدَهُ مِنَ النَّارِ ، وَمَقعَدَهُ مِنَّ الجَنَةِ . قَالُوا يا رسولَ اللّهِ : أفلا نَتَكِلُ على كِتَابِنَا ، وَنَدَعُ العملَ ؟ قَالَ : « اعمَلُوا فَكُلٌ مُيسرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ . أَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أهلِ السعادة فَيسرُ لعملِ أهلِ السَعَادَةِ ، وَأَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهلِ الشَقَاوَةِ فَسيُسرُ لِعَمَلِ أهلِ الشَقَاوَةِ . ثُمَّ قَرَأَ : فَأَمَا مَنْ أَعْطَى ، واتقَى ، وَصَدقَ بالحسنَى** » الآيات[3] كما روى البخاري أن النبي ﷺ قال لأبي هريرة « **جَفَّ القَلمُ بِمَا أَنْتَ لاقٍ فَاختَصَ على ذَلِكَ أو ذَرْ** »[4].

آمن هؤلاء الموفقون بالقضاء ، والقدر والعدل ، والإرادة ، والمشيئة ، والحكمة ولم يصعب عليهم كما صعب على غيرهم التوفيق

---

(١) سورة يس الآية (١٢) .

(٢) مسلم (٨/ ٥١ ، ٥٢) .

(٣) متفق عليه بمعناه اللؤلؤ والمرجان (٣/ ٢٠٩) ، والآيات من سورة الليل (٥،٦).

(٤) البخاري (٧/ ٥) .

بين كون فعل العبد قد قدره الله تعالى ، وكتبه عليه ، وسبق به علمه قبل التقدير والقضاء وبين كون العبد فاعلاً لفعله مريداً له ، مختاراً في فعله وفي تركه ، يحاسب به ، ويجزى عليه . ولا بين كون العبد فاعلاً لفعله وبين كون الله خالقاً للعبد وخالقاً لفعله . ولا بين كون الله يقضي للعبد ما شاء من قضاء ، ثم يأمره وينهاه ، ويجزيه حسب عمله الذي قُدر له ، وكتبه له أو عليه ، فقالوا : إن الله تعالى لما قدر ما للعبد وما عليه من خير أو شر ، وسعادة أو شقاء قد قدره مربوطاً بأسبابه ، فللخير أسبابه ، وللشر أسبابه ، كما قدر أن العبد يأتي تلك الأسباب ، ويعمل بها بمحض إرادته التي قدرها له ، وحرية اختياره الذي قضى له به ، فلا يصل العبد إلى ما كتب عليه وقُدر له من سعادة أو شقاء إلا بواسطة تلك الأسباب التي يفعلها غير مكره عليها . ولا مجبور على فعلها ، والحجة في ذلك قول الرسول ﷺ : « **إنَ اللَّهَ إِذَا خَلَقَ العبدَ لِلجَنَةِ استعملَهُ بَعملِ أهلِ الجَنَةِ حتى يموتَ على عملٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الجَنَةِ فَيُدخِلَهُ رَبُهُ الجَنَةَ ، وإذَا خَلَقَ العبدَ للنَّار استعملَهُ بعَمَلِ أهلِ النَّارِ حتى يموتَ على عملٍ مِنْ أعمالِ أهْلِ النَّارِ فَيُدخِلَهُ رَبُهُ النَّار** »[1] . ودلالة هذا الحديث الصحيح ظاهرة في أن الله تعالى إذا كتب على العبد أزلاً السعادة ، أو الشقاء كتب له كذلك أنه يعمل بالأسباب التي تسعد أو تشقي لتتم السعادة أو الشقاء على أساس نظام الأسباب كما أن الاستدلال بنظام الكون العام له وجه أيضاً إذ الإنسان جزء من الكون كله ، والكون جميعه مربوط بسنن وقوانين تحكمه إلى نهاية أجله فلم لا يكون إذاً الإنسان كذلك مبدؤه ، وسعيه ، ومصيره مربوط كذلك بسنن تحكمه لا يمكنه الخروج عنها بحال من الأحوال ،

---

(١) اخرجه مالك في الموطأ (٣/ ٩٢ ، ٩٣) .. وأبو داود في سننه (٢/ ٥٢٩) والترمذي في تفسيره سورة الأعراف (٢) وأحمد (١/ ٤٥) .

وتلك هي نظام القضاء والقدر إذ أنه لا فرق بين الإنسان والكون إلا أن الإنسان منظور في سعيه إلى إحدى غايتين : السعادة أو الشقاء فهو واصل بسعيه إلى إحداهما لا محالة فلذا اختلف سعيه عن سعي غيره من سائر الخلق ، ومن أجل هذا أعطي قدراً زائداً عن سائر الخلق وهو الإرادة والاختيار في سعيه ، فالكون من غير الإنسان يسعى مسعاه الذي قدر له لا يخرج عنه لأنه غير منظور في سعيه إلى احدى الغايتين وإنما إلى غاية واحدة لا تتخلف فلذا لم يعط إرادة ولا اختياراً ، وكان بعكسه الإنسان الذي أعطي الإرادة والاختيار فتحمل بهما الأمانة بعد أن رفضها الكون كله وأباها قال تعالى في سورة الأحزاب :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1]

زيادة ايضاح :

ولمزيد التوضيح لهذه الحقيقة نقول إن الإنسان مخلوق لله تعالى ، مربوب له كسائر الخلق كالشمس والقمر والنبات والحيوان يقوم بفعله كما تقوم سائر المخلوقات بما أناط بها ربها تعالى من أفعال تقوم بها ، وإنما الفرق بين الإنسان وسائر الخلق أن الإنسان أعطي إرادة واختياراً لعلة التكليف : والجزاء عليه بخلاف غيره[2]. فإنه لا جزاء له على عمله الذي يقوم به لعدم منحه إرادة حرة ، واختياراً كاملاً بحيث يكون إن شاء فعل وإن شاء ترك ، فيصل إلى إحدى غايتيه بما أراده من عمله ، واختاره لنفسه بمحض إرادته واختياره ومن هنا لو أن العبد أكره على عمله ، وأجبر عليه لم يترتب عليه حساب ولا جزاء بثواب أو

(١) الآية (٧٢) .

(٢) ومن هنا كان المجنون والصبي والنائم والمكره والناسي لا مؤاخذة عليهم في أفعالهم ، لعدم وجود الإرادة والاختيار عندهم .

عقاب لعلة فقده الإرادة الحرة ، والاختيار التام .

بهذا تم لأولئك الموفقين التوفيق بين كون فعل العبد قد قضاه الله تعالى أزلاً على العبد فهو فاعله لا محالة ، وبين كون العبد مريداً لفعله مختاراً له يُثاب على حسنه ويعاقب على سيئه .

ولبيان حقيقة كون العبد فاعلاً لفعله قائماً به ، والله خالقه ، وخالق فعله نقول : إن الكون كله مخلوق لله تعالى ، وليس ثم من خالق غيره سبحانه وتعالى :

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[1]

والإنسان من جملة أجزاء الكون المخلوق فهو إذاً مخلوق ، والله خالقه وخالق الكون كله ، وهل المخلوق يخلق ؟ اللهم : لا .

إن الأفلاك تدور والكواكب تسير ، والشجر ينمو ، والحيوان يعمل عمله فيأكل ، ويشرب ، ويتوالد ، فهل يقال لهذه المخلوقات من الكون إنها خالقة لأفعالها ؟ أم الله هو الذي خلقها وخلق أفعالها ؟ وإذا كان الجواب واحداً وهو أن الله تعالى هو الذي خلقها وخلق أفعالها فبأي منطق تخرج أفعال العباد من هذا الحكم العام ؟ والإنسان من جملة أجزاء الكون مربوط بنفس السنن التي تربط الكون ! أمن أجل كون الإنسان مريداً لأفعاله ، مختاراً لها ؟ فإن ذلك منحه دون سائر الخلق لعلة أن يثاب على فعله ، أو يعاقب فقط ، فليس ذلك بمخرجه عن كونه عبداً لله مربوباً له . الله خالقه ، وخالق أفعاله بالقوة التي أودعها فيه ، وأقدره على الفعل بها ، كما خلق غيره وخلق أفعاله ، وكما خلق سائر المخلوقات في الأرض والسموات بسنن الخلق والتكوين التي أودعها الكون ، وربطه بها ، فسبحانه من إله خلاق عليم !! .

---

(١) سورة غافر الآية (٦٢) .

بهذا قد تقررت هذه الحقيقة وثبتت ناصعة وهي أن الإنسان فاعل لأفعاله ليس خالقاً لها . والله جل جلاله خالق للإنسان ، وخالق لأفعاله .

ونزيد الأمر توضيحاً ، والحقيقة تقريراً فنقول : أليس الإنسان ينطق ، ويسمع ، ويبصر ويعقل ، والله هو الذي جعله كذلك ؟ .

أليس الإنسان يذهب ويجيء ، ويأخذ ويعطي والله هو الذي أقدره على ذلك ؟ أليس الإنسان يحب ويكره ، ويريد ويشاء ويختار ، والله هو الذي هيأه لذلك ؟ إذاً فما دام الله تعالى هو الذي جعله وأقدره ، وهيأه لكل أفعاله تلك فهو خالقه ، وخالق أفعاله بلا جدل ولا نزاع . وكل ما في الأمر أن الإنسان مريد لأفعاله الإرادية ، مختار لها ، والله هو الذي جعله كذلك لعلة الابتلاء والجزاء .

وهنا يقال للذي لا تنتهي وساوسه في هذا الباب : يا عبد الله اخسأ ، لا تعدُ قدرك ! ولا تعترض على ربك ، إنك تسأل ولا يُسأل ، خلقك ولم تخلقه ، كنت به ولم يكن بك ، وكان ولم تكن .

وقال أولئك الموفقون في كون الله تعالى قدّر للعبد أزلاً ما شاء من قدر ، وقضى به عليه ، ثم هو يأمره ، وينهاه ، ويجزيه بحسب استجابته لأمره ونهيه ، وعدمها ـ قالوا :

أولاً : ـ إن الله تعالى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، له الملك ، وله الحمد ، ولا يُسأل عما يفعل ، وذلك لكمال علمه ، وعدله ، وحكمته ورحمته .

وثانياً : ـ أن فعل الله تعالى ، وتقديره ، وحكمه كله عدل وخير ، فليس في أفعال الله تعالى ، ولا تقديراته ، ولا أحكامه ظلم أو شر قط . قضى بهذا العقل ، وصح به النقل ، فهو سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾[1]

ويقول :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[2]

ورسوله ﷺ يقول وهو يقرر هذه الحقيقة التي قدمنا : « والخَيرُ كُلهُ في يَديكَ ، والشرُّ ليسَ إليكَ »[3]

إن الظلم والشر ، وإرادتهما لم تكن إلا من صفات المحدثين ، وسمات المخلوقين . أما ذو العرش المجيد ، الفعال لما يريد ، الغني عن العبيد فقد تنزه عن الظلم وفعل الشر . وكيف وهو الآمر بالعدل في قوله :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾[4]

وهو الناهي عن الظلم ، المحرم له في قوله : ﴿ يَا عِبَادي إني حَرّمتُ الظُلمَ على نَفْسي وَجَعَلْتُهُ بَينَكُمْ مُحَرماً فَلا تَظَالَموا﴾[5]. والمرغب في فعل الخير بقوله :

﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ﴾[6]

وقوله :

﴿ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[7]

---

(١) سورة النساء الآية (٤٠) .
(٢) سورة فصلت الآية (٤٦) .
(٣) رواه مسلم (٢/ ١٨٥) .
(٤) سورة النحل الآية (٩٠) .
(٥) رواه مسلم (٨/ ١٧) .
(٦) سورة البقرة الآية (١٩٧) .
(٧) سورة الحج الآية (٧٧) .

وثالثاً : ـ ما هو الظلم ، وما هو الشر؟ أليس في مفهوم كل العقلاء هو وضع الشيء في غير موضعه ، وأن الشر هو كل فعل خلا من نفع ، أو زاد ضرره عن نفعه؟ بلى ، وإذاً ، فهل تعذيب عاص متمرد على ربه ، فاسق باختياره وإرادته عن أمر مولاه ، عازم على مواصلة الفسق ، مصمم على المعصية ولو عاش دهر الدهارير ، وآباد الآبدين ، ولم يحدث نفسه بالتوبة ، ولم يردْها ، وهو قادر عليها بما وهبه الله من قدرة ، وما منحه من إرادة .

فهل يا معشر العقلاء تعذيب هذا الإنسان يعد ظلماً وشراً؟ اللهم : لا .

رابعاً : ـ إنه بحكم ملكية الله تعالى لعباده بخلقه إياهم ، ورزقه لهم ، وتدبيره لأمورهم كان له الحق المطلق في أن يتصرف فيهم بما يشاء فلو عذبهم أجمعين لما كان ظالماً لهم ، ولو رحمهم أجمعين لكانت رحمته خيراً من عملهم . وبهذا صح الخبر ، إذ روى أحمد وأبو داود وابن ماجه بسند لا بأس به عن زيد بن ثابت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قوله : **«لَو أنَ اللَّهَ عَزَ وجلَ عَذَبَ أَهْلَ السمواتِ والأرضِ عَذَبهمْ وَهُوَ غير ظالمٌ لَهُمْ ، وَلَو رَحَمَهمْ لَكانَتْ رَحْمَتُهُ خيراً لَهُمْ مِنَ أعْمَالِهِمْ . وَلَو أنْفقتَ مِثلَ أُحدٍ ذَهباً في سبيلِ اللَّهِ ما قَبِلَهُ مِنْكَ حتى تُؤْمِنَ بالقدرِ ، وَتَعْلَمَ أنَ ما أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيَخْطِئَكَ ، وأنَ ما أَخطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ، وَلَو مِتَ عَلَى غَيرِ هَذا لَدَخَلْتَ النَّارَ»**[1]

---

(١) أبو داود (٢/ ٥٢٧) وابن ماجه (مقدمة / ١٠) وأحمد (٥/ ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٩) .

خامساً ـ إن الله تعالى لما قدر مقادير العباد من أعمار وأرزاق، وسعادة وشقاء قدر ذلك مع موجباته وأسبابه بحيث لا ينفك قدر مهما كان عن سببه ـ إلا أن يشاء الله ـ كما هي الحال بالنسبة إلى سائر أجزاء الكون إذ الكل مربوط بنظام السنن، محكوم بقوانينها من أكبر جرم إلى أصغره كخلية النواة.

ويشهد لهذه الحقيقة مثلُ قول الرسول ﷺ: «إنَ أَحْدَكُمْ لِيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَةِ حَتى مَا يَكونُ بَينَهُ وَبَينَها إلاَّ ذراعٌ فَيسبقُ عليهِ الكتابُ فَيَعْمَلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلَهَا، وإنَ أَحَدكُمْ لِيَعْمَلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حتى ما يكونُ بينَهُ وبَينَها إلاَّ ذراعٌ، فَيَسْبِقُ عليهِ الكتابُ فَيَعْمَلَ بعملِ أهلِ الجَنةِ فَيدخُلَهَا»[1] والشاهد من هذا الحديث الصحيح إثبات نظام الأسباب، فإنه لما كان لدخول الجنة أسباب، ولدخول النار أسباب، فإن العبد مهما عمل من أعمال تخالف أسباب سعادته أو شقائه فإنه لا بد في النهاية أن يعمل مريداً بأسباب ما كتب له أو عليه في كتاب المقادير ليوافق علم الله وتقديره، وهو في نفس الوقت مريد مختار لم يُكره على فعل ما فعل، ولم يجبر على ترك ما ترك.

إن هذه الحقيقة المدهشة حَرية بالوقوف عندها، والتفكير فيها. إنني لا أشك في أن عبداً يدرك كنه هذه الحقيقة إدراكاً صحيحاً سليماً، ثم لا يتصدع أمام عظمة الله تعالى، ولا يخر ساجداً بين يديه سبحانه وتعالى.

وبيان هذه الحقيقة: أن الله تبارك وتعالى قبل أن يخلق الكون

---

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم (٨/ ٤٤)، واللؤلؤ والمرجان (٣/ ٢٠٧، ٢٠٨). والبخاري (٤/ ١٣٥).

بخمسين ألف سنة[1] علم أنه سيُخلق في يوم كذا ، وتاريخ كذا ، في مكان كذا عبد اسمه كذا ، ووصفه كذا وكذا ، وعلمه الذي سيختاره وبمحض إرادته واختياره هو كذا وكذا ليتحقق له به كذا وكذا من خير أو شر ، من سعادة أو شقاء . وكتب ذلك كله في كتاب عنده . وفي نفس الوقت المعين ، والمكان المحدد يوجد ذلك العبد ، ويربيه إلى غاية بلوغه أشده وهو صحيح ، سليم الحواس ، صحيح العقل ، ثم تعرض له ـ العبد ـ أمور متعددة ؛ وأحوال مختلفة فيختار منها ما يراه لنفسه وهو بعيد عن كل إكراه ، أو إجبار . فيفعل الذي اختاره لنفسه بكامل حريته واختياره ؛ ثم يجد نفسه بالتالي قد وافق ما كتب الله له في ذلك الكتاب الأزلي القديم ؛ ولم يخالفه في شيء ، ولم يخطئه في قليل أو كثير . فسبحان ذي العز والجبروت ، سبحان ذي الملك والملكوت ، سبحان الحي الذي لا يموت .

---

(١) روى مسلم رحمه الله عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كَتَبَ اللَّهُ الخلائقِ قَبلَ أن يخلقَ السمواتِ والأرضِ بخمسينَ ألف سَنَةٍ ، قالَ : وعَرْشُهُ على الماء » (٨/ ٥١) .

إرادة الله تعالى ومشيئته

إن مما له صلة وثيقة بموضوع القضاء والقدر مسألة الإرادة والمشيئة .

فلنسمع كلمة في هذا الموضوع تبين لنا وجه الحق فيه ، وتهدينا للتي هي أقوم وأحسن في هذه المسألة الخطيرة من مسائل عقيدة المؤمن .

والكلمة في هذا الموضوع تدور حول شيئين :

الأول : إثبات إرادة الله تعالى ومشيئته بالبرهانين النقلي والعقلي .

الثاني : هو أن إساءة فهم كثير من الناس لإرادة الله تعالى هو الذي أوقعهم في ضلال مبين ، وخطإ وشر عظيمين .

أما إثبات إرادة الله تعالى ومشيئته فإنه يكفي في ذلك سرد الأدلة السمعية وهي أخباره تعالى ، وأخبار رسوله صلى الله عليه وسلم . ومنها قوله تعالى من سورة البقرة :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[1]

---

(١) الآية (١٨٥) .

وقوله في سورة النحل :

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]

هذا في إرادته تعالى ، وأما مشيئته فيقول تعالى من سورة الأنعام :

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[2]

ويقول من سورة التكوير

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3]

ويقول رسول الله ﷺ في إثبات إرادة الله تعالى « **مَنْ يَرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيراً يُفَقِهُه في الدِّين** »[4].

ويقول في إثبات إرادة مشيئته تعالى : « **إِحْرِصْ على مَا يَنْفَعكَ ، واسْتَعِنْ باللَّهِ، وَلاَ تَعجَزْ ، وإِنْ أَصَابَكَ شيءٌ فَلاَ تَقُلْ لَو أَنِي فعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلْ ، فإن لَو تَفتحُ عمَلَ الشَيطانِ** »[5] .

إن فيما ذكرنا من أخباره تعالى ، وأقوال رسوله ﷺ وهو قليل من كثيرة لدليلاً كافياً في إثبات إرادة الله تعالى ومشيئته سبحانه وتعالى ، ولنشفع هذا الدليل السمعي بالدليل العقلي فنقول : إن الله تعالى بكونه خالق كل شيء ، وربه ، ومليكه مستلزم لإرادته تعالى ومشيئته ، إذ لو

---

(١) الآية (٤٠) .

(٢) الآية (١١٢) .

(٣) الآية (٢٩) . .

(٤) رواه البخاري (٤/ ١٠٣ ، ٩/ ١٢٥) ومسلم (٣/ ٩٥ ، ٦/ ٥٣ ، ٥٤) واللؤلؤ والمرجان (١/ ٢١٨ ، ٢١٩) .

(٥) رواه مسلم (٨/ ٥٦) ، وقوله في آخر الحديث ، ولكن قل : قدر الله روي بلفظ قدر بالدال المهملة المفتوحة بدون شدة ، وروي بتشديد الدال .

لم يكن مريداً لكان مكرها ، ولو كان مكرها لما تأتى له إيجاد العوالم ، والتصرف فيها ، والتدبير لها بمقتضى المصلحة والحكمة ، كما أن كون الإنسان مريداً شائياً بقنص لإرادة الله تعالى ومشيئته ، إذ من غير المعقول أن يكون المخلوق مريداً شائياً ، ويكون خالقه لا إرادة له ولا مشيئة ، بل إن العقل يقضي بإثبات إرادة للخالق ، ومشيئة أعظم من إرادة الإنسان ومشيئته المخلوقتين منه . فلذا ما أراد المخلوق شيئاً ولا شاءه إلا وقد أراده الخالق وشاءه ذلك وإلا لزم أن يكون المخلوق أقوى من الخالق ، مستقلاً بالأمر عنه وهو محال عقلاً وشرعاً قال تعالى :

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾[1]

وقال تعالى :

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[2]

هذا في إثبات إرادة الله تعالى ومشيئته . وأما عن إساءة فهم كثير من الناس لهما ، وما ترتب على ذلك من ضلال ، وشر ، وفساد ، فإننا نقول :

إنه من غير المجازفة في الكلام إن قلنا : إنه ليس هنا في المؤمنين من ينفي إرادة الله تعالى ومشيئته ، وإنما هناك سوء فهم لهما ترتب عليه ضلال لا يقل خطورة عن ضلال أهل الجبر ، ونفاة القدر .

وهذه المسألة أيضاً الناس فيها طرفان ووسط ، فهي نظير مسألة القضاء والقدر ، وقد تقدم بيانها بما فيه كفاية لمن أخذ الله بيده فحماه من زيغ القلوب !

---

(١) سورة النحل الآية (١٧) .

(٢)سورة التكوير الآية (٢٩) .

فالوسط نجا هنا كما نجا هناك ، والطرفان ضلاّ هنا كما ضلاّ هناك ، والله المستعان .

وهذا بيان ضلال القوم : إن الطرفين منهما مفرِّط ، ومنهما مفرِط ، فالطرف المفرط هو من زعم أن لا إرادة يخضع لها ، ولا مشيئة إلا إرادته هو ومشيئته ، فجميع أفعاله في زعمه لا تخضع إلا لإرادته وحده ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا يستثنى من ذلك إلا ما أكره على قوله ، أو فعله ، بقوة سلطان قاهر له ، ألجأه بالقوة المادية إلى قول ما لا يريد ، أو فعله ، وما عدا ذلك من تصرفاته فهو لا يخضع فيها إلا لإرادته ومشيئته فقط . وهذا الضلال في هذه المسألة هو ضلال الملاحدة الذين لا يؤمنون بوجود الله تبارك وتعالى ، ولا بسلطانه على خلقه ، وحكمه فيهم .

بيد أنه شاركهم فيه طائفتان من المؤمنين ! إحداهما تقول : إن الله تعالى منزه عن أن يريد ضلال ضال . أو كفر كافر ، أو يشاء فعل الفواحش ، أو ارتكاب القبائح . فنفوا بهذا إرادة الله تعالى ، ومشيئته في أكثر حوادث العالم الجارية فيه ، ولازم هذا المعتقد أن الله تعالى قد يقع في ملكه ما لا يريد ، وأن هناك مشاركاً له في خلق الحوادث ، وإيجادها بإرادة مستقلة عن إرادة الله تعالى . وهذا قطعاً ضلال ، وشرك يتبرأ منهما ، ويستعاذ من مثلهما .

وقالت الأخرى وهي ممن لا رأي لهم في هذا الموضوع ولا علم ، وإنما هي مجموعة جهلة المسلمين ومقلدتهم ، وأكثرهم من مثقفة المستغربين ، قالوا :

إنه لا دخل لمشيئة الله تعالى في أفعالنا ، وإنما مرد أفعالنا إلى إرادتنا الخاصة ، ومشيئتنا ، فما شئنا فعله فعلناه ، وما لم نشأ فعله لم نفعله . ولهذا تراهم ينكرون بشدة على من يقول سأفعل كذا غداً إن

شاء الله تعالى ، ويردون عليه في غضب وزمجرة : لا تقل إن شاء الله قل سأفعل فقط . لا تقل لنا إن شاء الله ، هذه الكلمة خلها جانباً ، وقل سأفعل كذا وكفى !!! .

ومن مظاهر ضلالهم هذا أن أحدهم يتكلم بأخبار مستقبلة خالصة للاستقبال ، ولا يقيد خبراً واحداً منها بمشيئة الله تعالى ،فيخبر أنه سيسافر ، أو يبيع ، أو يشتري ، أو يبني ، أو يهدم ، أو يأخذ ، أو يعطي ، ولا يقيد من ذلك بمشيئة الله تعالى شيئاً أبداً ، بل يطلق أقواله إطلاق من لا يؤمن بغير إرادته ومشيئته . ولا أدل على ذلك من أن مذيعي النشرات الجوية في أغلب الإذاعات ، والتلفزات الإسلامية من عربية وعجمية يطلقون أقوالهم جازمين بوقوع مدلولاتها كأن الأمر لهـ وحدهم ، وليس لهم فيه مشارك . فيقول أحدهم ستهب الرياح غـ شرقية ، أو غربية ، وستنزل أمطار غزيرة أو ضعيفة في منطقة كذ وستتراكم السحب على كذا ، أو تنزل ضخات مطر خفيفة على كذا آخر ما يتنبؤون به ، ويقولون في نشراتهم الجوية اليومية ، ولم يقـ منها بمشيئة الله تعالى ولا إرادته ، ولا إذنه شيئاً ، فدل ذلك على إيمانهم بمشيئة الله تعالى ، ولا إرادته ، ولا أنه ما شاء كان ، ومـ يشأ لم يكن ومن كان بينهم يؤمن بإرادة الله ، ومشيئته فإنه ـ الإستثناء بمشيئة الله تعالى خوفاً من الملاحدة حوله ، أو مجاملة فيصبح قريناً لهم في الشرك والضلال .

هذه حال الطرف المفرط . وأما الطرف المفرِط وهو لا ـ ضلالا وباطلاً عن مقابله ، فإنه يهدر ما منح الله تعالى عباده من إراد . وما وهبهم من مشيئة تليق بآدميتهم ، وتتفق مع ما هيأهم الله له ـ التكاليف التي يتقرر بها مصير العبد في الحياتين . كما سبق بيانه عـ الكلام على القضاء والقدر . فقالوا :

إنه لا إرادة للعبد ولا مشيئة البتة وإنما الإرادة والمشيئة لله تعا

وحده ، وأنكروا أن يكون للعبد إرادة أو مشيئة ، فساقهم هذا المعتقد الفاسد إلى ضلال لا حد له ، ولا حصر ، حتى أصبحوا به معطلة أسوأ حالاً من الملاحدة الذين لا يؤمنون بالله تعالى ، ولا بشرعه ، ولا بلقائه .

وانعكست عندهم الأمور ، واختلطت الأشياء ، فأصبح القبيح عندهم حسناً والحسن قبيحاً ، والكفر كالإيمان ، والفسق والفجور ، كالطاعة والبرور ! فكل عامل عندهم هو مطيع لله سواء عمل بطاعته ، أو عمل بمعصيته ؛ فالعامل بالمعصية مبرأ من تبعة عمله ، وجريرة فعله فلا ذنب ولا وزر ، وبالتالي فلا عذاب ولا عقاب ، وذلك لأن كل عامل في نظرهم هو يعمل بإرادة الله تعالى ومشيئته لا بإرادة نفسه ومشيئته ، إذ العبد عندهم لا إرادة له ولا مشيئة !

ولنستمع لأحدهم وهو يترجم هذا المذهب الفاسد القبيح في بيت واحد من الشعر فيقول :

أصبحت منفعلاً لما يختاره   مني ففعلي كله طاعات

ومبنى هذا المذهب الباطل الذي أهدر ما وهب الله تعالى عبده من إرادة ومشيئة ، وأهدر بالتالي كل القيم والشرائع مبناه على قاعدة تقول : العبد مطيع للإرادة موافق للمراد ، يريدون . إرادة الله تعالى ومراده . وعليه فلم يبق ذنب ولا مذنب على وجه الأرض إذ الناحر للإنسان مطيع للديان ، والصائم الظمآن موافق لمراد الرحمن ، فهما إذاً في هذا المذهب سيان .

ودون هذه الطائفة طائفة أخرى أخذت كذلك مبدأ ألا إرادة للإنسان ، ولا مشيئة ، ولكن ما قالوا هذا عن علم لهم ، وفهم لديهم ، وإنما قالوه اتباعاً للهوى ، وجرياً وراء الشهوات .

إذ أن أحدهم يأتي ما يأتي من الباطل ، ويرتكب ما يرتكب من

المنكر والذنوب وإن قيل له في ذلك قال هذه إرادة الله حكمت بهذا ، ومشيئته اقتضته ، ولو شاء الله ما فعلت ، وإنما أنا عبد لا أخرج عن إرادة الله ومشيئته ، وهذه حال كثير من المسلمين اليوم، وقبل اليوم ، منذ أن فشا الفساد في عقائد الأمة ، وانتشر الزيغ في صفوفها نتيجة عمل يد الهدم والتخريب التي ما برحت تطعن في جسم أمة الإسلام حنقاً عليها ، وحسداً لها .

ولو كان هذا القول منهم نابعاً من اعتقاد صحيح ، وهو أنهم خاضعون لمشيئة الله تعالى وأقداره فيهم لكان حسناً منهم ، وصح لهم ولكنه لا صلة لله بقلوبهم البتة ، وإنما هو مجرد قول يلوكونه بألسنتهم لدفع المذمة عنهم ، والملامة عليهم ، فكان شأنهم شأن المشركين الذين حكى القرآن قولهم :

﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾[1]

فإنهم لما دعوا إلى عبادة الله وحده ، وإلى ترك التحريم لما أحل الله تعالى من بحائر الإبل وسوائبها[2]، احتجوا مبررين شركهم وافتراءهم على الله بمشيئة الله تعالى ، وأنه لو شاء الله عدم شركهم ما أشركوا ؛ ولو شاء عدم تحريمهم لما حرموا ما حرموه ، ولم يكن هذا منهم إلا دفاعاً عن باطلهم وضلالهم ؛ ولم يكن أبداً عن اعتقاد صحيح بأنهم خاضعون حقيقة لأقدار الله تعالى ، عاملين بمراده ، طالبين لرضاه ، نازلين عن مشيئتهم لمشيئته ، إذ لو كان هذا هو المراد من قولهم لكانوا به مؤمنين صادقين ، وكان من السهل إقناعهم بترك الشرك بالله ، والافتراء عليه ، لأن الله تعالى حرم ذلك ، ونهى عنه ، ولو كان مراداً له

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٤٨) .

(٢) البحائر جمع بحيرة : وهي الناقة تنتج وتلد خمسة أبطن أو سبعة فتشق أذنها ويخلى سبيلها فلا يركب ظهرها ، ولا يجز وبرها ، ولا يشرب لبنها ، ولا يؤكل لحمها ، والسوائب جمع سائبة : وهي الناقة التي يحرمها صاحبها ويتركها تقرباً للآلهة وأحكامها كأحكام البحيرة عندهم !!! .

محبوباً لديه لما نهى عنه ، وحرمه في كتابه ، وعلى لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

وهنا يحسن التذكير بقاعدة جليلة ، وحكمة ثمينة وضعها الهداة المهتدون من فرقة الوسط الناجون وهي : أنه لا يحتج بإرادة الله وقدره على المعائب ؛ ولكن يحتج بهما على المصائب . فالمعائب وهي الذنوب والمعاصي ما دام الله تعالى قد حرمها على عباده ، وكرهها لهم ، ومنهم ، وأنزل بذلك كتبه ، وبعث رسله ، فإن العبد إذا غشيها مريداً لها ؛ وتلبس بها مختاراً غير مكره عليها . لا يصح عقلاً أن يحتج بالقدر الذي هو علم الله ، وتقديره لأحداث الكون خيرها وشرها ؛ وكتابته لها في كتاب المقادير (اللوح المحفوظ) بخلاف المصائب التي تصيب المرء ولم يكن قد تسبب فيها بترك طاعة ؛ أو مخالفة سنة من سنن الله تعالى الشرعية أو الكونية ، فإنه إن قيل له في ذلك صح منه الاحتجاج بالقدر بل بالإرادة الكونية ، إذ لم يكن بإرادة منه ولا اختيار ، كالرجل يسقط عليه جدار ، أو تلسعه حية ، أو تنقلب به سيارة ولم يكن قد علم بتصدع الجدار وجلس تحته ، ولا بوجود الحية ونام عليها ، ولا تجاوز حد السرعة المعتادة لسيره .

أما إن تسبب في هذا فلا حق له في الاحتجاج بالقدر ، بل عليه أن يتحمل نتائج معصيته ، ومعاقبة ربه تعالى له لمخالفته سننه ، وإهماله الأسباب المشرعة لسلامته .

وبالمناسبة يُذكر هنا احتجاج آدم وموسى عليهما السلام قال موسى عليه السلام لآدم لائماً له : « أنت أبونا خيّبتنا وأخرجتنا من الجنة ، فرد عليه آدم عليه السلام محتجاً على المصيبة التي شكاها موسى ، وهي الخروج من الجنة قائلاً : « أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة ، فحج آدم موسى » وغلبه في الحجة ، لأن المصائب يحتج فيها بالقدر ، بخلاف المعائب ، لأن المصيبة لم يردها

الإنسان ، ولم يأتها مختاراً لها مؤثراً إياها ، وإنما تقع عليه بدون علم منه ، ولا إرادة ولا اختيار ، فيحسن الاحتجاج عليها بالقدر تخفيفاً من آلامها ؛ وثقل وطأتها على النفس المصابة .

أما المعائب أي الذنوب فإن العبد يأتيها مريداً لها ، وهو يعلم أن الله تعالى قد حرّمها وكرهها ، فإذا فعلها لم يصح منه عقلاً ولا شرعاً أن يحتج عليها بإرادة الله تعالى ، وقدره بحال من الأحوال .

وقد يكون من اللائق هنا رواية حديثِ احتجاج آدم وموسى عليهم السلام لسماع نصه كاملاً كما رواه الشيخان إذ جاء فيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قوله : قال رسول الله ﷺ : « اِحتَجَ آدمُ ومُوسَى، فَقالَ مُوسَى : « يا آدمُ أَنْتَ أَبونَا خَيبْتَنَا ، وأَخْرَجْتَنَا مِنَ الجَنَةِ ! فَقَالَ آدمُ : أَنْتَ مُوسَى ، اصطفاكَ اللَّهُ بِكَلامِهِ ، وَكَتَبَ لَكَ التوراةَ بِيدِهِ . أَتَلُومُني على أمرٍ قَدَرَهُ اللَّهُ علي قَبْلَ أَنْ يَخلقَني بأربعينَ سَنَةٍ » فقال النبي ﷺ « فَحَجَّ آدمُ مُوسَى »[1] . وقد روي هذا الحديث بألفاظ أخرى نكتفي بهذا اللفظ منها . والله المستعان .

---

(١) متفق عليه اللؤلؤ والمرجان (٣/ ٢١١) ، والبخاري (٨/ ١٥٧) ومسلم (٨/ ٤٩ ـ ٥١)

سوء فهم كثير من الناس لإرادة الله تعالى أوقعهم في الحيرة والخطأ

لقد ثبت بالتجربة والملاحظة أن خللاً بسيطاً يقع في جهاز ضخم كطائرة (الكونكورد) الفرنسية البريطانية ، أو كبناية كبرى كناطحات السحاب الأمريكية قد يفسده ويدمره فيحيله إلى خراب ودمار . وكذلك الحال بالنسبة إلى عقيدة القضاء والقدر ، والإرادة والمشيئة إذا وقع فيها أدنى انحراف ، وبأي وجه ، أو صورة أوقع صاحبه في ضلال وخطأ لا حد لهما .

إن أكثر الذين تبلبلت أفكارهم ، واضطربت نفوسهم في عقيدة الإرادة والمشيئة من المسلمين كانوا ممن غفلوا عن كون القدر هو نظام الحياة الذي يحكمها من نواتها إلى نهايتها ، وأنه يجب أن يمضي كما عُلم وكتب ، وأن تغيير شيء منه معناه خراب الحياة بكاملها .

ولذا تحتم على العبد التسليم به ، وله ، وحَرم عليه إنكاره ، والاعتراض عليه ، كما لا يجوز بحال الاحتجاج به ، أو الاتكال عليه . هذا هو الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ؟؟ .

أو كانوا ممن جهلوا أن إرادة الله تعالى ـ ومشيئته منها ـ تنقسم إلى إرادة كونية قدرية ، وهي تلك التي لا يناط بها تكليف الإنسان ، ولا إثابته ولا معاقبته ، وهي الإرادة التي كان بها القدر ونظامه . والتي لا حق للإنسان أن ينظر إليها بغير عين الرضا والتسليم ، وإلا أصبح محارباً لله ، معارضاً لنظامه ، يدعي السمو إليه ، والتعالي عليه ، وهو

مخلوقه الذي لا غنى به عنه[1] حتى في أنفاسه التي يرددها ، والهواء الذي يتنفس فيه ، والضوء الذي يبصر به ، والظلام الذي يهجع فيه .
وإلى إرادة شرعية دينية وهي التي أناط الله تعالى بها تكليف الإنسان ، وثوابه أوعذابه ، وهي التي يجب على العبد أن ينزل عليها ، ويطيع ربه فيها ، كما يحرم عليه التمرد عليها، والخروج عنها ، وهي التي قد نزلت ببيانها وتفاصيلها كتب الله تعالى ، وبعثت للدعوة إليها ، وتعليمها رسل الله عليهم السلام . وهي جميع ما شرَع الله تعالى لعباده من عقائد وعبادات ، وأحكام ، وحدود ، وآداب ، ومحاسن ، وأخلاق ، وهي التي من أجلها منح الله تعالى العبد ما منحه من قدرة ، وإرادة ، ومشيئة ، واختيار ، ليبتليه مختبراً له أيستجيب لما أراده ربه منه ، وشاءه له من عبادته وطاعته ؟ أم يرفض الاستجابة ، فلا طاعة ولا عبادة !!! ؟
قال تعالى :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[2]

وهي الإرادة التي قد يتخلف فيها مراد الله تعالى ومحبوبه ، فيأمر بها عباده ، وينهاهم ، ومنهم من يمتثل ، ومنهم من لا يمتثل . فقد أمر تعالى عباده بالإيمان به ، وبرسله ، وبطاعته ، وطاعة رسله ، وأحب لهم الطاعة ، وكره لهم الكفر ، والفسوق ، والعصيان[3] .

وبما منحهم من القدرة ، والإرادة ، والمشيئة أمكنهم من أن يمتثلوا أو يرفضوا بمحض إرادتهم وكامل اختيارهم ، ليرتب على ذلك

---

(١) الضمير في مخلوقه كالضمير في عنه كلاهما يعود إلى الله عز وجل .
(٢) سورة الإنسان الآيتان (٢ ، ٣) .
(٣) قال الله عز وجل : ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ، وكره إليكم الكفر ، والفسوق والعصيان . . . ﴾ سورة الحجرات الآية (٧) .

جزاءهم بإثابة المحسنين وعقوبة المسيئين .

هذه هي الإرادة الدينية الشرعية كما ينبغي أن تعلم .

وأما الإرادة الكونية القدرية والتي سبق بيانها فإن الله تعالى لم يجعل للعبد قدرة على الخروج عنها ، والتمرد عليها بحال من الأحوال ، لأنها لا تتعلق بأفعال العباد الإرادية الاختيارية التي هي التكليف والجزاء إلا من حيث أنه تعالى شاءها أن تكون أزلاً كذلك ، فكانت طرداً لعموم إرادته حتى لا يخرج الكون عنها .

وزيادة في الايضاح للإرادة الكونية والتي لا سبيل للإنسان إلى الخروج عنها نقول : فهل يمكن للإنسان أن يرفض أن يكون ذكراً إذا كان أنثى ؛ أو العكس ؛ أو يرفض أن يكون أسود إذا كان هو أبيض ، أو يرفض أن يكون قصيراً إذا كان هو طويلاً ، أو يرفض أن يولد في بلد كذا أو تاريخ كذا إذا كان هو في بلد وزمان غير ما كان فيه ؟؟؟ والجواب في كل هذا ، لا ، ولم ؟ والجواب : هو أن إرادة الله تعالى الكونية لا يعصى فيها ، ولا تتخلف بحال من الأحوال ، لأنها مناط نظام الكون ، وآية الربوبية ، وموجب الألوهية لله سبحانه وتعالى ، وبخلافها الإرادة الشرعية التكليفية المتعلقة بأفعال العباد الإرادية الاختيارية ، فإن الله تعالى أقدر العبد على امتثالها ، ورفضها ليبتليَه ثم يجزيه .

وأخيراً إنه لا يسع العبد أمام هذه العظمة الإلهية إلا أن يسجد لله هيبة وإجلالاً . وأن يذكره ويشكره اعترافاً وتقديراً ، وبذلك تتم كرامته ، وتكتمل انسانيته ويستقيم في حياته استجابة لما أراد الله تعالى منه كوناً وتقديراً ، وشرعاً وديناً .

الهداية والإضلال

ومثل الخطأ في فهم الإرادة والمشيئة ، الخطأ في فهم الهداية والإضلال ، فقد أساء كثيرون فهم مثل قول الله تعالى في كتابه العزيز :

﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1]

وقوله :

﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2]

وقوله :

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[3]

فقالوا كيف يضل الله العبد ثم يعذبه ؟ وكيف يزين له سوء عمله ثم يعاقبه عليه ؟ وقالوا : أين العدل والرحمة في ذلك ؟ فنصبوا أنفسهم بجهلهم خصوماً لربهم ، فهلكوا بجهلهم ، وشقوا بسوء فهمهم . ولو وفقوا لسلموا لله تعالى في حكمه . ولم يعترضوا عليه في تدبيره لأمر خلقه ، إذ له الخلق وله الأمر ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا

---

(١) سورة إبراهيم الآية (٤) .

(٢) سورة الأنعام . الآية (١٠٨) .

(٣) سورة فاطر الآية (٨) .

يُسأل عما يفعل ، وهو العزيز الحكيم ، ولكن القوم لما لم يوفقوا سلكوا مسلك إبليس في الاعتراض على الله عز وجل فأصابهم بذلك إبلاس وخذلان . ولو وفقوا ـ وقد عرفوا أن الله تعالى يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء للجأوا إليه تعالى راغبين خائفين ، يسألونه الهداية ، ويستعيذونه من الضلال ، إذ هو مالك الملك ، القادر على كل شيء . لو وفقوا لأتوا بابه سائلين ، وللاذوا بجنابه محتمين ، حيث لاح طريق الهدى

﴿من يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[1]

ولكن ما وفقوا فاتبعوا خطوات الشيطان ، فباءوا بالحرمان ، والذي قادهم لهذا الخسران والهوان جهلهم بربوبية الله تعالى ، وسوء ظنهم في الرحمن . فجهلهم بالربوبية التي من مقتضياتها التربية والإصلاح ، ومن مستلزماتها الهداية والاضلال هو الذي جعلهم يسألون كيف ؟؟ وليس من حقهم أن يسألوا ، وسوء ظنهم بربهم في تقديره ، وحسن تدبيره جعلهم يعترضون على حكمه ، ويستخفون حكمته ، فهلكوا بجهلهم ، وسوء ظنهم بربهم .

فما أسوأ حالهم !!!؟ وما أخسر مآلهم !!!؟

والحقيقة التي قد خفيت عليهم فضلوا هي أنهم لم يعلموا أن الله تعالى إنما يضل من يضل بعد أن يُعذَر إليه بتبيين سبل الهدى واضحة ، ويمنحه القدرة الكافية على السير فيها ، فإذا آثر العبد ـ بعد العلم ـ الضلال على الهدى ، ولاه الله ما تولى ، فكان ذلك عدلاً منه تعالى ، لا ظلم معه . قال تعالى من سورة التوبة :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾[2]

---

(1) سورة الكهف الآية (١٧) .

(2) الآية (١١٥) .

إنهم لم يعلموا أن الهداية كالإضلال كل منهما يتم حسب سنن الله تعالى في خلقه ، والسنة في الإضلال كالسنة في الهداية وهي الإيثار ، والرغبة ، والطلب ، والعمل .

فمن آثر الهداية ورغب فيها ، وطلبها وعمل بأسبابها تمت له ، ووجد من الله تعالى عوناً له على تحصيلها وتحقيقها . وهذا من رحمة الله تعالى بعباده ، وفضله عليهم . ومن آثر الضلالة ، ورغب فيها وطلبها ، وعمل بأسبابها تمت له . ولم يجد من الله تعالى صارفاً عنها وهذا من عدل الله تعالى في عباده ، وحسن تدبيره فيهم . وجهلوا سنة الله تعالى في تزيين الأعمال لأصحابها ، فأنكروا على الله تعالى ذلك ، وقالوا كيف يزين الباطل الشر لعبد حتى إذا فعله عاقبه عليه ؟؟ .

وما علموا أن هذا التزيين إنما حسب سنة إلهية لا تتخلف وهي أن المرء إذا آثر العمل باختياره ، وأحبه من نفسه ، ولازمه غير منفك عنه زمناً طويلاً أصبح ذلك العمل زيناً له ، حسناً عنده ، وإن كان شيئاً قبيحاً عند غيره . والعمل الفاسد كالعمل الصالح في هذه السنة كلاهما يُزين لفاعله بهذه الطريقة .

غير أنه من رحمة الله تعالى بعباده ، وعظيم إحسانه إليهم أن حذرهم في كتبه ، وعلى ألسنة رسله عليهم السلام ، حذرهم من استدامة العمل الفاسد ، والإصرار عليه ، ودعاهم إلى تركه ، والتوبة منه ، قبل أن يبلغ من نفوسهم حد التزين ، ويصل إلى مستواه ، فيزين لهم حسب سنة الله تعالى ، ويومها يتعذر عليهم تركه ، والإقلاع عنه .

وفي هذا يقول تعالى في سورة فاطر :

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾[1]

---

(١) الآية (٨) .

ويقول :

﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾[1]

فمن استجاب لتحذير الله تعالى ، وترك فاسد الأعمال ، وسيئها نجا ، ومن تجاهل التحذير ، وواصل في سبيل الغي السّير هلك ، ومن نجا فقد نجا برحمة الله وفضله ، حيث هيأ له أسباب النجاة ، وأعانه على الأخذ بها ، ومن هلك فقد هلك بعدل الله تعالى حيث نهاه عن الغي ، فآثره على الرشد ، ودعاه إلى التوبة ، فرفضها ، وأصر على خلافها حتى وصل في عمله حد التزيين فزين له فرآه حسناً ، وبذلك فقدَ الاستعداد لقبول دعوة الخير والهدى ، ومضت فيه سنة الله في التزيين ، فهلك مع الهالكين ، ولا عدوان إلا على الظالمين :

﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[2]

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٠٨)

(٢) سورة النحل الآية (٣٣)

الجزاء من ثواب وعقاب قائم على أساس الرحمة والعدل

ومن غفلة بعض المؤمنين عن كيفية إجراء الثواب والعقاب على العباد في الدنيا والآخرة تورطوا في جدل وخصومات لا معنى لها ، ولا داعي إليها في مسألة العدل والظلم .

حتى ضل منهم خلق كثير . وفتنتهم جاءت من غفلتهم عن نظام السنن الذي هو نظام القدر ، ونابع منه ، وداخل فيه ، وليس خارجاً عنه ، ولا متنافياً معه .

وهذا بيان ذلك : إن الله تعالى جعل للأعمال الإرادية الاختيارية التي يقوم بها الإنسان أثراً في نفسه ، وبحسب ذلك الأثر يكون الجزاء من ثواب وعقاب .

ومن هنا كان العمل اللاإرادي كعمل الناسي ، والمخطىء ، والمكره ، والمجنون لا تأثير له على النفس أعني أن النفس البشرية لا تتأثر بذلك العمل حسب سنة الله تعالى في ذلك . وعليه فلا ثواب ولا عقاب .

أما ما كان من العمل إرادياً اختيارياً ، فإنه لا محالة من تأثر النفس به ، فإن كان العمل صالحاً أي من الأعمال التي شرعها الله تعالى لعباده لتزكية أرواحهم وتطهيرها ، لتأهل بذلك لمجاورته سبحانه وتعالى في الملكوت الأعلى كان التأثر والانطباع وصفاً حسناً للنفس ، ويسمى ذلك الانطباع حسنة ، وقد يطلق لفظ الحسنة على نفس العمل

المسبب لذلك على سبيل المجاز الذي علاقته السببية .

وإن كان العمل سيئاً أي مما جعله الله تعالى حسب سنته مؤثراً في النفس بالظلمة والتدسية ليكون مؤهلاً للإنسان لمجاورة الشياطين في جهنم من عالم الشقاء كان الانطباع أو الأثر وصفاً سيئاً للنفس ، ويسمى ذلك الانطباع سيئة ، وجمعها سيئات. كما قد يطلق لفظ السيئة على العمل المكسب لها إطلاقاً مجازياً علاقته السببية أيضاً ، وقد جاء في هذا عدة آيات قرآنية منها قوله تعالى من سورة الشمس :

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1]

وقوله من سورة الانفطار :

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[2]

فالوصف مشعر بعلة الحكم ، فالبرور والفجور هما سبب دخول النعيم والجحيم ، وقوله تعالى من سورة البروج :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾[3]

وقوله من سورة الزخرف :

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[4]

فالإيمان والعمل الصالح سبب في تطهير النفس ، والإجرام بالشرك

---

(١) الآيتان (٩ ، ١٠) .
(٢) الآيتان (١٣ ، ١٤) .
(٣) الآية (١١)
(٤) الآيات (٧٤ - ٧٦) .

والمعاصي سبب في تدنيسها ، وبحسب ذلك الأثر الطيب أو الخبيث يكون الجزاء بالثواب والعقاب . ومصداق هذا وارد في كتاب الله تعالى من سورة الأنعام ، إذ قال تعالى

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[1]

إنه وإن كان للآية الكريمة معنى غير الذي أوردنا وهو أنه تعالى سيجزي المشركين بوصفهم الكذب بما حرّموا من الأنعام والحرث افتراء على الله تعالى فإن المعنى الذي أردناه قائم بالآية أيضاً ، وهو أن الجزاء على الأعمال الصالحة والسيئة يكون بحسب الوصف المكتسب منها للنفس البشرية التي اقتضت سنة الله تعالى انطباعها بأفعال العبد الإرادية الاختيارية . مما جعله الله تبارك وتعالى مؤثراً في النفس ، وذلك من كل ما شرع من الأعمال الصالحة ، وما حرم ومنع من الأعمال الضارة الفاسدة مما يقوم به ، ويعمله قلب الإنسان ، وجوارحه على حد سواء .

وبناء على هذا فإن الجزاء جار على أساس من الرحمة الإلهية والعدل : فالعبد يكسب عمله بمحض إرادته واختياره ، فإن كان الكسب مما يحب الله تعالى حيث شرعه لعباده ، وأمرهم به ، ورغبهم فيه ، وأعانهم عليه ، بعد ما وفقهم للقيام به ، ثم أثابهم عليه الحسنة بعشر أمثالها ، فكان جزاء تغلب عليه الرحمة والإحسان ، وإن كان الكسب مما كره الله تعالى لعباده ، ونهاهم عنه ، وحظره عليهم تخلى الله تعالى عن فاعله خذلاناً له ، لأنه آثر معصيته على طاعته ، وسخطه على رضاه ، ثم هو إن لم يغفره له بموجب من موجبات المغفرة كالتوبة ، أو العفو الإلهي ، وعاقبه عليه كان العقاب بمحض العدل ، السيئة بمثلها

---

(١) الآية (١٣٩) .

فلا حَيف ولا ظلم .

وهكذا فقد تقرر ما توخيناه من إثبات هذه الحقيقة ، وتقريرها وهي أن الجزاء ، والثواب ، والعقاب على كسب المرء قائم على أساس الرحمة ، والعدل الإلهيين ، خال من كل معنى للإساءة أو الظلم . وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾

(١) سورة النساء الآية (٤٠) .

الحسنة والسيئة من الله تعالى أو من النفس

بين يدي الحديث عن الحسنة والسيئة ، وهل هما من عند الله تعالى ؟ أو الحسنة من الله ، والسيئة من النفس ، نظراً إلى قوله تعالى من سورة النساء :

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾[1]

مع قوله عز وجل من نفس السورة ، وذات السياق :

﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[2]

أقول بين يدي تحقيق هذه المسألة ، والتي هي جزء هام من مسائل عقيدة المؤمن ، وذات صلة وثيقة بموضوع القضاء والقدر ، والجبر والاختيار ، والإرادة والمشيئة ، والجزاء بالرحمة ، والعدل ، وهما ما سبق لنا القول فيه بالتفصيل ، وبالقدر الذي فتح الله علينا به ، ورأينا أنه كاف والحمد لله في تحقيق المعتقد الذي يُرضي الله تعالى ،

---

(١) الآية (٧٨) .

(٢) الآية ٥ (٧٩) .

ويرضاه من عبده ، وَيَرضى به عنه . أقول : إن الحسنة وهي ما يحسن لدى الإنسان مما يلائم مزاجه فيورث باطنه صفاء وطهراً ، أو جسمه نعومة ونضرة ، وهي بهذا المعنى قسمان :

الأول : حسنة سببها الإيمان والعمل الصالح ، أو هي حسنة الطاعة لله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

الثاني : حسنة سببها الإنعام الإلهي على العبد بما يريح جسمه من الوصب ، ونفسه من الغم والهم ، وذلك بما يؤتيه من مال ، وسلامة بدن ، ونصر ، وعز ، ومجد .

والسيئة ضد الحسنة وهي ما لا يحسن لدى الإنسان مما لا يتلاءم مع مزاجه وطبعه ، أو هي ما يسوءه في باطنه ، ويضره في ظاهره ، وهي بهذا المعنى قسمان أيضاً :

الأول : سيئة سببها الشرك والمعاصي إذ هما حسب سنة الله تعالى يورثان النفس ظلمة وخبثاً ، فتمرض لذلك وتشقى .

الثاني : سيئة سببها الانتقام الإلهي ، وذلك كأمراض الجسم وعلله ، وضياع المال ، والهزيمة في الحروب ، وفقد الشرف ، وذهاب الكرامة .

وبناء على هذا الذي تقدم فالحسنة التي هي بمعنى الطاعة لله . ورسوله صلى الله عليه وسلم يوفق العبد لفعلها ، والاتيان بها على الوجه الذي شرع الله تعالى لعباده ، هذه الحسنة لا تُنسب إلا إلى الله تعالى ، إذ هو الذي شرعها للعبد ، وعلمه إياها ، وأمره بفعلها ، وأعانه عليها ، ووعده بحسن المثوبة عليها ترغيباً له في فعلها ، كما أنه كتبها له أزلاً وقضى بها له قدراً . فهذه الحسنة نسبتها إلى غير الله تعالى خطأ فاحش لا يُقَر عليه أبداً .

والسيئة التي هي بمعنى معصية الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ومخالفتهما في أمرهما ونهيهما ، هذه السيئة إذا فعلها العبد بإرادته واختياره مؤثراً المعصية على الطاعة ، والمخالفة على الامتثال ، فهذه السيئة لا تُنسب إلا إلى العبد فاعلها ، ولا تصح نسبتها إلى الله تعالى أبداً ، لأن الله تعالى لم يشرعها ، ولم يأمر بها ، ولم يرغب فيها ، بل حرّمها ، وتوعد عليها منفراً منها فكيف تصح نسبتها إلى الله تعالى ؟ اللهم لا ، وكيف والله تعالى يقول :

﴿ مَآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[1]

وأما إن كانت الحسنة بمعنى النعمة والبلاء بالخير كالمال والولد ، والصحة والعافية في ذلك ، وكالنصر والظفر ، والعز والجاه ، وكانت السيئة بمعنى النقمة والابتلاء بالشر وذلك كالنقص في المال والنفس والهزائم في الحروب ، وما إلى ذلك من الشدائد والكروب فكلاهما ـ أي الحسنة والسيئة ـ من هذا النوع ـ كلاهما من عند الله تعالى ، لأنه عز وجل هو الذي يبلو عباده امتحاناً ، وانتقاماً حسب مقتضيات رحمته في تربية عباده ، وتدبير شأنهم . قال تعالى :

﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[2]

وقال عز من قائل :

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴾[3]

---

(١) سورة النساء الآية (٧٩) .

(٢) سورة الأنبياء الآية (٣٥) .

(٣) سورة الفجر الآيات (١٥ ـ ١٧) .

ومن هنا لما كان المنافقون بالمدينة ينسبون الحسنة بمعنى النعمة إلى الله تعالى ، وينسبون السيئة بمعنى النقمة ، والبلاء ، والشر ينسبونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رد الله تعالى عليهم قولهم هذا ، وعابه عليهم ، ونسبهم إلى سوء الفهم ، وقلة الادراك ، وأخبر مقرراً أن كلًا من هذين النوعين من الحسنة والسيئة هما من عند الله تعالى . قال عز وجل :

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[1]

وبهذا زال والحمد لله الإشكال الذي كان يقف عنده كثير من المؤمنين حيارى يكادون أن يقولوا : إن بين الآيتين تناقضاً أو تعارضاً في حين أنه لا تناقض بينهما ولا تعارض وحاشا كتاب الله تعالى أن يضرب بعضه بعضاً تناقضاً أو تعارضاً ، وكيف يكون ذلك والله منزله وهو العزيز الحكيم يقول :

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[2]

ويحسن التنبيه هنا إلى أن العبد وإن نسبت إليه السيئة التي هي المعصية لله ولرسوله ﷺ ، والتي يترتب عليها تدسية النفس وتدنيسها ليس معنى ذلك أن العبد قد فعل ما لم يكن قد كتب عليه أزلاً ، وقضى به عليه قدراً ، لا والله ، بل ما فعل العبد إلا ما كتب عليه أن يفعله ، كما أن كون العبد أبى المعصية باختياره وفعله بنفسه مريداً لها ، لا يدل

(١) سورة النساء (٧٨) .

(٢) سورة فصلت الأيتان (٤١ - ٤٣) .

على أنه خلق فعله فيها ، بل الخالق هو الله الذي خلقه وخلق إرادته واختياره .

وإنما لم تنسب السيئة التي هي المعصية لله ورسوله ﷺ لم تنسب إلى الله تعالى ، لأن الله تعالى قد حرّمها ، ونهى عن فعلها ، وتوعد عليها ، ولم يرضها لعبده كما رضي له الطاعة ، إذ قال تعالى من سورة الزمر :

﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾[1]

مع العلم والتسليم بأن الله تعالى لو شاء أن يحول بين العبد وبين فعله المعصية أو الطاعة لفعل ، وهو على ذلك لو شاء قدير ، لكنه لم يفعل ، لأنه خلق هذا المخلوق ليبتليه في هذه الحياة قال تعالى :

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾[2]

فلذا مُنح العبد إرادة واختياراً يتأتى لكل امرىء بهما أن يسلك أي سبيل من سبل الهدى أو الضلال ، الغي أو الرشاد ، وسلوكه الذي أراده واختاره يصل إلى الغاية التي جعل السبيل مؤدياً إليها ـ سنة الله

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[3]

---

(١) الآية (٧) .

(٢) سورة الملك الآيتان (١، ٢) .

(٣) سورة فاطر الآية (٤٣) .

بحث مهم في المشيئة

وأخيراً إنه قد يظن البعض أن مشيئة العبد كافية في إيجاد ما يريده ، ويرغب في حصوله ، وهو ظن باطل خاطىء قطعاً . وذلك : -

أولاً : - أنه قد ثبت بالمشاهدة والحس أن العبد كثيراً ما يريد الشيء ، ويرغب في تحصيله ، ويبذل كل وسيلة من شأنها أن تحقق الشيء المطلوب ، ثم يخيب العبد في سعيه ، ولا يفوز بمراده .

وثانياً: - أن القدر قد سبق في كل ما هو كائن إلى يوم القيامة فلم يكن في الكون إلا ما كتب أزلاً ، وقُدر أن يكون . وبهذا يعلم أن مشيئة العبد التي يتحقق بها المراد هي نفسها مكتوبة أزلاً ، ومحكوم بوجودها في إبانها ليتحقق بها ذلك الفعل الذي أراد العبد أن يفعله ، وآثر فعله واختاره على غيره وفي هذا يُقرأ قوله تعالى :

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]

وتوضيح ذلك أن العبد ليس له أن يشاء إلا ما سبق به الكتاب فإذا سبق كتاب المقادير بشيء يقع على يد العبد أوجد الله تعالى للعبد مشيئة تدفعه إلى إتيان العمل . وخلق له اختياراً في نفسه يرجح به الفعل على الترك فيكون ذلك المقدور .

---

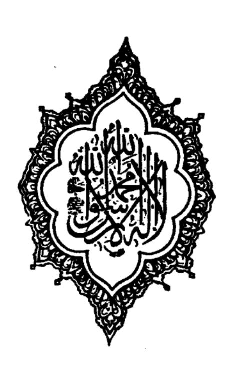
(١) سورة التكوير الآية (٢٩) .

وبهذا تتأكد الحقيقة العظمى وهي أن الرب غير العبد ، وأن العبد غير الرب سبحانه وتعالى ، ويتبع ذلك أن لا تكون للعبد مشيئة مستقلة عن مشيئة الرب ، وسابقة لها ، وأن لا يكون للعبد من حق أن يسأل الرب تبارك وتعالى : لم فعل كذا ؟ أو لِمَ لَمْ يفعل كذا ؟ قال تعالى :

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[1]

---

(١) سورة الأنبياء الآية (٢٣) .



الخاتمة

وأخيراً إن الإيمان بجميع أركانه وإن كان مطلوباً لذاته كما هو ظاهر نصوص الكتاب والسنة المطالبة بذلك كقوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[1]

وكقول الرسول صلى الله عليه وسلم في جواب من سأله عن الإيمان : « الإيمانُ أنْ تُؤمِنَ باللهِ ، ومَلائكتِهِ ، وكُتبِهِ ، ورُسلِهِ ، واليومِ الآخرِ ، والقدرُ خيرهُ وشرهُ »[2].

فإنه بالنظر إلى ما يترتب عليه من حب الله تعالى ، وتعظيمه ، وخشيته ، والإنابة إليه ، وطاعته بفعل محابه ، وترك مكارهه ، وحب رسوله ، وتعظيمه وطاعته والاتساء به ، ومتابعته ، هو وسيلة لا غاية ، ذلك أن الباعث النفسي على طاعة الله تعالى بالاستقامة على شريعته هو الإيمان بالله تعالى بصادق وعده ووعيده ، إذ لولا ذلك ما تمت الاستقامة لأحد على طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه

---

(١) سورة النساء الآية (١٣٦) .

(٢) رواه مسلم (١/ ٣١) .

وسلم . لهذا صح أن ينظر إلى الإيمان على أنه وسيلة لا بد من تحقيقها ، وذلك لتوقف الاستقامة عليه .

وهذا بيان ذلك : ـ

١ ـ الإيمان بالله تعالى وسيلة لطلب معرفته بأسمائه وصفاته ، ولحبه وتعظيمه ، وطاعته وخشيته ، والتقرب إليه بفعل محابه ، واجتناب محارمه ، يشهد لهذا ، ويدل عليه قوله تعالى :

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1]

إذ علق تعالى حصول ما طلبه منهم على إيمانهم .

٢ ـ الإيمان بالملائكة وسيلة إلى الاعتبار بطاعتهم لأنهم :

﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[2]

ووسيلة إلى الاستحياء منهم ، والاستئناس بهم لعلم المرء بأن الكرام الكاتبين عن يمينه وشماله لا يفارقونه ، كما أنه وسيلة إلى معرفة عظمة الله تعالى فيهم[3]، وقدرته عليهم إذ يقول تعالى :

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[4]

٣ ـ الإيمان بالكتب وسيلة إلى الإيمان بالله تعالى ، ومعرفة علمه ، وأسمائه ، ووعده ووعيده ، كما هو وسيلة إلى تصديق الرسل الذين أرسلوا بها ، وأنزلت عليهم ، ووسيلة أيضاً إلى معرفة شرائع الله

---

(١) سورة الأنفال الآية (١) .

(٢) سورة التحريم الآية (٦) .

(٣) جاء في الصحيحين : ان الرسول ﷺ رأى جبريل وله ستمائة جناح . اللؤلؤ والمرجان (١/ ٤١) ، والبخاري (٤/ ١٤٠) ومسلم (١/ ١٠٩) .

(٤) سورة النحل الآية (٥٠) .

تعالى ، وجميع ما يحبه الله ، ويرضاه ، أو يكرهه ويسخطه من المعتقدات ، والأقوال ، والأفعال ، وإلى معرفة الغيب وأحوال الدار الآخرة .

٤ ـ الإيمان بالرسل وسيلة إلى معرفة تطبيق شرائع الله تعالى ، وبيان كيفيات أداء عباداته ، ووسيلة إلى محبة الرسل الباعثة على طاعتهم ، واتباعهم والتزام شرائعهم .

٥ ـ الإيمان باليوم الآخر وسيلة إلى فعل الخيرات ، وترك المنكرات بما يوجد في النفس من الرغبة فيما عند الله من خيري الدنيا والآخرة، وبما يوجد لها من الخوف من عذاب الله ، والرهبة من عقابه .

٦ ـ الإيمان بالقدر وسيلة إلى ترك الحزن على ما فات من متاع الحياة ، وترك الفرح الحامل على البطر والأشر بما يُؤتي الإنسان من حطام الدنيا ، ومتاعها الزائل . كما هو وسيلة إلى الصبر والتجمل ، والطمأنينة والسكون[1] .

وبناء على كل الذي سبق فإنه يتبين بوضوح أن كل ركن من أركان الإيمان الستة المكونة لعقيدة المؤمن يثمر للمؤمن ثمرة خاصة ، فالإيمان بالله تعالى يثمر محبة الله ، وتعظيمه ، وطاعته ، وخشيته . والإيمان بالملائكة يثمر الاعتبار بطاعتهم ، والاستحياء منهم ، والاستئناس بهم ، والإيمان بالكتب والرسل يثمر قوة الإيمان بالله تعالى ، ويثمر معرفة ، شرائعه ، وكيفيات أدائها . والإيمان باليوم الآخر يثمر الرغبة في فعل الخيرات ، والنفرة من الشرور ، والمفاسد ،

---

(١) قال الله تعالى : ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلكَ على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ . سورة الحديد الآيتان (٢٢ ، ٢٣) .

والمنكرات . والإيمان بالقدر يثمر سكون النفس ، ورضاها ، وطمأنينة القلب ، وهدوءه ، وهدايته ، وذلك بتخليص النفس من الفرح بالحياة الدنيا ، والغم على ما فات منها ، ومن الهم على ما قد يفوت المرء منها .

وبالنظر في هذا والتأمل فيه نجد أن الإيمان وسيلة للحصول على تلك الثمرات التي يثمرها كل جزء من أجزائه ، كما نجد أن تلك الثمرات هي وسيلة إلى غاية من أشرف الغايات وهي كمال الانسان الذاتي والروحي ، وسعادته في الدنيا والآخرة ، إذ كل كمال للإنسان ، وسعادة له مردهما إلى طاعة الله ورسوله تلك الطاعة المزكية للنفس ، والمؤهلة للانسان لدخول دار السلام .

قال الله تعالى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّنهَا ﴾[1]

وقال تعالى :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾[2]

تم تحرير هذا الكتاب في الفاتح من رمضان سنة ١٣٩٦ هـ
والحمد لله أولاً وآخراً ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان
على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

---

(١) سورة الشمس الآيتان (٩ ، ١٠) .
(٢) سورة النساء الآيتان (٦٩ ، ٧٠) .

المراجع

١ - في التفسير :

١ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - محمد الأمين الشنقيطي المتوفى ١٣٩٣هـ الطبعة الأولى بمطبعة المدني .

٢ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم - لأبي السعود - طبعة دار العصور للطباعة والنشر .

٣ - التسهيل لعلوم التنزيل - لابن جزي المتوفى (٧٤١هـ) - الطبعة الثانية (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م) الناشر دار الكتاب العربي - بيروت .

٤ - تفسير القرآن العظيم - لابن كثير المتوفى (٧٧٤هـ) مطبعة عيسى البابي وشركاه .

٥ - جامع البيان في تفسير القرآن - لابن جرير الطبري المتوفى (٣٠١هـ) الطبعة الثانية (١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢م) دار المعرفة للطباعة والنشر .

٦ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي المتوفى (٦٧١هـ) الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب المصرية .

٧ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - للألوسي المتوفى (١٢٧٠) الطبعة الثانية المطبعة المنيرية .

٨ ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين النيسابوري المعروف بالقمي مطبوع مع تفسير ابن جرير .

٩ ـ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني المتوفى (١٢٨١ هـ) مطبعة الحلبي وأولاده .

١٠ ـ الفتوحات الإلهية على الجلالين لسليمان الجمل المتوفى (١٢٠٤هـ) مطبعة الحلبي وشركاه .

١١ ـ في ظلال القرآن لسيد قطب ـ الطبعة الثانية ـ بمطبعة الحلبي وشركاه .

١٢ ـ المنار للامامين محمد عبده ورشيد رضا المتوفى (١٣٥٤هـ) ـ الطبعة الرابعة أصدرتها دار المنار بمصر ١٣٧٣ هـ ، ١٩٥٤م .

ب ـ كتب الحديث :

١ ـ تحفة الأحوذي على جامع الترمذي ـ للمباركفوري المتوفى (١٣٧٣هـ ، ١٩٥٤م) مطبعة الحلبي .

٢ ـ الترغيب والترهيب للمنذري المتوفى (٦٥٦هـ) الطبعة الثانية (١٣٧٣هـ ، ١٩٥٤م) مطبعة الحلبي .

٣ ـ تنوير الحوالك شرح موطأ مالك للسيوطي المتوفى (٩١١هـ) مطبعة الحلبي .

٤ ـ جامع الأصول لابن الأثير الجزري المتوفى (٦٠٦هـ) تحقيق عبد القادر الأرناؤوط الطبعة الأولى (١٣٨٩هـ ، ١٩٦٩م) مطبعة الملاح .

٥ ـ جمع الوسائل في شرح الشمائل ـ لعلي القاري المتوفى (١٠١٤هـ) ـ الطبعة الثانية بمطبعة دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت .

٦ ـ سبل السلام على بلوغ المرام للصنعاني المتوفى (١١٨٢هـ) الطبعة الرابعة (١٣٧٩هـ، ١٩٦٠م) مطبعة الحلبي .

٧ ـ السندي على سنن ابن ماجة القزويني ـ السندي المتوفى (١١٣٨هـ) للطبعة الأولى بالمطبعة التازية بمصر .

٨ ـ سنن أبي داود ـ الطبعة الأولى (١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢م) مطبعة الحلبي .

٩ ـ سنن الترمذي ـ للترمذي المتوفي (٢٧٩هـ) المطبعة الوطنية بحمص ـ (١٣٨٥هـ، ١٩٦٥م).

١٠ ـ سنن الدارمي ـ لعبد الله الدارمي المتوفى (٢٥٥هـ) بتحقيق عبد الله هاشم يماني ـ شركة الطباعة الفنية المتحدة .

١١ ـ السيوطي على النسائي ومعه حاشية السندي (١١٦٣)ـ المطبعة المصرية بالأزهر .

١٢ ـ شرح الموطأ للزرقاني ـ مطبعة مصطفى محمد (١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦م) .

١٣ ـ شرح النووي على صحيح مسلم ـ للنووي المتوفى (٦٧٦هـ) المطبعة المصرية ومكتبتها .

١٤ ـ صحيح البخاري ـ للبخاري ـ مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ـ تسعة أجزاء ، صحيح مسلم ـ لمسلم المتوفى (٢٦١هـ) منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بيروت .

١٥ ـ عمدة القاري شرح صحيح البخاري ـ للبدر العيني المتوفى (٨٥٥هـ) المطبعة المنيرية .

١٦ ـ عون المعبود شرح سنن أبي داود . الطبعة الثانية (١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨م) .

١٧ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري ـ لابن حجر العسقلاني المتوفى (٨٥٢هـ) طبعة الحلبي (١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٩م) .

١٨ ـ الفتح الرباني لترتيب مسند الامام أحمد الشيباني ـ للساعاتي ـ الطبعة الأولى ـ مطبعة الفتح الرباني .

١٩ ـ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ لمحمد فؤاد عبد الباقي ـ الطبعة الأولى ـ مطبعة الحلبي .

٢٠ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ـ لنور الدين الهيتمي المتوفى (٨٠٧ هـ) الطبعة الثانية (١٩٦٧م) .

٢١ ـ مستدرك الحاكم على الصحيحين ـ للحاكم المتوفى (٤٠٥هـ) ـ نشر مكتبة مطابع النصر الحديثة بالرياض .

٢٢ ـ مسند الامام أحمد ـ لأحمد بن حنبل المتوفى (٢٤١هـ) الطبعة الأولى (١٣٨٩هـ ، ١٩٦٩م) المكتب الإسلامي دار صادر .

جـ ـ كتب العقيدة :

١ ـ آكام اللؤلؤ والمرجان في أخبار الجان للشبلي الحنفي المتوفى (٧٦٩هـ) طبعة محمد علي صبيح (١٣٧٦هـ) .

٢ ـ الإسلام في عصر العلم للغمراوي ـ الطبعة الأولى (١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣م) مطبعة السعادة .

٣ ـ الإسلام يتحدى ـ لوحيد الدين خان ـ الطبعة الأولى (١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م) .

٤ ـ إلى التي سألت : أين الله ؟ للاستاذ أحمد بهجت .

٥ ـ الإيمان ـ لابن تيمية المتوفى (٧٢٨هـ) المكتب الإسلامي بدمشق (١٣٨١هـ ، ١٩٦١م) .

٦ ـ التوسل ، أنواعه ، وأحكامه ـ للألباني ـ الطبعة الأولى .

٧ ـ تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب المتوفى (١٢٣٣هـ) الطبعة الثانية (١٣٩٠هـ) طبعة المكتب الإسلامي .

٨ ـ شرح الطحاوية بتحقيق الألباني ـ الطبعة الرابعة (١٣٩١هـ) المكتب الإسلامي ببيروت .

٩ ـ الشرك ومظاهره ـ للميلي الجزائري ـ الطبعة الثانية (١٩٦٦م) .

١٠ ـ العقيدة الإسلامية وأسسها ـ عبد الرحمن حسن حبنكة .

١١ ـ قصة الايمان ـ للجسر ـ الطبعة الثالثة (١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م) المكتب الإسلامي .

١٢ ـ الكواشف الجلية عن معاني الواسطية ـ لعبد العزيز السلمان ـ الطبعة الرابعة بمؤسسة مكة للطباعة والنشر دار الاعلام .

١٣ ـ لوامح الأنوار البهية ـ للسفاريني ـ المتوفى (١١٨٨) الطبعة الأولى .

د ـ كتب السيرة :

١ ـ البداية والنهاية ـ لابن كثير المتوفى (٧٧٤هـ) الطبعة الأولى (١٩٦٦م) دار النصر للطباعة .

٣ ـ سيرة ابن هشام ـ لابن هشام المتوفى (٢١٨هـ) بتعليق الهراس ، نشر مكتبة الجمهورية لصاحبها عبد الفتاح مراد .

٤ ـ محمد المثل الكامل ـ لمحمد أحمد جاد المولى ـ الطبعة الرابعة (١٣٧١هـ ، ١٩٥١م) مطبعة الاستقامة .

٥ ـ مختصر سيرة الرسول . لعبد الله بن محمد بن عبد الوهاب المتوفى (١٢٤٤هـ) مطابع الحكومة بمكة .

هـ ـ كتب اللغة :

١ ـ دائرة معارف القرن العشرين ـ لفريد وجدي المتوفى (١٣٧٣هـ) ـ الطبعة الثالثة (١٩٧١م) دار المعرفة للطباعة والنشر .

٢ ـ القاموس المحيط ـ للفيروزابادي المتوفى (٨١٧هـ) المطبعة الحسينية المصرية .

٣ ـ لسان العرب لابن منظور ـ دار بيروت للطباعة والنشر .

٤ ـ مختار الصحاح ـ للرازي المتوفى (٦٦٦هـ) الطبعة الأولى (١٩٧٦م) .

٥ ـ منجد الطلاب ـ لمعلوف ـ الطبعة السابعة عشرة .

الفهرست

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
بعض معلومات هامة عن الجن والشياطين ، وذلك كتوالدهم وتغذيتهم ومادة خلقهم وما إليه من معلومات تتعلق بعلمهم	٢١٨
فائدة عظيمة النفع في دفع الشيطان	٢٣١
الركن الثالث من أركان عقيدة المؤمن : الإيمان بالكتب ـ تعريف الكتب ـ حقيقة الايمان بالكتب	٢٣٤
ما عرف من الكتب الإلهية ، وما لم يعرف	٢٣٥
على أي دليل آمن المؤمن بالكتب	٢٤٠
أدلة وجوب الايمان بالكتب وكونه ركن الايمان	٢٤٥
منزلة القرآن الكريم بين كتب الله تعالى	٢٤٨
لوحة مشرقة ببيان ما في القرآن من الهدى والخير	٢٥٢
شروط الانتفاع التام بما في القرآن من الخير والهدى	٢٥٦
تقرير أخير لعقيدة المؤمن في الكتب الأربعة : القرآن ، والتوراة والإنجيل والزبور	٢٥٨
الركن الرابع من أركان عقيدة المؤمن : الإيمان بالرسل عليهم السلام إمكان الوحي ـ تعريف الوحي	٢٦١
الوحي الإلهي وطرقه ـ تعريفه	٢٦٣
ضرورة الوحي وحاجة الناس إليه	٢٦٧
النبوءة ـ تعريفها	٢٦٨
النبي تعريفه ـ مؤهلات النبوءة	٢٦٩
المثالية ـ شرف النسب ـ عامل الزمن	٢٧٠
صفات الأنبياء ـ الصدق ـ الأمانة ـ التبليغ ـ الفطانة	٢٧٢
الرسل عليهم السلام ـ الرسل في التاريخ	٢٧٤
عدد الرسل	٢٧٥
زمن وجود كل منهم	٢٧٦

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة


Bibliotheca Alexandrina
0587760